القسم الأول

الصفويون حتى بداية عصر عباس الكبير

بداية الصفويين .

اسماعيل الأول	٩٠٦هـ/١٥٠٠م
طهماسب الأول	٩٣٠هـ/١٥٢٤م
اسماعيل الثانى	٩٨٤هـ/١٥٦٨م
محمد خدا بنده	٩٨٥هـ/١٥٧٨م

الدكتور أحمد الخولى

الفصل الأول

إيران قبل الصفويين

تطورت الأحداث فى إيران بعد موت تيمور[١] ، فوقعت الحروب الداخلية وانتشرت الفوضى والفتن فى البلاد ، وتنازعت إيران الأوضاع التالية :

١ ـ التجزؤ السريع لإمبراطورية التيموريين .

٢ ـ الصراع المتصاعد بين أسرتى التركمان آق قويونلو وقراقويونلو .

٣ ـ التوسع المتزايد لنفوذ الأوزبك فى منطقة ما وراء النهر .

— ١ —

التجزؤ السريع لإمبراطورية التيموريين :

بعد موت تيمور فى ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤ م[٢] ، تجزأت إمبراطوريته على يد أبنائه الأربعة وأولادهم[٣] بعد صراعات متصلة وحروب دامية فيما بينهم .

---

(١) هو تيمور بن الأمير طراغاى بن الأمير بركل بن ايلنكيز بهادر بن ايجل نويان بن قراجار نويان بن غوججى بن نوغان جيجن بن الأمير قاجوئى نويان ابن تومناى خان الذى يعتبر الجد الرابع لجنكيزخان والجد التاسع لتيمور . (يحى بن عبد اللطيف الحسينى : لب التواريخ ، ص ١٨٤ ورضا پازوكى : تاريخ إيران از مغول تا افشارية ، ص ١٨٣) .

(٢) لب التواريخ ، ص ١٨٩ وتاريخ إيران از مغول تا أفشاريه ، ص ٢١٩ .

(٣) أولاد وأحفاد تيمور ست وثلاثون ، مات أغلبهم فى حياته ، وأولاده أربعة؛ هم :

غياث الدين جهانگير، وقد توفى فى العشرين من عمره فى سمرقند عام ٧٧٧ هـ ـــ

وطبقا لوصية تيمور، كان من المفروض أن يخلفه فى الحكم پير محمد بن

= فى أول حكم أبيه، وأقام له أبوه ضريحا كبيراً فى مدينة (كشى) وبقى عنه ولدان أولهما سلطان محمد الذى اختاره تيمور وليا لعهده، وقد مات بعد فتح بلاد الروم فى شعبان عام ٨٠٥ هـ. فاختار تيمور أخاه الثانى پير محمد — الذى كان قد ولد بعد وفاة أبيه بأربعين يوما — وأوصى الأمراء بطاعته. وقد قتل پير محمد فى عام ٨٠٩ هـ. بيد واحد من الأمراء.

معز الدين عمر شيخ، وقد نصبه تيمور بعد فتح فارس أميراً عليها، ولكنه قتل لدى عبوره كردستان أثناء وجود أبيه فى عراق العرب. وقد بقى عنه عند وفاته تسعة من الأولاد والأحفاد هم: پير محمد ٢٦ سنة، بابك ٧ سنوات، رستم ٢٤ سنة (وولداه هما عثمان ست سنوات وسلطان على سنة واحدة) اسكندر ٢١ سنة، أحمد ١٨ سنة، سيدى أحمد ١٥ سنة وبايقرا ١٢ سنة.

جلال الدين ميرانشاه، وكان يحكم فى الانحاء الغربية حتى بلاد الشام، وقتل فى آذربيجان، وكان له عندئذ تسعة أولاد هم أبو بكر ٢٣ سنة (وولداه هما ايلنكيز ٩ سنوات وعثمان چلبى أربع سنوات) عمر ٢٢ سنة، خليل سلطان ٢١ سنة، ايجل ١٠ سنوات وسيورغتمش ٦ سنوات.

ميرزا شاهرخ، وكان يحكم فى خراسان وهراة قاضيا أكثر أوقاته فى خدمة أبيه، وبقى عنه عند وفاته سبعة من الاولاد هم ميرزا الغ بيك الذى كان يحكم فى زمان أبيه فى بلاد التركستان وما وراء النهر، ميرزا أبو الفتح ابراهيم سلطان الذى حكم فى بلخ من عام ٨١٢ إلى ٨١٧ هـ. ولرستان فى عام ٨٢٧ هـ. ثم نصب حاكما على فارس بعد قتل ميرزا اسكندر لمدة عشرين عاما حتى توفى فى عام ٨٣٨ هـ. ميرزا بايسنقر الذى كانت له الوزارة فى زمان أبيه ومات فى عام ٨٣٧ هـ. وكان له من الاولاد ثلاثة (ميرزا علاء الدولة ركن الدين، ميرزا =

غياث الدين جهانگير[1] ، ولكنه اختلف مع عمه ميرزا شاهرخ بن تيمور الذى انتصر عليه ، وجلس على العرش فى عام ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤ م واتخذ من هراة عاصمة له[2] .

وقد اصطدم ميرزا شاهرخ فى أوائل حكمه بمعارضة عدد من أصحاب النفوذ واختيارهم ميرزا خليل سلطان بن ميرانشاه[3] حاكما على إقليم ماوراء

= سلطان محمد حاكم فارس ومازندران الذى مات فى عام ٨٥٥هـ . ميرزا أبو القاسم بابر الذى حكم فى خراسان عام ٨٥٤ هـ . وصارت فارس من نصيبه فى عام ٨٥٥هـ بعد موت سلطان محمد وتوفى فى عام ٨٦١ هـ .) ميرزا سيورغتمش الذى مات فى عام ٨٣٠ هـ . ميرزا محمد جوجى اوجكسى ومات فى زمان أبيه عام ٨٤٨ هـ، جان أوغلان وباردى . (لب التواريخ ، ص ١٨٤ وما بعدها وتاريخ ايران از مغول تا أفشارية ، ص ٢٢٤ و ٢٢٥) .

(١) بجير الدين شيبانى : شاهنشاهى صفويه ، ص ٩ .

(٢) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٠

(٣) تنبغى الإشارة هنا إلى أن ميرانشاه الابن الثالث لتيمور كان يحكم عند وفاة أبيه وفى السنوات الأولى من حكم شاهرخ فى الأنحاء الغربية من إيران حيث العراق العربى وآذربيجان والعراق العجمى والجزيره حتى بلاد الشام . ثم أصيب فى أخريات حياته باختلال فى قواه العقلية ، فضعفت قدرته على إدارة الأمور . وقتل فى الحرب التى وقعت فى آذربيجان مع قرا يوسف زعيم أسرة قرا قويونلو عام ٨١٠ هـ . وصرف ولداه أبو بكر وعمر وقتهما فى التنازع . الأمر الذى ساعد التركمان — وكانوا قد طردوا من إيران فى عهد تيمور — على استعادة قدرتهم من جديد . (تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٩)

النهر وتركستان[١] . فشرع شاهرخ فى تأديب المدعى الجديد للسلطنة . ولكنهما تصالحا ، وعهد شاهرخ إلى خليل سلطان بحكومة ما وراء النهر وسمرقند ، وأمره بفتح العراق العجمى ، غير أن خليلا قتل فى مدينة الرى عام ٨١٤ هـ / ١٤١١ م . وساعدت الظروف شاهرخ الذى وسع ممتلكاته بفتح مازندران وما وراء النهر وفارس وكرمان وآذربيجان مؤكداً بذلك سيطرته على أغلب أنحاء إيران[٢] .

وقد ظل شاهرخ يعانى من تمرد وانقسام أولاد أخوته عليه ، بالإضافة إلى قرا يوسف وأولاده الذين لم يلقوا السلاح حتى مقتل أبيهم ودخول ابنه جهانشاه فى طاعة شاهرخ . كما واجه شاهرخ فى أخريات حياته تمرداً آخر من جانب سلطان محمد بن بايسنقر حاكم العراق وإستيلاء الأمير فيروز حاكم بلخ على بيت المال وتطاوله على عدد آخر من الحكام . ولكن شاهرخ تمكن من القضاء على حركتهم الإنفصالية وإعادة الأمور إلى نصابها فى مملكته[٣] .

وقد مات شاهرخ فى الخامس والعشرين من شهر ذى الحجة عام ٨٥٠ هـ / ١٤٦٦ م[٤] بعد حياة حافلة بالنضال من أجل استقرار الأوضاع فى مملكته وإنقاذها من التردى السياسى والاجتماعى الذى كان قد حل بها بعد

---

(١) تشكيل شاهنشهى صفويه ، ص ١٠

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص ٢٢٧ وما بعدها .

(٣) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٠

(٤) لب التواريخ ، ص ١٩٠

وفاة تيمور[1] .

وبعد موت شاهرخ ادعى السلطنة ثلاثة هم : أبو سعيد ، بابر[2] ، سلطان حسين الغ بيگ[3] الأبن الأكبر لشاهرخ الذى توجه بعد موت أبيه من منطقة ما وراء النهر إلى خراسان ، ودخل فى حرب مع ميرزا علاء الدولة بن بايسنقر . ولكنه اضطر إلى أن ينهى الحرب رغم انتصاره فيها بسبب تمرد ابنه عبد اللطيف[4] عليه وتسخيره سمرقند وجلوسه على العرش . وقد فكر ميرزا سلطان حسين فى الذهاب إلى سمرقند غير أنه قتل بأمر من ابنه الذى قتل هو الآخر بتدبير من أعوانه[5] .

---

(١) كان لميرزا شاهرخ ميل إلى التعمير ، فاجتهد فى إصلاح ما تهدم على أيام أبيه ، وقد أقدم على تعمير قلعة هندوان . وأوصى ولاته بأن يهتموا بإقامة الأبنية فى أقاليمهم ، كما اهتم بنشر العدل بين الناس ورعاية أمورهم . وعلى هذا الحال كانت زوجته گوهر شاد آغا التى مازالت آثارها ماثلة فى هراة وخراسان . من ضمنها مدرسة فى هراة وأخرى في مشهد باسم گوهر شاد آغا (تاريخ إيران از مغول تا أفشاريه ، ص ٢٤٠) .

(٢) هو مؤسس الأسرة التى حكمت فى الهند بعد ذلك .

(٣) استمر حكمه من عام ٨٥٠ هـ . إلى ٨٥٣ هـ .

(٤) خواندمير : حبيب السير فى تاريخ أفراد البشر . ج ٤ ، ص ٣٢ وما بعدها .

(٥) يقول خواندامير إن المنجمين قد تنبأوا بمقتل ميرزا حسين الغ بيگه على يد ابنه عبد اللطيف (حبيب السير ص ٣٢) ومع أن يحيى بن عبد اللطيف =

وبقتل ميرزا عبد اللطيف ، قضى على حكم التيموريين في منطقة ماوراء النهر من ناحية ، وقوى ساعد التركان من ناحية أخرى ، إذ استطاع رئيسهم جهانشاه قراقويونلو أن يدعم نفوذه فى مملكة التيموريين ، ويقوض سلطانهم وينشىء كيانا جديداً .

وكان أبو سعيد[1] (٨٥٥ — ٨٧٢ هـ / ١٤٥١ — ١٤٦٧ م) فى هذه الأثناء قد اغتنم فرصة مقتل ميرزا الغ بيگ واستطاع أن يستولى بمساعدة قبائل الأوزبك على توران وتركستان ثم ضم إليها هـــراة فى عام ٨٦١هـ/ ١٤٥٧ م . واتجه إلى خراسان بعد موت حاكمها أبى القاسم بابر وغادرها إلى ما وراء النهر ، ونجح فى السيطرة عليها بعد قتل أميرها ميرزا أحمدعبداللطيف ثم سخر بلخ[2] .

= الحسينى يعترف بواقعة قتل عبد اللطيف لأبيه ميرزا حسين الغ بيگ إلا أنه يصفه برقة الطبع وحدة الذهن واحترام رجال الدين الذين كان يجالسهم بأدب (لب التواريخ ، ص ١٩٧) وهذا ليس مقبولا فى نظرنا اذ أن من يقتل أباه لابد وأن يكون حاد الطبع قاسى القلب . وهذا هو نفس الوصف الذى نعت به المؤلف ميرزا عبد اللطيف متداركا خطأه (لب التواريخ ، ١٩٨) .

(١) هو حفيد ميرانشاه بن الأمير تيمور گورگان ، كان له فى أول الأمر حكومة سمرقند ، ولكنه كان دائم التفكير فى السيطرة على إقليم خراسان وسائر انحاء إيران . ومن أجل ذلك قتل گوهر شاد آغا زوجة ميرزا شاهرخ فى التاسع من رمضان عام ٨٦١ هـ . وسحق كل من وقف فى طريقه (لب التواريخ ، ص ٢٠٠ وتاريخ إيران از مغول تا افشاريه ص ٢٤٤) .

(٢) لب التاريخ ، ص ٢٠٠ وتاريخ إيران از مغول تا افشارية ، ص ٢٤٤

كان مظفر الدين جهانشاه قد أحيط علما بتقدم أبى سعيد ، فاحتل هراة ، غير أن أبا سعيد عاد من بلخ لطرده منها ، ثم اتفقا على الصلح ، فاحتفظ جهانشاه بحكومة آذربيجان وتنازل عن خراسان والعراق وغض الطرف عن بقية أطاعه[١] .

وبعد هذا الاتفاق ، عرف أبو سعيد - وهو فى الطريق إلى هراة - بموت مظفر الدين جهانشاه ، ففكر فى التوجه صوب النواحى الغربية من المملكة للسيطرة عليها ، ولكنه اصطدم فى سبيل تنفيذ هذه المهمة بمعارضة أوزن حسن رئيس طائفة آق قويونلو ، وأسر فى الحرب التى وقعت بين الطرفين ثم قتل بواسطة يادگار محمد[٢] وبتدبير من أوزن حسن فى عام ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م .

وبعد موت أبى سعيد ، وصل السلطان حسين ميرزا بايقرا[٣] (٨٧٣ — ٩١١ هـ / ١٤٦٧ — ١٥٠٦ م) إلى الحكم وقد استطاع بمعاونة وزيره عليشير

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٢ .

(٢) لعل الذى دفع يادگاد محمد إلى تنفيذ هذا القتل هو الانتقام لقتل جدته گوهرشاد آغا (لب التواريخ ، ص ٢٠٢).

(٣) هو ابن السلطان غياث الدين منصور بن الأمير بايقرا بن عمر شيخ بن الأمير تيمور گورگان . ولد عام ٨٤٢ هـ . فى شمال شرقى هراة . وكان يحكم طبقا للشريعة الاسلامية (تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص ٢٤٨) .

نوائى [١] أن يسخر جميع أنحاء خراسان وسيستان وبلخ ، وأن يستعيد مدينة هراة بعد قتل يادگار محمد . وحدث أن تمرد بديع الزمان ميرزا على والده السلطان حسين ، وتدخل رجال الدين والدولة فى النزاع ، فتصالحا ، وعهد الآب بحكومة سيستان لابنه [٢]

وقد تولى بديع الزمان ميرزا وأخوه مظفر حسين ميرزا زمام الأمور بعد وفاة السلطان حسين فى عام ٩١١ هـ/١٥٠٦ م متضامنين . ولكنهما فقدا السلطنة بسبب اعتداء التركمان وكان الأمير محمد زمان هو آخر شخصية تيمورية ظلت تحكم حتى عام ٩٢٩ هـ. /١٥٢٤م فى بلخ ولم تطل مدة حكمه إذ قضى عليه الشاه إسماعيل الصفوى [٣] .

ومن خلال ما تقدم ، يمكننا أن نلاحظ أن دعاة السلطنه وطالبى الحكم من التيموريين الذين تولوا زمام الأمور بعد شاهرخ قد بذلوا جهوداً من أجل استعادة نفوذهم فى إيران . ولكنهم لم يصلوا إلى هدفهم الذى تلاشى بفعل حروبهم الدامية ضد بعضهم البعض . الأمر الذى أضعفهم ، وفتح الطريق أمام أسرتى التركمان قرا قويونلو وآق قويونلو لتولى الحكم فى غرب إيران فلم يتمكن السلطان أبو سعيد - آخر مدع قوى لتاج وعرش التيموريين -

---

(١) هو وزير وأديب ، كان يقضى بالعدل بين الناس ، ويهتم بأحوال الرعية ويرعى العلماء والفضلاء مات فى عام ٩٠٦ هـ . (محمد تقى بهار : سبك شناسى ، جزء ٣ ، ص ٢٠٧ حاشيه ١) .

(٢) تاريخ إيران از مغول تا أفشاريه ، ص ٢٥٢

(٣) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٢و١٣

من الوقوف فى وجه أوزن حسن . وتداعى حكم التيموريين فى الشرق من إيران ، ذلك أنه عندما وصل السلطان حسين إلى العرش ، اصطدم بقدرة الأوزبك المتصاعدة وتمرد ابنه بديع الزمان حاكم هراة ورغبته فى السيطرة على خراسان . وعند موت السلطان حسين كان الأوزبك قد استطاعوا بزعامة شيبك خان رئيسهم المقتدر تشكيل حكومة فيما وراء النهر ، وأعلنت عناصر أخرى عن معارضتها للحكم التيمورى فى إيران ، وشرعت فى تكوين حكومات مستقلة(١) . وبذلك انتهى حكم أخلاف تيمور(٢) .

---

(١) من أمثلة هذه الحكومات ، حكومة شروانشاه فى شروان والرئيس محمد كره فى أبرقو وحسين كيماى چلاوى فى سمنان وخوار وفيروز كوه الخ

(٢) أسماء السلاطين التيموريين وسنوات حكمهم :

الأمير تيمور بن الأمير ترغاى نويان	من ٧٧١ إلى ٨٠٧ هـ
ميرزا شاهرخ بن الأمير تيمور گورگان	من ٨٠٧ إلى ٨٥٠ هـ
ميرزا الغ بيگ بن ميرزا شاهرخ	من ٨٥٠ إلى ٨٥٣ هـ
ميرزا عبد اللطيف بن ميرزا الغ بيگ	من ٨٥٣ إلى ٨٥٤ هـ
أبو سعيد گورگان بن سلطان محمد بن ميرانشاه ابن تيمور	من ٧٦٣ إلى ٨٧٣ هـ
السلطان حسين بايقرا	من ٨٧٣ إلى ٩١١ هـ
مظفر حسين ميرزا	من ٩١١ إلى ٩١٣ هـ
بديع الزمان ميرزا	من ٩١١ إلى ٩٢٠ هـ

— ٢ —

الصراع المتصاعد بين أسرتي التركمان[١] قرا قويونلو وآق قويونلو[٢] :

كما سبق أن ذكرنا ، لم تدم سيطرة الحكم التيمـوري في غرب إيران طويلا . وقد استفاد التركمان – وهم الذين كانوا يعارضون بسط نفـوذ التيموريين – من هذا الأمر كثيراً .

وكان هؤلاء القوم قد طردوا من إيران إلى الشرق الأوسـط في أيام المغول ، غير أنهم استطـاعوا أن يغيروا من وضعهم السياسي والاجتماعي – وبخاصة في أرمنستان – في فترة ما بعد وفاة أبي سعيد آخر ملوك الإيلخانيين في عام ٨٣٦ هـ / ١٣٣٧ م[٣] .

---

(١) يقولون للاتراك غير العثمانيين (تركمن أو تركمان) وكلمة (من أومان) لها في اللغة التركية معاني كثيرة مينورسكي : بيست مقاله ص ٣١٨ : ١٩٣٣ چاپ دانشگاه .

ونحن نجد أن كلمة « مان » لها أيضاً في اللغة الفارسية أكثر من معنى . بينما يرى دهخدا أن التركمان بمعنى الترك . لغت نامه شماره ١٠٢

(٢) تنسب (آق قويونلو) إلى الخروف الأبيض ، بينما تنسب (قرا قويونلو) إلى الخروف الأسود . ويرى البعض أن الأصل في نسبة هاتين القبيلتين ترجـع إلى أن الخروف الأبيض والخروف الأسود كانا رمزا عليهما (تاريخ إيران از مغول تا أفشاريه ، ص ٢٠٦) ،

(٣) ظهرت بوادر الفوضى في زمان سلطنة أبي سعيد في إيران . ولـكن ينبغي الأخذ في الاعتبار أن علتها الاساسية كانت تعود إلى رغبة الإيرانيين في ابراز حقدهم تجاه بقايا المغول . والدليل على ذلك أن إيران قد إبتليت بالفوضى بعد الملك الإيلخاني . وظهرت حكومات محلية كثيرة مثل آل جلاير ، آل مظفر آل كرت والسر بداريين . ومع أنه لم يكن لأي منها أهمية سياسية كبيرة ، إلا أن هذا الوضع قد استمر حتى تيمور .

وهنا تجدر الاشارة إلى أسرتين تركمانيتين ، عرفت إحـــداهما باسم (قراقويونلو) بزعامة قرا يوسف[١] والثانية باسم (آق قويونلو) بزعامة أوزن حسن[٢] . وقد وقع الصراع بين الأسرتين مما ترتب عليـــه تقلص نفوذهما .

(ا) أسرة قراقويونلو :

كان السلطان أحمد جلاير سلطان الجلايريين يحكم فى بغداد والعراق العربى

---

(١) هو قرا يوسف بن قرا محمد بن يور منش بن بيرام خواجه التركمانى . كان أبوه قرا محمد من رجال السلطان أحمد الإيلكانى . وتزوجت أخته من هذا السلطان . وكان يترأس هذه القبيلة . (لب التواريخ ، ص ٢١١) .

(٢) هو أبو النصر حسن بيگ بن على بيگ بن عثمان بيگ بن قتلغ بيگ بن حاجى بيگ . وقد اشتهر بـ (أوزن حسن) لطول قامته . ذلك أن (أوزن) فى اللغة التركية بمعنى الطويل القامة ، وهو يدعى فى العربية بـ (حسن الطويل)

(١) هو واحد من حكام آل جلاير أو الامراء الايلكانيين الذين حكموا من ٧٤٠ — ٨٣٦ هـ / ١٤٢٧ — ١٤٥٣ م . وتعتبر هذه الاسرة من أشهر الأسر التى حكمت فى الفترة ما بين انقراض حكم الإيلخانيين فى إيران وظهور تيمور . ويرجع نسبهم إلى ايلكان نويان جلاير الذى كان من أعوان هولاكو . ومن ثم فقد عرفوا بالايلكانيين أو آل جلاير . ويعتبر السلطان أحمد جلاير (٧٧٤ — ٨١٣ هـ) الحاكم الرابع ضمن حكام هذه الاسرة . وقد انتهى أمره على يد زميله فى الاسر قرا يوسف . وبموته انقرضت هذه الاسرة اذ لم يصبح لاخلافه أهمية تذكر . (عباس اقبال ازحمله چنگيز تا تشكيل دولت تيمورى ، ص ٤٥٥ وما بعدها)

وقد استطاع بمساعدة قرا يوسف أن يتدخل فى شئون تيمور ، وشرع فى إيذاء أعوانه ، واجتهد فى توطيد عرى الصداقة مع السلطان العثمانى ايلدرم بايزيد والملك الناصر ملك مصر ، ويثيرهما ضد تيمور .

وفكر تيمور فى القضاء على نفوذ الحكام المحليين ومنهم السلطان الجلايرى وقرا يوسف . فتوجه إلى العراق العربى فى عام ٨٠١ هـ / ١٣٩٨م عن طريق خراسان ومازندران وكردستان . وبمجرد أن سمع سلطان الجلايريين باقتراب تيمور من العراق العربى غادر بغـــداد والتجأ إلى بلاط السلطان ايلدرم[١] بالاتفاق مع قرا يوسف . ونجح تيمور فى السيطرة على بغداد والعراق العربى ودعا الملك الناصر إلى الدخول فى طاعته . ولما رفض هاجم تيمور ممتلكاته فى الشام عام ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠م واستولى على مدينتى دمشق وحلب ، وأجبره على الدخول فى طاعته . وفى هذه الأثناء كان قرا يوسف وسلطان الجلايريين قد ذهبا إلى مصر طلبا المساعدة من سلطانها . ولكنه حبسهما حرصا على الصداقة مع تيمور[٢] .

وبعد موت تيمور ، أطلق سلطان مصر سراحهما ، فخرج قرا يوسف على رأس ألف من أتباعه متجها إلى آذربيجان ، واستولى وهو فى الطريق على عدة قلاع واستحكامات كانت فى أيدى القادة التيموريين ، وأخذ ديار بكر أيضا ، ثم ذهب لملاقاة سعيد ملك شمس الدين حاكم أخلاط الواقعة على بحيرة وان ، وعقد معه معاهدة صداقة وتزوج ابنته .

---

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص ١٤١ ، ١٤٢ وتشكيل شاهنشاهى صفوية ، ص ١٦

(٢) لب التواريخ ، ص ٢١٢

(٣) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٨

وفى هذه الأثناء سمع ميرزا أبو بكر بن ميرانشاه حفيد تيمور الذى كان يحكم فى تبريز بوصول قرايوسف إلى مقربة من المدينة فتركها . ودخل قرايوسف تبريز دون مقاومة ، وأخذ فى مطاردة ميرانشاه الذى كان قد هرب وبملاحقته حدثت موقعة ضارية بين ميرانشاه وابنه أبى بكر وبين قرا يوسف قتل فيها ميرانشاه وهزم ابنه فى ناحية جرجان . وبذلك صارت كل أنحاء آذربيجان تحت إمرة رئيس القراقويونلو(١) .

وكان السلطان أحمد جلاير قد سخر بغداد فى عام ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م ، وسمع أن ابنة علاء الدولة قد وقع أسيراً فى يد قرا يوسف ، فسير جيشاً إلى همدان وتبريز من أجل انقاذه ، غير أن قرا يوسف هزمه وقتله ، ثم عين أبنه محمد شاه مكانه .

وبزوال سلطنة أحمد جلاير ، سيطر قرا يوسف على العراق العربى بالإضافة إلى آذربيجان . وفى عام ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م ضم قزوين وساوه إلى ممتلكاته . ولكن هذه الرغبة فى التوسع وضعته أمام ميرزا شاهرخ الحاكم التيمورى الذى توجه إلى آذربيجان بهدف القضاء عليه ، غير أن قرا يوسف كان قد مرض ومات فى منطقة (چمن اوجان) فى شهر ذى الحجة عام ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠ م . وخلفه فى الحكم ابنه اسكندر الذى اشتبك هو وأخوه جهانشاه مع شاهرخ ، وكان نصيبهما الهزيمة والهرب(٢) .

وبعد عودة شاهرخ من آذربيجان ، جمع اسكندر اتباعه مرة أخرى ، وهاجم آذربيجان وأستولى عليها ثم هاجم شيروان . فعاد شاهرخ ثانية إلى آذربيجان ، وهزم اسكندر وطارده إلى ناحية قرابا .

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صعوايه ، ص ١٨

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩

أما أخوه جهانشاه ، فقد دخل فى طاعة شاهرخ الذى نصبه حاكما على آذربيجان . وحدث أن قتل اسكندر على يد ابنه قباد[١] ، فصار ميرزا جهانشاه بعد مقتل أخيه رئيسا لأسرة قراقويونلو ، واستحوذ على رضاء شاهرخ الذى أضاف إليه حكومة العراق وفارس وكرمان . وبعد موت شاهرخ ، رفع ميرزا جهانشاه أعلام الاستقلال ، وسيطر على أغلب أنحاء إيران إلى حد أنه زحف على خراسان فى عام ٨٦٠ هـ / ١٤٥٥ م ، وجلس مدة عام على عرش شاهرخ[٢] .

وبسماع ميرزا جهانشاه خبر تمرد ابنه حسنعلى ضده ، وتحرك أبى سعيد من منطقة ماوراء النهر إلى خراسان ، اضطر إلى ترك هراة . وفكر فى عام ٨٧١ هـ / ١٤٦٦ م فى محاربة منافسه اوزن حسن رئيس أسرة آق قوقونلو ، ولكن حلول الشتاء منع تقدمه وانتهى الأمر بقتله فى عام ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧ م . جزاء تجاسره على منافسه . وبموته فقدت أسرة اقر قويونلو أهميتها خاصة أن ابنه حسنعلى كان مختل العقل ، ولم يحسن إدارة الأمور ، وقتل بأيدى أتباعه فى عام ٨٧٣ هـ ١٤٦٨ م وبذلك انتهت فترة حكم هذه الأسرة[٥] .

---

(٣) لب التواريخ ، ص ٢١٦

(٤) تشكيل شاهنشاهى صفوية ، ص ١٩

(٥) أسماء أمراء أسرة قراقويونلو الذين وصلوا إلى الحكم وسنوات حكمهم

الأمير قرا يوسف بن قرا محمد بن پيرام	من ٨٠٩ إلى ٨٢٣ هـ .
الأمير اسكندر بن قرا يوسف	من ٨٢٣ إلى ٨٤٠ هـ .
ميرزا جهانشاه بن قرا يوسف	من ٨٤٠ إلى ٨٧٢ هـ .
الأمير حسنعلى شاه بن جها نشاه	من ٨٧٢ إلى ٨٧٣ هـ .

وكانت مناطق نفوذهم آذربيجان والعراق .

(ب) أسرة آق قويونلو[١] :

أفراد هذه الأسرة من أتباع قراعثمان الذى كان يرأس إمارة صغيرة فى ناحية ديار بكر . وقد وقع الصراع بين هذه الأسرة وأسرة قراقويونلو بعد سيطرة التيموريين على إيران وأجزاء من الشرق الأوسط . وقد أدى هذا الصراع إلى إضعاف شوكة القراقويونلو ، وهروب رئيسهم إلى مصر فى أول الأمر . واستفادت أسرة آق قويونلو من الفرصة . وتصالحت مع السلطان التيمورى ، وتمتعت بمساندته[٢] .

وبعد موت تيمور ، توجهت أسرة آق قويونلو إلى النواحى الوسطى والشرقية من إيران ، وعملوا على تخليص النواحى الغربية من قبضة التيموريين واكتسبوا قدرة فى هذه النواحى .

وقد استطاع حسن بيگ المعروف بحسن أوزن بعد موت قرا عثمان رئيس هذه الأسرة الشجاع أن يتجه إلى أرمنستان ، ويستولى على أرزنجان ،

---

(١) تعرف هذه الأسرة أيضاً باسم « بايندريه » . لب التواريخ ، ص٢١٩

(٢) ساعد على مساندة التيموريين لأسرة آق قويونلو فى أول الأمر أن مذهبها الدينى « المذهب السنى » كان أقرب إلى مذهب التيموريين من مذهب أسرة قرا قويونلو . ولذلك فقد اتحدت معهم عندما وقعت الحرب بين تيمور ومنافسيه من أسرة قراقويونلو . فأصبحت هذه الأسرة محل رعايته ، وعهد إليهم تيمور بحكومة ديار بكر ونواحيها « تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص٢١» ولا ترجع هذه الرعاية من جانب تيمور لأسرة آق تويونلو فى تقديرنا إلى التقارب الدينى بقدر ماتعود إلى بواعث التنافس بين أسرتى التركمان ومحاولة الاقتراب من تيمور بدليل أن اسرة آق قويونلو نفسها سعت بعد موت تيمور إلى تخليص النواحى الغربية من قبضة التيموريين . واكتسبت قدرة فى هذه النواحى .

وشرع عام ٨١٣ هـ/ ١٤١٠ م فى القضاء على الجيش الذى كان جهانشاه قد بعث به لمهاجمته، وتمكن من إخضاع كردستان والسيطرة على أرمنستان، بعد قتل جهانشاه بن قرايوسف[١].

ولكن قتل جهانشاه لم يحل مشاكل أوزن حسن نهائياً. ذلك أن أبا سعيد خليفة شاهرخ ذهب على رأس جيش إلى آذربيجان لاستعادة حقوقه المشروعة فى غرب إيران، ولكنه هزم على أيدى اوزن حسن الذى مكنه هذا الانتصار من السيطرة على جميع أنحاء إيران تقريبـــاً واتخاذ تبريز عاصمة له.

اختار أوزن حسن الأمير التيمورى يادگار محمد حاكما على خراسان، وبدأ فى مواجهة السلطان العثمانى محمد الفاتح، وانتصر عليه أول الأمر، ولكن حالت الخلافات الأسرية بينه وبين مواصلة الانتصار[٢].

ولم يمهل العمر حسن بيگ، فمات فى عام ٨٨٢ هـ/ ١٤٧٧ م[٣]، وبموته تداعت أركان حكومته بسبب الصراع الذى نشب بين أولاده لاغتصاب العرش والتاج[٤]. فقد جلس السلطان خليل — وكان يحكم فارس فى

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفويه، ص ٢١

(٢) من الثابت أن أوزن حسن قتل من جنود السلطان العثمانى اثنى عشر ألف جندى فى المعركة الأولى التى وقعت بينهما فى الجزء الأعلى من نهر الفرات وكان من الممكن أن ينتصر فى الحرب لو أنه واصلها، وكان هذا هو رأى ابنه أوغورلو محمد. «لب التواريخ، ص ٢٢١ وما بعدها وتشكيل شاهنشاهى صفويه، ص ٢١».

(٣) حبيب السير: جزء ٤، ص ٤٣٠

(٤) كان لحسن بيگ من الاولاد ستة هم: أغورلو محمد وقد مات فى أوائل =

أيام أبيه — على العرش ، وعهد إلى أخيه السلطان يعقوب بحكم ديار بكر . ولكن الناس تمردوا عليه لسوء معاملته لهم ، والتفوا حول أخيه يعقوب الذى توجه إلى آذربيجان ، واشتبك مع أخيه السلطان خليل فى معركة دامية وقعت حول (مرند وخوى) وتمكن من قتله ثم جلس على العرش. ولكنه لم يهنأ بانتصاره إذ سرعان مادهمه المرض ، ومات فى الحادى عشر من صفر عام ٨٩٦ هـ/ ١٤٩٠ م [١] .

وقد انتهى الصراع بين أولاد يعقوب الثلاثة بايسنقر،مراد وحسن إلى تقسيم مملكة آق قويونلو إلى ثلاثة أقسام ، ولكن بايسنقر تغلب فى النهاية وجلس على العرش فى تبريز . ولما كانت الدراية بأمور الحكم تنقصه هو وأعوانه ، فقد خلص الناس رستم ميرزا بن منصور بيگ من الحبس بتدبير من إبراهيم بن السلطان خليل [٢] ، وأثاروه ضد بايسنقر . وقد استطاع رستم ميرزا التحرك صوب تبريز ، فلجأ بايسنقر الذى فقد عنصر المقاومة إلى صهره حاكم شيروان .

وقد استقبل شروانشاه زوج ابنته استقبالا كبيراً ، وأمده بجيش لمحاربة رستم ميرزا ، ولكن لم يمر وقت طويل حتى اتفق الطرفان على هدنة لم تستمر

= عام ٨٨٢ هـ ، السلطان خليل ، يعقوب ميرزا ، يوسف ميرزا ، مقصود بيگ وقد قتله أخوه السلطان خليل ، زنيل الذى مات فى الحرب التى وقعت مع العثمانيين . [لب التواريخ ، ص ٢٢١] .

(١) لب التواريخ ، ص ٢٢٣ . وكان يعقوب من الشعراء والمهتمين بالأدب وأهله « آذر : آتشكده ، تحقيق حسن سادات ناصرى ، ص ١٠٠ » .

(٢) لب التواريخ ، ص ٢٢٥

طويلا، ذلك أنه عندما كان رستم ميرزا يعاقب بعض مخالفيه ، هاجم بايسنقر آذربيجان . ولكن إيبه سلطان قائد جيش رستم ميرزا اعتقله وأرسله إلى رستم الذى قتله(١) .

وفى هذه الأثناء ، طلب الأمير أحمد بن أغورلو محمد — وكان قد لجأ إلى البلاط العثمانى وتزوج إبنة بايزيد — المساعدة من الخليفة العثمانى وهاجم آذربيجان والعراق مدفوعاً فى ذلك بالثقـــة التى أعطيت له من رؤساء آق قويونلو(٢) .

عبر الأمير أحمد نهر أرس، ووصل إلى ناحية گرجستان فى الوقت الذى كان رستم ميرزا يهرب فيه صوبها ، وقتل رستم ميرزا فى الحرب التى وقعت بين الطرفين.(٣) ولكن لم يستطع أحمد ميرزا أن يحكم كثيرا(٤) إذ مات(٥) فى الثامن عشر من ربيع الثانى فى عام ٩٠٣ هـ/ ١٤٩٧ م.(٦)

وكان يوجد فى هذه الأثناء ثلاثة من أحفاد أوزن حسن : السلطان

---

(١) لب التواريخ ، ص ٢٢٦

(٢) ب المرجع السابق ، ص ٢٢٧

(٣) لب المرجع السابق ، ص ٢٢٧

(٤) كان أحمد ميرزا حاكما عادلا ومتدينا ، وكان يعظم العلماء والفضلاء ويضم بلاطه نخبة ممتازة منهم . « لب التواريخ، ص ٢٢٨ » ولكنه كان ممسكا ومقتصدا ، وربما كان هذا الإمساك والاقتصاد من عوامل الإسراع فى قتله .

(٥) تفصيل الأمر أن أحمد ميرزا كان قد وصل إلى الحكم بمساعدة إيبه سلطان ، فكافأه بحكومة كرمان ، ولكن إيبه سرعان ما اتفق هو وقاسم برناك حاكم فارس وجمع آخر من الأمراء على قتل أحمد ميرزا انتقاما لقتل مظفر شقيق قاسم . « لب التواريخ ، ص ٢٢٨ »

(٦) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٢٤

مراد بن يعقوب فى شيروان ، آلوند ميرزا بن يوسف ميرزا فى تبريز ، ومحمد ميرزا فى يزد(١).

وقد حاول رؤساء أسرة آق قويونلو أن ينصبوا كلا منهم فى جزء من إيران خاصة أنه بعد قتل أحمد ميرزا ، اضطر ولداه إلى الهروب ، كما أن آلوند ميرزا فر إلى حدود كردستان .

وتحرك إيبه سلطان بعد تنصيب مراد ملكا إلى ناحية آذربيجان ، بينما اختار بعض قواد آق قويونلو الآخرين — بتوجيه من دائى قاسم حاكم ديار بكر — آلوند ميرزا ملكا . وواصل هؤلاء القادة مسيرتهم إلى آذربيجان ، واشتبك معهم أيبه سلطان ، وهزمهم واعتقل السلطان مراد ، ثم تصالح مع آلوند ميرزا وأعوانه ، وأحضره إلى تبريز وأجلسه على العرش(٢).

أما محمد ميرزا شقيق آلوند ، فقد تمكن من الجلوس على العرش بمساعدة جمع من رؤساء أسرة آق قويونلو تزعمهم مراد بيگ بايندر حاكم يزد . كما أنه سيطر على فارس بعد تسخير أصفهان واختار الإقامة فى الرى . وقد دفع هذا الانتصار المفاجىء إيبه سلطان إلى التحرك صوب الرى قادما من آذربيجان ولكن محمد ميرزا قتله ، ودخل تبريز ، وجلس على العرش فى شوال عام ٩٠٤هـ/١٤٩٨ م(٣). وفى هذه الأثناء استفاد السلطان مراد من الفرصة ، وتمكن من الفرار بمساعدة أشقاء إيبه سلطان ، وتوجه إلى فارس حيث نصبوه ملكا(٤).

---

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشارية ، ص ٢٦٤ وما بعدها .

(٢) لم تكن للسلطان مراد السلطة الفعلية ، وفى الوقت ذاته لم يفد آلوند ميرزا شيئا من انتصاراته نتيجة لتمرد شقيقه محمد ميرزا ضده ، وقد جعله ذلك يهرب إلى قراباغ « تشكيل شاهنشاهى صفوية ، ص ٢٤ »

(٣) لب التواريخ ، ص ٢٣٠

(٤) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٢٥

وقد تحرك محمد ميرزا من آذربيجان إلى اصفهان لدفع السلطان مراد ، ولكنه قتل فى الحرب التى وقعت بينهما فى عام ٩٠٥هـ/١٤٩٩ م وسيطر السلطان مراد من جديد على فارس وكرمان .

اتجه آلوند ميرزا الذى كان يحكم فى آذربيجان وديار بكر إلى قزوين فى عام ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م من أجل دفع السلطان مراد منافسه ، ولكنهما اتفقا على الصلح ،فأخذ السلطان مراد العراق وفارس ،وصارت آذربيجان وديار بكر من نصيب آلوند ميرزا[١] .

وقد أدت كل هذه الأحداث إلى نشر الفساد والفوضى فى مختلف أنحاء إيران،وتمرد حكام الأقاليم ضد بعضهم البعض من ناحية[٢] . وساهمت فى ظهور المدعى الجديد لعرش إيران وهو الشاه اسماعيل الصفوى من ناحية أخرى . وقد استطاع اسماعيل أن يهزم منافسه آلوند ميرزا فى حدود (نخجوان) مجبرا إياه على الفرار ، ثم أدخل آذربيجان فى حوزته عام ٩٠٧هـ/ ١٥٠١ م . وإن كان آلوند ميرزا قد تمكن بعد عدة معارك ضد حاكم ديار بكر أن يجلس على عرشها . ولكن لم يطل به الوقت ، فمات عام ٩١٠هـ/١٥٠٤[٣] .

---

(١) تشكيل شاهنشاهي صفويه ، ص ٢٥

(٢) عانت إيران هذه الفترة الكثير من الظلم والقحط ، وظهر الوباء ، وهلك قوم كثيرون من شدة الجوع وانتشار الطاعون ، وتشردت الأسر ، وفكر المواطنون فى الهجرة « لب التواريخ ، ص ٢٣١ » .

(٣) أسماء أمراء أسرة آق قويونلو الذين وصلوا إلى الحكم بعد قرا عثمان وسنوات حكمهم :

أبو النصر حسن بك [اوزن حسن] بن الأمير على بن قرا عثمان بن حاجى بيك من ٨٧٠ إلى ٨٨٢ هـ =

— ٣ —

التوسع المتزايد لنفوذ الأوزبك فى منطقة ما وراء النهر :

الأوزبك[1] قبائل وفدت على إيران من هضاب آسيا ، وكان رؤساؤها الأوائل — الذين ينتسبون إلى چنگيزخان — يحكمون فى سيبريا[2] ، ثم استوطنوا منطقة ماوراء النهر لدى قدومهم إلى إيران قبل تيمور ، وقد ساعدهم ذلك على تأكيد وجودهم فى هذه المنطقة .

= السلطان خليل بن حسن بيگ	٨٨٢ لمدة ستة أشهر
السلطان يعقوب بن الأمير حسن	٨٨٣ إلى ٨٩٦ هـ
السلطان بايسنقر بن السلطان يعقوب	٨٩٦ لمدة ثمانية أشهر
رستم بيگ بن مقصود بيگ بن حسن بيگ	٨٩٧ إلى ٩٠٣ هـ
أحمد ميرزا بن محمد بن حسن بيگ	٩٠٣ لمدة ستة أشهر
ميرزا محمد بن يوسف بيگ بن الأمير حسن	٩٠٣ إلى ٩٠٤ هـ
آلوند ميرزا بن يوسف بيگ	٩٠٤ إلى ٩١٠ هـ
السلطان مراد بن السلطان يعقوب	٩٠٧ لمدة سنة

واحدة ومات فى عام ٩٢٠ هـ

وكانت مناطق نفوذهم فى ديار بكر ، الأناضول الشرقية ، آذربيجان .

(١) عرفوا بهذا الاسم نسبة إلى أوزبك خان من أعقاب جوجى . وكانوا يسكنون أول الأمر فى المناطق الواقعة بين نهرى أورال وجو . ومن رؤسائهم المشهورين قبل تيمور أوزبك خان وابنه جانى بيگ . وفى عهد الصفويين أصبحوا يعرفون بالشيبانيين نسبة إلى محمد شاهبخت المعروف بشاهى بيگ أوشيبك خان وكان مركزهم سمرقند . وهم أقرباء لخانات خيوه وبخارا وخوقند وأمراء هشترخان ، المعروفين بخانات جانى » . دهخدا : لغت نامه . شماره حرف « ألف بخش » دوم : ٥ شماره مسلسل ١٥٧ ص ٤٩١ .

(٢) محمد تقى بهار : سبك شناسى . جزء ٣ ، ص ٢٤٦

وكان لرئيس الأوزبك أبو الخير سلطان بن دولت شيخ ولدان ؛ شاه بوداغ سلطان وخواجه محمد . وقد خلف شاه بوداغ سلطان أباه فى رئاسة الأوزبك ، وحكم فى (قبجاق) ، وانتزع من السلطان حسين بايقرا بعض المناطق تدريجيا . وبعد احتلال سمرقند وبخارا فى عام ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩ م حاصر بلخ ولكنه هزم من السلطان حسين .

وبذلك وجد فيما وراء النهر دولة جديدة عاصمتها سمرقند ، بدأت فى تهديد أنحاء إيران دون منازع ، ذلك أن التيموريين الذين كانوا يمثلون قوة سياسية فى ذلك الحين ، لم يستطيعوا الوقوف فى وجه الأوزبك بسبب الضعف الذى انتابهم .

وفى حدود عام ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م ظهر بين قادة الأوزبك ؛ محمد خان شيبانى [١] المعروف (بشاهى بيگ أو شيبك خان) . وقد استطاع هذا القائد أن يؤكد وجود الأزوبك فى منطقه ما وراء النهر عام ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م . ثم استغل فرصة وفاة السلطان حسين بايقرا واختلاف ولديه بديع الزمان ميرزا ومظفر حسين ميرزا ، وزحف إلى خراسان ، وانتصر عليهما . وهرب بديع الزمان إلى العراق تاركا جيشه بين يدى شيبك خان الذى أسر وقتل منه الكثيرين . وبذلك تمكن القائد الأوزبكى من خراسان [١] ، وواصل تقدمه

---

(٣) هو شاهى بيگ بن بوداغ سلطان بن أبو الخير خان بن دولت شيخ بن ابراهيم أوغلن بن فولاد اوغلن بن تيمور بن بادا كول بن جوجى بوقا بن بهادر ابن شيبان خان بن جوجى خان بن چنكيز . وكانت أمه تسمى قوزى بيگم « حبيب السير ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ وما بعدها »

(١) عالم آراى عباسى ، جلد أول ، ص ٣٧ وزندگانى شاه عباس أول ، جلدأول ١٦٠ — ١٦٣ .

حتى كوكان ، وفكر فى الاستيلاء على دامغان [١] .

وقد استطاع شيبك خان بهذه الفتوحات أن يسيطر على شرق إيران [٢] ولكنها جعلته فى نفس الوقت وجها لوجه أمام الشاه اسماعيل الصفوى الذى يحكم فى الغرب من إيران . وكان طبيعياً أن تقع الحرب بينهما للاختلاف فى المذهب من ناحية وللرغبة فى التوسع التى تتملك كلا منهما من ناحية أخرى وقد نجح اسماعيل — كما سنعرف بعد ذلك — فى انتزاع خراسان من شيبك خان عام ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م وقتله على مقربة من مرو [٣] .

وتولى كونجونجى خان المعروف بكجيم خان رئاسة الأوزبك بعد قتل شيبك خان [٤] ، وظل يحكم فيما وراء النهر مدة عشرين عاماً . وفى مدة حكمه توجه الأمير أحمد الأصفهانى الملقب ببنجم الثانى من العراق إلى سواحل نهر جيحون بقصد تسخير ما وراء النهر فى عام ٩١٨هـ/١٥١٢م ، وعبر نهر آمويه والتحم مع الأوزبك بقيادة عبيد خان حوالى (غجدوان) فى يوم الإثنين السابع من رمضان من العام نفسه . وقد تمكن عبيد خان من الانتصار على الأمير أحمد الاصفهانى وقتله هو وعدد آخر من قواده [٥] .

ساعد هذا الانتصار الأوزبك على أن يفكروا فى مهاجمة خراسان من

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٢٩ .

(٢) كان شيبك خان محاربا شجاعا ومتعصبا للمذهب السنى . وفى نفس الوقت كان شاعراً يتخلص فى شعره بـ (شيبانى) . تشكيل شاهنشاهى صفوية ، ص ٢٨

(٣) كانت ولادته فى عام ٨٥٥ هـ ، وعاش واحدا وستين عاما ، وحكم احدى عشر عاماً ، تاريخ أدبيات إيران ، جلدجهام ص ٦٩ ، .

(٤) كانت عـادة الأوزبك تقضى بأن يتولى رئاستهم أكبرهم سنا ، لب التواريخ ص ٢٣٣ ، .

(٥) لب التواريخ ص ٢٣٣ .

جديد فى عام ٩٣٤ هـ / ١٥٢٨ م. فتحرك الشاه طهماسب الصفوى إلى خراسان، وتقابل الجيشان فى منطقة (زوز آبادجام) فى الحادى عشر من محرم عام ٩٣٥ هـ / ١٥٢٩ م. وانتصر على الأوزبك الذين هربوا إلى ماوراء النهر ثم عادوا ثانية فى عام ٩٣٦ هـ / ١٥٣٠ م إلى مرو وهجموا عليها. وفى هذه السنة مات كونجونجى خان[1].

وبعد وفاة كونجونجى خان. ترأس ابنه مظفر الدين أبو سعيد الأوزبك وظل فى الحكم ما يقرب من أربعة أعوام، ومات فى عام ٩٣٩هـ/ ١٥٣٣ م[2].

تولى عبيد خان[3] بن محمود سلطان شقيق شيبك خان أمر الأوزبك فى منطقة ماوراء النهر. وقد حاول مهاجمة خراسان مرات ومرات. الأمر الذى جعل هذا الإقليم محطا للسلب والنهب، وظل الحال كذلك إلى أن مات فى عام ٩٤٦ هـ / ١٥٤٠ فى بخارا[4].

وفى عام ٩٤٧هـ/ ١٥٤١ م صار عبد الله خان بن كونجونجى رئيساً للأوزبك بعد وفاة عبيد خان، ولكنه لم يمكث فى الحكم أكثر من ستة أشهر تولى

---

(١) لب التواريخ : ص ٢٣٤.

(٢) المرجع السابق : ص ٢٣٤.

(٣) ظن براون أن عبيد خان هو بن شيبانى خان « تاريخ أدبيات إيران : جلد جهارم : ص ٩١ »، ولكن هذا خطا فهو بن محمود سلطان أبو الخير « عالم آراى عباسى : جلد أول : ص ٥٠ ».

(٤) لب التواريخ : ص ٢٣٤.

بعده أخوه عبد اللطيف خان(١) زعامة الأوزبك(٢) فى منطقة ماوراء النهر.

---

(١) لب التواريخ : ص ٢٣٤ .

(٢) أسماء قادة الأوزبك وسنوات حكمهم :

أبو الخير (حاكم خوارزم)	من ٨٣٢ إلى ٨٧٣ هـ
محمد خان شيبانى أو شيبك خان	٩٠٥ « ٩١٦
كونجونجى خان أو كجيم خان أو كوج كنجو	٩١٦ « ٩٣٧
مظفر الدين أبو سعيد	٩٣٧ « ٩٤٠
عبيد خان	٩٤٠ « ٩٤٦
عبد الله الأول	٩٤٦ لمدة ستة أشهر
عبد اللطيف	٩٤٧ « ٩٥٩
نوروز أحمد	٩٥٩ « ٩٦٣
پير محمد الأول	٩٦٣ « ٩٦٨
اسكندر	٩٦٨ « ٩٩١
عبد الله الثانى	٩٩١ « ١٠٠٦
عبد المؤمن	١٠٠٦ « ١٠٠٧
پير محمد الثانى	١٠٠٧ —

وقد قضى عليهم أمراء جانيه حكام منطقة استراخان : وحكموا مكانهم فى بخارا ، كليفورد أدموند بوسورث: سلسلة هاى أسلامى: ترجمة فريدون بدره اى ص ٢٣٤ ، . وسيشتمل القسم الثانى من هذا الكتاب على وضع الاوزبك فى عصر عباس

الفصل الثانى

بداية الصفويين

– ١ –

نسب الأسرة الصفوية :

يمكن القول أن ظهور الصفويين فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، قد مثل نقطة تحول كبيره فى تاريخ ايران بعد الاسلام ، فمن هم الصفويون ؟

ينسب الصفويون إلى الشيخ صفى الدين الأردبيلى ٦٥٠ – ٧٣٥ ھ / ١٢٥٢ – ١٣٣٤ م . وهو الجد الأكبر للشاه اسماعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية . وتصل الكتب التى أرخت للصفويين نسب الشيخ صفى إلى الحسين بن على بن أبى طالب ، فتذكر [١] أن الشاه اسماعيل (٨٩٢ – ٩٣٠ ھ)

(١) حسين پير زاده زاهدى: سلسله النسب صفويه ، ص ١٠ ورحيم زاده صفوى : شرح جنگها وتاريخ زندگانى شاه اسماعيل صفوى باهتمام يوسف پور صفوى ، ص٢٦ وعالم آراى عباسى ، ص ٧ وتاريخ زندگانى شاه عباس أول ، جلد أول ، ص ٣ حاشية ١ و ٢ . ويذهب البعض إلى أنه لا يوجد دليل قوى ومقنع يثبت صحه انتساب الصفويين إلى الحسين بن على ، ذلك أن الكتب التى قالت بهذا النسب قد اعتمدت فى ذلك على كتاب صفوة الصفا لابن البزاز من أهل أردبيل . وقد ألف بن البزاز كتابه هذا – على أرجح الاقوال – فى زمان الشيخ صدر الدين بن الشيخ صفى الذى كلفه بأن يصل بالنسب إلى آل البيت . وقد كانت هذه البضاعة رائجة فى ذلك الوقت بدليل أن الشيخ زاهد رائد الشيخ صفى وصل بنسبه إلى الحسين . وقد أعاد مير أبو الفتح الحسينى – بتكليف من طهماسب ثانى ملوك الصفويين – تنقيح هذا الكتاب مؤكدا هذا النسب فى محاولة لإقرار المذهب الشيعى . هذا من جهة . ومن جهة ثانية أنه فى الوقت الذى عاش فيه الشيخ صفى أى فى أواخر عصر الإيلخانيين ، كان نفوذ اللغة التركية والمغولية قويا فى آذربيجان ، وأن الشيخ صفى نفسه قد قال شعرا باللهجة الكيلانية =

هو بن السلطان حيدر (قتل فى عام ٨٩٣ ﻫ) بن السلطان جنيد (قتل فى عام ٨٦٠ ﻫ) بن الشيخ ابراهيم المعروف بشيخ شاه (مات فى عام ٨٥١ ﻫ) بن السلطان خواجة سياهبوش (مات فى عام ٨٣٠ ﻫ) بن الشيخ صدر الدين موسى (٧٠٤ — ٧٩٤ ﻫ) بن الشيخ صفى الدين الأردبيلى (٦٥٠ — ٧٣٥ ﻫ)

= «سلسلة النسب صفويه : ص٢٩ وما بعدها وتاريخ أدبيات إيران. جلد چهارم، ص ٥٠ » كما أن بن البزاز يقول إن الشيخ صفى قد شرع فى تعلم اللغة التركية والمغولية . ثم أن الكتابات التى بقيت منذ زمان الشيخ صفى حتى زمان الشاه اسماعيل تدل على أن الأسرة الصفويه كانت منتشرة فى آذربيجان ، وأنها كانت تعد من أهل هذه الديار . وعلى هذا الأساس فإن شيخ الأسرة الصفوية كان من أصل آرى قديم يسكن فى منطقة آذربيحان ، وهذا ينفى انتسابه إلى الحسين بن على «تشكيل شاهنشاهى صفوية، ص٤٣ وما بعدها » وفى رأينا أن الذين يقولون بانتساب الصفويين لآل البيت أرادوا أن يكسبوا الأسرة أحقيتها فى الحكم ، وقد حدث ذلك بتوجيه من أفراد الأسرة أنفسهم . أما الذين يقولرن بالرأى الثانى وهو أن شيخ الأسره من أصل آرى قديم ، فإنهم يريدون تأكيد دور الصفويين فى بعث القومية الإيرانيه التى ظهرت على أيديهم . وهنا لابد من رأى ثالث وهو أن أجداد الشيخ صفى كانوا من كردستان ، وأنهم استقروا منذ هذا التاريخ فى آذربيجان، فقد ذكر بن البزاز «صفوة الصفا، باب أول، ص١٢» أن فيروز شاه جد الشيخ صفى — وكان رجلا ثريا يسكن ضاحية رنگين من توابع گيلان — قد خرج من سنجار قاصدا تسخير آذربيجان وادخال سكان مغان وأهل آران واليوان ودار بوم فى الإسلام .وقد تم له ذلك وصار حاكما على أردبيل وتوابعها . ومع أن أحمد كسروى يقلل من قيمة هذا الرأى « شيخ صفى وتبارش، ٣٦ » اعتمادا على أن تبعية آذربيجان فى زمان فيروز شاه كانت للسلاجقة ، ولم تكن آذربيجان فى حاجة إلى من يدخل الإسلام إليها . فإن اتخاذ الصفويين من أردبيل عاصمة روحية لهم يحجون إليها — ولو لزيارة مقابر أجدادهم على الأقل — ما يدعم هذا الرأى ، وإن كان تأكيده يستوجب دراسة تاريخ آذربيجان . وهذا أمر يخرج عن نطاق هذا الكتاب .

بن الشيخ أمين الدين جبرائيل بن صالح بن قطب الدين أحمد بن صلاح الدين رشيد بن محمد الحافظ بن عوض (الحافظ الخواص) بن فيروز شاه زرين كلاه بن محمد شرف شاه بن محمد بن حسن بن محمد بن ابراهيم بن جعفر بن الباقر بن الإمام زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب .

وفى هذا الصدد ، يهمنا أن نتحدث عن أجداد الشاه اسماعيل بدء من الشيخ صفى ، وابرازاً لدورهم الدينى الذى تحـــول إلى دور سياسى بمرور الزمن .

— ٢ —

الشيخ صفى الدين الأردبيلى :

درس الشيخ صفى العلوم الدينية والعقلية فى صباه ، ثم تعمق فى أسرار المحبة الآلهية وتصوف ، ويروى أنه رأى فى المنام ما يدل على علو كعبه هو وأسوته ، فجعل نفسه مرشداً لجماعة من المتصوفه والدراويش ، وفكر فى الرحيل إلى فارس ، ولكنه نزل بشيراز حيث اتصل بالشاعر — سعدى الشيرازى ، ونصحة الأمير عبد الله الفارسى من فضلاء شيراز بالاتصال الشيخ زاهد الكيلانى (١) . فرحل إلى أردبيل ، وانتقل منها إلى كيلان مع أتباعه . ونزل فى حلقة الشيخ زاهد الذى كان يصل نسبة إلى على بن أبى طالب . وقد تزوج الشيخ صفى من فاطمة ابنة الشيخ زاهد الذى عهد إلى زوج ابنته بمقام

(١) هو تاج ابراهيم بن روشن امير بن بابيل بن شيخ پندار الكردى السنجانى ، ويقولون أن ام جده بابيل كانت من الجن . وبعد حياة ملؤها التعبد والزهد ، مات الشيخ زاهد فى سيارود بكيلان عام ٧٠٠ هـ/١٣٠٠ م . «تاريخ أدبيات إيران ، جلد چهارم ، ص ٤٩» .

الإرشاد . وقبل الأتباع هذه الوصية . وطلب الشيخ صفى من رائده السماح له بالسفر إلى أردبيل مع تبادل الزيارات فيما بينهما [١] .

وعندما مات الشيخ زاهد [٢] صار الشيخ صفى خليفته فى رئاسة الطريقة [٣] ثم عهد إلى ابنه صدر الدين موسى — حفيد الشيخ زاهد — بمقام الارشاد عندما اشتد به المرض [٤] .

صدر الدين موسى :

صار رئيساً لأتباع أبيه [٥] ، وبدت هذه الرئاسة مناسبة أول الأمر فى نظر الأمير أشرف الجوبانى حاكم ، ولكنه انقلب عليه ، فامر بحبسه ثم أطلق

---

(١) حبيب السير ، جزء ٤ ، مجلد ٣ ، ص ٤١٠ وما بعدها . وعالم آراى عباسى : جلد أول ، ص ١١ وتاريخ أدبيات إيران ، جلد چهارم ، ص ٤٥ وما بعدها .

(٢) فاز الشيخ زاهد بمكانة طيبة فى العصر الصفوى باعتبار أنه الرائد الروحى للشيخ صفى . ويعتبر حسين پير زاهدى صاحب كتاب سلسلة النسب صفويه من سلالته .

(٣) يصف حسين پير زاهدى هيئة الشيخ صفى فيقول : « كان مربوع القد ، جسيم الخد ، عريض اللحية ، كثير المحاسن ، كحيل العينين ، غليظ الحاجبين . سلسلة النسب صفويه ، ص ٢٨ » .

(٤) كان للشيخ صفى عند وفاته خمسة من الأولاد .

(٥) كان عمره فى ذلك الحين واحد وثلاثين عاما ، وقد أقام مسجدا كبيرا فى أردبيل أطلق عليه اسم آرامگاه خاندان صفوى « تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٦١ و ٦٢ » .

سراحه وأرسله إلى أردبيل ، وفكر فى القضاء عليه ثانية . ولما علم الشيخ صدر بذلك توجه إلى گيلان وظل بها إلى أن هاجم جانى بيگ خان حاكم صحراء قبجاق إقليم آذربيجان ،واستولى عليها وحبس الأمير أشرف،وأحضر الشيخ صدر من گيلان إلى أردبيل معززاً مكرما(١) ، وبقى بها حتى مات فى عام ٧٩٤ هـ / ١٣٩٢ م(٢) .

خواجه على سپاهپوش :

أخذ مقام الارشاد بعد وفاه أبيه ، وظل فيه لست وثلاثين عاما حتى زمان حملة تيمور لنگ على ايران . وساعدت الظروف السيئة التى حلت بايران على ايدى التيموريين فى التفاف المريدين حوله وازديادهم يوما بعد يوم . وقد حظى هذا الشيخ برعاية تيمور فلم ينزل باتباعه أذى ، وفى نفس الوقت أعطت هذه الرعاية أرضا صالحة لدعايات الأسرة الصفوية التى بدأت الأفكار الشيعيه تعنونها فى ذلك الحين .

وقد عظم وزن خواجه على فى إيران والبلاد المجاورة لها إلى حد أن تيمور التقى به ثلاث مرات ، كان يزداد تعلقاً به مرة بعد مرة . وأهم هذه اللقاءات ذلك الذى حدث بعد هزيمة السلطان العثمانى بايزيد عام ٨٠٤ هـ/١٠٤٢ م من تيمور وأسره لعدد كبير من الجند الاتراك وأحضارهم إلى اردبيل . وقدطلب خواجه على من تيمور ان يطلق سراح هؤلاء الأسرى . فوافق تيمور وأقامهم خواجه على فى أطراف (آرامگاه گنجه بكول) . وهؤلاء الأسرى هم اجداد طائفة روملو القزلباشية التى كانت من أشد أنصار الشاه اسماعيل اخلاصا

---

(١) تدل هذه الأحداث على نفوذ الشيخ صدر الدين موسى ونشاطاته المذهبية بين الحكام المحليين .

(٢) ظل الشيخ صدر يقوم بالزعامة المذهبية لتسع وخمسين عاما .

فى الدفاع عن مبادئه المذهبية ضد مواطينهم الاتراك ، على الرغم من أنهم كانوا فى أول الأمر من المتعصبين للمذهب السنى (١) .

وفى نفس الوقت منح تيمور القرى والمزارع الكثيرة فى أطراف قزل أوزن وكمره وأصفهان وهمدان لأولاد خواجه على الذكور (٢)

ذهب خواجه على فى أخريات حياته إلى مكة ، ولكنه مات فى أثناء عودته فى يوم الثلاثاء ١٨ رجب ٨٣٠ هـ/١٥ مايو ١٤٢٧ م . ودفن فى فلسطين حيث يعرف قبره بضريح الشيخ على العجمى . ويعتبر أول من اعتنق المذهب الشيعى من أولاد الشيخ صفى ، ودعا إليه الاتباع صراحة ، وكان شاعراً له ديوان شعر مطبوع (٣) .

شيخ شاه :

كان لخواجه على ثلاثة أولاد هم شيخ شاه ، جعفر وعبد الرحيم . وقد خلفه فى رئاسة الطريقة شيخ شاه أو المعروف بالشيخ ابراهيم . وظل يقوم بالارشاد لتسع وعشرين سنة إلى أن مات فى عام ٨٥١ هـ/١٤٤٧ م . تاركا من الأبناء : جنيد ، أبو سعيد ، سيد أحمد ، سيد بايزيد ، خواجه جهان ميرزا وابراهيم خواجگى (٤) .

السلطان جنيد :

تولى مكان أبيه ، وجمع المريدين حوله فى أردبيل ، واكتسبت فرقته

(١) سلسلهٔ النسب صفويه ، ص ٤٨ وتاريخ أدبيات إيران ، جلد چهار م ، ص ٥٢، ٥٣ .
(٢) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٦٥ .
(٣) تاريخ أدبيات إيران : جلد چهار م ، ص ٥٢ حاشيه ١ .
(٤) سلسلهٔ النسب صفويه ، ص ٥٠ .

قدرة على الحركة أوسع فى زمانه ، وبدأ يكشف عن رغبته فى الملك تدريجيا بتحويله الدعوة المذهبية إلى حركه سياسية تعتمد فى إثبات وجودها على هذا العدد الضخم من المريدين .

وقد افادت الفوضى التى حدثت فى ايران بعد وفاة ميرزا شاهرخ — على نحو ما بينا من قبل — السلطان جنيد من حيث متابعة خططه السياسية والعسكرية ، وجذب أعداد جديدة من المريدين الذين اسرعوا إلى أردبيل مقر هذه الاسرة . واستطاع السلطان جنيد أن يقيم حكما مستقلا فى هذه المدينة [1] .

أثار هذا العمل ضيق جهانشاه التركمانى رئيس أسرة قراقويونلو . فاجبر السلطان جنيد على الرحيل متجها إلى ديار بكر حيث استقبله اوزن حسن رئيس أسرة آق قويونلو ، واحسن وفادته نكاية فى منافسه ، بل زوجه اخته خديجة بيكم . وبعد مدة عاد جنيد إلى مقره السابق فى اردبيل . ولما رأى كثرة مريديه لعبت الرغبة فى الملك برأسه ، وحول المريدين إلى عسكر وتوجه إلى شيروان مهاجماً حاكمها ، ولكنه هزم وقتل بامر من شيروانشاه [2] عام ٨٦٠هـ/١٤٥٥م ومع ان هذه الحرب كانت الاولى فى تاريخ الصفويين ، وانتهت لغير صالحهم إلا انها كانت فى نفس الوقت بمثابة البداية لظهورهم على المسرح السياسى كقوة جديدة تطمع فى عرش إيران .

السلطان حيدر :

هو بن جنيد ، حظى بنفس الحب الذى حظى به أبوه لدى أوزن حسن

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٦٧ .

(٢) يعتبر البعض الشيروانشاهيين من أخلاف بهرام چوبين ، بينما يذهب البعض الآخر إلى أنهم من نسل آنوشيروان .

التى زوجه ابنته حليمه بيگم (حليمه بيگـُ آغا) والملقبة بعلم شاه بيگم. ولما مات أوزن حسن ساءت العلاقات بين البيت الصفوى وأسرة آق قويونلو فى أيام السلطان يعقوب آق قويونلو، فاضطر السلطان حيدر وأتباعه إلى الرحيل من ديار بكر. وهنا فكر حيدر فى الانتقام لأبيه من حاكم شيروان. فأعد جيشاً لهذا الغرض، وميزه بأن جعل أفراده يرتدون قبعة حمراء اللون. ومنذ ذلك الوقت صار أتباع الشيخ حيدر يعرفون بـ (القزلباش) أى حمر الرءوس.(١)

وبعد تجهيز الجيش، عين ابنه سلطان على مكانه، وتوجه هو على رأس الجيش إلى چركس وداغستان، ووجد حاكم شروان أنه لاطاقه له بقوات حيدر، فاستغل ما وقع بين حيدر ويعقوب آق قويونلو من عداوة. وبعث يطلب من يعقوب المدد اعتمادا على أن حيدر ينوى إقامة حكومة مستقله فى هذه المنطقة، وأنه سيهاجم آذر بيجان.(٢)

ومن أجل أن يضع السلطان يعقوب حداً لمطامع حيدر، أرسل سلمان بيگـ من مساعديه على رأس قوة توجهت إلى شروان لمساعدة حاكمها. وتمكن الإثنان من هزيمة حيدر وقتله(٣) وتفريق أتباعه فى يوم الثلاثاء ٢٠ رجب ٨٩٣ هـ/ أول يونيه ١٤٨٨م.

أولاد السلطان حيدر:

كان للسلطان حيدر عند وفاته ثلاثة أولاد من إبنه اوزن حسن هم

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفوية، ص ٦٩.

(٢) حبيب السير، ج ٤ ص ٤٣٣.

(٣) نقل الشاه اسماعيل الصفوى جثمان أبيه بعد ذلك من طبرستان إلى مقابر الأسرة فى أردبيل (تشكيل شاهنشاهى صفويه، ص ٦٩ حاشية ٢).

إبراهيم ميرزا ، إسماعيل ميرزا ، سلطان على (على ميرزا) الذى خلف أباه فى رئاسة الفرقه . وقد بادر إلى جمع المريدين حوله ، وحرضهم على الانتقام لدم أبيه .

وقد أقلقت هذه الفكره السلطان يعقوب آق قويونلو ،فأرسل إلى حاكم أرد بيل يطلب إعتقال أولاد حيدر . فاعتقلهم وسلمهم إلى منصور بيگ حاكم فارس الذى سجنهم فى قلعة استخر فى شهر ربيع الثانى ٨٩٨ هـ / أغسطس ١٤٨٨م .

ولكن لم يطل بهم الحبس ، فقد مات السلطان يعقوب آق قويونلو ، وتولى مكانه رستم ميرزا وبدأ الصراع يدب بين المطالبين بالعرش فى ديار بكر .

وقد تسبب الصراع بين المطالبين بالعرش فى أن يلجأ بايسنقر إلى حاكم شروانشاه ويطلب منه المساعدة ولكن رستم ميرزا أطلق سراح أولاد حيدر ، ودفع ابنه الأكبر سلطان على إلى الانتقام من شروانشاه المؤيد لبايسنقر . وما أن انتشر خبر اطلاق سراح أولاد حيدر حتى اندفع أتباعه من كل صوب وحدب فى تأييد منقطع النظير لسلطان على وأخوته .

وقد تمكن سلطان على من هزيمة رستم ميرزا بالقرب من (أهور ومشكين) ثم قتله فى عام ٨٩٩ هـ / ١٤٩٣م

وقد كافأ رستم ميرزا سلطان على بأن أحسن استقباله فى العاصمه، وتركه يذهب إلى أردبيل ليتولى رئاسة مريديه بالطريقة التى تروق له .

ولكن هذا التجمع الضخم من المريدين أثار دفينة رستم ميرزا رئيس آق قويونلو ضد سلطان على ، فدعاه هو واخوته إلى تبريز حيث حدد إقامتهم

ليقطع الصله بينهم وبين مريديهم . ولكن البعض أخبر سلطان على بمقصد رستم ميرزا ، فوقعت الحرب بين الطرفين ، وقتل فيها سلطان على ، ودفنوا جثمانه فى ضريح أجداده بناء على وصية أمه [١].

ومنذ ذلك الوقت أصبح الصراع بين أسرة آق قويونلو والبيت الصفوى لايقبل الحل ، وانقسمت ايران على نفسها . وازداد عدد الأتباع الصفويين ، واتسع نطاق مقاومة أسرة آق قويونلو.

— ٣ —

منذ متى اعتنق شيوخ الأسرة الصفوية المذهب الشيعى ؟

استطاع الشيخ صفى الدين وأولاده من بعده — بزعامتهم لجماعة من المتصوفة والدراويش — جذب الكثير من المريدين ليس فى إيران فحسب بل فى الولايات التركية من آسيا الصغرى والشام والعراق العربى بتأثير دعاياتهم القوية .

وكان التصوف [٢] قد بدأ يشق طريقه إلى المجتمع الايرانى فى الوقت الذى

(١) تشكيل شاهنشاهى صفوية ، ص ٦٩ ومابعدها .

(٢) وجد التصوف فى إيران أرضا صالحة وبخاصة فى الجنوب الشرقى منها ابتداء من القرن السابع الهجرى . فقد كانت جميع الظروف السياسية والنفسية والإجتماعية تمثل ركائز قوية له ، وقد اتخذ عددمن الشعراء الايرانيين - اعتبارا من هذة الفترة - التصوف منهجا لهم . وبذلك لم يعد التصوف مجرد نوع من النظريات . وبدأ يأخذ منذ القرنين التاسع والعاشر الهجريين شكلين عمليين . الأول فرقة الدراويش التى شرعت فى الظهور ابان انشقاق السلاجقة ، وأكدت وجودها فى زمان الإيلخانيين فى مازندران وسبزوار حيث بدأت تتأثر بالأفكار الشيعية وتحظى بحب الناس بمالهم من تعاطف وارتباط بالمذهب الشيعى . ومن =

ظهر فيه الشيخ صفى ، وأخذت فرق الدراويش تنتشر ويقوى ساعدها كنتاج طبيعى لحالة الفساد الذى انتشر فى الديار الإيرانية أثناء حكم المغول والتيموريين من بعدهم ، وكرد فعل لما تركه هذا الحكم من آثار نفسية مدمرة فى نفوس الإيرانيين .

وقد تحولت فرقة الدراويش التى كان يتزعمها الشيخ صفى إلى مركز مذهبى لبث الدعوة الشيعية ، ووجدت فى ذلك المساندة من بعض العناصر الإيرانية . وعرف رؤساء هذه الفرقة من أولاد الشيخ صفى أنفسهم على أنهم من نسل على بن أبى طالب ، وبدأوا يطالبون بالتاج والعرش إثباتاً لحقهم ، وتبدلت الدعايات المذهبية إلى مطالب سياسية .[1]

وقد استوجب هذا الأمر وقوع مصادمات قوية بين أفراد الأسرة الصفوية

= هذه الفرق تلك التى ترأسها الشيخ صفى . أما الثانى فهو الجانب العرفانى من التصوف وهو أعلى درجاته . وقد وجد صداه فى نفوس الخاصة من أفراد المجتمع الايرانى . وفتح أفاقا جديدة للأدب الفارسى وهذا النوع من التصوف يبدو واضحا فى أشعار جلال الدين الرومى وسعدى وحافظ وغيرهم .

(١) يرى جوبينو ومعه براون أن العقيدة المتعلقة بالحق الآلهى التى أودعت فى الأسرة الساسانية كانت ذات أثر عظيم فى تاريخ الفرس والتشيع ، فلقد جاءت فكرة انتخاب الخليفة متمشية مع ديمقراطية العرب غير أنها لا يمكن أن تظهر فى نظر الفرس إلا بمظهر ثورى مطابق لطبيعة الأشياء ويعتقد الفرس أن الحسين بن على بن أبى طالب وهو أصغر ولدى فاطمة بنت النبى (صلعم) قد تزوج « شهربانو » إبنه يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان ، واستناداً إلى هذا أصبح الأئمة من الشيعة لا يمثلون حق أهل بيت النبوة وخصائصها فحسب بل يمثلون حق الملك وفضائله أيضاً من حيث كونهم يتمتعون بانحدارهم من أصل مزدوج من بيت الرسالة ومن آل ساسان، ومن هنا نشأت هذة العقيدة السياسية . « محمد السعيد جمال الدين . دولة الإسماعيلية فى إيران ، ص ٨ » .

والطوائف السنية المذهب حتى أسرة آق قويونلو التى ارتبطت مع البيت الصفوى بصلة المصاهرة .

ولكن منذ متى بدأت الأفكار الشيعية [١] تتسرب إلى التشكيلات الصفوية ؟ ! فى هذا الصدد لاينبغى التسليم مباشرة بتشيع الشيخ صفى لأسباب عدة منها : أن حمد الله المستوفى القزوينى قال فى شأن سكان أردبيل [٢] : « .... وأكثرهم على مذهب الإمام الشافعى ، وهم من مريدى الشيخ صفى الدين الأردبيلى » كما أن عبيد الله خان قائد الأوزبك كتب فى عام ٩٣٦ هـ / ١٥٣٠م إلى الشاه طهماسب يعاتبه ويشير إلى تسنن الشيخ صفى فقال [٣] : « لقد كان رجلا عزيزاً ومن أهل السنة والجماعة » .

غير أنه يبدو أن الشيخ صفى كان سنى المظهر على مذهب الامام الشافعى ، شيعى المخبز على مذهب الإمام جعفر . يقول بن البزاز - أول من أرخوا الصفويين - فى كتابه صفوة الصفا : [٤] « إن الشيخ صفى كان يكتم المذهب

---

(١) الواقع أن التشيع ظهر فى البيئات الفارسية بشكل واضح بعد ثورة المختار الثقفى ، وانتشر دعاته فى إيران ، وكانوا من الكثرة والقوة بحيث خشيهم دعاة العباسيين عندما اصطدموا بهم فى خراسان . والملاحظ فى هذه العصور المبكرة أن الدعوة السياسية اتخذت شكل الموعظة الدينية (محمد السعيد جمال الدين : المرجع السابق ، ص ١٤ متن وحاشية) .

(٢) حمد الله المستوفى القزوينى : نزهة القلوب . المقالة الثالثة فى صفة البلدان والولايات والبقاع بسعى واهتمام گاى ليسترانج ، ص ٨١ .

(٣) زندگانى شاه عباس أول : ص ١٦٥ ، حاشيه ٣ .

(٤) صفوة الصفا : باب هشتم ، ص ٢٨٤ .

الجعفرى». وقد يستبين ذلك من إحدى رباعياته التى يقول فيها ماترجمته:(١)

« صاحب الكرم يصفح عن أخطاء كثيرة ، فاسعد يا صفى فإنه يغفر ذنبنا . ومهما يخطأ ذلك الذى فى قلبه نهر حب لعلى ، فإن الله يصفح » .

وهذا الرأى يقبل الصواب إلى حد كبير . اذ سرعان ما جاهر خواجه على سياهپوش حفيد الشيخ صفى بالدعوة الشيعية(٢) . الى أن جاء السلطان حيدر(٣) ، وأكد صلة نسب أجداده بالإمام موسى الكاظم(٤) ، ومنذ ذلك الحين فصاعداً اصبحت الأسرة الصفوية تعتبر نفسها من آل البيت .

والجدير بالذكر أن اعتناق أخلاف الشيخ صفى للمذهب الشيعى كان

---

(١) تاريخ ادبيات ايران ،جلد چهارم . ونص هذه الرباعية بالفارسية هو:

— صاحب كرمى كه صد خطا مى بخشد
خوش باش صفى كه جرم مامى بخشد
— آنرا كه جوى مهر على در دل اواست
هرچند گــنه كند خدا مى بخشد

(٢) زعم الشيخ على سياهپوش أنه رأى الامام محمد التقى فى المنام يأمره بدعوة الإيرانيين إلى اعتناق المذهب الشيعى (سلسلهٔ النسب صفوية ، ص ٤٦)

(٣) عندما جعل السلطان حيدر اتباعه يرتدون قبعة حمراء ، كان المقصود من هذه القبعة أنها رمز التشيع . «تشكيل شاهنشاهى صفوية ، ص ٦٨ ».

(٤) لعل فى هذا البيت للشاعر محتشم الكاشانى رائد الشعر المذهبى فى العصر الصفوى الدليل على ذلك .

— شيخ حيدر كز كمال اعتقاد دست بيعت داد با آل على
ديوان محتشم الكاشانى ، ص ١١٢

وترجمته : أن الشيخ حيدر من كمال الاعتقاد اعطى يد البيعة لآل على .

بهدف اكتساب مقدرة سياسية أكبر فى إيران . وقد استعانوا فى ذلك بمعارضة السربداريين [١] للايلخانيين وهى المعارضة التى كانت تعتمد على العناصر الشيعية فى إيران ، واستفادوا فى ذلك من مكانة جدهم الشيخ صفى فى قلوب الناس .

وقد ساعدت بعض العوامل شيوخ الصفويين على الانتقال من شيوخ طريقة ورجال تصوف إلى مؤسسى دولة ذات أهداف سياسية ومذهبية غيرت وجه التاريخ الإيرانى بعد الإسلام منها :

أن الناس فى ذلك الوقت كانوا قد ضاقوا ذرعاً بظلم واجحاف أنماط الحكم المتناثرة داخل إيران [٢] ، وفقدوا الأمل فى حياة مستقرة ، فلجأوا الى حلقات هذه الأسرة بحثاً عن الراحة النفسية، ولم يكتفوا بذلك فصاروا مريدين

---

(١) حكمت هذه الأسرة لمدة ٣٥ عاماً تعاقب خلالها اثنا عشر حاكما أولهم خواجه عبد الرازق بن خواجه فضل الله باشتينى نسبة إلى قرية باشتين من قرى بيهق - وآخرهم خواجه على مؤيد الذى توفى فى عام ٧٨٨ ﻫ . (لب التواريخ ، ص ١٧٨ ومابعدها) .

(٢) عندما ظهر الشاه اسماعيل ، كان يوجد فى إيران حكام يستقل كل منهم بحكم منطقة ، منهم شروانشاه فى شروان ، ألوندبيك آق قويونلو فى آذربيجان وجزء من غرب ايران ، مراد بيك بايندر فى يزد ، السلطان مراد آق قويونلو فى جزء من العراق ، الرئيس محمد كره فى أبرقو ، حسين كياى چلاوى فى سمنان وخوار وفيروز كوه . باريك برناك فى عراق العرب ، قاسم بيك بن جهانگير فى ديار بكر ، القاضى محمد ومولانا مسعود فى كاشان ، السلطان حسين ميرزا التيمورى وأولاده فى خراسان ، بابر فى أفغانستان ، شيبانى خان فيما وراء النهر ، أبو الفتح بيك بايندر فى كرمان (حسن روملو : أحسن التواريخ ، ص ١٢ إلى ٥٠ وتاريخ زندگانى شاه عباس أول ، ص زمن المقدمة) .

واتباعاً ، الى حد أن هذا التجمع حول شيوخ الأسرة الصفوية قد اضطر قائداً كتيمور لنگ الى أن يذهب لزيارة خواجه على سياهپوش الجد الثالث للشاه اسماعيل .

فى أواخر عهد التيموريين ، زادت الفوضى والحروب الداخلية الأمور سوءا على سوء . وجعلت الناس ينتظرون بفارغ الصبر اليوم الذى يتخلصون فيه من هذه النكبات ، فأخذوا فى شد أزر الأسرة الصفوية . ولعل أولاد الشيخ صفى كانوا يسعون إلى زيادة عدد مريديهم . وفى ذلك يقول صاحب سلسلهٔ النسب صفويه : «إن شمس الدين البرنيقى الأردبيلى قال[1] : أحصيت عدد الراغبين والمشتاقين فى طريقة مراغة وتبريز ، فوجدت أن ثلاثة عشر ألفا قد جاءوا فى ثلاثة أشهر إلى حضرة الشيخ ، وأعلنوا التوبة . وقس على ذلك فى بقية الأطراف» .

كان لممارسة شيوخ الأسرة الصفوية للناحيتين الدينية والعسكرية معاً الأثر الكبير فى إبراز قدرتهم ونفوذهم . صحيح ان الشيخ صفى لم يكن له من هم سوى الأمور المعنوية والروحية التى قد تكون مصحوبة برغبة خفية فى تجميع اكبر عدد من المريدين والأتباع ؛ إلا ان أولاده من بعده وبخاصة جنيد وحيدر بدأوا ينظرون إلى القوة العسكرية على انها وسيلتهم فى تأديب المخالفين . فخلطوا بفعلهم هذا بين الأمور الروحية والدنيوية . وهيأوا المناخ لأبنهم اسماعيل ، فأعلن قيام الدولة مستفيداً من مركزه الروحى والمعنوى ومستخدماً افراد قبائل القزلباش الذين لا يهدفون إلى شىء سوى التضحية

---

(١) سلسلهٔ النسب صفويه : ص ٣٨ .

فى سبيل نصرة شيخهم[1] ومرشدهم الكامل .

---

(١) كان الشيخ صفى وابنه صدر الدين وحفيده خواجه على يعرفون فى حياتهم وبعد مماتهم بلقب (الشيخ) وقد ظل هذا اللقب دائماً فى محيط الأسرة حتى زمان الشاه اسماعيل الذى كان يدعى بـ (شيخ أوغلى) وهذا ينفى عنه لقب (السيد) الذى ادعاه لنفسه بأعتبار اتصاله فى النسب بعلى بن أبى طالب من ناحية أبيه وبحسن بيك تركمان آق قويونلو من ناحية أمه . ومع أن ادعاء (السيادة) كان فى البداية ضعيفا إلا أنه قوى بمرور الأيام وبتقدم اسماعيل فى الفتوحات وفرضه المذهب الشيعى . وقد أطلق الشاه اسماعيل على نفسه (اسماعيل بن حيدر الحسينى) ويؤيد ذلك ماأثبته هو نفسه وبخط يده ، ويوجد فى مكتبة استانبول تاريخ زندگانى شاه عباس أول ، ص ١٥٨ حيث أوردصورة فتوغرافيةلعبارة اسماعيل) كما أنه أشار إلى نفسه على أنه من أولاد على بن أبى طالب فى الرسالة التى بعث بها عام ٩١٥ هـ . إلى شيبانى خان قائد الأوزبك (فريدون بيگ : منشآت فريدون بيك ، برنجى جلد ، ص ٣٨٥) ولكن يرى بعض المحققين أنه لم يرد فى أى مصدر مايدل على سيادة الصفويين ،ولو أن الأمر كذلك لذكروا فى المصادر التاريخية على أنهم سادة أو امراء مثل السيد مشعشع مؤسس جماعة آل مشعشع فى خوزستان والأمير قاسم أنوار التبريزى من اتباع الشيخ صدر الدين والأمير نعمت الله الكرمانى والأمير قوام الدين المرعشى رئيس آل مرعش فى مازندران (تشكيل شاهنشاهى صفويه : ص ٤٨) وهذا مايؤكده المؤرخ المعروف رشيد الدين فضل الله فى رسالته إلى ابنه مير أحمدحاكم أردبيل بخصوص الشيخ صفى عندما قال : « إنه جناب قطب فلك الحقيقة ، وسباح بحار الشريعة ، ومساح مضمار الطريقة ، وشيخ الإسلام والمسلمين ، وبرهان الواصلين ، وقدوة صفة الصفا ، وشجرة دوحة الوفاء ، الشيخ صفى الملة والدين أدام الله بركات أنفاسه الشريفة ، إذن لم يشر رشيد الدين إلى سيادة الشيخ صفى ولو أنه كان سيداحقا لما توان عن الإشارة إلى ذلك . نظراً لما كان يتمتع به السادة فى العصر المغولى من احترام وا كبار (تاريخ زندگانى شاه عباس أول، ص ط ، حاشيه ١) وإن كان بن البزاز قد أشار إلى سيادة الشيخ صفى ، فمن=

ومن هنا يمكن النظر إلى محاولة اولاد الشيخ المرشد؟[1] صفى لتجميع قبائل القزلباش على انها كانت عملية ذكية وموفقة من جانبهم ، بحيث لا يستطيع دارس للعصر الصفوى ان يتجاهل دور هذه القبائل فى إيجاد الكيان الصفوى. فما هو اصل هذه القبائل ؟

— ٤ —

قبائل القزلباش :

تنشعب مجموعات القزلباش التركمانية من تسع قبائل هى روملو ، شاملو، استاجلو ، تكه لو ، ذو القدر ، افشار ، قاجار ، ورساق وصوفية قراباغ .

١ — قبيلة روملو : يبدو أن أقدم مريدى الاسرة الصفوية من مجموعات

= الثابت أن هذا الكتاب قد اعيد تنقيحه فى عصر طهاسب بواسطة ميرابو الفتح الحسينى الذى تصرف فيه كثيرا بحيث يلاحظ فرق كبير بين نسخه القديمة ونسخه التى ظهرت فى عصر طهاسب .

(١) الشيخ المرشد أو المرشد الكامل تعنى بالفارسية (مرشدى أو مرشد كامل) وهو اللقب الذى كانوا يطلقونه على الشيخ صفى وأولاده بحكم زعامتهم الروحية لفرق الدراويش . وقد تمكن الشيوخ الصفويون بواسطة هذا اللقب من تجميع أكبر عدد من المريدين الذين عرفوا بعد ذلك بـ (صوفيان صافى) ومفرد هذه الكلمة وهو (صوفى) اشتق من لباس الصوف الذى كان يرتديه هؤلاء الاتباع بتوجيه من الشيخ جنيد جد الشاه اسماعيل كعنوان للجهاد فى سبيل المذهب الشيعى . على أن هذا اللقب قد تبدل بعد ذلك إلى (خاقان اسكندر شان) بالنسبة للشاه اسماعيل و (سليمان شان) بالنسبة للشاه طهاسب (أحسن التواريخ ، ص ٤١ وتاريخ زندگانى شاه عباس أول ، ص ١٦٩ ، ١٧٤) .

القزلباش كانوا من قبيلة روملو . فقد التحق أفرادها بحلقة الصفويين منذ أيام خواجه على سياهپوش ، وأفرادها من سلالة أسرى أتراك كان تيمور لنگ قد أحضرهم إلى إيران بعد انتصاره على العثمانيين ، وأفرج عنهم بواسطة خواجه على نفسه .

٢ — قبيلة شاملو : هى أيضا من قبائل القزلباش المشهورة ، وأفرادها من المريدين القدماء للأسرة الصفوية ، وكان رؤساؤها يتقلدون الوظائف الكبيرة فى صدر العصر الصفوى على أيام الشاه اسماعيل الأول [١] .

٣ — قبيلة استاجلو : ساعد رؤساؤها الشاه اسماعيل الأول فى تحقيق مآربه العسكرية ، مثل خان محمد استاجلو الذى عينه الشاه اسماعيل حاكما على ديا بكر فى عام ٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م . وهزم علاء الدولة ذو القدر [٢] فى معارك كثيرة ، ووصل من القدرة إلى حد أنه كان يهدد السلطان سليم الأول [٣] .

٤ — قبيلة تكلو أو تكه لو : جاءت هذه القبيلة - فى الأصل - من ولاية تكه أو تك ايلى فى جنوب آسيا الصغرى ، والتحق واحد من شيوخها هو حسن خليفة بخدمة الشيخ حيدر والد الشاه اسماعيل فكلفه بالعودة إلى ولايته والترويج للمذهب الشيعى ، وتجميع المريدين ، وقد عاد ابنه شاه قلى بابا تكلو إلى إيران ومعه خمسة عشر ألف رجل .

---

(١) عالم آراى عباسى : ص ١٠٤

(٢) علاء الدوله هو بن ناصر الدين محمد ذو القدر ، وكان يستقل بحكم جزء من النواحى الشرقية لآسيا الصغرى والجزء الأعلى من نهر الفرات فى ولايات مرعش والبستان وخربوت وآمد وأورفه . وقد قتل فى عام ٩٢١ هـ . فى احدى المعارك الحربية ، وبموته انتهى حكم هـذه الأسرة الذى بدأ فى عام ٧٤٠ هـ . « تاريخ زندكانى شاه عباس أول ، ص ١٦٣ » .

(٣) تاريخ زندگانى شاه عباس أول ، ص ١٦٣

٥ — قبيلة ذى القدر : كان أفرادها يسكنون ديار بكر ، والتحق جمع منهم بخدمة الشيخ جنيد ، وبعد قتله نهضوا لمساعدة ابنه الشيخ حيدر .

٦ — قبيلة أفشار : هاجر أفراد هذه القبيلة من تركستان إلى آذربيجان لدى الغزو المغولى وأصبح أفرادها من أتباع الشيخ صفى . وهى تنقسم إلى شعبتين قاسملو، وأرخلو أو قرقلو وإلى الأخيرة ينتسب نادرأفشار . وقد سكن أفرادها آذربيجان وخمسة وقـــزوين وأطراف طهران وخراسان وفارس وكرمان ومازندران وخوزستان . وقد اشتق اسمها من أوشاريا أو وشار حفيد چنـگيزخان (١) .

٧ — قبيلة قاجار (٢) : يتصل نسب هذه القبيلة بقاجار نويان أحد قواد المغول . وقد استوطن أفرادها أرمنستان والشام حيث عاشوا على السلب والنهب (٣) وعندماعاد الأمير تيمورإلى إيران بعد هجومه على آسيا الصغرى والشام عام ٨٠٣هـ / ١٢٩٧ م أحضر معه جمعاً من القبائل التركمانية فى الشام وأرمنستان وآسيا الصغرى كان من ضمنها بعض أفراد هذه القبيلة الذين استوطنوا كنجه وايروان وحدود قراباغ ، والتحقوا بخدمة الشاه اسماعيل عندما غادر لاهيجان إلى آذربيجان (٤) .

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٦٤ .

(٢) وصل أفراد هذه القبيلة إلى مناصب عليا ، ولكنهم انقسموا فى زمان الشاه عباس إلى ثلاثة أقسام ؛ المجموعة الاولى فى نواحى مرو شمال خراسان لمواجهة الاوزبك والأتراك أعداء إيران . والمجموعة الثانية أقامت فى قراباغ وشمال نهر أرس لمواجهة هجوم طوائف اللزكى أما المجموعة الثالثة فقد استقرت فى جرجان .

(٣) كان ذلك فى عهد غازان خان (٦٩٤ حتى ٧٠٣ هـ) .

(٤) تاريخ زندگانى شاه عباس أول ، ص ١٦٥ .

٨ — قبيلة ورساق : هى الأخرى من القبائل التى كانت تسكن ناحية ورساق فى ولاية قرامان فى آسيا الصغرى . وقد نهض أبناؤها من هناك لنجدة الشاه اسماعيل[١] .

٩ — صوفية قراباغ : يقول حسن روملو صاحب كتاب أحسن التواريخ « إنه عندما نزل خاقان اسكندر شان (الشاه اسماعيل) بأرزنجان ، تجمع فى حضرته سبعة آلاف مريد صوفى من قبائل استاجلو وشاملو وروملو وتكلو ذو القدر وأفشار وقاجار وورساق وصوفية قرجه باغ »[٢] .

إذن كانت مجموعة من رؤساء هذه القبائل قد اعتنقت المذهب الشيعى منذ زمان طويل ، ويجوز منذ زمان الشيخ صفى ، وانخرطوا فى زمرة (صوفيان صافى) أو مريدى شيوخ الصفوية الشجعان إلى أن جاء الشيخ جنيد جد الشاه اسماعيل ووالده الشيخ حيدر ونهضا يغزوان ويجاهدان من أجل الوصول إلى السلطة اعتماداً على فدائية وإخلاص هؤلاء القوم ، وأضافا لقب السلطان على لقبهما الروحى الموروث (الشيخ) .

والشىء الذى كان يجمع أفراد طوائف القزلباش المختلفة منذ زمان الشاه اسماعيل الأول ويوحد بينهم ،هو حب الشاه والتضحية فى سبيل تحقيق مقاصد المرشد الكامل المقدسة التى تنحصر فى تدعيم الكيان الصفوى ،وإقرار المذهب الشيعى الأثنى عشرى[٣] .

وقد كان رجال القزلباش يعدون الشاه اسماعيل - ولم يكن له من العمر

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفوية . ص ٨٣ متن وحاشيه .

(٢) أحسن التواريخ : ص ٤١ .

(٣) تاريخ زندگانى شاه عباس أول ، ص ١٦٥ .

أكثر من ثلاث عشرة سنة — مثل أبيه وأجداده مرشداً كاملا. التبعية له لازمة، وتنفيذ أوامره واجب [١].

يقول تاجر إيطالي [٢] — كان في إيران في بداية أمر الشاه اسماعيل — مشيراً إلى إرادة وإيمان وتضحية قبائل القزلباش في سبيل رئيسهم: « يقدس المريدون وبخاصة الجنود منهم هذا الصوفي (أي الشاه اسماعيل) كما يقدسون الله. والبعض منهم يخوض الحروب دون سلاح معتقدين أن المرشد الكامل يحرسهم في ميدان الحرب. وقد نسوا الله في جميع أنحاء إيران. وما من اسم على الألسنة سوى اسماعيل ».

إذن، فعندما ظهر اسماعيل، كانت دعايات جده جنيد ووالده حيدر القائمة على أساس مذهبي في مظهرها ورغبة في العرش في جوهرها قد حققت الغاية المنشودة منها، واستوجبت ظهور رد فعل قوى ضد الأسرة الحاكمة في إيران والتي تدين بالمذهب السني. وقد بدا أثر هذه الدعايات واضحا بين المقيمين في المدن الغربية من إيران، ذلك أنهم كانوا على استعداد لقبول مذهب جديد معارض للمذهب السني منذ زمن غير بعيد.

---

(١) تاريخ زندگانى شاة عباس أول، ص ١٦٥، ١٦٦.
(٢) تاريخ ادبيات ايران: جلد چهادم. ص ٥٦.

الفصل الثالث

الشاه اسماعيل الأول

— ١ —

بداية الشاه اسماعيل :

ولد الشاه اسماعيل فى يوم الثلاثاء ٢٥ رجب عام ٨٩٢ هـ / ١٨ يونيه ١٤٨٧ م [١] وكانت حالة اسماعيل هو وأخيه ابراهيم قد ساءت بوفاة أخيهما الأكبر سلطان على . وقد استطاع مائتان من أتباع ومريدى البيت الصفوى نقلهما خفية من أردبيل إلى گيلان فى عام ٨٩٩ هـ / ١٤٩٤ م بعيداً عن رقابة رستم ميرزا .

وقد استدعى كاركيا ميرزا حاكم لاهيجان الذى كان أقوى حكام هذه النواحى الأخوين وأقامهما لديه . غير أن ابراهيم ميرزا عاد إلى أردبيل ، أما اسماعيل فقد بقى لدى حاكم لاهيجان حتى عام ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م. وطلب كاركيا ميرزا من الشيخ شمس الدين اللاهيجى القيام على تربية اسماعيل وتحفيظه القرآن الكريم [٢] .

وإذا كانت رغبة حاكم لاهيجان الجادة فى إعداد اسماعيل علمياً ثم عسكريا — وهو لم يزل بعد فى الثانية عشرة من عمره — تفسر لنا مدى استعداد حكام وأهالى المناطق الغربية فى إيران لقبول مذهب جديد معارض للمذهب السنى ، فإن السنوات الخمس التى أقامها أسماعيل فى لاهيجان قد أتاحت بدورها فرصة كبيرة لأتباع ومريدى البيت الصفوى فى الاتصال

---

(١) سلسلة النسب صفويه ، ص٦٨ وتشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٧٤ .

(٢) عالم آراى عباسى ، جلد أول ، ص٢٦ وشرح جنگها وتاريخ زندگانى شاه اسماعيل صفوى ، ص ١١٨ .

ببعضهم البعض بمساندة حاكم هذه المنطقه ، خصوصاً وأنهم كانوا قدبدأوا يفدون من جهات عديدة . وبدأت فى الأفق إرهاصات تجمع صفوى يرغب فى تحقيق أهداف مذهبية وسياسية معينة .

ولما شعر آلوند ميرزا رئيس أسرة آق قويونلو بخطر السياسة التوسعية للأسرة الصفوية كتب إلى حاكم لاهيجان يطلب منه إخراج اسماعيل ميرزا من دياره وإرساله إليه كشرط لايجاد صداقة بينهما ، وإلا فإنه سيهاجم لاهيجان ويبطش بأهلها . فأنكر كاركيا ميرزا وجود اسماعيل لديه . ولكن آلوند ميرزا لم يطمئن إلى هذا الرد ، وأرسل كاظم بيك التركمانى على رأس ثلاثمائة جندى إلى لاهيجان للقبض على اسماعيل . غير أن كاركيا ميرزا وضع اسماعيل فى قفص وعلقه فى أعلى شجرة ، وأقسم لرسول آلوند ميرزا أن اسماعيل لا يوجد فى أرضه . فعاد كاظم بيك إلى تبريز دون الوصول إلى فريسته(١) .

فى هذه الأثناء كان الصراع بين أفراد اسرة آق قويونلو قد بلغ أشده ، وأراد اتباع ومريدو البيت الصفوى ان يغتنموا هذه الفرصة ، فعرضوا على حاكم لاهيجان أفكارهم فى إعلان حركتهم رسمياً . ولكن كاركيا ميرزا رأى أن الوقت غير مناسب لصغر سن اسماعيل ، وأنه من الأصلح أن ينتظروا حتى تظهر نتيجة الصراع بين أفراد أسرة آق قويونلو .

بيد أنهم لم يستمعوا لنصح حاكم لاهيجان ، وخرج اسماعيل بصحبة سبعة من كبار مريديه هم حسين بيك لله ، دده بيك طالش ، خادم بك خليفه ، رستم بيك قهرمانى ، بايرام بيك قهرمانى ، الياس بيك آيغور اوغلى وقره

---

١ — تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٧٥ .

پیری بیک قاجار ، واتجهوا أول الأمر إلى طارم فى شكل مظاهرة مذهبية ساعدت على توافد المريدين والأتباع من آذربيجان ، قراباغ ، آسيا الصغرى وازديادهم عدداً وعدة كلما تقدموا فى طريقهم إلى أردبيل المقر الروحى للصفويين(٢).

ولكن حاكم أردبيل سلطان على بيك جاكرلو طلب منهم الرحيل عن أردبيل ، فغادروها بعد أن زاروا مقابر شيوخ الأسرة الصفوية قاصدين قراباغ ومنها إلى أرزنجان حيث اتجهوا الى طوالش بدعوة من حاكمها محمد سلطان طالش . ثم بقوا فى أرجوان على مقربة من استارا . وفى هذه المدينة كون الصفويون جيشاً باسم القزلباش فى عام ٩٠٥هـ/١٥٠٠ م(٢).

وهنا يجدر القول بأن الفترة التى قضاها اسماعيل لدى حاكم لاهيجان الذى اهتم بتربيته علمياً وعسكرياً ، ثم التفاف المريدين والأتباع حوله وتشجيعهم على أن يتحمل أعباء زعامة البيت الصفوى ، وتوافد أفراد القزلباش من كل صوب وحدب ، قد شد من أزر اسماعيل وأكسبه الحنكة والخبرة ، ففكر أول ما فكر فى الإنتقام لأبيه من حاكم شيروان فرخ يسار

---

٢ — عالم آراى عباس ، جلد أول ، ص ٢٥ إلى ٢٨

٣ — تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٧٦

الذى كان قد قتل أباه الشيخ حيدر ، فتوجه إلى شماخى فى عام ٩٠٦هـ/١٥٠٠م على رأس جيش من سبعه آلاف مقاتل من رجال القزلباش — وهو لم يزل فى الرابعة عشرة من عمره — واستطاعوا أن يهزموا جيش حاكم شيروان ويقتلوه فى نفس العام.[١]

وفى هذه الموقعة ، بدت على اسماعيل علامات القسوة والعنف ، فنراه يحرق جسد فرخ يسار ، ويقيم برجاً من رءوس القتلى ، ويخرب مقابر حكام شيروان ، وينبش قبر خليل الله والد فرخ يسار ، ويغنم الكثير من ممتلكات هذه الأسرة وخزائنها . ويضع نهاية لحكمهم . ويشرع اسماعيل فى تعقب سلطان ابراهيم بن فرخ يسار ، وكان قد تمكن من الهرب ، ونجح اسماعيل فى السيطرة على باكو.[٢] وكان لانتصار اسماعيل على فرخ يسار نتيجتان : الأولى سياسية : وهى أن الإيرانيين بدأوا يلتفون حول الأسرة الصفوية ، ويرون فى شخصية اسماعيل الصفوى منقذا لهم من دوامات الأسر الحاكمة ، وبذلك استطاع اسماعيل أن يضيف الكثير إلى أتباعه وأعوانه . والثانية اقتصادية : وهى أن الغنائم التى غنمها إسماعيل بعد هزيمة جيش شيروانشاه قد دعمت جيشه ، فتمكن من مواصلة الحرب ومواجهه أعدائه .

وقد وضعت سيطرة إسماعيل وأتباعه على باكو التقدم الصفوى فى موقع الصراع مع آلوندميرزا رئيس الآق قويونلو . ولكن الخلافات الأسرية بين أفراد الآق قويونلو ساهمت فى إضعاف آلوند ميرزا نفسه ، خصوصاً بعد أن فقد — بقتل حاكم شيروان — واحداً من أقوى حلفائه . وبدأ آلوند ميرزا

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٨٤ و ٨٥

(٢) المرجع السابق . ص ٨٥

يهادن اسماعيل الشاب الصاعد على مسرح الأحداث فى ايران [١]. وكتب إليه يطلب الهدنة فعلا ، يقول آلوند ميرزا فى رسالته إلى اسماعيل :

« لقد أمرك الله تعالى بالإقدام على الفتوحات ، وأنا راض عن عملك كثيراً ، ومستعد لتأييدك بدلا من معارضتك بشرط أن تعد نفسك من أسرتنا (إشارة إلى صلة القربى بين البيت الصفوى واوزن حسن مؤسس أسرة آق قويونلو) وأنا لا أمانع أبدا فى أن تنتقم من معارضيك ، ولا أن تستولى على شيروان ، وليس لى اعتراض على ذلك . فقط أريدك أن تبتعد عن ديارى وتعود أدراجك ، وإذا حدثت مشاكل فى انتظام واستقرار الأمور لديك ، فلن نتوانى عن تقديم أى نوع من المساعدة لأنك منا . وإذا اعتبرت طلبى من قبيل ضعف حكومتى . فسأحضر على رأس جيش يزيد عن ثلاثين ألف مقاتل لسحقك . وانى أقبل بقلب مفتوح ما يتفق عليه » .

وقد بعث اسماعيل فى رده على هذه الرسالة يقول « اعلم أن أخلاف الأسرة الصفوية قد تحملوا مظالم أسرة أوزن حسن منذ مدة طويلة . ومع ذلك فإنى أنسى الماضى . ولكن لأنى مسئول عن واجب لابد أن أنجزه . وهذا الواجب هو إقرار مذهب أجدادى . فإنى سابذل حياتى من أجله . وإذا كنت تريد أن تحتفظ بتاجك وعرشك ، فعليك باعتناق المذهب الشيعى وإذا قبلته سأجعلك شريكا فى انتصاراتى ، وإلا فسأنتقم لدم أبى منك ، واختر ماتشاء . » [٢]

ويبدو واضحاً من خلال الرسالتين السابقتين أمران مهمان. الأول: تراجع

---

(١) عالم آراى صفوى — مجهول المؤلف — باهتمام يد الله شكرى سال ١٣٥٠ ، ص ٦١ وما بعدها .

(٢) تاريخ شاه اسماعيل ، نسخه خطى . ب . ، نقلا عن تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٨٧

الحكام الأقوياء أمام تقدم الفتوحات الصفوية . والثانى تمسك اسماعيل الصفوى بالمذهب الشيعى وإصراره على أن يكون المذهب الأوحد فى إيران ، وأنه الأساس الذى ستقوم عليه السياسة الصفوية بعد ذلك .

ولم يقتنع آلوند ميرزا برد اسماعيل ، فجهز نفسه لمواجهته ، وكان اسماعيل فى هذه الأثناء يحاصر مدينة گلستان ، فرفع يده عنها ليواجه آلوند ميرزا ، وهاجم نخجوان . والتقى الجيشان عند شرور فى عام ٩٠٧هـ/١٥٠١م . وتمكن اسماعيل من هزيمة آلوند ميرزا الذى هرب إلى ارزنجان تاركا الكثير من المعدات العسكرية لجيش اسماعيل (١) .

— ٢ —

تتويج اسماعيل ملكا وإعلان المذهب الشيعى فى إيران :

بعد أن انتصر اسماعيل هذا الأنتصار الكبير على آلوند ميرزا ، توجه إلى تبريز عاصمة الآق قويونلو ودخل المدينة دخول المنتصرين ، واستقبله كبارها الاستقبال الجدير بالفاتحين (٢) .

وبدخول اسماعيل تبريز ، توّجه أعوانه ومريدوه ملكا على ايران ، ولقبوه بأبى المظفر شاه اسماعيل الهادى الوالى فى عام ٩٠٧هـ/١٥٠٢م . وأصدروا السكة باسمه (٣) .

---

(١) حبيب السير ، جزء ٤ ، ص ٤٦٢ ومابعدها .

(٢) يقول Angiolella الذى كان فى تبريز عند فتح أسماعيل لها : « إنه بعد بداية الحرب فى عام ١٤٩٩م (٩٠٥ هـ) بسنة ونصف سيطر الصوفى (إسماعيل) على تبريز ، وتصرف تجاه مخالفيه بقدرة كبيرة ، فقطع أوصال الكثير من الرجال ، العلماء ، النساء والأطفال وقبلت كل المدينة علامة القزلباش ، ووضعوا تاجهم على الرءوس . وقتل فى هذه المذبحة أكثر من عشرين ألف شخص . ثم أمر إسماعيل باخراج جثث الكثير من رؤساء الآق قويونلو من القبور وحرقها سفرنامه ايتاليائها درايران ، ص : ١٠٥ ، نقلا عن تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص : ٨٨

(٣) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٨٩ .

وما أن توج اسماعيل ملكا حتى أعلن فرض المذهب الشيعى مذهبا رسميا فى مختلف أنحاء إيران دون مقدمات . والواقع أن هذا التسرع فى فرض المذهب الشيعى قد أوجد الكثير من المشاكل ، فقد كانت إيران سنية المذهب ، وإن كانت العناصر الشيعية تتركز فى مدن مثل كاشان ، قم والري . بالإضافة إلى أن دعايات فرقة الإسماعيلية ودعاة الفاطميين فى مصر ودعايات الأسرة الصفوية ذاتها قد هيأت الرأى العام الايرانى إلى قبول المذهب الشيعى منذ زمن غير بعيد عندما مهد الايلخانيون الميدان لذلك .

وكان رد فعل هذا القرار من جانب اسماعيل عنيفاً لدى الناس حتى علماء الشيعة أنفسهم . فذهبوا إلى الشاه اسماعيل يقولون : «إن ثلاثة أرباع سكان تبريز من السنة ، ولا يدرون شيئاً عن المذهب الشيعى ، ونخشى أن يقولوا . لا نريد ملك الشيعة » . فأجاب اسماعيل . « لا يهمنى هذا الأمر ، فالله وحضرات الأئمة المعصومين معى ، وأنا لا أخشى أحدا ، وبإذن الله تعالى لو قال واحد من الرعية حرفا ، فسأسحب سيفى ولن أترك أحداً يعيش . » ثم أمر الخطباء والمؤذنين بأن يتلو تشهد الشيعة «أشهد أن عليا ولى الله ، حى على خير العمل» فى الآذان .(١)

وقد استسلم الناس لهذا التصميم على فرض المذهب الشيعى ، ماعدا البعض الذين لقوا حتفهم على يد اسماعيل . وبذلك تمكن الشاه اسماعيل من فرض المذهب الشيعى بحد السيف . وبدأ اسماعيل يفكر فى جلب أتباع الأسرة الصفويه من آسيا الصغرى وممتلكات الدولة العثمانية ، فبعث إليهم بالرسل بل إنه كتب إلى السلطان بايزيد الثانى بأن يأمر ولاته بالسماح لمريدى

---

(١) عالم آراى صفوى ، ص ٦٤

البيت الصفوى بزيارة أردبيل المقــر الروحى للصفويين ، وأن لايضعوا العراقيل أمامهم .(١)

ولدى إعلان المذهب الشيعى مذهباً رسميا فى إيران ، كانت الكتب التى تبحث فى المذهب الشيعى نادرة . الأمر الذى تعذر معه استيضاح أصوله وقواعده . فأخرج القاضى نصر الله الزيتونى الجزء الأول من كتاب قواعد الأحكام الإسلامية للعلامة جمال الدين بن على المطهر الحلى . وأصبح الأساس فى تعاليم الشيعة.(٢)

وبدأ اسماعيل بعد الجلوس على العرش ، يفكر فى إدارة امور المملكه . فاختار حسين بك لله نائبا له ، والشيخ شمس الدين اللاهيجى - الذى سبق أن تولى تربيته وتعليمه فى لاهيجان - حاملا للأختام الملكية ، ومحمد زكريا وزيراً له .(٣)

— ٣ —

جهود اسماعيل من أجل استقرار الأوضاع فى الداخل :

بذل اسماعيل جهودا مضنية بهدف استتباب الأمن فى داخل ايران ونشر المذهب الشيعى فى مختلف انحاء البلاد . وقد سبق أن ذكرنا أنه عند ظهور اسماعيل كانت أسر كثيرة يستقل كل منها بحكم جزء من ايران . ولكن لم يكن لهذه الحكومات أهمية كبيرة . فلم تمثل عائقا فى سبيل سيطرة اسماعيل على بقية ايران .

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفويه . ص ٩١

(٢) أحس التواريخ ، ص ٦١

(٣) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٩١

كان اسماعيل قد تمكن من هزيمة آلوند ميرزا آق قويونلو ، ودخل عاصمته تبريز . وعندما مات آلونديوزا فى عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م خلفه فى رئاسة آق قويونلو السلطان مراد الذى استمر يحكم فى فارس والعراق . وقد حاول الشاه اسماعيل أن يصادقه بهدف التخفيف من الأعباء الملقاة على عاتقه ولكن السلطان مراد رفض هذا العرض اعتمادا على مساندة العثمانيين له.[1] والتقى الطرفان بالقرب من همدان فى معركة طاحنة ، انتصر فيها اسماعيل بفضل شجاعة رجال القزلباش ، وهرب السلطان مراد إلى شيراز ثم إلى شوشتر . فاغتنم اسماعيل الفرصة ودخل شيراز . وفرض فيها المذهب الشيعى بحد السيف.[2]

وقد جعل دخول اسماعيل شيراز حاكم أبرقو محمد كره يسرع إلى تقديم فروض الطاعة والولاء للبيت الصفوى ، فأبقاه اسماعيل فى منصبه . وأمر الشاه اسماعيل — وهو فى شيراز — جان محمد استاجلو المعروف بخان سلطان بفتح كرمان . وما أن سمع حاكمها محمود بيك پرناك بقدوم الصفويين حتى هرب إلى خراسان محتميا بالسلطان حسين بايقرا وترك دياره مفتوحة أمام قوات اسماعيل .[3]

وبعد أن استتبت الأمور لاسماعيل فى فارس ، عهد بها إلى الياس بيگ

---

(١) كان السلطان مراد آق قويونلو يعتمد على مساندة العثمانيين له ، وكانوا قد وعدوه بمساعدة عسكرية . ولعل هذا هو السبب الذى دفعه لرفض صداقة اسماعيل ؛ على الرغم من ارتباط الاثنين بصلة القرابة من الدرجة الأولى . ولعل مراد كان يجهل أن السلطان العثمانى بمساندته إياه عسكريا كان يهدف إلى جعل ايران ضمن الدولة العثمانية .

(٢) عالم آراى صفوى ، ص ٨٩ ، ٩٠

(٣) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٠١

ذو القدر ، ورحل إلى العراق ، وعرج وهو فى الطريق على كاشان مركز الشيعة حيث استقبله أهلها بحفاوة بالغة ثم ذهب إلى قم مدينتهم المقدسة فى عام ٩٠٩هـ/١٥٠٣م . وأمضى فيها فصل الشتاء .(١)

وفى هذه الأثناء تمكن حسين كياى چلاوى حاكم مازندران من قتل حاكم تبريز من قبل اسماعيل ، واستولى على رستم دار ، فيروز كوه ، گل خندان ، رامين وسمنان . فهاجمه اسماعيل فى أوائل عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م وسخر مازندران ودخل قلعة گل خندان بعد معركة ضارية مع حاكمها باكيا أشرف ثم تحرك صوب فيروز كوه . ولكن جيش اسماعيل تمكن بعد ذلك من تعقب حسين كيا واعتقاله وقتله . ثم وضعوه فى قفص وحملوه إلى اصفهان ، وأشعلوا فيه النيران فى ميدان المدينة .(٢)

وقد أدى هذا الانتصار إلى نتائج طيبة فى صالح اسماعيل . إذ أسرع حاكم خراسان محمد حسين ميرزا بن السلطان حسين ميرزا ، وحكام مازندران نظام الدين عبد الكريم وآقارستم ، وحاكم لاهيجان على كاركيا إلى تقديم فروض الطاعة والولاء(٣) .

وبذلك دانت أنحاء إيران الشمالية والجنوبية لإسماعيل . ثم حدث تمرد ضده فى يزد عام ٩١٠ هـ/ ١٥٠٤ م فتوجه إليها عن طريق اصفهان ، وقتل الكثير من أهلها . وحدث نفس الشيء فى أبرقو ، ولكنه تمكن من القضاء على التمرد أيضاً . وخشى السلطان حسين ميرزا حاكم خراسان من قسوة الشاه اسماعيل ، فهرع يطلب الصفح عن ما ارتكبه مبعوثه كمال الدين صدر من

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ١٠١

(٢) عالم آراى صفوى ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٣) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٠٢

خطأ فى حق الشاه اسماعيل ، فقبل وعهد إلى حسين بيگ لله بحكومة يزد ، ورحل إلى اصفهان [١] .

وقد مكث اسماعيل فى أصفهان شتاء عام ٩١٠ هـ/١٥٠٤ م ، ثم عاد إلى عاصمته تبريز عن طريق همدان . وفى هذا الأثناء ، قدم إليه سفير السلطان بايزيد الثانى محمد چاوشى بالابان ليهنأه بفتح العراق وفارس . فأحسن اسماعيل وفادته . وقد عرض رسول السلطان العثمانى على اسماعيل إقامة علاقات ودية بين البلدين [٢] .

وبينما كان اسماعيل يتنفس الصعداء بعد هذا المجهود الضخم الذى بذله فى أواسط وشمال وجنوب إيران ، ثار ضده الأكراد اليزيديون [٣] فى الغرب من إيران فتحرك فى عام ٩١٣ هـ/١٥٠٦ م من أجـل القضاء على رئيسهم شيرصارم [٤] . وحمل عليه فى سورلوك . واعتقل اسماعيل شيرصارم ومن معه . وقد جعلت ثورة الأكراد هذه اسماعيل يفكر فى توسيع ممتلكاته من ناحية

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٠٣

(٢) تشكيل شاهنشاهى صفوية ، ص ١٠٤

(٣) لم يكن هؤلاء الأكراد يؤمنون بالمذهب الشيعى كبقية الإيرانيين ، ومع أنهم كانوا يلبسون القبعة الحمراء رمز القزلباش إلا أنهم كانوا ينفرون منها « تاريخ ادبيات ايران ، جلد چهارم ، ترجمة رشيد باسمى ، ص ٦٣ حاشية ١ » وكانت تجماعاتهم تقيم فى غرب العراق وفى ناحية شيخان فى سورية « تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٠٥ حاشيه ١ » .

(٤) ورد اسم شير صارم فى عالم آرى عباس ص ٢٣ جلد أول وحبيب السير ، ص ٤٨٣ ، ٤٨٤ وعالم آراى صفوى ، ص ١٠٤ ومابعدها على أنه صارم أو صارم خان ، ويبدو أن لقب شير ومعناه الأسد قـد أضيف إلى اسمه رمزا لشجاعته .

الغرب خاصة وأن آذربيجان ، العراق العجمى ، العراق العربى ، كرمان ، فارس ، وديار بكر ، كردستان وارمنستان كانت يوما تحت أمرة جده اوزن حسن رئيس الآق قريونلو ،وقـــد خرجت من قبضتهم بعد أن حل الضعف بهم .

كان السلطان مراد بن آلوند ميرزا آق قويونلو قد تمكن من الاستقرار فى ديار بكر عقب هزيمته من الشاه اسماعيل فى همدان وهروبه إلى شوشتر . وساعده فى هذا الاستقرار أنه تحالف مع أسرة علاء الدولة ذو القدر . غير أن اسماعيل تمكن من القضاء على الإثنين [1] ، واستولى على العراق العربى ، وأدخل كربلاء والنجف كمدن مقدسة للشيعة فى حوزة الصفويين عام ٩١٤ هـ/ ١٥٠٨ م . وعين خادم بيگ واليا على حكومة العراق ومنحه لقب خليفة الخلفاء [2] .

وتحرك الشاه اسماعيل بعد ذلك إلى خوزستان ولرستان ، وبدأ فى القضاء على طائفة الألوار فى لرستان [3] . وقد أقلق اسماعيل أيضا أن يدعى السلطان فياض رئيس واحدة من قبائل مشعشع العربية الألوهية فى نفس الوقت الذى تنتسب فيه قبيلته إلى على بن أبى طالب ، فتوجه إليه فى حويزة - مقر السلطان فياض - وقضى عليه هو وأتباعه [4] . وأرسل وهو فى طريقه

(١) عالم آراى صفوى : ص ١١٢ ومابعدها

(٢) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٠٩

(٣) هذه الطائفة كانت شيعية المذهب من الأصل . ويقال لهم (لرعباسى) إذ أنهم يتصلون فى النسب بعباس وقد رفضوا أن يدفعوا الجوية لحكام التركمان « قرا قويونلو وآق قويونلو ، وكانوا يقطعون طريق القوافل المارة بهم ولم يجسر حاكم بغداد أو غيره على تأديبهم » عالم آراى صفوى ، ص ١٣٠ »

(٤) عالم آراى صفوى ، ص ١٣٥ ومابعدها .

إلى حويزة جيشاً آخر برئاسة نجم الدين مسعود وبايرام بيگ قهرمانى وحسين بيك لله للقضاء على ملك شاه رستم الذى كان يقيم فى خرم آباد . وقد أحضر القادة الثلاثة ملكشاه أمام اسماعيل ، فاعتذر عما ارتكب من أخطاء . فقبل اسماعيل اعتذاره وعهد إليه بحكومة لرستان(١) . وتوجه اسماعيل بعد ذلك صوب شيراز ، وأمضى شتاء عام ٩١٥ هـ/ ١٥٠٨ م فى هذه المدينة ، قاضيا أوقات فراغه فى الصيد ثم توجه بعد ذلك إلى شيروان .

وكان هدف اسماعيل من سفره إلى شيروان أن شيخ شاه بن فرخ يسار حاكم شيروان السابق قد تمكن من طرد حسين بيگ لله والى اسماعيل على شيروان ، واستولى عليها . ولكن اسماعيل تمكن من ملاحقته واسترداد شيروان وتنصيب منصور بيگ حاكما عليها(٢) .

وقد توجه اسماعيل بعد ذلك إلى قراباغ . ثم عاد إلى العاصمة تبريز فى ربيع عام ٩١٦ هـ/ ١٥١٠ م بعد عشر سنوات من الحروب المتصلة فى مختلف أنحاء إيران للقضاء على أعدائه من ناحية وفرض المذهب الشيعى فى جميع ممتلكاته من ناحية أخرى . وقد استطاع فى ذلك الوقت ـ وكان فى الخامسة والعشرين من عمره ـ أن يقوى من ساعد الحكومة المركزية فى تبريز ويوحد إيران تقريباً ، ويصل بحدودها من شيروان فى جنوب شرق القفقاز إلى كرمان فى أقصى الجنوب الغربى لصحراء لوت باستثناء خراسان التى كانت فى قبضة قبائل الأوزبك القوية . وقد مثل الصراع مع هذه القبائل مرحلة جديدة وصعبة فى تاريخ الشاه اسماعيل .

---

(١) عالم آراى صفوى ، ص ١٣٣ ومابعدها .

(٢) تشكيل شاهنشاهى صفوية ، ص ١١٠ .

— ٤ —

الشاه اسماعيل وقبائل الأوزبك :

بعد أن فرغ الشاه اسماعيل الأول من القضاء على منافسيه المتفرقين فى مختلف أنحاء إيران ، بدأ يوجه همه إلى تأكيد وتدعيم الوحدة السياسية لإيران . وكان عليه من أجل تحقيق هذا الهدف أن ينظر فى أمر بقايا الأسرة التيمورية المتمركزة فى هراة وجزء من إقليم خراسان وآسيا الوسطى من ناحية وأمر قبائل الأوزبك القوية فى منطقة ما وراء النهر من ناحية أخرى .

كان الأوزبك قد أخذوا فى تهديد الأمراء التيموريين فى المناطق المتاخمة لنفوذهم . ولذلك حرص هؤلاء الأمراء على إيجاد نوع من الصداقة مع البيت الصفوى قد تقيهم شر هجمات الأوزبك . ومن ثم فقد وجدنا السلطان حسين التيمورى يحرص على إرسال مبعوثه محملا بالتحف والهدايا للشاه اسماعيل الصفوى لدى محاصرته يزد بهدف دعم العلاقات .

وهكذا كان حال بابر التيمورى فى الهند . فقد خشى هجوم الأوزبك ، وسعى إلى التقرب من الشاه اسماعيل ، وأرسل إليه مساعدات فعالة لم يستفد منها الشاه اسماعيل الصفوى بالطريقة التى تنبغى ، لأنه كان قد دخل فعلا ميدان الصراع مع الأوزبك الذين تمكنوا من وضع يدهم على بعض ممتلكات اسماعيل(١) .

ولم يكن هجوم قبائل الأوزبك على إيران فى عصر اسماعيل من قبيل هجوم القبائل التى تدفع عن نفسها غائلة الأعداء بقصد السعى وراء المرعى والاستقرار المؤقت(٢) . ولكنه كان هجوما منسقا قويا ينبعث من استقرار

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١١٣ .

(٢) شهد التاريخ حركة خروج الجماعات البدائية من مواطنها الأصلية فى أواسط آسيا [illegible] ، واندفاعها أحيانا أخرى إلى غربى آسيا ووسطها . وهى =

طويل لهذه القبائل النازحة من هضاب آسيا ، ومن رغبه ومحاولة جادتين فى تكوين كيان سياسى .

وقد منح هذا الوضع المستقر لقبائل الأوزبك القدرة على النفاذ إلى ممتلكات التيموريين والسيطرة على بعض منها خاصة فى عهد رئيس الأوزبك محمد خان شيبانى .

وكان بابر الذى تولى حكم ولاية فرغانة فى عام ٩٠٧ هـ/ ١٥٠١ م قد حاول من جانبه أن يستولى على ما وراء النهر مقر الأوزبك ، ولكن شيبك خان هزمه واستولى على سمرقند وبخارا وطشقند ثم توجه إلى قندهار وحمل على خراسان ، وخلع خلفاء تيمور منها . واستقر فيها عام ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م لحين،عاد بعده إلى ماوراء النهر . وفى ربيع عام ٩١٤ هـ/١٥٠٨ م اتجه ثانية إلى خراسان واستقر فيها . فاضطر بديع الزمان ميرزا إلى الالتجاء لدى اسماعيل الصفوى طالباً المساعدة منه ضد الأوزبك.(١)

ولم يكن الشاه اسماعيل — حتى هذا الوقت — قد بدأ يواجه الأوزبك . ولكن تحركاتهم هذه كانت بمثابة البداية للصراع بينهم وبين الصفويين . خاصة وأن الطرفين من مذهبين مختلفين ، وكلاهما متعصب لمذهبه .

= حركة امتدت من القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى إلى القرن الحادى عشر الهجرى السابع عشر الميلادى وكان خروج هذه الجماعات من مواطنها الأصلية يرجع إما إلى ظروف اقتصادية ملحة كأن يكثر عدد أفرادها ويصبح المكان الذى تقيم فيه لايفى بحاجاتها فتبحث عن مكان آخر أكثر اتساعاً وأوفر خيرات وإما إلى ضغط قبائل أكثر قوه تجبرها على الرحيل لتبحث عن موطن آخر » عبد النعيم محمد حسنين : دولة السلاجقة . ص ٧ » .

١ — تشكيل شاهنشاهى صفوية ، ص ١١٤

وبعد أن سيطر شيبك خان على خراسان فى عام ٩١٣ هـ/١٥٠٧ م هاجم كرمان منتهزا فرصة انشغال اسماعيل بتأديب حاكم شيروان . واستطاع شيبك خان قتل خواجه شيخ محمد حاكم كرمان والإغارة على الإقليم[١] . وعلى الرغم من ذلك أرسل اسماعيل مبعوثين من جانبه إلى شيبك خان عرضا عليه الرغبة فى إقامة علاقات تقوم على حسن التفاهم والاحترام المتبادل. ولكن قائد الأوزبك ردهما خائبين[٢] . ثم عاد وأرسل رسالة إلى اسماعيل بواسطة كمال الدين حسين الأبيوردى يتساءل فيها عن أحقية اسماعيل فى التاج والعرش الإيرانى . ويخاطبه قائلا : إنه إذا كانت الملكية وراثة ، فإن الوراثة تتعلق بالذكور وليس بالإناث ، أى أنها تتعلق بالنسل من ناحية الأب لا من ناحية الأم . وأن زواج جد الشاه اسماعيل (أى الشيخ جنيد) من أخت أوزن حسن رئيس قبائل الآق قويونلو[٣] لا يعطيه الحق فى تاج وعرش إيران . وبالتالى فإن أدعاء الأحقية فى حكم كرمان أمر لا أساس له من صحة، وأضاف فى نهاية رسالته : إنه كمسلم حقيقى ينوى أداء فريضة الحج ، وعند العودة يمكن الاحتكام إلى السيف . كما أشار ضمنا إلى أن إقليم فارس حق لوالده أبى الخير[٤] ، ومن ثم فإن ذكر اسمه فى الخطبة وضربه على السكة أمر واجب .

وقد أجاب اسماعيل على رسالة شيبك خان « بأن كل فرد يواصل طريق

---

(١) أحمد على خان وزيرى كرمانى . تاريخ كرمان ، ص ٢٥٦

(٢) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١١٥

(٣) انظر الحديث الخاص بأولاد الشيخ صفى فى هذا القسم .

(٤) انظر الحديث الخاص بالتوسع المتزايد لقبائل الاوزبك فى اقليم ماوراء النهر فى هذا القسم .

أبيه ، وأنه لايدرى كيف أعطى جنگيزخان الحق لنفسه فى ايران العريقة[١]

فيأيها الثعلب الأجوف ؛ لا تفخر بنفسك وبأبيك الذى مات . ولا تزهو بعظامه التى نخرت فإن هذا عادة الـكلاب[٢] . وأضاف أنه ينوى زيارة الإمام الرضا ، وأنه ينتظر اللقاء . فإذا أردت أن تلاقينى ، فها أنت ، وها هو ميدان الحرب ، واذا أردت أن تهرب فيـكفى ترحمنا عليك . وأترك الأمور للهجوم العنيف والضربات القاضية فى ميدان الحرب .

وقد اعتبر اسماعيل رسالته إلى شيبك خان بمثابة إعلان للحرب . وبدأ يتحرك صوب خراسان على رأس جيش قوى . ومنذ ذلك الحين بدأت الرسائل فيما بين الاثنين تأخذ طابع الحدة وتوجيه الشتائم . وفى الطريق إلى خراسان، أجبر الشاه اسماعيل أحمـــد سلطان حاكم دامغان وصهر شيبك خان على التقهقر . كما أن شيبك خان الذى كان عائداً من حملته على منطقة هزاره فى شرقى هراة فى صيف عام ٩١٦هـ/١٥١٠م لم يستطع أن يواجه جيش اسماعيل، وترك جان وفا ميرزا فى هراة وتوجه إلى مرو ليعيد تجهيز جيشه ويطلب المساعدة من عبيد الله خان ومحمد تيمور سلطان وسائر أمراء الأوزبك فى بخارا وسمرقند[٣] ،

واصل اسماعيل تقدمه إلى مرو ، ووقع أول صدام بينه وبين الأوزبك فى طاهر آباد ، وانتصر فيـــه ، وحاصر مرو فى العشرين من شعبان عام

---

(١) يقصد إسماعيل بهذه العبارة أن شيبك خان من نسل چنگيز خان .

(٢) تشكيل شاهنشاهى صفوية ، ص ١١٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

٩١٦ هـ/١٥١٠ م . وطال الحصار لسبعة أيام (١) لم يستسلم فيها الأوزبك على أمل وصول المدد من تركستان . ومن ثم فقد لجأ اسماعيل إلى الحيلة . فأمر جيشه بالانسحاب فى يوم الأربعاء ٢٨ شعبان ٩١٦ هـ/١٥١٠ م . وأرسل إلى شيبك خان يقول له : إن تمرداً حدث ضده فى آذربيجان ، ولابد أن نرحل وعندما تستعدون يحدث اللقاء .

وبعد فك الحصار ، أقام اسماعيل معسكراً فى قرية محمود آباد على بعد ثلاثة فراسخ من مرو . وأمر قائده أمير خان موصلو بأن يخرج على رأس ثلاثمائة من جنوده لمراقبة شيبك خان ، وعندما يظهر يفر هارباً .

وقد تصور شيبك خان أن اسماعيل رحل بالفعل ، وأنه لن يتوقف قبل العراق . فأراد أن يلحق بجيش اسماعيل ويضرب مؤخرته على خلاف رغبة قواده . ولكن ما أن وصل الى معسكر اسماعيل ، ووجده على استعداد للحرب ، أدرك أنه خدع ، ولكن مامن سبيل . والتقى الجيشان فى محمود آباد ودارت رحى معركة طاحنة انتصر فيها اسماعيل على الأوزبك ، وقتل منهم عدداً كبيراً ، أما شيبك خان فكان نصيبه القتل تحت أرجل الجياد ، وفى رواية أخرى أن اسماعيل ضربه بسهم فقتله (٢) . وقد أمر اسماعيل بفصل جسم شيبك خان عن رأسه ، وملء جلد رأسه بالقش وإرساله الى السلطان العثمانى ليتأكد من انتصار الصفويين على الأوزبك . أما رأس شيبك خان

---

(١) أبدى كل من ديو سلطان روملو ، زيان سلطان استاجلو ، بادنجان سلطان روملو . زينال سلطان شاملو ومحمد سلطان طالش وهم قادة جيش إسماعيل شجاعة نادرة فى هذا الحصار .

(٢) يقولون أنهم وضعوا شيبك خان فى شبكة ، وأطلق إسماعيل سهما قتله « تشكيل شاهنشاهى صفوية ، ص ١٢٥ متن وحاشية »

قد فرغوها وطلوها وصنعوا منها كأسا يشرب اسماعيل فيها الخمر[١] . كما قطعوا جسده قطعاً قطعا ، وأرسلوا كل قطعة إلى ولاية . وبعثوا بإحدى يديه إلى حاكم مازندران آقا رستم روز افزون ، ذلك أنه كان قد ضرب صفحا عن أوامر اسماعيل وقال : « مادمت مع شيبك خان قائد الأوزبك ، فإنى لا أخشى أحدا »[٢] .

وعندما قتل شيبك خان كان له من العمر واحد وستون عاما . وكان متعصبا للمذهب السنى . وبعد موته ، أعمل الشاه اسماعيل القتل فى أهل مرو وأمضى فصل الشتاء فى هراة ، وأعلن فيها المذهب الشيعى مذهبا رسميا . ذلك أن أهالى هذه النواحى كانت ترتبط بالمذهب السنى. وقد نصب الشاه اسماعيل دده بيك سلطان حاكما على مرو .

وفى هذه الأثناء عرض بابر على الشاه اسماعيل معاهدة صداقة بشرط أن يترك له المناطق التى يحكمها . فوافق اسماعيل الذى رأى أنه من الخير له أن يحكم بابر هذه الجهات بدلا من أن تتجدد فيها هجمات الأوزبك . كما أنه كان يريد أن يتفرغ للعثمانيين الذين بدأوا يهددون النواحى القريبة من إيران حتى العاصمة تبريز . وكان عليه أن يستعد للقائهم . ولذلك بعث اسماعيل

---

(١) يقول براون أن كمال الدين محمود الساغرچى قد استدعى هو وجماعة من الأسرى أمام إسماعيل الذى كانه يشرب الخمر فى ذلك الوقت ، فقال له : أيها السيد ، هل تعرف هذه القدح ؟ إنها رأس سيدك ، (تاريخ ادبيات إيران ، جلد چهارم ، ص ٦٩) .

(٢) المرجع السابق : ص ٦٨ حيث يقول براون أن درويش محمد يساول قد وصل إلى سادى وهو يحمل يد شيبك خان . ودخل على حاكم مازندران الذى كان يشرب الخمر ، فألقاها أمامه ، وقال له: هذه يد سيدك . ولم يطل الوقت حتى مات هذا الحاكم من هول الموقف .

برسول إلى بابر يحمل الموافقة والهـــدايا ويصطحب شقيقة بابر خانزاده بيـگم [١] .

وكان اسماعيل يعرف أن قبائل الأوزبك مازال لديها العدة والعتاد ، وأنها قادرة على مواصلة الحرب على الرغم من مقتل شيبانى خان رئيسهم المقتدر . وهذا هو ماحدث فعلا إذ أسرع الأوزبك إلى اختيار رئيسهم الجديد والالتفاف حوله وهو كوشون خان بن أبو الخير خان . وكان تيمور سلطان بن شيبانى خان يحكم فى هذه الأثناء فى سمرقند ، وعبيد الله سلطان يحـكم فى بخارا . وقد قرر الثلاثة على أن يعرضوا الصلح على اسماعيل ، فوافق اسماعيل - تفرغا للعثمانيين - فى عام ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م .

وكانت هذه المعاهدة تنص على أن تبقى تركستان للأوزبك ، وأن لا يتعرض لها الصفويون . وأن تعود خوارزم للشاه اسماعيل . وقد أضاف إلحاق هذه المنطقة بممتلـكات الشاه اسماعيل نصرا جديدا إلى الصفويين [٢] .

وبمجرد أن تحرك اسماعيل إلى المناطق الغربية من إيران ، عاد الأوزبك إلى إعلان التمرد ونقض اتفاق الصلح . فطلب اسماعيل من بابر الاستيلاء على ماوراء النهر معقل الأوزبك . فتحرك من كابل إلى بدخشان ، وانضم إليه خان ميرزا حاكمها . وتمـكنا من هزيمـــة الأوزبك ، وطلبا المساعدة من

---

(١) كان شيبك خان قد أسرها فى عام ٩٠٦ هـ فى سمرقند وتزوجها وأنجب منها ولدا هو خرمشاه الذى وصل بعد ذلك إلى رئاسة حكومة بلخ . ولـكن شيبك خان طلقها عندما علم بأنها تدبر مع شقيقها بابر مؤامرة لاغتياله . فتزوجت من شخص يدعى سيد هادى . وقد أسرها القزلباش فى مرو بعد هزيمة شيبك خان « تشكيل شاهنشاهى صفوية ، ص ١٢٧ ، حاشية ١ »

(٢) تشكيل شاهنشاهى صفوية ، ص ١٢٨

اسماعيل للقضاء نهائيا على الأوزبك . فأمدهما بجيش يقوده كل من أحمد بيك صوفى أوغلى وشاهرخ بيك أفشار . فتمكنوا من دخول سمرقند ، وضرب السكة باسم اسماعيل . واضطر الأوزبك إلى التقهقر فى أعماق تركستان[١] .

ومكث بابر فى سمرقند لمدة ، شغلته فيها أمور ما وراء النهر ، وقد حاول أن يؤسس جيشا شبيها بجيش اسماعيل ، وأطلق عليه اسم القزلباش ولكن تكوين هذا الجيش بما يرمز إليه من معنى شيعى لم يلق موافقة من أهل هـــذه المناطق الذين يفضلون المذهب السنى على الرغم من تبعيتهم للصفويين . فأوجد هذا العمل ثورة داخلية فى هذه المناطق خاصة سمرقند وبخارا وصلت إلى حد أن بابر فقد نفوذه فى ماوراء النهر . وفى عام ٩١٨ هـ/ ١٥١٣ م انتهز الأوزبك الفرصة ، وحملوا برئاسة عبيد الله خان على طشقند واستولوا عليها . وانتصروا على بابر فى الموقعة التى حدثت بالقرب من بخارا فاضطر إلى ترك سمرقند وبخارا وهرب . وبذلك سقطت حكومته[٢] .

وقد أرسل الشاه اسماعيل جيشاً يقوده زين العابدين صفوى ، قرا بيرى بيك قاجار ، زينال سلطان شاملو ، خواجه محمود ونجم ثانى لمحاربة الأوزبك . ولكن تمكن الأوزبك من الانتصار عليهم . وقد ضايق هذا الأمر اسماعيل كثيراً . وتوجه هو إلى مشهد عن طريق ساوه وفيروز كوه فأخلى الأوزبك إقليم خراسان - وكانوا قد استولوا عليه - وهرب عبيد الله خان إلى مرو ومنها إلى بخارا ، وفر محمد تيمور سلطان من هراة إلى سمرقند ولجأت بقية جيش الأوزبك إلى غرجستان . وعين الشاه اسماعيل زينال

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفويه : ص ١٢٩ .

(٢) تشكيل شاهنشاهى صفوية ، ص ١٣٠

سلطان شاملو حاكما على هراة . وأمر بالإستيلاء على بلخ وقندهار . وبذلك عادت خراسان من جديد إلى حوزة الصفويين . ثم توجه اسماعيل صوب العراق[١] .

— ٥ —

الصراع بين الشاه اسماعيل والعثمانيين :

بادىء ذى بدء ينبغى أن نعرض فى اختصار لخلفية العلاقة بين الإيرانيين والأتراك التى تطورت مع مرور الزمن إلى ذلك الصراع بين الصفويين والعثمانيين والذى تمثلت قمته فى عصر اسماعيل فى موقعة چالداران.

بعد أن قضى الفتح العربى لإيران على الدولة الساسانية . بدأت هجرة القبائل التركية والتترية والمغولية إلى الشرق الأوسط عن طريق إيران . وكانت هجرة الأتراك هى أول اتصال فعلى بينهم وبين الإيرانيين . وقد بدأت العلاقات الحقيقية بين الطرفين فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى عندما وصل السلاجقة ضمن قبائل الغز إلى أرمنستان وآسيا الصغرى ودول الشرق الأوسط الأخرى . وكان الأتراك العثمانيون قد جاءوا إلى هذه الأماكن فى صحبة قبائل الغز هذه[٢] .

وقد استطاع عثمان بن طغرل[٣] أن يؤسس أسرة استمرت تحكم من ٦٩٩ — ١٣٣٧ ﻫ / ١٣٠١ — ١٩٢٣ م . وفى هذا الوقت الذى استطاع فيه العثمانيون تشكيل أمبرطورية كبيرة ، كانت طائفة أخرى من الأتراك قد

(١) تشكيل شاهنشاهى صفويه : ص ١٣١ و١٣٢

(٢) المرجع السابق ١٣٩ وما بعدها .

(٣) ولد فى عام ٦٥٩ ﻫ / ١٢٥٨م

امتزجت بالمغول فزاد عددهم ، وصاروا يعرفون بالتركان أو ترك الشرق الأوسط ، وكونوا مجتمعا يرتبط بالمجتمعات الإيرانية والكردية والعربية ، وشرعوا فى تكوين حكومات تركمانية (الآق قويونلو والقراقويونلو) مثلت حاجزا بين الامبراطورية العثمانية التى كانت تتسع عاما بعد عام ، بين وإيران التى أصبحت موطنا للفوضى والفساد والصراعات الأسرية[١] .

وكان فتح القسطنطينية بواسطة السلطان محمد الفاتح عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م بداية للصراع الطويل والاختلافات السياسية بين الايرانيين والعثمانيين . ولكن قبائل الآق قويونلو التى كانت تحكم على حدود العثمانيين أنقذت إيران من خطرهم ، وأغلق أوزن حسن رئيس هـذه الأسرة الطريق فى وجههم ، بما له من دراية بأقرانه العثمانيين . وان كان هذا الاغلاق الى حين[٢] .

كما ساعد اتحاد أوزن حسن مع حكومتى طرابزون وگرجستان المسيحيتين الذى تدعم بزواجه من أخت أمبراطور طرابزون كورا كاترينا[٣] على

---

(١) أنظر حديثنا عن آسرتى قرا وآق قويونلو فى الفصل الأول من هذا القسم.

(٢) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٤٢

(٣) فى عام ٨٦٣ هـ / ١٤٥٨ م طلب أوزن حسن الزواج من كاترينا إبنة كالو يوهانس [كالو يوحنا] ملك طرابزون . ولكن كالو يوهانس مات فى تلك السنة وخلفه على العرش أخود داود ، وأرسل كاترينا إلى أوزن حسن . وتسمى المصادر الاوربية هذه السيدة [دسبينا] لأن لقبها اليونانى هو [Despeiona] ويعادل خاتون فى الفارسية . وقد تزوجت مارتا أخت دسپينا من الشيخ حيدر وقد سماها صاحب سلسلة النسب [باجى آغا] وصاحب حبيب السير [حليمه بيكى آغا] وصاحب صحايف الأخبار [عالم شاه بيگم] وكان التركمان يسمونها [جليمه بيكى آغا] ويلقبونها [عالم شاه بيكم]

أن أقامت هذه الدول مشتركة وحدة سياسية ضد الدولة العثمانية و كان أوزن حسن يرنو ببصره الى طرابزون ، ويفكر فى إبعادها عن حوزة السلطان العثمانى . ومن ثم فقد وقع الصراع بينهما ، وانتهى بسيطرة السلطان محمد الثانى على طرابزون وساءت العلاقات بين الطرفين .

وقد شجعت العناصر المعارضة للعثمانيين أسرة آق قويونلو على الدخول ثانية فى حرب مع العثمانيين فوقعت حربان . أولهما : فى حافة الفرات العليا عام ٨٦٤هـ/ ١٤٦٠م،وانتهت بهدنة . وثانيتهما: فى ترجان عام ٨٧٧هـ/١٤٧٣م وانتهت بهزيمة أوزن حسن وعقد صلح بين الطرفين .

(ا) الشاه اسماعيل الأول والسلطان بايزيد العثمانى :

سمح انقراض حكومة الآق قويونلو على يد اسماعيل الصفوى بفترة هدوء سادت العلاقات التركية الإيرانية خاصة أن العثمانيين كانوا قد شغلوا حينئذ باوربا . وقد ساعد على هذا الهدوء أن السلطان بايزيد الثانى الذى تولى بعد السلطان محمد كان سلس الطبع يحب الأدب والفلسفة ، فلم يفكر فى الفتوحات ، ولم يكن على استعداد لإمداد الآق قويونلو بالمساعدة فى حربهم ضد الشاه اسماعيل بمقتضى معاهدة الصلح بين الطرفين . بل إنه خيب أمل آلوند ميرزا منافس الصفويين عندما طلب منه المساعدة من أجل محاربة اسماعيل عدوهما المشترك .

وفى نفس الوقت طلب السلطان بايزيد من حاجى رستم بيك مكرى كرد حاكم ديار بكر أن يوافيه بتقرير عن حقيقة التوسع الصفوى واستعدادات اسماعيل ، ولأى الطرفين من الصفويين والآق قويونلو تميل كفة الانتصار ؟ وقد أجاب حاكم ديار بكر عن أسئلة السلطان العثمانى بأن آلوند ميرزا قد هزم وأن الشاه اسماعيل يستعد للاتحاد مع مصر ضد العثمانيين ،وعلى وشك الوصول

إلى ديار بكر ومرعش ، وأن أحوال إيران قد اضطربت بسبب الصفويين [١]

وبانقراض الآق قويونلو ، بدأت العلاقات بين العثمانيين والصفويين تنحو نحوا آخر . وشرعا يتنافسان على ممتلكات الآق قويونلو التى تقع فى حدود كلا الدولتين . وكان من الطبيعى أن يبرز هذا التنافس الخلافات السياسية والحقد المذهبي والتباين فى الجنس . على أن هذا التنافس ظل طوال عهد بايزيد الثانى مستترا بفعل الاضطرابات الداخلية فى كل من الدولتين ، ويبدو ذلك من خلال الرسائل المتبادلة التى تظهر الصداقة وتخفى العداء .

ففى واحدة من هذه الرسائل طلب اسماعيل من بايزيد [٢] أن لا يمنع الشيعة فى الأراضى العثمانية [٣] من زيارة أردبيل . ويجيب بايزيد على ذلك بأن السبب فى منعهم هو الجندية وليس زيارة مدنهم المقدسة . ومع ذلك ؛ فإنى قد أمرت بأن يخرج كل من يرغب منهم فى زيارة أولياء الله . حتى تظل روابط المحبة قائمة ولا ينقطع حبل المودة كما يرغب الطرفان [٤] .

وعندما علم بايزيد بأن الصفويين قد فرضوا سلطانهم على إيران ، أرسل فى عام ٩١٠ هـ / ١٤١٥ م سفيره محمد جاوش بالابان محملا بالهدايا الكثيرة ، ليقدم التهنئة إلى اسماعيل بفتح العراق وفارس . وكان بايزيد يقصد من ذلك تدعيم العلاقات العثمانية الصفوية . ولكنه علم بأن اسماعيل تمادى فى إلحاق

---

(١) منشآت فريدون بيك ، جزء ١ ص ٣٥٣ و ٣٥٤

(٢) المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٣٤٥ . والرسالة مكتوبة باللغة الفارسية وليس لها تاريخ .

(٣) كان أتباع الصفوية فى الأراض العثمانية من الكثرة بمكان ، وكانوا يقومون بالدعوة لهم .

(٤) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٥٠

الآذى بالسنة ، مما جعلهم يهربون إلى الأراضى العثمانية (١) . فكتب بايزيد إلى اسماعيل يطلب منه التزام جانب العقل فى معاملة السنة أمواتاً وأحياء (٢) وأن يقتدى فى تصرفاته بتاريخ إيران وحضارتها العريقة، ففيهما المثل الأعلى (٣)

وكان رد الفعل عند اسماعيل إيجابيا . فعندما كان يحارب علاء الدولة ذا القدر ، واضطر إلى أن يعبر حدود قيصريه من ممتلكات العثمانيين وهو فى الطريق إلى بستان . أمر قواده وجنوده بألا يتعرضوا لأرواح وأموال الرعايا والدهاقين ، وأن يعاملوهم بالحسنى . وبعث إلى السلطان العثمانى يعتذر له على اختراق الأراضى العثمانية ، وأنه لا يفكر مطلقا فى إحداث خلل فى العلاقات القديمة من البلدين (٤) .

وتمثل رضاء السلطان العثمانى على تصرف اسماعيل فى هذه الألقاب الضخمة التى خلعها عليه فى مقدمة الرسالة التى بعث بها رداً على رسالة اسماعيل فذكر فى أولها (٤) : « المليك الأعظم والمتوج الأكرم ، ملك ممالك العجم والمنسق الجديد لبلاد الترك والديلم، جمشيد العصر وكيخسرو (٥) الزمان المؤيد عند الله ، الملك الجليل الشاه اسماعيل أسس الله قواعد عدله وعمره وأيده بتوفيقه ونصره . »

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٥٣ و ١٥٤

(٢) كان رجال القولباش ينبشون قبور شيوخ السنة تماديا فى إلحاق الأذى باتباع هذا المذهب .

(٣) نصر الله فلسفى : مجله" دانشكده" ادبيات شماره ، سال أول دى ١٣٣٢ جنك چالداران .

(٤) منشآت فريدون بيك ، جزء ١ ص ٣٤٦ و ٣٤٧ .

(٥) إشارة إلى جمشيد وكيخسرو ومن ملوك إيران القدماء

ولكن عندما كان اسماعيل فى داخل الأراضى العثمانية ، انتهك سليم الأول حاكم طرابزون حدود إيران عدة مرات ، ووصل إلى ارزنجان ، وأسر إبراهيم شقيق اسماعيل . فأرسل الشاه الصفوى إلى السلطان العثمانى يعترض على تصرف سليم ، ويذكر بالصداقه الصفوبة العثمانية . ولكن البلاط العثمانى لم يحسن وفادة سفير اسماعيل . [1]

وقد رد اسماعيل الصاع صاعين عند قدوم السفير العثمانى إلى بلاطه لتقديم الرد العثمانى على رسالته ، وامتهنه امتهانا شديدا . ومن هنا فقد تبدلت العلاقات الودية بين الدولتين إلى مواجهة سافرة بينهما . وقد ساعد على هذا التحول ظهور سليم الأول فى الأفق العثمانى بعد خلافات أسرية كبيرة [2] .

وفى هذه الأثناء ، حدث تمرد فى ولاية تكه ايلى فى الحدود الشرقية من الدولة العثمانية . انتهى بحرب أهلية . ففى عام ٩١٧ هـ / ١٥١١ م تم اختيار بابا شاه قلى بن حسن خليفه رئيس طائفة تكلو القزلباشية خليفة لأبيه [3] . وقد خف أهل هذه المنطقة — وكانوا من الشيعة المتعصبين — لتأييده باعتبار أنه مندوب الشاه اسماعيل ، وقتلوا الحاكم العثمانى المفوض من السلطان بايزيد العثمانى بإخماد هذا التمرد . كما بادر أتباع الشاه اسماعيل فى أنحاء الأراضى العثمانية بامداد بابا قلى بالمساعدات ، وهاجموا منطقه قرامان ، وانتصروا على حاكمها قرا كوز باشا . وحملوا على ولاية سيواس . مما أجبر

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٥٥ ، ١٥٦

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٧

(٣) سبقت الإشارة إلى قبيله تكلو أو تكه ايلى ضمن الحديث عن قبائل القزلباش

السلطان بايزيد الثانى على إرسال على باشا وزيره الأول على رأس جيش كبير لدفع بابا شاه قلى . ولكن الإثنين قتلافى المارك . ولجأ كثير من أعوان اسماعيل إلى إيران [١] .

كل هذه الأحداث جعلت الأمور تزداد سوءاً على سوء ، ولكن السلطان بايزيد — وكانت صحته قد ضعفت — اكتفى بأن أرسل إلى اسماعيل يؤنبه على تشجيعه لاتباعه فى الأراضى العثمانية وتأييده لهم فقال فى أول رسالته : [٢]

« ... أيها الشاب قليل التجربة ، اسمع نصيحة من والد . ولا ترق دم المسلمين من أجل قبول مذهبك الجديد ، ولا تغفل الوعيد القائل : من قتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالداً فيها . واجعل طريقة اجدادك العظام أنار الله برهانهم منهجا لك . وإرسال جلد شيبك خان لا يخيف سلاطين العثمانيين الشجعان .. [٣] . »

وفى الثانى من شهر صفر عام ٩١٧ هـ / ١٥١٢ م . تولى السلطان سليم الأول زمام الأمور . وقتل بايزيد مسموما بأيدى طبيب يهودى [٤] . وبدأت مرحلة جديدة من الصراع بين سليم واسماعيل .

---

[١] تاريخ ادبيات إيران ، جلد چهارم ، ص ٧٢ ومابعدها

[٢] ومقالهٔ فلسفى در مجلهٔ دانشكده ادبيات راجع به جنگ چالداران ، دى ١٣٣٢

[٣] إشارة إلى الانتصار على قبائل الاوزبك وقتل رئيسهم شيبك خان ، وفصل رأسه عن جسده ، وارسال جلده محشوا بالقش إلى البلاط العثمانى

[٤] تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٦١

(ب) الشاه اسماعيل الأول والسلطان سليم العثمانى :

عندما تولى السلطان سليم الأول زمام الأمور ؛ شرع فى تأديب مخالفيه ومنهم أخوته وأولادهم فقتل أخاه الأكبر أحمد، [١] وخنق قورقود . ولم يبق من أولاد بايزيد الثانى سوى مراد الذى تمكن من الهروب إلى إيران حيث استقبله اسماعيل وعينه حاكما على جزء من فارس . ولكن مراد مرض فى كاشان ، ومات فى أصفهان فأمر اسماعيل بدفنه خارج بوابة (توقجى) بجوار ضريح الشيخ على سهل الاصفهانى . وكان سليم يطمع فى أن يسلمه الشاه اسماعيل أخاه مراد. غير أن اسماعيل قتل رسل السلطان العثمانى [٢] .

وبعد أن تخلص السلطان سليم من المخالفين والمدعين للتاج والعرش ، وأخمد حركات التمرد ضده . بدأ يعد نفسه لمواجهة الشاه اسماعيل وحركته المذهبية ، ومن ثم فقد أمر بتعقب الشيعة الذين يعيشون فى آسيا الصغرى ، وقتل من يتراوح عمره بين السابعة والسبعين [٣] ، وكان طبيعيا أن يرد اسماعيل على تصرف سليم بطريقة أو بأخرى . فشرع فى إيواء الهاربين الأتراك إلى إيران ومنحهم المساكن بغية الإفادة منهم بعد ذلك فى إحداث الفتنة وإشعال الثورة فى الدولة العثمانية كما أنه سعى لدى حكام الدول الأخرى لتكوين اتحاد ضد الدولة العثمانية . وقد ساعده فى ذلك أنه وجد نفس الرغبة لدى قنصوة الغورى فى مصر وعلاء الدولة ذو القدره فى النواحى

---

(١) كان أحمد قد اتحد مع الشاه اسماعيل بعد وفاة بايزيد ، وجعل الخطبة باسمه فى الاناضول . فاستدعاه سليم إلى العاصمة وقتله . « أحسن التواريخ ، ص ١٣٦ »

(٢) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٦٢

(٣) تاريخ ادبيات ايران ، جلد چهارم ، ص ٧٣

الشرقية لآسيا الصغرى والجزء الأعلى من نهر الفرات . فأرسل رسله إليهما طالباً المساعدة للوقوف ضد العثمانيين [٤] .

وكان السلطان سليم يريد أن تستقر أموره باستقرار الأمن فى النواحى الشرقية من دولته والتى كان محل تهديد الاكراد أتباع ذو القدر . وذلك لتحقيق فكرة ظلت تراوده كثيرا وهى أن يصبح خليفة المسلمين ، ويبعث الحياة فى العالم الاسلامى من جديد .

ولم يكن الخلاف بين الدولتين العثمانية والصفوية قد وصل إلى الصدام المسلح حتى ذلك الوقت ، ولكن وقعت حادثة انتهت بدخول الدولتين الحرب. وتتلخص هذه الحادثة فى أن ملوك المجر ، مصر ، روسيا وغيرها بعثوا بسفرائهم إلى سليم يهنئونه بتولى زمام الأمور بعد خلع أبيه. ولم يبعث إسماعيل برسول من جانبه ، لأنه كان يعد السلطان سليم غاصبا للسلطنة . وقد رأينا أنه كان يساند شقيقه أحمد باعتباره الخليفة الشرعى لأبيه بايزيد . واعتبر السلطان سليم تصرف اسماعيل امتهانا له ، وصمم على مهاجمة إيران .

وقد جمع سليم رجال الحرب والأدباء والوزراء ورجال الدين فى مدينة أدرنه فى التاسع عشر من شهر المحرم عام ٩٢٠ هـ / السادس عشر من شهر مارس عام ١٥١٤ م . وذكر فى هذا الإجتماع أن اسماعيل وحكومته الشيعية فى ايران بمثابة خطر كبير على العالم الإسلامى ، وأن الجهاد ضد الزنادقة القزلباش واجب دينى على جميع المسلمين [١] .

(ح) معركة جالداران :

خرج السلطان العثمانى فى يوم الأثنين الموافق الثانى والعشرين من شهر

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفويه : ص ١٦٥

(٢) المرجع السابق : ص ١٦٧

المحرم عام ٩٢٠ ﻫ / التاسع عشر من شهر مارس عام ١٥١٤م من أدرنه، ووصل إلى استانبول فى الثانى من شهر صفر من العام نفسه. وكتب فى هذا الصدد إلى عبيد الله قائد الأوزبك فيما وراء النهر يذكره بقتل عمه شيبك خان، ويستحثه على الانتقام لدمه من الشاه اسماعيل، ومهاجمة خراسان بمجرد وصول الجيش العثمانى إلى إيران [١]. وكان هدف سليم من ذلك أن يجعل إيران بين شقى الرحى من الغرب بهجومه ومن الشرق بهجوم عبيد الله على خراسان.

وتحرك السلطان سليم من استانبول إلى اسكوتارى فى طريقه إلى ايران [٢] وكتب فى السابع والعشرين من شهر صفر عام ٩٢٠ ﻫ / ١٥١٤م — من منطقة أزنكميد — رسالة تهديد إلى الشاه اسماعيل بدأها بقول الله تعالى: « بسم الله الرحمن الرحيم. قال الله الملك العلام إن الدين عند الله الإسلام ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين، ومن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. اللهم اجعلنا من الهادين المهتدين غير المضلين ولا الضالين وصلى الله على سيد العالمين محمد المصطفى النبى الأمين وصحبه أجمعين [٣] ».

وكتب فى نفس الوقت إلى محمد بيك بن فرح شاه بيك من بقايا أسرة آق قويونلو يحرضه على الاشتراك فى مواجهة اسماعيل [٤].

كان الشاه اسماعيل مشغولا فى ذلك الوقت بإخراج الأوزبك من خراسان،

---

(١) منشآت فريدون بيك. جزء ١. ص ٣٧٧ إلى ٣٧٩

(٢) عالم آراى صفوى: ص ٤٧٢

(٣) منشآت فريدون بيك، جزء ١ ص ٣٧٩ إلى ٣٨١.

(٤) تشكيل شاهنشاهى صفويه، ص ١٧٧ و ١٧٨.

فأمر محمد خان استاجلو من قواد جيش القزلباش وحاكم ديار بكر أن يسرع إلى تخريب الطرق والقرى الواقعة فى متناول جيش سليم ثم ينسحب إلى آذر بيجان . وقد أنجز محمد خان استاجلو المهمة على خير مايرام ، الأمر الذى أخر وصول جيش سليم إلى إيران وأنهكه. ومع ذلك واصل جيش سليم السير إلى ايران ، فوصل الى قيصرية عن طريق قونيه ، وتوقف فيها قليلا حيث استدعى علاء الدوله ذو القدر ، وطلب منه المساعدة ضد اسماعيل [1] فرفض لأنه كانت تحت حماية مصر ، ولا يمكنه مساعدة سليم ، بل إنه أمر فرسانه بأن يحملوا على إمدادات جيش سليم ولما يئس سليم من مساعدة ذو القدر [2] تقدم الى سيواس ، وعسكر فيها . وكان قصد سليم من التمركز بين قيصرية وسيواس حماية جيشه من هجوم أتباع اسماعيل المقيمين فى هذه المناطق خاصة الشيعة الذين كانو قد هربوا من الأراضى العثمانية . وأقامهم اسماعيل فى هذه المناطق .

وبدأ الطرفان يستطلعان أحوال بعضهما البعض ، فأرسل السلطان سليم بعض قادته [3] للتجسس على تحركات الجيش الصفوى ، وأرسل رسالته الثانية الى الشاه اسماعيل من سيواس مع جاسوس ايرانى كان العثمانيون قد اعتقلوه .

---

(١) عالم آراى صفوى : ص ٤٧٣

(٢) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٧٩

(٣) هم قراجه باشا ، على بيك ميخال أوغلو وفرحشاد بيك بايندرى آق قويونلو . ويهمنا من هؤلاء الأخير فانضمامه إلى سليم يثبت تعاون أخلاف أسرة آق قويونلو مع العثمانيين ضد اسماعيل على الرغم من صلة القرابة التى تربطهم .

وفى العشرين من جمادى الأولى عام ٩٢٠ هـ / يوليو عام ١٥١٤ م وصل سليم الى حدود ايران عن طريق نهر چاى صوفى (١)، وذلك عبر أرزنجان، ثم عسكر سليم فى صحراء ياسى چمن على مقربة من أرزنجان. وقد أفاد جواسيس سليم أن اسماعيل لا يفكر فى الحرب، وأنه يوجه همه الى قطع الطرق على الجيش العثمانى لتعويق وصوله الى داخل ايران حتى يحل فصل الشتاء، ويهلك العثمانيون من البرد والجوع. وقد ألقى السلطان سليم جواسيسه فى السجن خشية أن تنتشر هذه الأخبار بين جنوده، فيصابون بالذعر ويتفرقون (١). ولكن جاءه من يؤيد هذه الأخبار مبعوثا برسالة من محمد بيك بن فرخشاد بيك آق قويونلو حاكم منطقة كردستان (٢)، وقد كتب رسالته بماء البصل خوفا من أن يفتضح أمره، فيقتله الشاه اسماعيل.

وفكر السلطان سليم فى أن يستحث الشاه اسماعيل على الحرب، فكتب إليه رسالة باللغة التركية فى السادس والعشرين من جمادى الأولى عام ٩٢٠ هـ / الثامن عشر من يونيو عام ١٥١٤ م يؤنبه ويعاتبه (٣)، وأرسل برفقة هذه الرسالة عصا وخرقة وكشكولا ومسبحة (٤)، وكان سليم يقصد أن يقول للشاه اسماعيل إن الانسحاب وتجنب الحرب ليس من شيم الشجعان، وأن عليه أن يركن إلى هذه الأشياء، كما كان يفعل أجداده رؤساء فرق الدراويش.

وقد أجاب الشاه اسماعيل على رسالة سليم برسالة معتدلة ترمى إلى طلب المهادنة بين الدولتين وتجديد علاقات الصداقة بينهما، وإن كان قد ذيلها بأنه

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفويه، ص ٣٨٣

(٢) منشآت فريدون بيك، جزء ١، ص ٣٨٣

(٣) منشآت فريدون بيك، جزء ١، ص ٣٨٠ إلى ٣٨٤

(٤) تشكيل شاهنشاهى صفويه، ص ٣٨٦

فى حالة إصرار سليم على الحرب فما من وسيلة أخرى . وأرفق بهذه الرسالة علبة ذهبية محشوة بالدخان(١) .

ولم يعجب سليم تنصل اسماعيل من دخول الحرب . وضايقه قول اسماعيل فى رسالته أنه مشغول عن الحرب بالصيد فى نواحى أصفهان ، فأمر بقتل مبعوث اسماعيل وتمزيقه إربا إربا(٢) . وربما أدرك سليم أن اسماعيل يقصد بالمماطلة سحب الجيش العثمانى إلى داخل إيران وقطع خطوط الإمدادات عليه، وبالتالى حصره بين طرق وقرى خربة دون أن يدخل معه فى حرب فعلية.

وقد كانت هذه هى خطة اسماعيل بالفعل . فقد ضاق جنود سليم ذرعاً بطول الانتظار والجوع وكثرة التنقل من مكان إلى آخر فى طرق غير ممهدة وتعرضهم للتقلبات الجوية . فتمردوا على سليم . مما جعله يعزل همدم باشا قائد جيشه ويعين مكانه ذينل باشا . وكتب وهو فى چرموك رسالة أخرى إلى اسماعيل تاريخها أواخر شهر جمادى الثانى من عام ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤م . يصفه فيها بالتداعى والدعة والخوف من المواجهة . وبعث مع الرسالة بمجموعة من ملابس النساء وأدوات الزينة بهدف إشعار اسماعيل بأن تصرفاته ليست من شيم الرجال . وفى نفس الوقت أرسل إلى عبيد الله قائد الأوزبك يطلب منه الدخول فى الحرب . وتحرك بعد ذلك من چرموك إلى ناحية ترجان ومنها إلى إيران قاصدا دخول تبريز العاصمة إذا لم يشتبك معه اسماعيل(٣) .

وفى الطريق وصل إلى سمع سليم أن محمد خان استاجلو من قواد اسماعيل وحاكم ديار بكر قد وصل إلى حدود خوى وأن اسماعيل يستعد للحرب ،

---

(١) منشآت فريدون بيك . جزء ١ ، ص ٣٨٤ و ٣٨٥ .

(٢) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٨٨

(٣) منشآت فريدون بيك ، جزء ، ص ٣٨٥ و ٣٨٦

وأنه على وشك الوصول إلى صحراء چالداران[1] . فتحرك سليم صوبها فى رجب عام ٩٢١ هـ / الثالث والعشرين من أغسطس ١٥١٤م . واحتل هضابها ووقعت الحرب بين الطرفين ، وانتهت بهزيمة إسماعيل هزيمة نكراء[2] .

ولم تكن قوة الجيشين العثمانى والصفوى على درجة من التكافؤ . فبينما كان جيش العثمانيين مجهزا بقوات الفرسان والمشاه والمدفعية ، وتسانده قوة بحرية كبيرة . كان جيش الصفويين يفتقد إلى وسائل التسليح المتقدمة كالمدفعية مثلا فى ذلك الوقت . أضف إلى ذلك أن عدد أفراد الجيش العثمانى كان يزيد على المائة ألف فى الوقت الذى لا يزيد فيه عدد أفراد الجيش الصفوى على العشرين ألف على أحسن الفروض[3] .

وقد تمكن اسماعيل من الفرار إلى آذربيجان بعد هزيمته من سليم الذى أمر أحمد باشا هرسكل صدره الأعظم بالاستيلاء على تبريز عاصمة الدولة الصفوية . وأصدر أمرا طلب فيه من أهل العاصمة إطاعه أحمد باشا ، وأرسل من مدينة خوى برسل النصر إلى كل من سلطان مصر ، السلطان سليمان ولى عهده ،

---

[1] فيما يتعلق بوضع الجيش الصفوى والعثمانى من حيث عدد الأفراد والتسليح واسلوب المواجهه فى حرب چالداران يمكن الرجوع إلى عالم آراى عباسى جزء ١ ، ص ٤ وأحسن التواريخ ، ص ١٤٥ وعالم آراى صفوى ص ٤٩٠ ومابعدها ومقالة فلسفى در مجلة دانشكده ادبيات دى ١٣٣٢ هـ . ش چانجانة دانشكاه . كمراجع فارسية ومنشآت فريدون بيك ، جزء ١ الصفحات السابق الإشارة إليها كمراجع تركية

قائد التتار فى شبه جزيرة كريمة وعبيد الله قائد الأوزبك [١] .

وفى التاسع من شهر رجب عام ٩٢١ هـ/١٥١٤م كلف سليم اثنين من قواده هما پيرى باشا چلبى وأحمد باشا دوقه كين اوغلى على رأس مجموعة من جنوده إلى تبريز ليمهدوا الطريق لوصوله إلى تبريز ، ثم تحرك فى اليوم التالى إليها وفشلت مؤامرة لاغتياله كان اسماعيل قد دبرها له . وخرج العلماء والأعيان لاستقبال سليم فى ضاحية سرخاب . وأمر السلطان العثمانى بترميم مسجدى مظفر الدين جهانشاه قراقويونلو وأوزن حسن . وذهب السلطان سليم إلى مسجد الأخير فى السابع عشر من رجب ليؤدى صلاة الجمعة . ولكن بدل أن يذكر الخطيب اسمه قال : « السلطان بن السلطان أبو المظفر اسماعيل بهادر خان » وأراد قادة الأتراك قتله . ولكن سليم رفض ذلك [٢] .

وأمر السلطان سليم بحصر أموال الشاه اسماعيل ورجال القزلباس . وجعل تبريز مركزا لقيادته ، فقد كان ينوى الاقامة فيها طول فصل الشتاء حتى يسخر آذربايجان ، ثم يهاجم العراق وفارس وأصفهان فى الربيع ولكن لم يطل به الوقت فى تبريز . ذلك أن الشاه اسماعيل كان يحاول منع وصول مواد التموين إلى العاصمة ، لكى تساهم المجاعة فى تمرد الجنود الأتراك على سليم خاصة وأنه كان قد أمرهم بمعاملة أهل المدينة بالحسنى وعدم الاعتداء على الحرمات [٣] ، وكان ذلك على خلاف رغباتهم .

(١) منشآت فريدون بيك ، ج ١ ، ص ٣٨١ إلى ٣٩١ .

(٢) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٣) قصد سليم بمعاملة أهل تبريز بالحسنى اتباع أسلوب أفضل من أسلوب اسماعيل فى معاملة السنة فى إيران أو التكفير عن ذنوبه التى سبق أن ارتكبها فى حق شيعة الأناضول .

وأمضى سليم الشتاء فى قراباغ . وفى أثناء عبوره نهر أرس ، هلك عدد من جنوده بسبب الفيضان ووصل إلى مدينة نخجوان فى الثانى من شعبان ، واستولى عليها ، ثم سخر قلعة إيروان ، وواصل سيره إلى قارص وارز روم واتجه إلى اماسيه . وبعد عدة أيام حضر إليه رسـل اسماعيل وهم سيد نور الدين عبد الوهاب ، القاضى اسحاق ، ملا شكر الله فعانى وحمزه خليفه محملين بالهدايا ، وقالوا لسليم إنهم مكلفون بتوقيع اتفاق صلح بشرط إطلاق سراح بهروزه خان زوجة الشاه اسماعيل [1] . ولكن سليم اعتقل رسل الشاه اسماعيل وألقاهم فى السجن ورفض تسليم زوجته .

---

(١) يذكر المؤرخون الأتراك أن بعض النساء الايرانيات قد اشتركن فى حرب چالدارن مع أزواجهن . وأنهن وقعن فى الأسر . وكان من بينهن اثنتان من حريم الشاه اسماعيل بهروزه خانم وتاجلى خانم . وقد أمر السلطان سليم بدفن من قتلن من النساء رسميا تكريماً لهن وتقديرا لبطولتهن «ساجردو : تاريخ امبراطورى عثمانى نقلا عن تشكيل شاهنشاهى صفويه ص ٢٠٤ متن وحاشيه» وكانت بهروزه خانم زوجة للشاه اسماعيل أما تاجلى خانم فقد كانت عشيقته ، وقد استطاعت الهروب من أسر العثمانيين بطريقة أو بأخرى . ووصلت إلى اسماعيل الذى أنبها على اشتراكها فى الحرب دون علمه وحذرها من القتل إذا هى عادت لهذا الأمر مرة ثانية . أما بهروزه خانم فيقال إنها وقعت فى أسر السلطان سليم ، وقد وقع خلاف بين علماء السنة والسلطان سليم فى أمر اطلاق سراحها من عدمه . ويذكر المؤرخون الأتراك أن السلطان سليم قد زوجها لواحد من العلماء الاتراك أسمه جعفر چلبى تاج زاده ، ولكنه قتل فعاملها السلطان سليم بالحسنى ثم بعث بها إلى مدينة أرزنه ، ويكنت دولا جونكير : تاريخ امبراطورى عثمانى ، ج ١ ص ١٤٠ نقلا عن تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٢٠٨ »

(د) نتائج موقعة چالداران :

لم تضع موقعة چالداران – كمعركة حاسمة – حدا للصراع بين العثمانيين والصفويين ، فقد ظل الطرفان يتربصان العداء ببعضهما الآخر . فبعد هزيمة اسماعيل ؛ نهض رؤساء كردستان – وكانوا من السنة — لمساندة السلطان العثمانى ، وطردوا الحاكم الإيرانى من أراضيهم ، وطلبوا ضمها للعثمانيين . بحيث أنه لم يمض وقت طويل حتى انضمت خمس وعشرون مدينة للحكم العثمانى على الرغم من الاستحكامات العسكرية الصفوية فيها . كما تيسر للأتراك العثمانيين السيطرة على أرزنجان . وقد جعلت هذه التوسعات علاء الدولة ذو القدر — وقد سبق له رفض مساعدة العثمانيين لدى اشتراكهم فى الحرب ضد اسماعيل — فى متناول الزحف العثمانى عام ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م فقضى عليه سليم فى منطقة گووك سو وآلت كل ممتلكاته للحكم العثمانى (١) .

وفى هذه الأثناء حاول اسماعيل من جديد أن يوقع صلحا مع السلطان سليم (٢) ، فأرسل سفيرين هما كمال الدين حسين بيك وبهران آقا يحملان الهدايا إلى البلاط العثمانى . ولكن سليم رفض العرض ، وزوج بالسفيرين فى السجن .

ولما رأى اسماعيل أن السلطان سليم ليس على استعداد لإبرام الصلح ،

---

(١) حاول اسماعيل أن يمد علاء الدوله ذو القدر بالمساعدات والهدايا تشجيعيا له على الوقوف فى وجه العثمانيين وقطع الطريق عليهم ونهب امداداتهم حتى لايتوسع سليم فى فتوحاته فى داخل ايران . ولكنه لم يصل إلى هدفه لسرعة الزحف العثمانى .

(٢) منشآت فريدون بيك . حـ ١ ، ص ٤١٣ و ٤١٤

كلف نور على خليفه روملو ومحمد بيك ايغوت أوغلى من قادة القزلباش بالإغارة على نواحى أرزنجان ، ولكنهما هزما من العثمانيين ، وقتل نور على فى جمادى الآخر عام ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م . ثم أرسل اسماعيل قراخان استاجلو على رأس قوة إلى ديار بكر حاصرت العاصمة قره آمد . ولكنه لم يوفق فى مهمته فى المرة الأولى . ولما عاد إلى محاصرتها ثانية . هزم هزيمة قاسية من العثمانيين الذين استولوا على المدينة وأحتلوا ماردين رغم مناعتها القوية .

وقد فكر قراخان استاجلو فى أن يدخل ماردين مرة أخرى . فاتجه إليها عن طريق العراق فنجح فى مفاجأة الجيش العثمانى بقيادة بيك لو ، ولكنه سرعان ماجمع شمله واشتبك مع القوة الإيرانية ، وجرح قراخان ، ولم يستطع مواصلة الحرب . واستعاد العثمانيون ماردين ، واستولوا فى هذه الأثناء على حصن كيفا ، سنجار ، أرغنه ، بيرجيك وجرميك(١) .

وباحتلال ديار بكر ، ماردين وسائر مدن كردستان(٢) ، أصبح الجزء الأكبر من أرض الأكراد فى يد العثمانين . وبدا الإيرانيون فى أنحاء آسيا الغربية وجها لوجه أمام العثمانيين وتحدد الخط الفاصل بين الدولتين بدءا من بحيرة أروميه وآذربيجان حتى حدود إيران الغربية التى كانت تصل إلى مدينة ملطيه القديمة والقريبة من مصب الفرات الأعلى . وعلى هذا النحو أصبح من الصعب على إيران أن تتوسع فى النواحى الغربية منها(٣) .

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٢١٥ ومابعدها .

(٢) كردستان جزء من غرب آسيا وتقع بين إيران ، العراق ، تركيه والقفقاز . وتشمل كردستان التركية الناحية الجبلية بين حدود الروم وديار بكر والسهل الأعلى لنهر دجلة حتى الموصل . وتضم كردستان الايرانية جزءا كبيرا من آذربيجان وشمال همدان .

(٣) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٢١٦

ومن النتائج السياسية لموقعة جالديران أن أراضى أسرة ذو القــدر والمماليك فى مصر وسوريا صارت ضمن ممتلكات العثمانيين فى عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م. وأصبحت الدولة العثمانية تمثل القوة الحقيقية فى العالم الاسلامى .

أما فى إيران فلم تكن آثار هذه الحرب من الناحية السياسية بقدر الآثار الاجتماعية . فقد كانت إيران فى هذا الوقت قد قطعت شوطا لا بأس به فى التشيع . وأصبح إحساس الايرانيين كشيعة ينحصر فى ضرورة بعث الجهاد ضد العثمانيين السنيين من جديد ، وأضحت المذهبية الشيعية أساس فى القومية الايرانية(١).

وبعد ضياع جزء كبير من كردستان ؛ اجتهد اسماعيل فى تكوين اتحاد ضد العثمانيين من الدول الأجنبية المنافسة للدولة العثمانية، وساند جمعا من الشيعة فى الأناضول كانوا قد تجمعوا فى قلعة تورخال من توابع آماسيه ، وأعلنوا التمرد على العثمانيين(٢) ، غير أن قلى بيك شهسوار أوغلى الوزير التركى أخمد حركتهم .

وحتى عام ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م كان السلطان سليم قد استولى على جزء من كرجستان(٢). وعلى الرغم من أنه كان مريضا فى عام ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م إلا أنه فكر فى الخروج من عاصمته على رأس جيش لغزو إيران مرة أخرى . ولكنه مات فى الطريق إلى أدرنه فى الثامن من شوال من العام نفسه .

وقد شجعت وفاة سليم الشاه اسماعيل على أن يبدأ من جديد . فاستولى على كرجستان وتملكته الرغبة فى الانتقام لهزيمته من العثمانيين فى السنوات

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفوية ، ص ٢١٦ ، ص ٢١٧

(٢) أحسن التواريخ ، ص ١٦٦ و ١٦٧

الأربع التالية لوفاة سليم ؛ غير أن المنية عاجلته ، فمات متأثرا بمرضي السل عن سبعة وثلاثين عاما .

— ٦ —

السياسة الداخلية للشاه اسماعيل الأول وفرض المذهب الشيعى :

الواقع أنه لم يحدث تحول أساسى فى النظام الادارى فى إيران منذ ظهور الدولة الصفوية على يد اسماعيل حتى تولى الشاه عباس الكبير الحكم ، ذلك أن الأجناس المختلفة التى تشكل منها المجتمع الايرانى لم تكن تسمح بوجود مثل هذا النظام الادارى . ومن ثم فإن الجهد الذى بذله الشاه اسماعيل فى هذا السبيل لم يدم طويلا .

فعند ما تمكن الشاه اسماعيل من القضاء على أنماط الحكم المتناثرة فى إيران لم يهتم فقط بايجاد حكومة مطلقة ، بل سعى إلى تجسيد الوحدة السياسية والاجتماعية لايران وبعثها من جديد ، بعد أن قضى عليها الفتح العربى لايران وأزال دولة آل ساسان .

ولكن لم تكن الظروف مساعدة على إيجاد هـذه الوحدة السياسية والاجتماعية . لأن الجماهير الفقيرة والمظلومة — نتيجة لحالة الفوضى التى شملت ايران قبل العصر الصفوى — لم تبد ميلا كبيرا تجاه استقرار الأمن والسلام فى إيران . علاوة على أن التقاليد والعادات والنظم المستخدمة فى النظام الادارى كان قد مر عليها وقت طويل وتعرضت لتغييرات عديدة من جانب أنواع الحكم المختلفة التى تسلطت على إيران طيلة تسعة قرون منذ الفتح العربى لايران حتى ظهور الدوله الصفوية .

ومن هنا كان تجديد النظام الاداري الذي تم على يد الشاه اسماعيل هو مجرد

محاولة لمسايرة الوضع الجديد . وكان اسماعيل يستفيد فى ذلك من خبرة وحنكة وزراء مجربين مثل أمير ذكريا وزير رؤساء الأق قويونلو وخواجه كمال الدين محمد الساغرچى وزير الأمراء التيموريين بعد أن دخلا فى طاعته [١]

وقد قسم اسماعيل إيران من الناحية الادارية إلى قسمين :

القسم الأول : الولايات الحكومية ، وهى تلك التى تدار بواسطة حاكم مكلف بتجهيز الجيش فى منطقته ، وعليه توفير الأمن فيها ، وتدبير الأعمال الادارية وقيادة جيشه فى أثناء الحرب .

القسم الثانى : الأملاك الحكومية (خالصجات) ويشرف عليها موظفون (پيشكاران[٢]) وهم مكلفون بإرسال الأموال إلى الخزانة الملكية لتأمين مصروفات المملكة .

وقد شعر اسماعيل بخطورة الصلاحيات المعطاه لحكام الولايات ، فحدد هذه الصلاحيات ولكن سرعان ماخرج هؤلاء الحكام عن نطاق صلاحياتهم بمجرد وفاة اسماعيل ، خصوصا وأن الأوضاع الاجتماعية فى إيران لم تكن لتساعد على تقبل مثل هذا الوضع . كما تسبب بعد المدن عن العاصمة ووجود عادات وتقاليد متباينة لدى الأجناس المختلفة فى إيران فى ضعف الحكومة المركزية . ولذلك اجتهد الشاه اسماعيل فى تنفيذ أحكام القرآن الكريم . وأمر بإنشاء المدارس الدينية فى اصفهان وشيراز لتدريس المبادىء والأصول المذهبية .[٣]

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٣٣ ، ١٣٤

(٢) مفردها پيشكار ومعناها مباشر ، ناظر ، رئيس الادارة المالية فى الاقليم .

(٣) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ١٣٥

أما بالنسبة للسياسة المذهبية للشاه اسماعيل وجهوده فى فرض المذهب الشيعى الاثنى عشرى ، فعلينا أن نبحث عن الدوافع التى جعلته يسلك هذا المسلك .

أولا : دوافع سياسية : على الرغم من المجهودات التى بذلها الشيعة مدعمة بدعايات الأسرة الصفوية منذ زمان الشيخ صفى ، فقد كانت الأكثرية من أهل إيران سنة ، وكانوا يعارضون السياسة المذهبية لاسماعيل . ومن هنا صار لزاما على اسماعيل أن يعتمد على العناصر الشيعية من أجل فرض المذهب الشيعى. والواقع أن اسماعيل كان مدركا لمدى رسوخ العقيدة عند هذه العناصر . ولذلك فقد أسرع إلى جمعها وتحريكها بما يثير حميتها المذهبية قبل أن يجتمع السنة عليه أو يطلبون المساعدة من العثمانيين والأوزبك ويشتتون تجمعه المذهبى ، وهو لم يزل فى بدايته .

ثانيا ؛ دوافع قومية : كانت الغزوات المتعاقبة لإيران سببا فى أن تجتمع فيها — بمرور الزمن — أقوام من أجناس مختلفة ، فأصبحنا نجد فيها الإيرانيين والعرب والاتراك والمغول . وقد ترتب على ذلك أن تعددت الاختلافات المذهبية وكثرت الأحقاد الشعوبية[1] ، وأصبح امتزاج هذه الأجناس فى بوتقة واحدة من الأمور الصعبة . كما أن دخول اللغة التركية إلى مسرح الحياة العملية فى إيران ونضجها فى ظل اللغة الفارسية خلال القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى بتأثير رجال القزلباش ، جعلها تنافس اللغة الفارسية فى عقر دارها ، وهذا أمر صعد الخلاف بين الجنسين الإيرانى والتركى . وقد اغتنم اسماعيل فرصة هذه العوامل الخارجية ، واعتمد على قبائل القزلباش

(١) الشعوبية هى التعصب للجنس

التركية الأصل ، ونهض يؤسس الكيان الصفوى . وكان عليه أن يؤجل حروبه مع العثمانيين والأوزبك قدر ما يستطيع حتى يتأكد له انصهار مؤيديه من الاتراك فى بوتقة المذهب الشيعى ، وصارت الطاقة المذهبية هى القوة المحركة لهذه الجماعات المختلفة جنسا المتفقة هدفا فى بناء الدولة الصفوية . وعلى هـــذا الأساس استطاع اسماعيل — بغرض المذهب الشيعى — أن يوجد توافقا مذهبيا وخلقيا بين أجناس متباينة أقسام عليه دولته الصفوية .

ثالثا : دوافع خارجية : استفاد اسماعيل من وقوع إيران الشيعية بين العثمانيين فى الغرب والأوزبك فى الشرق فى إذكاء الحماس لدى أهل إيران فى الوقوف ضدهما ، وصور للايرانيين أن الأتراك هم أعداء فى الماضى والحاضر ولابد لهم أن يواصلوا سياسة ملوك إيران الأقدمين فى ضرورة سحق الأتراك .

هذه الدوافع المختلفة جعلت الشاه اسماعيل يعلن المذهب الشيعى مذهبا رسميا لإيران بعد دخوله تبريز وتتويجه ملكا على إيران ، ويمارس كل أساليب القوة والعنف مع معارضيه من أجل اعتناق المذهب الجديد[١] . ويخلق طبقة جديدة يستعين بها فى إقرار سياسته المذهبية وهى طبقة رجال الدين[٢] . ومن هنا فقد بعث المذهب الجديد وحدة إيران الوطنية ، وإن اعتمدت فى صورتها الجديدة على عناصر مختلفة فى الجنس . وصار الإيمان بالمذهب هو العامل الأصلى فى المقاومة الإيرانية للسنة فى الغرب والشرق منها[٣] .

---

(٢) سبق أن ذكرنا أن الشاه اسماعيل قال لعلماء المذهب الشيعى أنه سيجعل السيف حكما بينه وبين معارضيه

(٣) كان لهذه الطبقة أثرها البعيد المدى فى توجيه مستقبل إيران فى فترة اضمحلال الدولة الصفويه وبعدها

— ٧ —

العلاقات بين اسماعيل والدول الأوربية :

ساعد الخطر العثمانى الذى كان يهدد الدول الأوربية على التقارب بين هذه الدول وإيران . فبظهور الدولة الصفوية فى شرق الأراضى العثمانية، خف الضغط العثمانى على قادة أوربا واتجه إلى إيران(١) ولذلك فقد سعت الدول الأوربية إلى اسماعيل تعرض عليه تثبيت عرى الصداقة والمودة لقطعة لإيجاد علاقات سياسية واقتصادية . وحاول اسماعيل أن يستغل هذه الفرصة كرد فعل من جانبه على السياسة التوسعية للدولة العثمانية .

وكان العثمانيون قد استطاعوا قطع طريق التجارة القديم الذى يربط أوربا بالشرق ، ولم يعد الأوربيون بقادرين على حمل بضائعهم إلى الموانى الشرقية للبحر الأبيض المتوسط. وكسد حال تجار أوربا الذين كانوا يتاجرون مع آسيا . وأصبح لزاما على الأوربيين أن يتبينوا وسيلة أخرى للاتصال مع آسيا . فاستطاعوا - مستفيدين مما حققوه من اختراعات متقدمة فى علم الملاحة- أن يكتشفوا طريقا بحريا إلى آسيا ، يكون فى آمان من خطر التهديد العثمانى.

وقد ساهم هذا الوضع فى إيجاد علاقات متينة بين الأوربيين وإيران . ثم زاد اهتمام الأوربيين بإيران بعد أن وصلوا إلى الهند التى كانت تمثل أغنى بلاد الشرق فى ذلك الحين . باعتبار أن إيران تمثل نقطة حراسة ومراقبة للطرق البحرية الموصلة إلى شبه القـــارة الهندية من ناحية وبعد أن بدأت

---

(١) يقول بوسبك Boshecq سفير فرديناند فى البلاط العثماني والايرانيون فقط هم الفاصل بيننا وبين الهلاك » تاريخ أدبيات إيران . جلد چهارم ص ٩١

البرتغال تنظر بعين الطمع إلى الخليج الذى يلاصق الهند من ناحية أخرى .

كان العرب قد سيطروا على منطقة الخليج . وكانت جزيرة هرمز(١) الواقعة فى مدخل الخليج تمثل مركزا تجاريا مهما فى ذلك الحين ، علاوة على ربطها الخليج ببحر عمان . ومن ثم فالسيطرة عليها تفيد فى المحافظة على التجارة مع الهند .

كل ذلك ساعد على استقرار العلاقات بين إيران والدول الأجنبية ، بل إلى ازدياد نفوذ هذه الدول فى إيران . وإن كان هذا النفوذ قد أفاد الدولة الصفوية فى صراعها مع العثمانيين إلا أنه ألحق الضرر بإيران إذ أنه كان البداية لظهور الأجانب على مسرح الأحداث فيها بعد ذلك .

(١) العلاقات السياسية بين إيران والبرتغال فى عصر اسماعيل .

كانت البرتغال هى أول دولة أوربية حاولت أن تستفيد من الطريق البحرى الجديد الذى يصل إلى آسيا بمنأى عن الخطر العثمانى كما أن اكتشافات فاسكودى جاما فتحت المجال أمام البرتغال لتؤسس مستعمرات لها فى الهند ومختلف أنحاء آسيا .

---

(١) موقع هذه الجزيرة كان يعطيها أهمية استراتيجية بالنسبة للتجارة الدولية فى ذلك الحين فهى تقع فى مدخل الخليج بشكلها المثلث . وكانت تسمى حتى القرن السابع الهجرى « جرون » وظل هذا الاسم لاصقابها حتى العصر الصفوى وكانت الجزيرة من حيث الخصب فقيرة . وقد عدها الجغرافيون والرحالة العرب من آثار أردشير بابكان . وأن اختلفوا فى تقدير ثروتها من حيث الوفرة والقلة « عباس اقبال : مطالعات درباب بحرين وجزاير وسواحل خليج فارس ص ٧ ونصر الله فلسفى : تاريخ روابط إيران ر أوربا در دوره صفويه ، قسمت أول . روابط إيران بابرتقال واسبانيا وهولندا وانجلتر والمانيا ، ص ٦ وأحمد تاج بخش : إيران در زمان صفويه ، ص ٨٥ . »

وكان طبيعيا أن تبحث البرتغال بعد وصولها إلى الهند عن قواعد بحرية لتأمين الوصول إلى مستعمراتها الجديدة. ولذلك فقد اجتهد آلفو نسودا ابو كرك الحاكم البرتغالى فى الهند فى أن يسيطر على البحر ، ويدعم قوته البحرية ، ويتعامل مع أهالى المناطق ذات الموقع الاستراتيجى بالحسنى بهدف توسيع وتدعيم النفوذ البرتغالى فى المستعمرات الجديدة . وكانت خطته تشمل الجزء الشرقى من أفريقيا ، البحر الأحمر ، الخليج ، جزائر الملوك والصين . ولذلك فقد تحرك فى عام ٩١٣ هـ/١٥٠٨ م من مدينة لشبونه قاصدا آسيا ، واستولى على جزيرة سومطرة فى المحيط الهندى ، واتجه فى الثالث والعشرين من ربيع الثانى عام ٩١٤ هـ/ العشرين من أغسطس عام ١٥٠٨ م صوب ساحل شبه الجزيرة العربية ، واحتل قلهات التابعة لحاكم جزيرة هرمز ، وسخر الخابورا ومسقط ، ثم تحرك لاحتلال جزيرة هرمز . وبذلك خضعت له الخطوط التجارية للخليج ، وأغلق الطريق التجارى فى البحر الأحمر أمام مصر والسودان والجزيرة العربية .

وفى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، كان سيف الدين يحكم هرمز ، ولكن عمه خواجه عطار هو الذى تولى زمام الأمور لصغرسن ابن أخيه . وكان رجلا شجاعا ومحنكا . واستطاع أن يعطى هرمز استقلالا ذاتيا . تدفع من خلاله جزية لإيران .

وقد جمع خواجه عطار جيشا من ثلاثين ألف رجل بعضهم من إيران . وكان على البرتغالين أن يواجهوا هذا الجيش ، وقد انتصروا فى هذه المواجهة بسبب تفوقهم فى المدفعية . وعقد خواجه عطار معاهدة صلح مع البرتغاليين ، تعهد أن يدفع بمقتضاها مبلغا من المال للبرتغاليين ويقدم لهم أرضا يقيمون عليها حصنا ويعفى كمية من البضائع البرتغالية من الرسوم الجمركية على أن يعامل

بضائع هرمز فى البرتغال بالمثل . وأن لا يمارس أحد من أهل الجزيرة أعمال التجارة فى الخليج دون إذن من البرتغاليين (١) .

وبعد رحيل الأسطول البرتغالى من هرمز ، ألغى خواجه عطار الاتفاقية من جانب ، وطرد آلبو كرك – الذى فقد مساندة أسطوله – من الجزيرة . وكان الشاه اسماعيل قد عقد معاهدة صداقة مع آلبو كرك فى هذه الأثناء (٢) . وفكر آلبو كرك فى الهجوم مرة ثانية على جزيرة هرمز ، فتوجه إليها فى الخامس من المحرم عام ٩٢١ هـ العشرين من فبراير ١٥١٥م . ولم يكن حاكمها الجديد توران شاه سوى آداة فى يد الرئيس نورالدين . وقد تمكن آلبو كرك من احتلال الجزيرة وقتل نور الدين . وأقام فيها حصنا قويا ، وعزل الجزيرة من السلاح .

وقد ضمن احتلال البرتغاليين للجزيرة السيطرة على الخليج ، ثم احتل آلبو كرك كمبرون وجعلها مركزاً للتجارة مع إيران وبنى حصونا عديدة فى جزيرة هرمز والجزر المحيطة بها مثل قشم ، وحاول كسب رضا أهالى هذه الجزيرة عن طريق بيع البضائع بأسعار زهيدة .

ومما لاشك فيه أن المشاكل التى صادفت الشاه اسماعيل الأول فى داخل إيران قد يسرت للبرتغاليين التوسع فى نفوذهم التجارى فى الخليج وسواحل إيران الغربية . غير أن اسماعيل طلب من أمير هرمز الجزية المؤجلة . فلجأ الأخير إلى آلبو كرك . وكان رد القائد البرتغالى على هـذا الطلب « إننا أخذنا هرمز بالقوة ، وإنها تتبع دم مانول ملك البرتغال ، ولا يحق لأمير

---

(١) تشكيل شاهنشاهى ، ص ٢٢٩ و ٣٢٠

(٢) تاريخ روابط إيران واوربا در دوره صفويه ، قسمت أول ، ص ٦ إلى ١٣ وصلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ٩ إلى ١٩

هرمز أن يدفع خراجا لملك آخر . والإ فسنخلعه من الإمارة . ونولى مكانه من لا يخشى ملك ايران (١) » .

وفى هذه الأثناء سافر آلبوكرك من هرمز إلى الهند،ليتقلد منصبه الجديد كحاكم لها . وهناك جاءه مندوب من جانب اسماعيل وعقدت إتفاقية بين الطرفين تنص على(٢) :

١ — تصاحب قوة بحرية برتغالية حملة إيران على البحرين وقطيف.

٢ — تتعاون البرتغال مع إيران فى إخماد حركات التمرد فى بلوجستان ومكران .

٣ — تتحد الدولتان فى مواجهة الدولة العثمانية .

٤ — تصرف حكومة إيران النظر عن جزيرة هرمز ، وتوافق على أن يبقى حاكمها تابعا للبرتغال ، وأن لاتتدخل فى أمورها الداخلية . سيا

وبعد عقد هذه المعاهدة ، مات آلبوكرك . وكان قد نصب ابن أخيه برو قائدا للحامية البرتغالية فى هرمز . وخلف آلبوكرك فى منصبه لوپوسوارز ، وفى عهده نشبت عدة معارك ضد البرتغاليين بسبب سوء معاملتهم لأهالى مس الخليج . وانتهز أمير هرمز الفرصة وحاصر الحصن البرتغالى فى الجزيرة. ولكنه أشعل النار فيها بمجرد وصول المدد البرتغالى ، وهرب إلى جزيرة قشم حيث قتل هناك . وخلفه فى الإمارة ابنه محمد شاه — ولم يكن له من العمر أكثر من ثلاث عشرة سنة — الذى عقد معه البرتغاليون معاهدة بواسطة حاكمهم الجديد فى الهند وهو دم دوارت دومنزس فى رمضان ٩٢٩ هـ/يونيه١٥٢٣م. وكانت هذه المعاهدة تقضى بخضوع هرمز للبرتغال كلية .

Be

(١) زندگانى شاه عباس : جزء ٤ ، ١٤٨ .

(٢) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٢٣١

(ب) العلاقات السياسية بين إيران وجمهورية فينيسيا فى عصر اسماعيل:

لقد ساعدت سيطرة العثمانيين على القسطنطينية، والقضاء على الإمبراطورية البيزنطية فى عام ٨٥٧ هـ/١٤٥٣م على إغلاق الطريق الرئيسى للتجارة بين أوربا وآسيا. وقد أصاب هذا الإغلاق الدول المستفيدة من نقل البضائع بين البحرين الأبيض والأسود مثل فينيسيا (البندقية) بلطمة شديدة. وقد كانت هذه الدولة أكبر قوة بحرية فى ذلك الحين، ولها علاقات اقتصادية مع ولايات آسيا الصغرى.

وكانت دولة فينيسيا ترتبط مع أسرة آلاق قولونلو بصلات الصداقة إلى من د تبادل السفراء[١]. وقد حاولت فينيسيا تشجيع وإغراء أوزن حسن رئيس آق قويونلو على مواصلة حربه ضد العثمانيين، وإمداده بالسلاح. لكنها الم نوفق لأن أوزن حسن — كما رأينا — فضل عدم مواصلة الحرب من ناحية، ولأن فينيسيا لم تكن جادة فى وعودها من ناحية أخرى. ودليل الجزير أنها وقعت اتفاقا مع الأتراك فى شوال عام ٨٨٣ هـ/ديسامبر سنة ١٤٧٨م بعد موت أوزن حسن[٢]. وقد تسببت هذه الاتفاقية فى إيجاد فترة جمود فى العلاقات بين فينيسيا وإيران طوال وقت الصراع الذى شهدته إيران بين المدعين للتاج والعرش فيها.

ولكن هذه العلاقات بين الدولتين عادت من جديد بظهور اسماعيل الصفوى الذى اجتهد فى إحيائها وتنميتها بقصد الوقوف فى وجه الدولة العثمانية. وبدأ اسماعيل فى إرسال السفراء إلى بلاط فينيسيا طالبا الهجوم على

(١، ٢) من سفراء فينيسيا إلى إيران كورنى وكاترينو لازنو.
إلى ١٣ وتشكيل شاهنشاهى صفويه، ص ص ١٢٢ و ٢٢٣

العثمانيين عن طريق البحر ، وأن يقوم هو بالهجوم من ناحية البر ، بشرط أن تسترد فينيسيا قواعدها التى فقدتها فى البحر الأبيض المتوسط (١) . غير أن فينيسيا لم تكن على استعداد لقبول هذا المطلب بسبب الحرب الدائرة بينها وبين البابا جول الثانى وحلفائه من جهة ، ولأنها ترتبط باتفاقية مع الأتراك لاتحب لها نقضا من جهة أخرى . وعلى هذا الأساس أكرمت وفادة سفراء إيران ، وأعلنت أنها لم تنس صداقتها القديمة للإيرانيين ولكنها لاتستطيع التعهد بالتزامات جديدة .

ولما لم يستطع سفراء إيران تغيير موقف فينسيا ، عادوا إلى قبرص ، وتوجهوا منها إلى سورية . حيث عقدوا اجتماعا مع حاكمها بطوس زنو . ولكن السلطان بايزيد الثانى علم بما دار فى الاجتماع . فطلب من سلطان مصر اعتقال سفراء اسماعيل . وبذلك باءت جهود اسماعيل بالفشل فى حمل فينيسيا على تغيير موقفها (٢) .

(ج) العلاقات بين إيران وأسبانيا فى عصر اسماعيل :

مما لاشك فيه أن فقدان الولايات الغربية الإيرانية بعد چالداران مثل ضربة سياسية كبيرة للشاه اسماعيل . وقد دعاه ذلك إلى التفكير فى التقارب مع الدول الأوربية المعادية للدولة العثمانية . وكانت أسبانيا والمجر ضمن هذه الدول التى سعى إسماعيل إليها . فبعث برسالتين إلى شارل الخامس إمبراطور أسبانيا ولويس الثانى (١) المجر فى شوال عام ٩٢٩ هـ / أغسطس ١٥٢٣ م .

وفى هاتين الرسالتين ، ... رزق ولد ... صغو ... ل عقد معاهدة صداقة وتعاون مع ... الأثناء جاء

(1) Berchet. La Republica di Ve[illegible]ia ... ercoia. p. 25.

نقلا عن : تشكيل شاهنشاهى صفريه ،

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٤

أسبانيا والمجر ، وعرض فكرة إتحاد بغرض سحق الأتراك . وقد وافق شارل الخامس على قبول اقتراح الشاه الصفوى[١] ، وبعث بموافقته إلى إيران. ولكن لدى وصول رسالة شارل إلى إيران كان الشاه اسماعيل قد مات ، وخلفه ابنـــه طهاسب الذى كان صغيرا ، ولذلك بقيت رسالة شارل دون جواب .

والجدير بالذكر ، أن رغبة الشاه اسماعيل فى تقوية العلاقات مع الدول الأوربية المعاديه للدولة العثمانية لم تصل إلى نتيجة لصعوبة المواصلات من ناحية ، ولأن سفراء الجانبين غالبا ما كانوا يقعون أسرى فى أيدى الأتراك العثمانيين أو يقتلون من ناحية أخرى[٢] . ثم إن موت اسماعيل الفجائى كان بمثابة حجر عثرة فى هذا السبيل ، خصوصا وأن ابنه طهاسب — بعد أن دانت له الأمور — لم يكن بحماس أبيه فيما يتعلق بتقوية العلاقات مع الدول الأوربية .

---

(١) كان التحالف الذى أقامته كل من أسبانيا والمجر تحت زعامة شارل الخامس فى عام ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م يهدف إلى تهديد فرنسا التى تتصارع مع هاتين الدولتين على وضع ايطاليا . فلم تكن فرنسا مضطـ[illegible] إلى الدفاع عن نابلى وميلانو فحسب ، بل كان عليها ضرورة[illegible] عادت لى حد[illegible] أمام هذا العدو المشترك . ولذلك اتجه فرانسوا الأول[illegible] بقصد [illegible] إلى التعاون مع العثمانيين أعداء اسبانيا والمجر . تشكيل شاهنشاهى [illegible] ص ٢٣٥ و ٢٣٦ » وهذا هو الأمر الذى شجع شارل الخامس على [illegible] إلى بلاط [illegible] الدولة الصفوية العدو الاولى للعثمانيين .

(٢) تشكيل شاهنشاهى صفوية ، ص ٢٤٠

— ٧ —

حياة الشاه اسماعيل بعد حرب چالداران :

بعد هزيمة الشاه اسماعيل فى موقعة چالداران ، نحت حياته نحو العزلة مركزا همه فى الانتقام لهزيمته من السلطان سليم العثمانى . وليس هذا بغريب على شخص كاسماعيل . فلم يكن له من السن أكثر من ثمانية وعشرين عاما لدى دخوله هذه الحرب . ولم يكن قد هزم أو جرح فى حرب قبلها مع كثرة ماخاض من حروب . ومن ثم فقد كان يعد الهزيمة بالنسبة له أمرا من قبيل المستحيل . ولذلك فقد تركت هذه الهزيمة أثرا كبيراً فى أخلاقه ونفسيته . بل إن عزيمته وهمته تبدلتا إلى يأس واعتزال . فذهب إلى جزين ، وارتدى لباسا أسود اللون ووضع عمامة على رأسه ، وأمر السادة بأن يفعلوا مثله ، وأن تكتب كلمة القصاص على الأعلام السوداء . وأدمن الخمر ، وامتنع عن استخدام السيف ضد المرتدين عن المذهب الشيعى . وعهد إلى رؤساء القزلباش بإخماد الفتن التى كانت تندلع ضده بين الحين والآخر . ولذلك لم يحدث أمر ذو أهمية حتى وفاته ، لما عرف عن رجال القزلباش من قسوة وعنف . وربما كان هذا السلوك الجديد لاسماعيل الصفوى هو الذى ساعد العثمانيين على احتلال ديار بكر ، وساعد عبيد الله قائد الأوزبك على إخضاع بلخ وقندهار ومحاولته دخول خراسان [١] .

كان الشاه اسماعيل قد رزق ولدا فى عام ٩٢١ هـ / ١٥ — ١٥١٦ م أسماه القاص ميرزا . وفى هذه الأثناء جاءه فى تبريز أمير سلطان موصولو وديو

---

(١) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٢٤١

سلطان روملو حاكما قاين وبلخ ، وأبلغاه أن زينال سلطان شاملو حاكم خراسان ليس على مستوى المسئولية ، وأن قحطا شديداً قد أصاب أهل خراسان(١) . فأمر اسماعيل بتعيين ابنه طهماسب ميرزا — وكان له من العمر عامين — أميرا على خراسان وسلطان موصولو وصيا عليه وغياث الدين محمد وزيراله(٢) . وبعد ذلك انتقل إلى نخجوان حيث استقبل رسل حاكم شيروان الذين عرضوا عليه إقامة تحالف معه تتويجا للعلاقة الطيبة التى تربط الأثنين(٣) . وفى ذى الحجة عام ٩٢٤ هـ / ١٥١٨م سافر الشاه اسماعيل إلى أصفهان لقضاء الصيف فيها . وفى عام ٩٢٦ هـ/ ١٥٢٠ انتقل إلى سلطانية ، وفيها عرف بأن الجيش العثمانى على وشك الوصول إلى بغداد ، فأرسل إليهم دورميش خان شاملو على رأس قوة من رجال القزلباش(٤) ، واستقر هو فى بيستون حيث عرف بوفاة السلطان سليم ورحيل الجنود العثمانيين عن بغداد(٥) ، فانتقل إلى قم ومنها إلى اصفهان ثم إلى ساوه حيث لحقت به قوة القزلباش التى كانت قد اتجهت إلى بغداد وارتحل الشاه اسماعيل بعد ذلك إلى همدان ليشترك فى زواج ابنته الأميرة خانيش خانم من الأمير ديباج . وبعدانتهاء مراسم الزواج، قصد مراغة ليزوج ابنته الثانية لسلطان خليل بن حاكم شيروان . وتوجه بعد ذلك إلى نخجوان لقضاء فصل الشتاء فيها(٦) .

وكانت الأحداث قد تطورت فى إقليم خراسان . ذلك أن أمير خان موصولو الوصى على طهاسب عزل غياث الدين محمد من الوزارة ، وعين مكانه أمير

---

(١) حبيب السير ج ٤ ، ص ٥٥٢ ، ٥٥٣

(٢) المرجع السابق : ص ٥٥٣ و٥٥٤

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٥٧

(٤) المرجع السابق : ص ٥٥٧

(٥) المرجع السابق ، ص ٥٧٠

(٦) تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٢٤٤

سمر قندى ، وجعل أبا الفتح خان مستشارا خاصا له . ولكن الوزير الجديد اختلس أموال خراسان ، مما استوجب ثورة الأهالى ، وعلم الشاه اسماعيل أن الوصى على طهاسب يعتزم مخالفة الحكومة المركزية فى تبريز فاستدعاه من خراسان على الرغم من أنه استطاع أن يحافظ على هراة عاصمة خراسان أمام هجمات الأوزبك المتعاقبة ، وعلى الأخص هذا الهجوم العنيف الذى قام به عبيد الله قائد الأوزبك فى ربيع عام ٩٢٧ هـ / ١٥٢١ م ، وانقلب فيه على أعقابه خاسرا إلى تركستان ثم استدعى اسماعيل ابنه طهاسب ميرزا ووصيه من خراسان ، وأرسل مكانه ابنه الثانى سام ميرزا تحت وصاية دورميش خان شاملو(١) .

وفى أوائل شتاء عام ٩٢٨ هـ / ١٥٢٢ م وصل الشاه اسماعيل إلى عاصمته تبريز . وأصدر أمرا يقضى بإعداد أماكن إقامة للاجئين الأتراك فى كل من خراسان وفارس . ثم أرسل رسولا إلى شيخ شاه حاكم شيروان يطلب منه ابنته زوجة له . وتمت مراسم زواج اسماعيل من زوجته الجديدة فى عام ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م(٢) . ثم سافر اسماعيل إلى ناحية شيروان ، وعلم وهو فى الطريق اليها بوفاة شيخ شاه حاكمها ، فعين ابنه خليل سلطان مكانه . واتجه إلى شكى ، وفيها مرض مرضاً شديدا . وفكر فى العودة إلى تبريز عن طريق أردبيل التى تحسنت صحته فيها قليلا ، ولكن فى أثناء السفر الى تبريز مات فى صائين كودكى على مقربة من آذربايجان عن عمر يناهز السابعة والثلاثين عاما حكم منه أربعة وعشرين عاما(٣) . ودفن فى أردبيل الى جوار أجداده

---

(١) حبيب السير ، ج ٤ ، ص ٥٧٩ وما بعدها

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٩٩

(٣) أحسن التواريخ ، ص ١٨١ وعالم آراى عباسى ، ص ٤٤

ترك من الأبناء أربعة ذكورهم طهماسب ميرزا ولى العهد ، القاص ميرزا ، سام ميرزا وبهرام ميرزا ، وخمس بنات هي پرى خان خانم ، مهين بانو سلطانوم ، فرنگيس ، زينب خانم وخانيش خانم .

وقد وصلت حدود ايران فى عصر اسماعيل إلى ما كانت عليه أيام الساسانيين . فشملت فارس ، العراق ، خوزستان ، كرمان ، خراسان ،وجزء من ماوراء النهر . وضمت فى وقت من الأوقات ديار بكر ، مرو ، بلخ وقندهار .

— ٨ —

شخصية الشاه اسماعيل الأول :

مما لاشك فيه أن شخصية كشخصية اسماعيل كانت تتمتع بصفات عديدة منها الإرادة الصلبة والذكاء والصبر على الشدائد والشجاعة والخشونة. وقد جعلته هذه الصفات رجلا قويا تختلط فيه عوامل الإقدام والفكر والترغيب والتحذير والأخذ والعطاء . وربما جعلت هذه الأمور خزانته خاوية فى بعض الأحيان . ذلك أن عطاياه الوفيرة قد جذبت إليه الكثير من غير رجال القزلباش ، ينضمون تحت لوائه ويتمتعون بعطاياه .

وكان اسماعيل رجل حرب وإدارة . يعرف جيدا كيف يجمع أعوانه ، ويضع لهم نظم الحرب والإدارة . ودليل ذلك أنه استطاع أن يؤسس دولة تقوم على أصول سياسية واقتصادية وإدارية. وقد حكمت هذه الدولة لمدة قرنين من الزمان ، وتمكنت من أن تلعب الدور الأكبر فى تاريخ إيران بفرضها المذهب الشيعى الإثنى عشر مذهبا رسميا للإيرانيين . وقد صبغ ذلك حضارة إيران بصبغة مميزة إلى يومنا هذا .

ومن الطبيعي أن يستحوذ اسماعيل على إعجاب معاصرية[١] من مؤرخي إيران وزوارها من الأجانب: يقول كاترينوزنو سفير فينيسيا في البلاط الإيراني: «إن الشاه اسماعيل صاحب الثلاثة عشر ربيعا الذي شرع في اقرار الأمن في ربوع بلاده كان حسن القسمات وملكي الطلعة. ولا أدري أي شيء عظيم ذلك الذي يختفي في عينية، ويشير في كل وضوح الى أن هذا الشخص سيصير ملكا عظيما يوما ما. ولم تكن صفاتة المعنوية تتباين مع جماله

---

(١) تجنبنا ما ورد عن وصف إسماعيل في كتب معاصريه من المؤرخين الإيرانيين في المتن خشية حمل كلامهم على التحيز. ونكتفي بما جاء في روضة الصفا: الجزء الثامن، ص ٤٢ حيث يقول: (في الحقيقة كان ذلك الملك نادرة الزمان وأعجوبة الليل والنهار. أولا: لأنه خرج في هذه الحداثة من السن والصغر، دون معين وياور محاولا فتح الدنيا، فأسقط عدة ملوك عظماء، وكان يبارز في المعارك بالنفس النفيسة. وكان يتمسك في الأوامر باستبداد الرأى.

وكان هماما، مايحضرونه إلى مجلسه من خراج البلاد يوزعه في نفس المجلس... صلب ورقيق، مهاب وشفوق.

ولم يكن يذل أعوانه كما يقول الأعداء، ولم يكن يحض الأمراء الكبار على ظلم الصغار... في مدة عمره التي كانت سبعة وثلاثين عاما أمضى أربعة وعشرين في الفتوحات، سخر من حدود ديار بكر حتى ساحل جيحون طولا ومن باب الأبواب دربند إلى ساحل عمان عرضاً. كان في الحفل كيرويز وبهرام (من ملوك الساسانيين) وفي الحرب كرستم وبهرام (من أبطال إيران القدامى) والأعجب في ذلك العهد أن عموم أهل إيران كانوا على مذهب السنة والجماعة وكانت جماعة الشيعة الإثنى عشرية في ذلة وقلة. فروج المذهب الجعفري بحد السيف. وأعطى الرونق للطريقة الإثنى عشرية... وعلى العموم يعده العلماء مؤيداً من عند الله، ويعتبره كافة العرفاء مرشدا كاملا. له على دين وملة أهل التشيع حقوق الأحياء، والرتبة الأعلى بين سلاطين الأقاليم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

الجسمانی ، وقد كان له ذكاء وافر وفكر ثابت لا يصدق فى هذه السن .. ولم تكن قوة ذا كرته وسرعة انتقاله ولياقة ذاته لأحد من معاصريه »[١] .
ويقول جوفان ماريا آنجيوللو فيما يتعلق بالشاه اسماعيل « كان صاحب جمال وأخلاق وأطوار جذابة » .

وكما كان الشاه اسماعيل يهوى الصيد كثيراً[٢] ، فقد كان يحب الشعراء ويقرض الشعر باللغات التركية والفارسية والعربية . والواقع أن أشعاره بالتركية تمثل أهم آثاره الشعرية ، ذلك أنه كان يهدف جمع مريديه وأتباعه من آسيا الصغرى والشام والعراق عن طريق إثارة الحمية فيهم . وقد طبع ديوانه بالتركية مؤخرا[٣] . وهو يشتمل على أشعار فى مدح الرسول (صلعم) وعلى بن أبى طالب والأئمة الإثنى عشرية ، واسماعيل يتخلص[٤] فى شعره التركى

---

(١) سفرنامه سياحان ايتاليائى در إيران ، ص ٤٦ - ٤٨ نقلا عن تشكيل شاهنشاهى صفويه ، ص ٩٥ .

(٢) بعد فتح بغداد ، أخبروه أن عدة أسود تثير الذعر بين السكان فى النواحى المجاوره ، فخرج إليها دون جنود ، وقتلها بالسهم والقوس . ويروى سائح إيطالى أنه أصاب سبعاً من عشر تفاحات بسهمه .

(٣) طبع هذا الديوان فى استانبول عام ١٩٤٦ م بواسطة سعد الدين نزهت أرگون . ثم أعاد تورخان گنجه اى طبعه ثانية تحت اسم ديوان شاه اسماعيل خطائى «راهنماى كتاب . ديوان شاه إسماعيل خطائى بقلم عباس زرياب خوئى سال سوم شماره ٤» .

(٤) التخلص فى الشعر الفارسى هو اللقب الذى يختاره الشاعر لنفسه فى أشعاره . وهو يساوى فى وقتنا الحالى لقب الشهرة .

ب ـ (خطائى)[١] . ومن أمثلة شعره بالعربية هذان البيتان اللذان بعث بهما إلى السلطان سليم :

نحن أناس قد غدا طبعنا حب على بن أبيطالب
عيبنا الناس على حبه فلعنة الله على العائب

وقد كان الشاه اسماعيل يدمن الخمر ، خصوصا بعد هزيمته فى چالداران . كما كان يغلب عليه طابع الفسق والفجور فى كثير من فترات حياته . وقد مر بنا تصرفه مع أعدائه حتى بعد وفاتهم ، ومنهم شيبانى خان قائد الأوزبك الذى مثل اسماعيل بجثته بعد قتله[٢] .

وربما كان من أسباب موته فى سن مبكرة ، الخمرا التى أدمنها والعشيقات اللائى أنزلهن فى بلاطه والجميلات اللاتى تزوجهن حتى قبل وفاته بأيام . ثم ذلك التناقض البين الذى يتملك شخصيته بين نوازع خيرة وأخرى شريرة .

---

(١) يقول يوسف وزيروف : « ومن عجيب الصدف أن ينظم الشاه إسماعيل الصفوى بالتركية أكثر ماينظم ، على حين نظم غريمه السلطان سليم الأول جل أو كل شعره بالفارسية . وقد تخلص بخطائى . وديوانه بالتركية الآذرية ، إلا أنه توفر كذلك على النظم بالفارسية والعربية ، ومما يلحظ على شعره التركى ، كثرة العناصر اللغوية التى تنتسب إلى آسيا الوسطى ، كما أنه يتضمن التراكيب الفارسية فى كثير من الأحايين . وشعر هذا العاهل الصفوى يعوزه إلتزام أصول الفن ، غير أنه يتكشف عن طبيعة صارمة البأس » حسين مجيب المصرى : فضولى البغدادى ص ١٤٣ » .

(٢) لم نجد داعياً لتكرار ماسبق ذكره فى الفصول السابقة بالنسبة للنقاط المتصلة بأخلاق إسماعيل .

— ٩ —

رأى فى الشاه اسماعيل الأول :

فتح عصر اسماعيل — بما اشتمل عليه من أحداث كبار — صفحة جديدة فى تاريخ إيران ، فقد جعل اسماعيل من نفسه شخصية بارزة ورجل حرب وسياسة من الطراز الأول بإقراره الوحدة الوطنية والسياسية فى داخل إيران وتثبيت مكانة مملكته وإبراز شخصيتها فى الخارج . غير أنه ألحق ضرراً كبيرا بالإسلام من حيث تصعيد حدة الصراع بين العثمانيين والصفويين وتجسيد الخلاف المذهبى بين السنة والشيعة .

وقد عرف اسماعيل كيف يستفيد من الشعور الوطنى فى بعث القومية الإيرانية ، واستطاع أن يجمع حوله عند اللزوم أغلب العناصر المعارضة للنفوذ الأجنبى أيا كان نوعه . صحيح أنه قد مارس العنف والقسوة مع أعدائه ، ولكنهما كانا من سمات العصر .

ومع أن اسماعيل لم يكن يلقى بالا إلى اللغة والأصل الإيرانيين وهما أساس القومية الإيرانية ، وكان يرتفع بقبائل القزلباش على الإيرانيين ، ويعتبر اللغة التركية لغة رسمية فى بلاطه ويقول الشعر — فى أغلبه — بهذه اللغة[1] . إلا أنه كان يرى فى ذلك ردا لجميل قبائل القزلباش التركمانية

(١) قصد إسماعيل بإستخدامه اللغة التركية نوعاً من الدعايه السياسية ضد السلطان سليم العثمانى الذى اتخذ هو الآخر اللغة الفارسية لغة ينظم الشعر بها . كما استهدف بها أيضاً جذب علماء الشيعة الذين يعيشون فى الأناضول للاستعانة بهم فى ترويج مذهبه وإيجاد فقه شيعى « تاريخ أدبيات إيران : جلد چهارم ، ترجمة رشيد ياسمى، ص ٢٥٥ ، وربما ليستخدمها فى إثارة أعوانه فى الأناضول ضد سليم العثمانى .

الأصل التي ساندته فى أفكاره ووقفت إلى جواره حتى خرجت إلى حيز التنفيذ. وقد يسر ذلك لهذه القبائل أن تصير — بمرور الوقت — أكثر قوة وتمتلك الأراضى والعقارات وتتمتع بالألقاب وتتدخل فى شئون المملكة إداريا وعسكريا حتى أصبحت إيران تعرف بمملكة القزلباش.

وقد تمخض تأسيس الدولة الصفوية عن بعض النتائج من أهمها تقسيم إيران إلى ثلاثة أقسام كنتيجة لإقرار المذهب الشيعى:

القسم الأول: ما وراء النهر.

القسم الثانى: الأراضى الواقعة على الحدود بين إيران وتركيا.

القسم الثالث: إيران.

وكان المقيمون فى القسمين الأول والثانى يخالطون بعضهم بعضا قبل الشاه اسماعيل، ولكن إعلان المذهب الشيعى كمذهب رسمى قلب البناء الاجتماعى رأسا على عقب فى ذلك الوقت. وأثار سكان هذه الأقسام الثلاثة ضد بعضهم البعض وقد منع هذا الانفصال بسط الثقافة الإيرانية، فعاشت هذه الأقسام فترة انحطاط ثقافى.

فبالنسبة لمنطقة ما وراء النهر، كانت فى حاجة إلى الثقافة الإيرانية للتخلص من الحياة البدائية لقبائل الأوزبك، كما أنها حرمت بسبب انفصالها عن إيران من تأثير الحضارة الإيرانية. وظل الحال بها كذلك حتى تمكن الروس من ضمها إلى الأراضى الروسية فى أواسط العصر القاجارى.

وبالنسبة إلى الأراضى الواقعة على الحدود بين إيران وتركيا والتى كانت ضمن ممتلكات الأتراك فى أثناء حكم السلاجقة، فإنها لم تكن فى الحقيقة

أكثر من مستعمرة إيرانية ، وكان عليها ضرورة الاتصال بإيران إن أرادت الاستفادة بالثقافة والحضارة الإيرانيتين . ولم تكن حدودها مع إيران حدوداً جغرافية تفصل بين البلدين بقدر ما كانت حدودا مذهبية تفصل بين عقيدتين . وبالتالى أصبح انتشار الثقافة الإيرانية فى بلاد الأتراك أمراً غير عملى ، ومن هنا فإن السياسة المذهبية للشاة اسماعيل الصفوى قد أنزلت ضربة قاضية بالنفوذ الثقافى الإيرانى فى الأراضى العثمانية .

أما عن إيران ، فيمكن القول أنها استطاعت بظهور الدولة الصفوية فيها ، أن تستعيد وحدتها السياسية وتحتل مكانتها فى ذلك الوقت، ولكنها فقدت بانحصارها بين كيانين سنيين يمثلان العدو الأول لها ؛ القدرة على نشر الثقافة الإيرانية فى آسيا الصغرى .

وإن كان المذهب الشيعى يتباين فى الأصل مع التصوف والعرفان فمن الثابت أن هذين العنصرين كانا القوة الخلاقة فى تقدم الثقافة والحضارة الإيرانيتين ، وربما كانا السبب فى احتفاظ الشعب الايرانى بأصالته فى فترات الهرج والمرج والنفوذ الأجنبى ولكن هذه القوة الخلاقة اصطدمت بالحكم الاستبدادى للملوك الصفويين علاوة على أن الفكر المذهبى قد تطلب نوعا من الالتزام فقيد النشاط الثقافى . ومن هنا فإن الحياة الثقافية الإيرانية التى عاشت أزهى عصورها على أيام المغول قد نحت إلى حد ما نحو الانحطاط فى القرن العاشر الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، ولم تستطع الدولة الصفوية أن تنقذها من هذا التردى .

وإلى جانب الانحطاط الثقافى ، فإن المذهب الشيعى الذى صار مذهباً قومياً كان هو الأساس فى الوحدة الوطنية الايرانية وقد أثارت هذه الطاقة

الجديدة الشعور الوطنى ، وساعدت الإيرانيين على أن يتخلصوا من النكبات التى حلت بهم بعد ذلك خاصة فى القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى ، ويقيمون الوحدة الوطنية على أساس متين.

وعلى هذا النحو ، استطاعت إيران أن تبعث علاقاتها القديمة مع الغرب فى ظل ظروفها الجديدة ، وقد بدأت هذه العلاقات أول ما بدأت فى صورة تجارية ثم تبدلت إلى علاقات ثقافية وسياسية .

ثم إنه لا ينبغى تجاهل النهضة الفنية المقترنة بالعصر الصفوى منذ أن ظهر اسماعيل ، ففى هذا العصر ظهر أسلوب كلاسيكى جديد يستمد أصوله من حضارات آسيا القديمة وقد نبغ فيه الذوق الايرانى إلى حد بعيد .

الفصل الرابع

الشاه طهماسب الأول

— ١ —

نشأته وأخلاقه :

ولد طهماسب (١) فى السادس والعشرين من شهر ذى الحجة عام ٩١٩هـ/١٥١٣ م فى قرية شهاباد على مقربة من أصفهان (٢) : وفى عام ٩٢١هـ/١٥١٥م أرسله أبوه إلى خراسان ليتولى الإمارة فيها تحت وصاية أميرخان موصلو (٣) وكان طبيعيا أن يكون هذا الوصى - وطهماسب لم يتجاوز العامين من عمره - الحاكم الفعلى لخراسان ، وشرع فى مخالفة الحكومة المركزية فى تبريز ولكن اسماعيل وضع حداً لتسلطه فى خراسان ، فاستدعاه هو وطهماسب من منها فى عام ٩٢٨ هـ/ ١٥٢٢ م :

وفى مساء الإثنين التاسع عشر من رجب عام ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٤ م ، وهو

(١) كنية طهماسب هى أبو الفتح « حبيب السير : ج ٤ ،ص ٥٣١ » .

(٢) أحسن التواريخ ، ص ١١٢ وزندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٦ وتاريخ إيران از مغول تا افشاريه : ص ٢٩١ .

(٣) نظراً لأن إقليم خراسان كان معقل الأوزبك ، فقد جرت العادة على أن يعين الملوك الصفويون منذ إسماعيل أكبر أولادهم سناً لحكم هذا الإقليم بهدف إرهاب الأوزبك « زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٦ و ٨» .

نفس التاريخ الذى مات فيه أبوه (١) ، جلس طهماسب على العرش، ولم يكن قد بلغ الحادية عشرة من عمره ، فزاد ذلك من سيطرة قبائل القزلباش على زمام الأمور ، وظهرت المنازعات ، وتضاربت الأطماع وتعاظم نفوذهم (٢) ، ولاشك فى أن الشاه اسماعيل كان قد ساهم إلى حد كبير فى إيجاد هذه المنازعات باعتماده الكلى على قبائل القزلباش فى فتوحاته ، وإدارة شئون بلاده إلى حد أنه كان يعتبر نفسه مدينا لهم بانتصاراته ، فبعد أن استولى على أجزاء من العراق العجمى ، أصفهان ، فارس ، وكرمان ، وضم خراسان إلى ممتلكاته على أثر هزيمة شيبانى خان ، صار رؤساء القزلباش أكثر قوة وامتلكوا الأراضى والعقارات ، وأغدق اسماعيل الألقاب عليهم وأصبحت إيران تعرف بمملكة القزلباش (٣) .

ونتيجة لتعاظم نفوذ القبائل القزلباشية ، تحول الحكم الصفوى الذى أخضع إيران كلها للمذهب الشيعى من حكم أساسه التضامن فى سبيل المذهب إلى حكم أساسه التنازع على السلطة والمناصب، وتبدل الامتثال لنفوذ الشيخ المرشد إلى تنازع من أجل البقاء فى هذا المنصب أو ذاك .

وقد شب طهماسب فى ظل هذه الظروف التى بدأت تطرأ على الدولة الصفوية وهى مازالت فى بدايتها . فكان من اللازم أن تلقى ولو بظلها على شخصية طهماسب المركبة تركيبا خاصا وكان لابد أن تتفاعل الاستعدادات الفطرية مع الصفات المكتسبة فى داخل شخصية ظلت توجه الأمور فى إيران لفترة طويلة ، إذ أراد القدر لطهماسب أن يحكم إيران ما يزيد عن نصف

---

(١) تاريخ أدبيات إيران : جلد چهارم ، ترجمة رشيد ياسمى ، ص ٨٣ .
(٢) إيران در زمان صفويه ، ص ٣٨ .
(٣) أمير شرف خان البدليسى : شرفنامه ، ص ٥٤٠ .

قرن . فصار ثانى حاكم إسلامى من حيث طول مدة الحكم بعد الخليفة العباسى المستنصر بالله ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ/ ١٠٣٥ — ١٠٩٥ م .

وإذا حاولنا رسم صورة لأخلاق طهماسب . فعلينا أن نتلمس ذلك فى كتابات السفراء الأجانب فى البلاط الصفوى على أيام طهماسب وفى كتاب أحسن التواريخ لمؤلفه حسن روملو وهو الكتاب العمدة فى دراسة طهماسب إذ أن صاحبه من معاصريه . وقد انتهى من تأليف الكتاب بعد سنة من وفاة طهماسب ، علاوة على أنه أحد أفراد طائفة روملو القزلباشية ، وأخير تذكرة طهماسب التى ألفها فى محاولة للتعريف بنفسه من خلالها يصف ألساندرى سفير دولة ڤينسيا فى البلاط الصفوى عام ٩٧٧ هـ / ١٥٧١ م طهماسب (عندما كان عمره فى الرابعة والستين وتجاوزت مدة حكمه نصف قرن) بأنه متوسط القامة وقوى البنية وجميل الوجه ، يميل لونه وشعر ذقنه إلى السواد ، أما شفتاه فغليظتان نسبيا ، ويلاحظ على أخلاقه الميل إلى الحزن والماخوليا . وعلامات هذه الحالة كثيرة ، مثلا لم يخرج من قصره الملكى مدة أحد عشر عاما(١) . ولم يمارس الصيد وسائر أعماله على خلاف ما ينتظر الناس ، متكبر وينفر من الحرب وضيق الحوصلة . يضع همه فى إرضاء خاطر النساء والاحتفاظ بالذهب والفضة وليس فى وضع وتنفيذ القوانين وبسط ونشر العدل ، لئيم وخسيس ، مثل التاجر الحقير فى البيع

---

(١) هذا القول ليس صحيحاً من وجهة نظرنا ، فقد أورد حسن روملو فى كتابه أحسن التواريخ ثبتا بالأحداث التى وقعت فى سنى حكم طهاسب ، ويتضح من خلالها أن طهاسب قد شارك فى هذه الأحداث دون أن يعتزل أو يعتكف هذه المدة . ولو أن لهذا القول أساس من صحة لتأثرت الدولة الصفوية بفعل اعتزال طهاسب .

والشراء . ومع وجود هذه الصفات التي كانت تستوجب النفور [١] فإن احترام الشعب بالنسبة للملك وصل إلى حد لا يمكن تصديقه » [٢] .

وينبغي القول أن طهماسب كان شديد الاعتقاد في الأحلام ، وقد واتاه هذا الاعتقاد وهو في سن العشرين ، عندما تاب عن جميع المحرمات [٣] إذ يقول إنه رأى في المنام أن الملائكة تضغط على حلقومه وتخاطبه [٤] : « هل يليق بملك لقبه العادل ، وينتسب لأسرة علي ، أن يجعل بيت المال خراباً ليملأ هو خزانته ؟ » وقد دفعه ذلك إلى أن يقول [٥] « اعتقادي أنا الضعيف طهماسب الصفوي الموسوي الحسيني هو أن من يرى أمير المؤمنين علياً ابن أبي طالب في المنام يصير له ما يأمر به » .

وهو يرى [٦] في عام ٩٣٤ هـ / ١٥٢٨ م علياً بن أبي طالب في المنام يمنيه بالانتصار على الأوزبك ، ويأمره بعد سنة أو اثنتين في هراة بأن يذهب لمحاربتهم مرة أخرى . ويذكر أن الإمام علي الرضا قد جاءه دفعتين متواليتين

---

(١) في تقديرنا أن هذا الوصف يدل على تناقض صاحبه . فكيف يكون طهماسب بهذا السلوك ثم يستحق كل هذا الاحترام من جانب شعبه .

(٢) مسافرت ونيسى ها در إيران (انجمن ها كلويت ١٨٧٣) ص ١٥ ، نقلا عن تاريخ أدبيات إيران : جلد چهارم ترجمهٔ رشيد ياسمى ، ص ٨٤ متن وحاشية ٥ .

(٣) أحسن التواريخ : وقائع عام ٩٣٩ هـ ، ص ٤٦

(٤) تذكرهٔ طهماسب ، ص٨

(٥) تذكرهٔ طهماسب ، ص ٨ وزندگانى شاه عباس أول ، جلد أول ، ص ٣

(٦) تاريخ أدبيات إيران : جلد چهارم ، ترجمهٔ رشيد ياسمى ، ص٨٥

تصدق الثانية الأولى ، وفيهما يحضه على ترك جميع المحرمات . ويعتقد طهاسب فى مسألة الاعتقاد فى الأحلام ، فيقول إنه رأى ذات ليلة فى أردبيل جده الشيخ صفى الدين الأردبيلى ، وفى مكان آخر من تذكرته يقول إن الشيخ شهاب الدين قد جاءه فى ليلة يقوى من عزيمته ويشد من أزره [١].

وكان لطهاسب ولع خاص بالذهب والفضة ، على الرغم من اعتقاده فى الأحلام وما تتمخض عنه من أوامر فقد روى [٢] أنه كان يحتفظ بستمائة قطعة من الذهب ، ومثلها من الفضة فى قلعة قهقهة ، بعيداً عن أعين الناس. ومعنى ذلك أن ما كان يقوله شيء وما يفعله شيء آخر .

— ٢ —

الصراع بين رؤساء قبائل القزلباش .

كان طبيعياً أن يسيطر رؤساء القزلباس على أزمة الأمور لدى تولى طهماسب — صغير السن — عرش إيران ، فظهر على مسرح الأحداث منهم رؤساء قبيلتى تكلو واستاجلو ، وتقاسموا المناصب فيما بينهم [٣] ولكن

(١) تاريخ أدبيات ايران ، جلد چهام ، ترجمة رشيد ياسمى ، ص ٨٦ .

(٢) شرفنامه ، ص ٥٧٦ حيث يقول شرف الدين البدليس أنه عندما أمرنى الشاه اسماعيل الثانى بفحص خزينة وسائر أموال والده طهاسب وجدت أنه بقى منها ٣٨٠ ألف تومان من الذهب والفضية نقداً و ٦٠٠ قالب من الذهب والفضة و ٨٠٠ غطاء للرأس مذهب وفضى و ٢٠٠٠ قطعه من الحرير و ٣٠٠٠ لباس من الأقمشة الغالية وأسلحة ومعدات ١٠٠٠٠ فارس و ٣٢٠٠ ناقة وحصان عربى ولم يكن قد حصل خراج آذربيجان وشروان واران وبعض الولايات الأخرى لمدة تسع سنوات وأنها كانت مازالت فى ذمة أهلها .

(٣) روضة الصفا : جلدهشتم ، ص ٤٤ ، ٤٥

سرعان ما دب التناحر بينهم صراعاً على هذا المنصب أو ذاك. واضطر طهماسب إلى عزلهم، وعهد إلى حسين خان من قبيلة شاملو بمنصب أمير أمراء قبائل القزلباش (١).

ووصل الأمر بين رؤساء القزلباش إلى الصدام المسلح. وانقلب هذا الصدام فى بعض الأحيان ضـد طهماسب نفسه، ففى العام السابع من حكم طهماسب، قام من يدعى آلامه سلطان تكلو أمير الأمراء فى آذربيجان بحركة تمرد (٢)، وادعى حق الوكالة أو النيابة على السلطنة الصفوية، وشرع فى محاربة طهماسب، ولما هزم لجأ إلى السلطان سليمان القانونى، وحرضه على مهاجمة إيران (٣). فوافقه واتجه إلى إيران برفقة آلامه. وقد تسببت حركة هذا المدعى فى أن ينسلخ عدد كبير من رؤساء القزلباش من تبعيتهم للشاه الصفوى ليلتحقوا بمعسكر السلطان العثمانى (٤). ولعلنا نجد فى ذلك قمة النفاق والتمرد وضعف العقيدة لدى رجال هذه القبائل. ففى عام ٩٤٠ هـ/ ١٥٣٤ م أراد حسين خان شاملو — وهو الذى عينه طهماسب فى منصب أمير الأمراء — أن يضع السم فى طعام الشاه طهماسب بمعاونة واحد من ندمائه، ليتسنى له تنصيب أخيه سام ميرزا ملكا مكانه (٥).

وعلى الرغم من مفاسد رجال القزلباش وانسلاخ بعضهم من التبعية الصفوية وتآمر البعض الآخر ضد زعيمهم المذهبي والدنيوى، فإن طهماسب

---

(١) روضة الصفا. جلد هشتم : ص ٤٦

(٢) المرجع السابق، ص ٨٣ وما بعدها

(٣) زندگانى شاه عباس أول، جلد أول، ص ١٧٤

(٤) المرجع السابق : نفس الصفحة

(٥) المرجع السابق : ص ١٧٥، حاشيه ٤

كان يتجاهل مثل هذه الأمور حيناً ، ويقف موقف المتفرج حينا آخر أو يجد أنها قد تصون دولته من شر المتنازعين عليها [١] . فهي تساهم في القضاء عليهم بطبيعة الحال [٢] .

— ٣ —

حروب طهماسب مع المعسكر السنى بجناحيه العثمانى والأوزبكى .

كان عصر طهماسب امتداداً لعصر أبيه من حيث الصراع مع المعسكر السنى ، وإن تغيرت الأشخاص . ولم تعرف الحدود الشمالية الشرقية والشمالية الغربية هدوء بالمعنى المعروف لفترة طويلة من حكم طهماسب . فبوفاة السلطان سليم الأول وتولى السلطان سليمان القانونى ، بدأت جولة جديدة من الحروب ضد بعض ممالك أوربا (روسيا والمجر) وكذلك أهالى منطقة صحراء قبچاق فى إقليم خراسان . كما أن عبيد الله قائد الأوزبك كان هو الآخر محاربا صعب المراس ، دخل فى سبعة حروب مع الإيرانيين على فترات مختلفة لم يهزم إلا فى واحدة منها [٣] .

وكان الأوزبك قد بدأوا ينظرون بعين الطمع إلى صحراء قبچاق ، ولكن دورميش خان الوصى على الأمير سام ميرزا صدهم عنها ، فعادوا إلى

---

(١) تذكرة طهماسب : ص ٧٣ وأحسن التواريخ ، ص ٢٣٧

(٢) دفع تنازع رؤساء القزلباش فيما بينهم الشاه عباس الكبير فيما بعد إلى إبعادهم عن مراكز القوة ليضمن لنفسه البقاء ولنظامه الاستقرار على نحو ماسنرى فى القسم الثانى من هذا الكتاب .

(٣) تاريخ أدبيات إيران : جلد چهارم ، ترجمه رشيد ياسمى ، ص ٩١

تركستان. ولما سمعوا بوفاة هذا الوصى عاودوا الكرة ثانية ، واستولوا على مشهد ثم هاجموا استراباد وأدخلوها فى حوزتهم، وعهد عبيد الله بها الى ابنه عبد العزيز ، وتوجه من استراباد لمحاصرة مدينة هراة [١] .

وبوصول هذه الأخبار الى طهماسب،توجه الى استراباد ودامغان ومشهد وخلص هذه النواحى من قبضة الأوزبك ، ولكن قواد الاوزبك فى إقليم ما وراء النهر سرعان ما ساعدوا بعضهم بعضا وجمعوا جيشا دخلوا به الى إيران والتقى جيش طهماسب بهم فى (بيرونة جام) [٢] وتمكن من هزيمتهم وفر الأوزبك هاربين فى العاشر من المحرم عام ٩٣٥ هـ/١٥٢٩ م [٣] ونصب طهماسب حسين خان شاملو حاكما على هراة لما أبداه من شجاعة فى هذه الحروب [٤] .

وقد توجه طهماسب بعد هذه المعركة إلى قزوين وقم ، ثم انتقل إلى بغداد واستولى عليها ، وعين عليها حاكما من جانبه ، وفى هذه الأثناء عاد عبيد الله إلى خراسان ، وشرع فى الإغارة عليها . فأسرع طهماسب إليها ، وحاول عبيد الله أن يستثير قواد الأوزبك الآخرين ، ويحصل منهم على المساعدات ، ولكنهم خذلوه ، فهرب إلى بخارا وبدأت خراسان تفيق من

---

(١) تاريخ إيران از مغول تا أفشاريه : ص ٢٩٢

(٢) أحسن التواريخ ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٣٥ . وقد ورد اسم هذا المكان على أنه (خسر وجرد جام) فى عالم آراى عباسى، جلد أول، ص٥٢، ٥٣، و (زور آباد جام) فى تاريخ إيران أز مغول تا أفشاريه ، ص ٢٩٢ .

(٣) يعزو طهماسب إنتصاره على الأوزبك الى أنه رأى على بن أبى طالب فى المنام يبشره بالنصر ، ويقول له : (إن فتحا كبيراً قد يسر لك) « تذكرة طهاسب ، ص ١٥ ،

(٤) تاريخ إيران از مغول تا أفشاريه ، ص ٢٩٢

خطر الحرب المتصلة : وعاد طهماسب فى عام ٩٣٩ هـ / ١٥٣٣ م إلى آذربيجان يدبر أموره ويؤدب مخالفيه ويوزع المناصب على قواد القزلباش بهدف الاستقرار والقضاء على بقية أعداء المملكة ، وقر قراره على بقاء أخيه سام ميرزا أميرا على هراة [١].

— ٤ —

حروب الشاه طهماسب مع العثمانيين :

كان السلطان سليمان العثمانى قد شرع يفكر فى غزو إيران تحت تأثير أفراد القزلباش المتمردين على طهماسب والمعتصمين بالبلاط العثمانى وعلى رأسهم ألامه تكلو سلطان [٢] . فتقدم إلى إيران فى عام ٩٤٠ هـ / ١٥٣٤ قاصدا تسخير تبريز عاصمة الصفويين . واستطاع الاستيلاء عليها وعلى أغلب أنحاء آذربيجان ، وهزم كلا من القاص ميرزا وبهرام ميرزا شقيقى الشاه طهماسب وحسين خان شاملو . ووصل إلى سلطانيه [٣] .

وفى هذه الأثناء أدار بعض قواد القزلباش ظهر المجن للشاه طهماسب ، وانضموا إلى السلطان العثمانى ومنهم محمد خان ذو القدر بن شاهرخ بن علاء الدولة وحسين سلطان تكلو ، فانتقل طهماسب إلى أبهر ومنها إلى قراباغ منتظرا ماستسفر عنه الأمور .

استقر السلطان سليمان فى سلطانيه ، وحل عليه فصل الشتاء ، فاشتدت البرودة وعصفت الرياح وتراكم الجليد ، وصار حال السلطان سليمان وجيشه

---

(١) روضة الصفا : جلدهشتم ، ص ٥٧

(٢) روضة الصفا : جلدهشتم ، ص ٥٩

(٣) تاريخ إيران از مغول تا أفشاريه ، ص ٢٩٣

إلى سوء لم يكن يتوقعه ، وزادت خسائره فى الأرواح والمعدات . ففكر فى الرحيل إلى العراق ، وتقدم إلى السليمانية ثم إلى الموصل ، واستولى على قلعة بغداد من قائدها محمد خان تكلو . وهنا انتهز طهاسب الفرصة ، وعاد إلى تبريز حيث أعمل القتل فى أفراد القزلباس الذين نافقوه وخالفوه وخذلوه ، وبدأ يستجمع قواه فى مواجهة الخطر العثمانى[١] .

وازاء استعداد طهاسب ، ترك سليمان القانونى العراق فى عام ٩٤١ هـ / ١٥٣٥ م فى طريقة إلى إيران ، وقسم جيشه إلى مجموعات اتجهت كل منها فى اتجاه داخل إيران . وقد لقيت إحدى هذه المجموعات بقيادة ابراهيم باشا هزيمتها الأولى عندما انتصر عليها بهرام ميرزا شقيق طهاسب فى غرب آذربيجان ، أما المجموعة الثانية بقيادة سنان باشا فقد تغلب عليها طهاسب فى ناحية وان ، وانتهى أمر سنان باشا بالقتل على يد رجال القزلباش[٢] .

وبوصول هذه الأخبار إلى السلطان سليمان ، دفع بابراهيم باشا على رأس فيلق من الجيش العثمانى . ولكنه هزم من بهرام ميرزا للمرة الثانية . فلم يجد السلطان سليمان وسيلة أخرى ازاء هذه الهزائم المتكررة سوى العودة إلى دياره . فأسرع طهاسب إلى تبريز ، وأصدر أمره بقتل آلوند خان أفشار جزاء تقصيره وتراخيه فى مقاومة العثمانيين ، وأقام الاحتفالات فى عام ٩٤٢ هـ / ١٥٣٦ م بمناسبة انتصاره . وبدأ يستقصى أخبار خراسان وأمر الأوزبك وقائدهم عبيد الله فى منطقة ماوراء النهر ، وأنشد ما يوحى برغبته فى العودة

---

(١) روضة الصفا : جلدهشتم ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٢ .

إليها حيث قال ما ترجمته : « روحي تهفو إلى خراسان ، وجسدي الضعيف رهين رغبة الروح »[١] .

— ٥ —

عودة إلى قبائل الأوزبك :

في عام ٩٤٣هـ/ ١٥٣٧ م كان الشاه طهماسب قد نصب صوفيان خليفه روملو حاكما على مشهد، فقتل الأوزبك حاكم هراة كرد على هذا الإجراء[٢] واستدعى أهل هراة صوفيان خليفه الى مدينتهم ، وأعطوه صلاحيات حكمها ولكن عبيد الله قائد الأوزبك أسرع الى محاصرة هراة، فاشتبك معه مساعدو الحاكم الجديد وقتلوا بعض قواده . وقد زاد هذا القتل السريع لبعض قواد عبيد الله من أمل صوفيان خليفه في الانتصار على عبيد الله الذي فك الحصار وانتقل الى « عبدل آباد نيشابور » ، فكتب اليه يقول : « سأصل وسأشق جلدك وأملأه بالقش » . ولكن بالتقاء الجيشين في هذه المنطقة قتل صوفيان خليفه روملو بعد معركة طاحنة ، وانتقل عبيد الله الى هراة وحاصرها لمدة خمسة أشهر ، مارس فيها القتل والإغارة . وبقي في هراة لمدة تقرب من سنة ونصف[٣] .

وبتدهور الموقف في خراسان ، توجه إليها طهماسب . ولم يجد عبيد الله في نفسه القدرة على مواجهة طهاسب ، فترك هراة هاربا إلى ماوراء النهر .

---

(١) نص هذا البيت بالفارسية هو :

خاطرم باز تمناى خراسان دارد تن بيجان شده من هوس جان دارد

(روضة الصفا : جلد هشتم . ص ٦٣)

(٢) روضة الصفا . جلد هشتم ، ص ٦٣ وما بعدها

(٣) تاريخ ايران ازمغول تا افشاريه : ص ٢٩٤

وانتهز طهماسب الفرصة واستولى على قندهار . ولما وجد عبيد الله توسعات طهماسب على هذه الدرجة من التقدم، بعث الى طهماسب رسولا محملا بالهدايا للتهنئة بفتح قندهار. وقد استقبل طهماسب رسول عبيد الله قائد الأوزبك استقبالا طيباً . وبدأت خراسان تشهد فترة من الهدوء الذى لم تعهده فى تاريخها منذ بدأت الدولة الصفوية . واستمرت هذه الفترة مدة عام منذ أواخر عام ٩٤٤ هـ / ١٥٣٨ م إلى أواخر عام ٩٤٦ هـ / ١٥٤٠م . وهو العام الذى مات فيه عبيد الله قائد الأوزبك [١] .

وينبغى القول هنا أن إقليم خوارزم فى منطقة ماوراء النهر، كان قد آل فى التبعية إلى إيران بعد قتل محمد خان شيبانى على يد الشاه اسماعيل الصفوى [٢] . وعهد الشاه طهماسب بحكمه إلى كل من دين محمد خان وأخيه على سلطان منذ عام ٩٤٣ هـ / ١٥٣٧ م . ولكن عبيد الله نجح فى انتزاعه منهما، وعهد به الى ابنه عبد العزيز . غير أنه سرعان ماهزم من دين محمد، وهرب إلى ماوراء النهر، وعادت خوارزم مرة أخرى إلى حوزة الصفويين [٣] .

— ٦ —

فتح شيروان :

كان ملوك شـــيروان الذين قالوا بانتسابهم الى كسرى أنوشيروان

---

(١) روضة الصفا : جلد هشتم ، ص ٦٦ ، ٧١ وما بعدها

(٢) كان إقليم خوارزم تحت حكم الوس جوجى خان وأولاده من زعماء الأوزبك ، وقد عين شيبك خان بعد ظهورة كبك سلطان حاكما عليه إلى أن سخره الصفيون فى عهد اسماعيل الأول (روضة الصفا . جلد هشتم ، ص ٧١)

(٣) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه : ص ٢٩٤ ، ٢٩٥

الساسانى يدفعون الجزية لحكومة ايران منذ عصر تيمور . ولكنهم رفضوا الإذعان لطلبات الحكام الايرانين بمرور الوقت . وقد قتل السلطان حيدر والد الشاه اسماعيل الأول فى حروبه معهم . مما دفع الابن إلى الانتقام لدم أبيه منهم ، فقتل فرخ يسار ملك شيروان واستولى عليها . وتوطدت العلاقة بين اسماعيل وبين حكام شيروان لى حد أنه زوج ابنته لسلطان خليل بن شيخ شاه حاكم شيروان .

وفى عهد طهماسب ؛ انقلبت العلاقات بين الأسرتين . اذ اختار الشيروانشاهيون الأبن الأصغر لفرخ يسار ويدعى شاهرخ حاكما عليهم ، وثاروا على الحكومة المركزية فى تبريز فى عام ٩٤٦ هـ / ١٥٤٠ م . فتوجه طهماسب وأخوه القاص ميرزا على رأس فيلق من جيش القزلباش بأغلبية من قبيلة قاجار لى شيروان . وانتصر عليهم بعد حصار دام أربعة شهور ، دخل بعدها شيروان ، وقتل المعارضين للحكم الإيرانى . وبعد هذا الانتصار عين طهماسب أخاه القاص ميرزا حاكما على هذا الإقليم (١) .

وكان لابد من ذكر فتح شيروان ضمن حروب طهماسب مع المعسكر السنى بجناحيه الأوزبكى والعثمانى لارتباط هذا الحدث بجولات الحروب الأخرى بين طهماسب الصفوى وسليمان العثمانى والتى حدثت فى أعوام ٩٥٠ هـ / ٣ — ١٥٤٤ م و٩٥٣ — ٩٥٥ هـ / ٦ — ١٥٤٨ م و٩٥٩ هـ / ١٥٥٢ م و ٤٦١ / ١٥٥٢ (٢) . اذ لعب القاص ميرزا فى هذه الجولات دوراً كبيراً.

ومما لاشك فيه أن ملامح هذا الدور الذى لعبه القاص ميرزا على مسرح

---

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشارية ؛ ص ٢٩٥

(٢) تاريخ أدبيات إيران : جلد جهارم ، ترجمه رشيد ياسمى ، ص ٩٠ وقد رأينا أن نعرض عن ذكر كل هذه الحروب مكتفين بأهمها .

الأحداث فى عصر طهاسب قد بدأت مع تنصيبه حا كما على شيروان . فقد استغل القاص وجوده فى شيروان ، وبدأ يكون ثروة كبيرة[١] . ولعبت الرغبة فى الملك برأسه . ويبدو أنه أراد الاستفادة من بعض المشاكل التى اعترت طريق طهماسب . فاتفق مع بعض الأمراء المعارضين على ضرب السكة باسمه وذكره فى الخطبة ليس على مستوى شيروان فحسب بل على مستوى إيران كلها . فتوجه طهماسب إلى شيروان لتأديب أخيه واستولى على شيروان وعين ابنه اسماعيل[٢] حاكما عليها تحت وصاية كوكجه سلطان قاجار[٣] .

ولما يئس القاص ميرزا من أمره ، هرب إلى استانبول ، والتحق بخدمة السلطان سليمان القانونى ، وطلب منه المساعدة على غزو إيران تحقيقا لأمل ما زال يراوده وهو اعتلاء عرش إيران بدلا من أخيه طهماسب .

— ٧ —

جولات جديدة من الحروب بين طهماسب والعثمانيين :

لم يكن السلطان سليمان القانونى بالرجل الذى ينسى هزيمته الأولى فى إيران ورحيله عنها دون أن يحقق هدفه الذى دفعه إليه ألامه سلطان تكلو أحد زعماء القزلباش المتمردين على طهماسب . ولا شك أن السلطان سليمان القانونى تصور أنه قد امتلك مفتاح إيران هذه المرة بوجود القاص ميرزا فى معيته . فتقدم إلى إيران بجيش كبير مزود بالعدة والعتاد . وأخذ

---

(١) روضة الصفا : جلد هشتم ، ص ٧٩

(٢) هو الشاه اسماعيل الثانى فيما بعد .

(٣) تاريخ إيران إذ مغول تا افشاريه : ص ٢٩٦

طريقه إلى تبريز العاصمة باتفاق بينه وبين القاص ميرزا من ناحية وألامه سلطان تكلو من ناحية أخرى . وفعلا استطاع سليمان القانونى أن يستولى على العاصمة ، ثم تقدم إلى وسط إيران . بينما تقدم جيش القاص ميرزا إلى همدان بعد أن سخر العراق العجمى ، ولكنه لم يستطع دخولها نظرا للمقاومة العنيفة التى واجهته ، فرأى أن يتجه إلى شوشتر الذى كان حاكما عليها قبل عام ٩٥٥ هـ (١) . إلا أنه فشل فى إخضاعها . وقد غضب السلطان العثمانى من تصرف الأمير الصفوى ، فأصدر أمره إلى الجند الأتراك بالتخلى عنه ، فتركوه ليقع أسيراً فى أيدى الصفويين الذين حملوه إلى الشاه طهماسب فأمر بحبسه (٢) فى قلعة قهقهه (٣) .

ولمواجهة الخطر العثمانى المدعم بمساندة القاص ميرزا وبعض قادة القزلباش المنشقين ، أخلى الشاه طهماسب تبريز العاصمة ، وقر قراره على أن يختار قزوين بديلا لها (٤) . ومن ثم صارت قزوين هى العاصمة الجديدة للصفويين بعد تبريز . وقد استفاد طهماسب من الوعى المذهبى لدى الناس فى سرعة تجهيز جيشه . فمن الثابت أن الآلاف قد تدفقوا عليه من كل صوب وحدب داخل إيران يريدون الذود عن مذهبهم الشيعى الإثنى عشرى . وعهد طهماسب إلى كل من عبد الله خان استاجلو وبدرخان وحسينقلى خان روملو

(١) سيد عبدالله الشوشترى : تذكره شوشتر ، ص ٤٢ بتصحيح خان بهادر قولى ومحمد هدايت حسين .

(٢) أحسن التواريخ : ص ٣٤٠ وعالم آراى عباسى ، ص ٧٥

(٣) أوردت بعض المصادر اسم قلعة ألموت بدلا من قلعة قهقهه ولكن هذا خطأ .

(٤) تاريخ إيران از مغول تا أفشاريه : ص ٢٩٦

وشاهو يردى خان زياد أوغلى وغيرهم بالمعاونة فى القيادة (١) .

ومع أن السلطان العثمانى كان قد سيطر على جزء كبير من ممتلكات الدولة الصفوية ، إلا أنه فكر فى الانسحاب ، فأعطى الفرصة للشاه طهماسب الذى جمع فلول جيشه ، واستولى على المناطق التى سخرها العثمانيون مرة أخرى بل انه واصل التقدم حتى إقليم جورجيا(٢) .

— ٦ —

فتح شكى وشماخى وانتظام الأمور فيهما:

بعد اعتقال القاص ميرزا في عام ١٩٥٧ هـ / ١٥٥١ أرسل الشاه طهماسب سندوك بيك على رأس جيش من رجال القزلباش لإخماد التمرد الذى حدث ضده فى شكى وشماخى . وقد استطاع هذا القائد تسخيرهما وإعادتهما إلى حوزة الصفويين . ثم توجه طهماسب إلى هذا الاقليم لتأكيد سيطرته عليه . وأعلن بعض حكام المناطق المجاورة الطاعة والولاء له ، بينما استبدت بالبعض الرغبة فى مواصلة التمرد ، مثل درويش محمد الذى أسرع إلى بعض حصون وقلاع هذا الاقليم متحصنا بها ، وعسكر بعض زملائه الآخرين فى منطقة جبال ألبرز ، وأقاموا المناجيق فيها فوزع الشاه طهماسب قواد القزلباش فى اتجاهات مختلفة للقضاء على حالة التمرد التى كانت قد شملت أغلب أنحاء الإقليم . وتمكن من إخضاعها جميعا ، وقتل درويش محمد ، وطلب الناس الأمان وعادت شكى وشماخى إلى الحكم الصفوى (٣) .

---

(١) روضة الصفا : جلدهشتم ، ص ٨٣ و ٨٤
(٢) عالم آراى عباس : ص ٧٩ إلى ٨٢
(٣) روضة الصفا : جلدهشتم ، ص ٩١ ومابعدها

وفى هذه الأثناء كان البعض من ملوك أوربا قد بعثوا برسلهم إلى البلاط الصفوى من أجل التفاهم حول إيجاد اتحاد لدفع السلطان سليمان القانونى ، ولكن الشاه طهماسب ردهم دون جواب حاسم [١] . كما أن عبد العزيز بن عبد الله الأوزبكى الذى كان يترأس الأوزبك فى بخارا مات فى هذه السنة ، فخلفه براق بن سونجك سلطان بن أبى الخير فى الحكم . واتفق مع عبد اللطيف سلطان وشاه محمد سلطان من قواد الأوزبك على محاصرة هراة . ولكنهم لم ينجحوا لرعونة البراق نفسه الذى سرعان ما تخلى عن مواصلة الحصار وعاد إلى ما وراء النهر [٢] .

— ٧ —

دخول طهماسب فى حروب مع أهالى گرجستان المسيحيين [٣] وفتح أرمينية كمقدمة لجولة جديدة مع العثمانيين :

كان كيخسرو بن قرقره قد أحاط طهماسب علما بأن لوار صاب وذا الخوش وشر مزان حكام گرجستان قد أغاروا على منطقة نفوذه فى أروانوح

(١) تاريخ إيران از مغول تا آفشاريه ، ص ٢٩٧

(٢) روضة الصفا : جلدهشتم ، ص ٩٣

(٣) دخلت إيران فى عهد طهاسب عدة حروب مع أهالى گرجستان فى سنوات ٩٤٧ هـ / ٠ - ١٥٤١ م و ٩٥٠ هـ / ٣ - ١٥٤٤ م و ٩٥٨ هـ / ١٥٥١م و ٩٦١ هـ / ١٥٥٤ م و ٩٦٣ هـ / ١٥٥٦ م و ٩٦٨ هـ / ٠ - ١٥٦١م و ٩٧٦هـ / ٨ - ١٥٦٩م .

وكانت سمة هذه الحروب الضراوة والعنف لإجبار أهلها على قبول الإسلام. فمن اعتنقه منهم عضوا عنه ، ومن رفض قتلوه . « تاريخ أدبيات إيران : جلد چهارم ، ترجمة رشيد ياسمى ، ص ٩٢ »

وأن اسكندر باشا الحاكم العثمانى قد خف لمساندتهم . ولما كان كيخسرو هذا من الذين يحظون بحماية طهماسب ويدفعون الجزية له بصفة عامة ، وأنه يحول بحكم متاخمة ولايته لكرجستان دون تمرد مسيحيها والتضامن مع العثمانيين ضد الحكم الصفوى بصفة خاصة . فقد تحرك طهماسب فى طريقه إلى هذه المنطقة التى تكثر فيها الجبال والتلال والأراضى الصخرية - مما جعل اهلها يتصورون أنهم فى مأمن من بطش طهماسب - واعمل القتل والسلب والنهب فى أنحائها المختلفة ، وغنم من خيراتها كثيراً ، وخرب كنائسها وقلبها مساجد ، واسر كثيرا من بناتها اللائى كن يمتزن بجمال وافر . وغادر طهماسب كرجستان بعد أن استقر له الأمن فيها إلى قراباغ (١) .

وكانت أرمينية محل نزاع بين الإيرانيين والعثمانيين (٢) ، خاصة سليمان القانونى وطهماسب الصفوى . فكان كل منهما يعين حاكما من جانبه لهذه البلاد . ومن ثم فقد استمر النزاع بين البلدين على هذه المنطقة . وفى عام ٩٥٩هـ ١٥٥٢م توجه الشاه الصفوى لإخضاع أرمينية الصغرى وحاصر قلعة أخلاط وسيطر عليها ، ثم انتقل إلى قلعة أرجيش التى طال حصارها ولكن

---

(١) روضة الصفا : جلدهشتم ، ص ٩٣ ومابعدها

(٢) كانت بلاد الارمن فى ذلك الوقت تنقسم إلى قسمين : أرمينية الكبرى من توابع العثمانيين وأرمينية الصغرى من ممتلكات الصفويين . وكانت أرمينية الصغرى أكثر عمرانا وتمتاز بمناظرها الطبيعية الخلابة ، يحدها من الغرب ديار بكر وأرمينية الكبرى ومن الشرق آذربيجان ومن الجنوب كردستان ومن الشمال باران ، طولها ثمانون فرسخاً وعرضها سبعون . وكانت نساء هذه الولاية على قدر من الجمال كبير . ومن بلاد هذه المنطقة أخلاط وعاد لجواز المشهورة بالجواز وبدليس وارجيش ووان وموش آباد . وفيها بحيرة كبيرة يسمونها بحيرة الأرمن . لكل ذلك ، فقد كان النزاع على هذه المنطقة بين الصفويين والعثمانيين كبيراً ومستمراً . « روضة الصفا : جلدهشتم ، ص ٩٦ ، ٩٧ » .

طهماسب تغلب على قائدها بالحيلة وقد أثارت انتصارته حقد اسكندر باشا حاكم ولاية أرزنة العثمانية . فوقعت الحرب بين الطرفين ولكن اسماعيل ميرزا بن طهماسب تمكن هو ورجال القزلباش من إلحاق الهزيمة باسكندر وقواته التى تفرقت ووقع بعضها فى الأسر . وبوصول هذه الأخبار إلى السلطان سليمان ، شرع فى الزحف إلى آذربيجان فى عام ٩٦٠ هـ/ ١٥٥٤م [١] .

ولم يكن حظ السلطان سليمان القانونى بأحسن من حظ قائده اسكندر باشا ، فقد تعرضت قواته لاختبارات قاسية ، اضطر معها سليمان إلى أن يفكر فى طلب الصلح : وقد راق المطلب للشاه طهماسب ، ويبدو أن لسان حال الإثنين كان يقول : « من أعظم الخطايا محاربة من يطلب الصلح » ، وتولى محمد باشا الصدر الأعظم للسلطان سليمان وشاهقلى بيك من رؤساء قبيلة قاجار القزلباشية التمهيد للصلح الذى حدد أماكن الاتفاق بين الطرفين [٢] .

ومع أن السلطان سليمان القانونى كان شخصية قوية ، إلا أنه ابتلى فى أخريات حياته باختلاف ولديه سليم وبايزيد [٣] ، وقد لعبت إيران هى الأخرى دوراً فى هذا الخلاف ، فعندما اضطر الأب إلى عزل بايزيد عن ولاية كوتاهيه عام ٩٦٦ هـ/ ١٥٦٠ م ، أثار فعل الأب حقد الابن الذى توجه على رأس جيش لمحاربة أخيه سليم ، فغضب السلطان سليمان وأرسل سليم على رأس جيش أكبر لدفع بايزيد ، وقد حاول بايزيد إبداء أسفه على ما بدر منه والعودة إلى طاعة والده ، ولكن السلطان سليمان لم يصفح عنه .

---

(١) روضة الصفا : جلدهشتم ، ص ٩٨

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٠

(٣) Ismail Hakko Uzuncarsile : Osmanli Tarihi, c. 25405-408 Ankara 1964.

فهرب بايزيد مع أولاده الأربعة وعشرة آلاف شخص من أتباعه إلى إيران عن طريق أرمينية فاستقبله طهماسب وأكرم وفادته ، وأسكنه أحسن القصور ووعد بألا يسلمه الى والده[١] .

وقد كان بايزيد يتوقع أن يمده طهماسب بجيش لمحاربة أبيه ، ولكن الشاه الصفوى لم ير فى طلب بايزيد مصلحة لإيران ، خاصة وانه كان يسعى الى كيد اتفاقه السابق مع الدولة العثمانية ، فتوسط لبايزيد لدى والده لكى يسمح له بالبقاء فى إيران ، ولكنه علم أن بايزيد يدبر مؤامرة ضده ، فأمر طهماسب بأسره هو وجمع من أعوانه فى عام ١٥٦١/٩٦٧ م[٢] .

وبعد ان سمع السلطان سليمان نبأ اعتقال ابنه بايزيد ، بعث يطالب بتسليمه فى الحال ، فحانت الفرصة لعقد معاهدة الصلح بين الطرفين ، ولكن المفاوضات استغرقت عامين من عام ٩٦٨ هـ/١٥٦٢ م إلى ٩٧٠ هـ/١٥٦٤ م وانتهت بعقد معاهدة صلح ، يسلم الشاه طهماسب بمقتضاها بايزيد لأبيه ، وتبقى قلعة قارص خربة دائما بمثابة منطقة منزوعة السلاح بين ولاية ارضروم التركية وولاية أرمينية الإيرانية غير ان تسليم بايزيد لأبيه الذى قتله هو وأولاده الأربعة لم يعجب بعض الإيرانيين ، فلاموا الشاه طهماسب على ذلك[٣] .

ولاشك ان تسليم بايزيد الذى انتهى بمعاهدة الصلح هذه ، قد وضع حدا لفترة من الزمان لذلك الصراع الدامى الذى فرض نفسه على العلاقات

---

(١) أحسن التواريخ : ص ٤٠٩

(٢) المرجع السابق : ص ٤١٢ وعالم آراى عباسى : ص ١٠٣

(٣) تذكرة طهماسب : ص ٧٧ وعبدالله رازى همدانى : تاريخ إيران از أزمنه' باستانى تاسال ١٣١٦ ، ص ٥٤٧

بين الصفويين والعثمانيين بدافع من التعصب المذهبي إلى حد أن المراسلات السياسية بين الملكين بدأت تأخذ صفة الاحترام المتبادل بعد أن كان طابعها التحقير والتوهين [١] .

وقد أسعد طهماسب أن تستقر العلاقات بينه وبين العثمانيين ، فقد كانت دولتهم ذات بأس كبير فى تلك الحقبة من الزمن ، وتمتلك القدرة على المناورة فى المعارك الحربية بما عندها من أسلحة متقدمة فى ذلك العصر كالمدفعية والسفن الحربية بالإضافة إلى فن الهندسة الحربية . بينما الدولة الصفوية كانت ما تزال ترسى دعائم المذهب الشيعى فى ديارهم ، والخطر ما انفك يحوق بها من الداخل والخارج . والسلاح الذى فى يديها بدائى بالنسبة لغيرها .

ولم يكن طهماسب هو وحده الذى يخشى بأس الدولة العثمانية ، فقد كانت دول أوربا الراغبة فى كسب أسواق تجارية جديدة فى ذلك الوقت تخشى هى الأخرى سطوة الدولة العثمانية ، وقد رأوا أن إيران بصراعها مع العثمانيين ، كانت تساهم فى توزيع وتشتيت الجيش العثمانى الذى وصل إلى أبواب أوربا فى عصر السلطان سليم الأول [٢]

— ١٠ —

سحق أمراء گيلان وجولة جديدة من الأوزبك :

كانت حكومة گيلان لدى قيـــام الدولة الصفوية فى يد الأسرة

---

(١) تاريخ أدبيات إيران : جلد چهارم ، ترجمه رشيد ياسمى ، ص ٨٩

(٢) المرجع السابق ص ٩٠ ، ٩١

الكيانية (١)، وقد وافق الصفويون على بقاء الحكم فى يد أفرادها باعتبار أنهم من السادة الذين يتصلون فى النسب بالإمام على زين العابدين (٢)، ولكن أحدهم ويدعى خان أحمد قتل سائر حكام مدن گيلان ومعهم مندوبى طهماسب بعد أن استقرت له الأمور. وقد أثار مثل هذا العمل من جانبه ثائرة الشاه طهماسب، فأرسل إليه فيلقا قزلباشيا بقيادة معصوم بيك الصفوى الذى تمكن من تفريق جيش خان أحمد وقتل قادته وتسخير گيلان وأسر خان أحمد وإرساله إلى قزوين ليمثل بين يدى الشاه طهماسب. ولم ير طهماسب مصلحة فى قتله مكتفيا بسجنه فى قلعة قهقهه الحصينة (٣) مدة

---

(١) أول رؤساء هذه السلسلة هو على كيا الذى ذهب هو وأخوه إلى گيلان فى عام ٧٩٩ هـ. واستشهدا هناك فى المعارك المذهبية، ثم ابنه كاركيا رضا كيا الذى توفى فى عام ٨٢٩ هـ. وقد عهد جهانشاه رئيس القراقويونلو إلى ثالثهم كاركيا ناصر بحكم طالقان. ولما مات فى عام ٨٥١هـ. تولى مكانه كاركياسلطان محمد الذى مات فى عام ٨٨٣ هـ. فخلفه كاركيا ميرزا على الذى أقام الشاه إسماعيل - وهو لم يزل طفلا - خمس سنوات لديه فى گيلان مسديا إليه من الخدمات أجلها (أنظر بداية الفصل الثالث من القسم الأول) وقد رد إسماعيل هذا الجميل بأن استدعاه ليقيم فى العاصمة تبريز بعد أن توج ملكا إلى أن مات فيها عام ٩٤٠هـ. (روضة الصفا: جلدهشتم، ص ١٢٢)

(٢) المرجع السابق: ص ١٢٢.

(٣) كانت هذه القلعة تقع فى ناحية يافت من أعمال قراجه داغ على قمة جبل. ويصلها بأسفله طريق ضيق طوله نصف فرسخ. وكان الشاه طهماسب ينقل خزائنه إلى هذه القلعة كلما حمل السلطان سليمان القانونى على آذربيجان. كما كان يتخذ منها معتقلا للأمراء والمسئولين الصفويين الذين يساء الظن بهم بسبب مناعتها القوية. « تاريخ زندگانى شاه عباس أول. جلد أول، ص ٧. حاشيه ٢.

عشر سنوات ، أطلق سراحه بعدها ، وقد استقرت الأمور فى گيلان عام ٩٧٩ هـ / ١٥٧١ م .

كان الشاه طهماسب قد نصب ابنه محمد ميرزا أميرا على هراة تحت وصاية قزاق خان تكلو . ولكن هذا الوصى فكر فى الاستقلال بحكم خراسان ، فجمع حوله جمعا من الأتباع . ولكنه قتل فى أثناء عصيانه وتفريق أتباعه . وقام الشاه طهماسب بتعيين شاهقلى سلطان وصيا جديدا على محمد ميرزا .

وقد تصور الأوزبك أن بامكانهم استغلال هذا الموقف ، ولكن الشاه طهماسب أسرع بجيش قوامه أربعون ألفا لمواجهة الأوزبك الذين تفرقوا من تلقاء أنفسهم عائدين إلى تركستان بسبب ماوقع بين قادتهم من خصومة وشقاق .[1]

وفى عام ٩٧٨ هـ / ١٥٧٠ م ، عاد جيش الأوزبك بقيادة أوزبك خان حفيد جانى بيك للاغارة على حدود سرخس وجام ، وأعمل القتل فى اندخود وشيرغان ، وقتل بعض الجنود الإيرانيين على الرغم من الجهود التى بذلها زينل خان حاكم منطقة جام[2] .

— ١١ —

لجوء همايون بن بابر إلى إيران :

مر بنا أن بايزيد بن السلطان سليمان القانونى قد لجأ إلى إيران ، وقد لعب وجوده فى إيران دورا مهما فى العلاقات الصفوية العثمانية . وفى عام ٩٥١ هـ

---

(١) روضة الصفا : جلدهشتم ، ص ١١٩ ومابعدها

(٢) تاريخ إيران از مغول تا أفشاريه ، ص ٢٩٩

١٥٤٠ م هرب همايون الذى كان قد جلس على عرش الهند بعد وفاة والده ظهير الدين بابر الـگوركانى إلى إيران بسبب الخلافات الأسرية . وقدأحسن طهماسب استقباله فى إيران ووفر له أسباب الراحة .(١)

وقد استطاع همايون بعـــد قضاء بعض الوقت فى إيران وزيارة مدينة أردبيل وتبريز أن يعود إلى قندهار ، ويستولى على كابل والأقاليم الغربية للهند بمساعدة الجيش الايرانى . وقد طلب همايون المساعدة العسكرية من طهماسب مرة أخرى حتى دانت له أمور مملـكته (٢) .

على أن بعض المصادر تختلف فى حقيقه ميل همايون للتشيع أو فرضه عليه مقابل إيوائه فى إيران . بل يذهب البعض إلى أنه قد تعرض لمهانات كثيرة فى أثناء ترحاله (٣) ، وأنه لولا شفاعة سلطانوم خانم شقيقة الملك وقاضى جهان الوزير ونور الدين الطبيب ، لـكان قد تعرض لأكثر منها (٤) . ومازالت إحدى اللوحات المنقوشة على جدران القصر المعروف بـ (چهل ستون) فى

---

(١) روضة الصفا : جلدهشتم ، ص ٧٦

(٢) تاريخ إيران از مغول تا أفشاريه ، ص ٢٩٦

(٣) تاريخ أدبيات إيران : جلد چهارم ، ترجمهٔ رشيد ياسمى ، ص٨٩

(٤) الواقع أن هذا الرأى لايستند إلى الصحة . فمن الثابت أن محمد ميرزا ابن طهماسب قداستقبله فى خراسان استقبالا عظيما وكذلك فعل شاهقلى سلطان حاكم مشهد . إلى أن استقبله الشاه طهماسب فى مصيف سورلوق فى قزوين . وتبادلا الهدايا ، روضة الصفا : جلدهشتم ، ص ١١٩ ومابعدها ، ونحن لانشك فى تشيع همايون . فقد كان أبوه بابر من قبله يميل إلى التشيع على الأقل . وقد مر بنا أنه فرض على أفرادُ جيشه أرتداء قلنسوة القزلباش الحمراء اللون ورمز التشيع . وقد تسبب هذا التصرف فى إضعاف مركزه فى منطقة ماوراء النهر ثم سقوطها . ثم أن زيارة بابر لمشهد مركز التشيع هو فى حد ذاته دليل آخر على تشيع همايون .

أصفهان ، تصور مجلسا جمع بين الشاه طهماسب وهمايون .[١]

— ١٢ —

علاقات طهماسب مع الدول الأجنبية :

كان طهماسب أقل رغبة من أبيه اسماعيل فى تدعيم العلاقات الصفوية الأجنبية . ولعل مرجع ذلك يبدو فى المتغيرات السياسية التى وقعت فى عصر كل منهما من حيث الصراع مع الدولة العثمانية [٢] فبينما كان الصراع بين اسماعيل وسليم قويا وعنيفا ، وانتهى بهزيمة اسماعيل فى موقعه چالداران ، ولم يفلح اسماعيل بعدها فى عقد صلح مع السلطان سليم،. وجدنا أن هذا الصراع قد انتهى بين طهماسب وسليمان إلى عقد صلح بينهما ،و بدأت الرسائل بينهما تأخذ طابع الاحترام المتبادل . كما أن الشاه طهماسب بعث مندوبه شاهقلى سلطان ليقدم العزاء فى وفاة السلطان سليمان والتهنئة للسلطان سليم الثانى بتولى العرش[٣] .

وليس معنى ذلك أن إيران لم تتصل بالدول الأجنبية فى عهد طهماسب فقد كانت جسور الاتصال قائمة وعلى الأخص مع البرتغال فهى الدوله الأجنبية التى شب طهماسب ليجد علاقات أبيه معها ، وقد كانت علاقات حكومة البرتغال مع إيران فى زمان طهماسب أخوية وطيبة فى ظاهرها. إذ أرسل دم سباسقيان ملك البرتغال ١٥٥٧ — ١٥٧٨م سفراء من قبله إلى الشاه طهماسب مرتين. الأولى فى عام

---

(١) إيران در زمان صفويه : ص ٤٠

(٢) كانت الدولة العثمانية هى الأساس فى تقوية علاقات إيران بالدول الأجنبية منذ عصر إسماعيل الأول . فقد تلاقت سياسة هذه الدول وإيران على تطويقها.

(٣) روضة الصفا : جلدهشتم ، ص ١٢٢

٩٥٨ ، والثانية فى عام ٩٨٢ . ولكن الشاه طهماسب استقبل سفير ملك البرتغال فى المرة الثانية بجمود وفتور ، ولم يعطه هو وأعوانه الترخيص بالعودة إلى ديارهم حتى عام ٩٨٤ هـ . لأن الموظفين البرتغاليين كانوا يسيئون المعاملة مع أهل هرمز من ناحية ، ولأن الملكة اليزابيث ملكة انجلترا كانت قد أرسلت بالاتفاق مع إيوان مخوف قيصر روسيا ، وفدا يمثل شركات التجارة الانجليزية برئاسة السيد انتونى جانكسون إلى ايران بقصد فتح باب التجارة معها عن طريق روسيا من ناحية أخرى . ولكن طهماسب كان يفضل توطيد علاقاته مع البرتغاليين ، محاولا الاقتباس من الحضارة الأوربية عن طريقهم ، وظل على هذا الاعتقاد إلى ماقبل وفاته بقليل [١] ولذلك وجدنا أن طهماسب لم يستقبل مندوب ملكة انجلترا وقيصر روسيا على النحو المطلوب [٢] .

— ١٣ —

بداية اختلاف قادة القزلباش فى أخريات حياة طهماسب ووفاته :

كان الشاه طهماسب ذا ولع شديد بجميع المال والمقتنيات الثمينة وكان يحتفظ بهذه الثروة فى قلعة قهقه الحصينة ، وفى عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧٣ م عندما كان ابنه إسماعيل ميرزا محبوسا فيها [٣] . فقدت عدة قوالب ذهبية وفضية

---

(١) أحسن التواريخ : ص ٥٥ ، ٤٥٩ وتاريخ روابط إيران وأوربا در دوره صفويه ، قسمت أول ، ص ١٧ ومطالعاتى در باب بحرين وجزاير وسواحل خليج فارس . ص ٧١ و ٧٢

(٢) يقول جانكسون فى مذكراته إنه بعد أن خرج من البلاط الصفوى وجد شخصاً يسير وراءه ويضع ترابا من إناء على مكان خطواته . » نقلا عن تاريخ إيران از مغول تا أفشاريه ، ص ٣٠٢ . حاشيه ١ » .

(٣) كان طهماسب قد ضاق ذرعا بتصرفات ابنه اسماعيل . فأرسله فى عام ٩٦٣ هـ إلى خراسان ليتولى الإمارة فيها بوصاية محمد خان شرف الدين أوغلى . ولكن سرعان ما اختلف إسماعيل مع وصيه ، وفكر فى قتله . فاطلع محمد خان

فزعم حبيب بيك استاجلو حاكم القلعة أن الأمير اسماعيل قد ألقاها ـ كمنحة ـ من برج القلعة إلى جمع من أعوانه الذين كانوا قد جاءوا من الأراضي العثمانية لتأييده ، وأقاموا أسفل القلعة . أما اسماعيل فقد نسب سرقة هذه القوالب إلى ابنة حاكم القلعة . وحدث أن الأمير اسماعيل كان قد تعلق بواحدة من زوجات معاوني حبيب بيك استاجلو ، ونشأت بينهما صلة ، وكانت تذهب إليه خلسة في مقره بالقلعة أو يذهب هو إليها خفية في منزلها . ولما عرف زوجها ، تقدم إلى الحاكم شاكيا أن الأمير في منزله . فذهب حبيب بيك إلى المنزل ، وأمسك بتلابيب اسماعيل ، وضربه على وجهه ضربة هشمت سنتيه الأماميتين .

ولما وصلت هذه الأخبار إلى العاصمة . أرسل الشاه طهماسب إلى القلعة أربعة من رؤساء القزلباش هم حسينقلي خلفاى روملو ، ولى خليفه شاملو ، پيره محمد خان استاجلو وخليفه انصار قراد غلو .(١) وأمرهم بتقصى الأمور في القلعة ونقل الخزائن الملكية إلى العاصمة قزوين ، ولكن پيره محمد خان استاجلو تحيز لحبيب بيك استاجلو حاكم القلعة — لصلة القرابة بينهما — في الظاهر ، واتفق مع اسماعيل ميرزا في الخفاء وأخذ منه وعدا بالزواج من ابنته ونهض خليفه انصار قراد اغلو — بسبب صداقته وقرابته لطائفه استاجلو — لتأييد الحاكم . بينما كان القائدان الآخران يؤيدان اسماعيل ميرزا .

= الشاه على نوايا ابنه . وبعث طهماسب في طلب الإثنين . ولكنه أصدر أمره بقتل الوصى قبل وصوله إلى قزوين وحبس ابنه اسماعيل في قلعة قهقهه . « زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٧ »

(١) لعلنا نلمس في اختيار هذا الوفد بعد نظر طهماسب ، فكل واحد منهم من قبيلة قزلباشية . وهذا من شأنه أن يكشف أمرهم .

وعندما عاد الجميع الى العاصمة . فضحوا بعضهم البعض فى بلاط الشاه الى حد أنهم تشاجروا ، وألصقوا التهم بالشاه نفسه . وقد تبين لطماسب أن ابنه اسماعيل ميرزا هو الذى نقل هذه القوالب الذهبية و الفضية إلى تبريز وأردبيل مستخدما إياها فى إثارة الناس على أبيه . فغضب الشاه طهماسب لهذا الصنيع من جانب ابنه ، وظن بحبيب بيك استاجلوا حاكم القلعة الظنون ، وعزله من منصبه ، وعين مكانة خليفه انصار قراد اغلو الذين نقل أعوانه البالغين عشرة آلاف رجل إلى القلعة ، وأحكم الخناق عليها . ولم يستطيع طهماسب أن يتلخص من عاطفته تجاه ابنه ،وخشى عليه من أن يمسسه ضرر من جانب رجال طائفة استاجلو فبعث خمسين رجلا من أشداء طائفة أفشار للمحافظة على حياته [١] .

ونتيجة لهذه الأحداث ، صمم قواد طائفة استاجلو القزلباشية على أن يحولوا دون اختيار اسماعيل ميرزا وليا للعهد [٢] خشيه أن يبطش

---

(١) زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ١٠ ومابعدها

(٢) أنجب الشاه طهاسب من نسائه العديدات اثنتى عشرة ولداهم بترتيب السن محمد ميرزا المعروف بمحمد خدابنده ، إسماعيل ميرزا والإثنان من أم واحدة هى سلطانم من طائفة موصولوى التركمانية . مراد ميرزا الذى ذهب فى صحبة همايون ملك الهند إلى قندهار ومات فيها وهو طفل. حيدر ميرزا وكانت أمه سلطان زاده خانم من گرجستان وقتل فى الثانية والعشرين من عمره بعد وفاة أبيه بيوم واحد بواسطة جمع من قادة القزلباش . سليمان ميرزا وكانت أمه سلطان أغا خانم شركسية وكان له من العمر عند وفاة أبيه واحد وعشرون وقتل بامر من أخيه إسماعيل ميرزا . مصطفى ميرزا ولد فى عام ٩٦٤ هـ . وكانت أمه زهرا باجى من گرجستان ، ولقى حتفه على يد أخيه اسماعيل ميرزا . محمود ميرزا ولد فى عام ٩٦٦ هـ وقتل بامر من أخيه إسماعيل ميرزا . أما مقلى ميرزا وكانت أمه خان پرورخانم وقتل كاغاب أخوته على يد اسماعيل وهو فى الرابعة عشرة =

بهم جميعا إذا صار ملكا . وخاصة وأنهم كانوا يتولون فى آخريات حياة طهماسب أهم الوظائف القيادية فى المجالين المدنى والعسكرى [١] .

كان حسين بيك يوزباشى [٢] استاجلو الوصى على مصطفى ميرزا من أبناء الشاه — وكان طهماسب يثق فيه كثيرا ويشركه فى إدارة أمور المملكة — هو رئيس طائفة استاجلو ، فقر قراره هو وبقية قواد الطائفة على أن يرشحوا حيدر ميرزا ثالث أبناء الشاه طهماسب وليا للعهد [٣] .

ومن أجل تحقيق هذه الرغبة العامة لدى قواد طائفه استاجلو — وهى إبعاد اسماعيل ميرزا عن ولاية العهد — اتصلوا بصدر الدين خان الصفوى

= من عمره . على ميرزا شقيق مصطفى ميرزا وقدسمل اسماعيل ميرزا عينيه وهو فى الرابعة عشرة من عمره أيضاً . أحمد ميرزا وقتل بأمر من اسماعيل وهو فى عشرة من عمره . زين العابدين ميرزا ومات وهو طفل فى قزوين . موسى ميرزا ومات وهو طفل أيضاً .

گوهرسلطان خانم . پريخان خانم — التى سماها بعض المؤرخين خطأ پريجان خانم — وكانت هى وسليمان ميرزا من أم واحدة . خديجه سلطان خانم . زينب بيگم وكانت تسمى فى البداية آنا خانم وأمها من گرجستان . مريم خانم . فاطمه سلطان خانم . شهر بانو خانم . خانش بيگم .

والجدير بالذكر أن زوجات طهماسب كن من الجميلات التى يبعث بهن حكام إقليم گرجستان كل سنة بصحبة التحف والهدايا والأموال التى تدفع كخراج ، عالم آراى عباس : جلد أول ، ص ١٢٤ إلى ١٣٧ وزندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ١٢ وما بعدها ، حاشيه ١ »

(١) زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ١١

(٢) يوزباشى هى رتبة عسكرية فى العصر الصفوى كان تعطى لمن يقود مائة جندى . ولأن حسين بيك بدأ حياته يوزباشياً فقد ظلت هذه الرتبة لاصقة به .

(٣) زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ١٢

رئيس طائفة شيخاوند والوصى على حيدر ميرزا وحكام گرجستان أقرباء حيدر ميرزا من ناحية الأم وجمع من إمراء طائفة قاجار الذين يمتلكون عقارات واسعة فى هذا الاقليم لتوحيد الجهود من أجل ترشيح حيدر ميرزا وليا للعهد.

ولكن فى المقابل، كانت هناك جماعة من قواد طوائف روملو وأفشار وتركمان وتكلو وشركس برئاسة حسينقلى خلفاى روملو الذى يتولى منصب خليفة الخلفاء فى البلاط الصفوى [1] تقول إن ولاية العهد حق لاسماعيل ميرزا الابن الثانى للشاه طهماسب، ذلك أن شقيقه الأكبر محمد ميرزا كان قد كف بصره فى عام ٩٨٠ هـ / ١٥٧٤ م، ولم يعد صالحا لتولى الملك.

وظل الفريقان يعملان سر لمقصديهما . غير أن أمرهما افتضح قبل عامين من وفاة طهماسب . وفى عام ٩٨٢ هـ / ١٥٧٦ م مرض الشاه طهماسب مرضا شديدا، فأسرع كل منهما الى أعلان نيتهما دون الالتفات الى رأى طهماسب وقد رأى طهماسب بعد شفائه من مرضه أن يرشح أحد أبنائه وليا للعهد . ووقع اختياره على حيدر ميرزا، وشرع يربيه التربية الملكية . وقد ساعدت أم حيدر ميرزا التى كان طهماسب يعزبها على تغذية ميله الى هذه الفكره . ولكن پريخان خانم الابنه الثانية لطهماسب — وكانت تحتل منزلة طيبة لدى أبيها — وقفت ضد هذا الاتجاه [2].

---

(١) كان منصب خليفه الخلفا يعنى فى النظام الصفوى نائب الشاه . وكان رجال القزلباش يعتبرونه خليفة الشاه أو المرشد الكامل ويطيعون أوامره . «زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ١٤ »

(٢) لفرط حب طهماسب لابنته پريخان خانم — التى كانت تتمتع بذكاء ودهاء كبيرين — فإنه لم يوافق على زواجها .

وقد انتصرت پريخان خانم فى إثناء أبيها عن عزمه اختيار حيدر ميرزا لولاية العهد، وبدأ فكره يتجه الى اختيار سليمان ميرزا شقيق پريخان خانم فأحضره إلى قزوين من مشهد التى كان يعيش فيها، وشرع يدربه على تصريف الأمور ويفرق انصار حيدر ميرزا وعلى رأسهم حسن بيك يوزباشى . فكلفه بالذهاب ألى استانبول لتقديم التهنئة الى السلطان مراد الثالث بمناسبة جلوسه على العرش . ولما كان سليمان ميرزا وابراهيم ميرزا صغيرى السن وبالتالى تنقصهما الكفاية، فإن هذا لم ينقص من شعبية حيدر ميرزا . بل ان حسن بيك المتزعم لأنصار حيدر ميرزا تعلل بعدم الذهاب الى استانبول - فقد كان يدرك نية الشاه طهماسب فى تفريق اتباعه من ناحية[1]، وان نهايته قد اقتربت من ناحية أخرى .

وتوفى الشاه طهماسب بعد مرض لازمه لفترة فى فجر الثلاثاء ١٥ من صفر عام ٩٨٤ هـ/١٥٧٨م[2] . فعاش عمرا يصل إلى أربع وستين عاما وشهرين تقريبا، وحكم مدة بلغت ثلاث وخمسين عاما[3] .

— ١٤ —

رأى فى الشاه طهماسب :

كان طبيعيا أن يحفل عصر طويل كعصر طهماسب بالأحداث الكبار وأول ماينبغى قوله فى أمر هذا الملك أنه كان طاقة قوية من الصبر . وإلا لما استطاع البقاء على عرشه هذه الفترة الطويلة التى لم يفوقه فيها من الحكام

---

(١) كان بين قبائل روملو وأفشار وتركمان وتكلو وقبائل استاجلو وشاملو وقاجار عداوة قديمة . ولذلك فقد خالفت مجموعة القبائل الأولى ترشيح حيدر ميرزا ولياً للعهد . وقد أيد هذه المعارضة الأمراء الشراكسة الذين كانوا يرتبطون بصلة القرابة مع پريخان خانم من ناحية الأم واتفقوا معها فى تأييد ترشيح إسماعيل وليا للعهد .

(٢) أحسن التواريخ : ص ٤٦٤ وعالم آراى عباس : جلد أول، ص٢٣

(٣) فيما يتصل بموت الشاه طهاسب، توجد روايتان . فقد ذكر بعض

المسلمين سوى الخليفة العباسى المستعصم بالله . خاصة وأنه قد تعرض منذ أن جلس على العرش وهو لم يزل صبيا لتمرد أفراد القزلباش ضده إلى حد أن أحدهم فكر فى اغتياله وتنصيب أخيه سام ميرزا مكانه. ولكن طهماسب بعد أن تمرس بالإدارة الملكيه ملك زمام أفراد القزلباش ، وبدأ يسلس القياد لهم إذا ما أفادوه فى فتوحاته والدفاع عن مملكته ، فينعم عليهم بالمناصب ويغدق عليهم الأملاك والعقارات . ويكبح جماحهم إذا ما تمردوا ضده أو انشقوا عليه أو انسلخوا من تبعيته . فيعمل فيهم الحبس والقتل ، أو يضعف تجمعاتهم بتفريق شملهم وتوزيعهم على أنحاء إيران المختلفة، ولاشك أن تعدد قبائل القزلباش واختلافها على بعضها البعض بحكم عداوات قديمة — شأنها فى ذلك شأن أية قبائل أخرى — قد أفاد طهماسب فى الانتصار عليها فى الوقت الذى يريده وبالطريقة التى يراها . وهنا يصح القول بأن طهماسب كان يتجاهل تصرفات القزلباش حينا ، ويقف موقف المتفرج منها حينا آخر ، أو يجد أنها قد تصون دولته من شر المتنازعين عليها حينا ثالثا . فهى تصرفات تسهم فى القضاء عليهم بطبيعة الحال(١) .

وقد كان طهماسب حريصا على تقصى أمور الرعية والنظر فى أوضاعها بعين العطف ، مدفوعا فى ذلك بالرغبة الملحة لدى الطبقات الدنيا من الشيعة

= المؤرخين أن جزءاً من أعضائه السفلى قد جرح بفعل الماس المطحون الذى خلطه أحد أطبائه واسمه أبو نصر الگيلانى بالمحك الذى يستخدمه طهماسب فى الاستحمام فزادت الآلام عليه وأدت إلى وفاته . بينما يرى البعض أنهم قد وضعوا له السم فى الأكل بواسطة هذا الطبيب، وبتحريض من زوجته أم حيدر ميرزا « زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ١٦ ، حاشيه ١ » .

(١) تذكرهٔ طهماسب : ص ٢٣ وأحسن التواريخ ٢٣٧ .

فى الذود عن المذهب خوفا عليه من الخطر الرئيسى المتمثل فى المعسكر السنى بجناحيه العثمانى والأوزبكى . ودليل ذلك قوله فى تذكرته[١] : « . . . وقد وجدت من الأولى النظر فى حال العجزة والمساكين ورعاية أمورهم ، فهم الذين تجمعوا فى مرو من أجل دفع الأوزبك » ومن ثم وجدنا طهماسب يوجه عناية لابأس بها إلى الناحية الداخلية فى محاولة منه لاصلاح الأمور التى ساءت بفعل التنازع والاختلاف بين أفراد أسرته ورؤساء القزلباش[٢] . وأصدر أمرا بتخفيض الضرائب التى كانت تتحملها الطبقات الدنيا ، وقام ببعض التغييرات فى المناصب الهامة فى الحكومة والبلاط والديوان .

وإذا كان طهماسب قد أعطى دفعة إلى الأوضاع الداخلية ، فقد أعطى دفعات أكبر إلى الناحية المذهبية . إذ أنه نجح — ولعل طول مدة حكمه قد ساعدته على ذلك — فى أن يجمع حوله صفوة من رجال الدين الذين تفقهوا فى تعاليم المذهب الجديد مثل الشيخ على منشار ،عبدالله الشوشترى،ميرزاخان الشيرازى ، بهاء الدين محمد ، لطف الله طبس ، حسن داودخادم الاسترابادى ومحمد على التبريزى[٣] . كما أنه أمر أبا الفتح الحسينى بإعادة تنقيح كتاب صفوة الصفا لابن البزاز الذى كتبه فى زمان الشيخ صدر الدين بن صفى الدين الأدبيلى ، مع التصرف فيه بالقدر الذى يضمن الاشارة إلى سيادة الشيخ صفى واتصال نسبه بالحسين بن على بن أبى طالب[٤] . ثم أن طهماسب كان أول من أدعى السيادة بصفة رسمية ، فقد اطلق على نفسه طهماسب الصفوى

---

(١) تذكرهٔ طهاسب : ص ١٧

(٢) تاريخ إيران إز أزمنهٔ باستانى تا سال ١٣١٦ هـ . ش : ص ٥٤٩

(٣) عالم آراى عباسى : ص ١٥٤ إلى ١٥٨

(٤) زندگانى شاه عباس أول : جلد أول . ص ط من الديباجه ، حاشيه ١

الحسينى الموسوى » وقد قصد طهماسب من إطلاق هذا اللقب على نفسه ترويج المذهب الشيعى الذى خاض فى سبيله معارك ضارية ، راح ضحيتها كثير من الشيعة (١) . ولاجدال فى أن هذا التعصب من جانب طهماسب هو الذى دفعه إلى النهى عن مدح الحكام ، والمبالغة فى تصوير قوتهم ، والاقتصار على مدح الأئمة الذين يسمون عن كل اعتبار ، ولاتصل الشبهة إلى مكانتهم (٢) . ولذلك فهم أجدر بالمديح من ناحية ، ولأن هذا الاتجاه يهدف فى نفس الوقت إلى غرض آخر يخدم الصفويين وهو اذكاء الحماس الدينى وتثبيت العقيدة الشيعية فى نفوس اتباعها من ناحية اخرى . لكل ذلك اصبح الخلاف بين السنة والشيعة عميقا .

وقد توفر لطهماسب بعد النظر بدليل انه فتح بلاده فى وجه اللاجئين من أولياء العهد . وقد مر بنا أنه أعطى حق اللجوء لبايزيد بن سليمان القانونى . فحقق بذلك نتيجتين ، الأولى : عقد صلح مع العثمانيين وتجنب بأسهم الشديد الذى كان من الممكن أن يفتك بالدولة الصفوية ، بما لدى العثمانيين من جيش متقدم فى الفن العسكرى ومزود بالأسلحة الهجوميه ، ولأن الدولة الصفوية كانت لاتزال فى دور الاستقرار وتدعيم الكيان . أما استقباله همايون بن بابر ملك الهند واكرامه لوفادته ومده بالمساعدة العسكرية ،

---

(١) تاريخ أدبيات إيران : جلد چهارم ، ترجمهٔ رشيد ياسمى ، ص ٩١ ، ٩٢ .

(٢) عالم آراى عباسى : ص ١٧٨ .

فقد حقق لطهماسب نتيجتين ، الأولى عودة همايون إلى دياره و...
الصفويين المعنوى إلى بلاد الهند ، الأمر الذى ساهم فى تدعيم الكيان الصفو...
والثانية : أن هذا النفوذ جعل قبائل الأوزبك بين فكى الرحى ولذلك ...
نرى منذ عودة همايون إلى دياره فى الهند سوى فورات أوزبكية ...
الصفويين ، ولكنها لم تمن ولم تغن من جوع .

ونحن لانستطيع ان ننفى عن طهاسب انه كان يمتاز بحماسة و...
صادقة ، وقد تبين ذلك من خلال تقصير يد الأجانب عن إيران . ...
فى عصره رغم طوله ظهور للأجانب فى إيران كما شاهدنا فى عصر ابيه ...
فرأينا طهماسب إذا ما جاءه وفد أجنبى يعرض عليه إقامة اتحاد ضد ...
العثمانية رده دون جواب شاف . مع أن العداء مع العثمانيين كان ...
العصرين ولكن طهماسب كان يرى حل مشاكله مع العثمانيين بطريقة ...
معهم وانتهاز المتغيرات مع الميل الى الأخذ والعطاء ، وبذلك استطاع الوصو...
إلى ما يبغى . ثم أنه كان محافظا فى علاقاته السياسية مع الأجانب فا...
بمواصلة الود مع البرتغاليين الذين كانوا أول من اتصل بأبيه اسماعيل . و...
الرغم من ذلك كان طهماسب يقف جادا فى سبيلهم إذا ما ارتكبوا خطأ ...
فاستقبل سفير ملك البرتغال بفتور فى أواخر حكمه ، ولم يعطه هو وأعو...
الترخيص بالعودة الى ديارهم قبل وفاته بقليل لأن الموظفين البرتغاليين أساءوا
معاملة أهل هرمز .

وعلى الرغم من كثرة الحروب التى خاضها طهماسب ، فإنه كان يخشى
ويلاتها وآثارها ، وربما كان السبب فى ذلك ؛ أن الحرص والتردد والوسو...

من صفات طهماسب التي كانت تطغى عليه ، فلم يكن مثلا يسمح لوزير أن يصرف مالا دون إذن منه ، كما كان يعد أكثر الأشياء نجسة ، ولم يكن يأكل طعاما في مجلس[١] .

(١) زندگانی شاه عباس أول : جلد أول ، ص ١٦ و ١٧

الفصل الخامس

الشاه اسماعيل الثاني

— ١ —

مقدمات جلوس اسماعيل ميرزا على عرش إيران :

عندما كان الشاه طهماسب يسلم روحه الى بارئها ، دخل حيدر ميرزا إلى فراشه بأمر من أبيه فى بعض الروايات ، أو بناء على نصيحة من أمه فى البعض الآخر ، وانتظر حتى مات أبوه ، ثم وضع التاج على رأسه ، وأعلن نفسه ملكا بعد أن أبرز وصية بخاتم الشاه طهماسب تثبت أن أباه كان قد اختاره ولياً للعهد[١] . ولكنه لم يستطع الخروج من القصر والاتصال بأعوانه ، لأن نوبة الحراسة كانت معقودة فى تلك الليلة لنفر من طوائف روملو وآفشار وبيات القزلباشية[٢] التى تؤيد اسماعيل ميرزا .

---

(١) ورد فى واحدة عن الوثائق التاريخية المتعلقة بعصر الشاه طهماسب ، أنه قد طلب حيدر ميرزا إلى قصره فى ليلة وفاته ، وأمر على سلطان بن أخيه بهرام ميرزا باعتقاله وحبسه فى حجرة . ويقول نصر الله فلسفى إن أعوان إسماعيل ميرزا ادعوا أن الوصيه التى أبرزها حيدر ميرزا لم تكن بخط الشاه طهاسب ، ولكنها بخط واحدة من نساء القصر ، يشبه خطها خط الشاه ، وأنهم مهروها بخاتمه بعد وفاته ، زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ١٧ ، حاشيه ٣ » .

(٢) كانت القصور الملكية أو المعروفة بـ «دولتخانه» ومعناها مقر الدولة=

ولما تعذرت منافذ الخروج على حيدر ميرزا ، أشارت عليه أمه بالتخفى فى ملابس امرأة ، ومحاولة الهروب ، ولكن أفراد هذه القبائل سرعان ما اكتشفوا أمره ، وقتلوه أمامها ، وألقوا برأسه من أعلى القصر لتسقط وسط أعوانه المجتمعين أمامه(١) .

وبذلك انتهى حيدر ميرزا كمنافس قوى لاسماعيل ميرزا فى الصراع على العرش والتاج ؛ وتفرق أعوانه بينما قويت قبضة أعوان اسماعيل ميرزا الذى كان مازال محبوسا فى قلعة قهقهه . وقد تمكن اسماعيل بمجرد سماعه خبر وفاة والده ، وقتل أخيه حيدر ميرزا من السيطرة على القلعة بمساعدة جمع من أتباعه كانوا قد تجمعوا عندها(٢) .

— ٢ —

خروج اسماعيل ميرزا من قلعة قهقهه ووصوله إلى قزوين :

فى يوم الثلاثاء ٢٢ صفر عام ٩٨٤هـ / ١٥٧٦ م(٣) تمكن اسماعيل ميرزا

= الدولة تحرس بواسطه أفراد واحدة من قبائل القزلباش الكبيرة كل ليلة . وعلى هؤلاء الأفراد ألا يسمحوا بدخول أى من قادة القبائل الأخرى إلا إذا أبرز تصريحاً من الشاه نفسه

(١) معنى ذلك أن طوائف القزلباش المؤيدة لاختيار حيدر ميرزا وليا للعهد وعلى رأسها طائفة استاجلو التى كان يتزعمها حسين بيك يوزباشى هى التى تسببت فى قتله . فطبقا لرواية البدليسى فى كتابه شرفنانه . طلب حسين بيك وعليخان الكرجى وزال الكرجى خالا حيدر منه أن يختفى فى القصر وينتظر إلى أن يموت والده ويضع التاج على رأسه .

(٢) زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ١٨ وما بعدها وتاريخ ايران از مغول تا أفشاريه : ص ٣٠٢

(٣) أحسن التواريخ : ص ٤٧٧

من مغادرة قلعة قهقهه الحصينة[1] التى ظل محبوساً فيها لمدة تناهز العشرين عاما[2] ، قاصدا أربيل لزيارة مقابر أجداده ، ثم توجه إلى قزوين فوصلها فى ١٧ ربيع الأول عام ٩٨٤ هـ/١٥٨٧ م بعد شهر من وفاة أبيه . ولكنه لم يدخل القصر الملكى وظل يقيم فى منزل حسينقلى خليفة الخلفاء ومنزل اخته پريخان خانم — وكانا من مناصريه — إلى أن يحين يوم ٢٧ جمادى الأول من العام نفسه . وهو اليوم الذى حدده المنجمون لتتويجه ملكا على إيران[3] .

وفى هذه الفترة أمر اسماعيل بقتل جمع من الذين ناصروا حيدر ميرزا ورؤساء طائفة استاجلو ، وبدأ يسىء الظن بمؤيديه الذين كانوا قد ضحوا

---

(١) تقول بعض الروايات أن اسماعيل — بمجرد سماعه خبر وفاة والده وقتل حيدر ميرزا ، غافل خليفه أنصار قراداغلو حاكم القلعه — وكان من أنصار حيدر ميرزا — الذى كان قد خرج فى رحلة صيد . وتمكن من الهروب بمساعدة القورچباشيين الذين كان أبوه طهاسب قد أرسلهم للمحافظة على روحه بعد أن قيدوا أعوان حاكم القلعة ، وقد ساعدهم فى ذلك أعوان إسماعيل ميرزا الموجودين حول القلعـة . وتقول بعض الروايات الأخرى أنه فى ليلة وفاة طهماسب بعث أنصار حيدر ميرزا إلى حاكم القلعه برسالة ينبهونه فيها إلى ضرورة التحفظ على إسماعيل ميرزا حتى لا يتمكن من الهروب ويصبح منافسا قويا فى ولاية العهد لحيدر ميرزا. ولكن خليفة شاملو حاكم سلطانيه — ومن المؤيدين لإسماعيل — علم بأمر الرسالة ، فأسرع إلى القلعة وأشاع الخبر منتهزا خروج حاكمها فى رحلة صيد ، ثم عاد إلى أردبيل وتبريز لتجهيز الجيش . وفى أثناء ذلك وصل رسل حسينقلى خلفا وپريخان خانم إلى القلعة وأطلعوا إسماعيل ميرزا على ما يجرى فى قزوين .

(٢) قضى إسماعيل فى هذه القلعة ٢١ يوم ٦ أشهر ١٩ سنة على وجه التحديد

(٣) زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٢١

فى سبيل نصرته . ومن هؤلاء حسينقلى نفسه الذى أقامه فى منزلة . فقد شعر اسماعيل أن هذا الرجل الذى يتولى منصب خليفة الخلفاء يمثل خطرا عليه . فهو يعد نائب المرشد الكامل أو الملك الصفوى ، ومن ثم فأتباعه كثيرون وأوامره واجبة . ولكن اسماعيل لم ييأس ، وظل وراء حسينقلى حتى سمل عينيه . كما أنه عمد الى منع اخته پريخان خانم من التدخل فى أمور المملكة[1] .

ومن أجل أن ترضى طوائف القزلباش المؤيدة لاسماعيل مزاج هذا الأمير المحب لسفك الدماء ، شرعت فى قتل قادة طائفة استاجلو التى كانت تقف فى سبيله . بل إن القتل وصل إلى أخوين آخرين لاسماعيل هما مصطفى ميرزا وسليمان ميرزا[2] الأول لأنه كان يؤيد حيدرا ميرزا . والثانى لأنه شقيق پريخان خانم .

— ٣ —

تتويج اسماعيل ميرزا ملكا على إيران :

توج أسماعيل ملكا فى ٢٧ جمادى الأول من العام نفسه فى ساعة معينة

---

(١) كانت پريخان خانم قد تمكنت من تدعيم مكانتها — بمالها من ذكاء — أثناء حياة أبيها بين قواد قبائل القزلباش ، فصار البعض منهم يطيع أوامرها . وقد ساعدها ذلك على أن تتدخل فى أدارة أمور المملكة وتقوم بدور فعال فى ترشيح أخيها إسماعيل وليا للعهد .

(٢) كان سليمان ميرزا هذا مدمنا للافيون فى أثناء إقامته بمشهد ، وقد استدعاه والده طهماسب ذات مرة إلى قزوين ليمنعه من هذه العادة ، ولكنه لم يوفق . وقد كان سىء الطوية وطماعا .

قال المنجمون بأنها مقرونة بالسعادة . ولكنها فى الواقع كانت
ماسيحل بايران من إقتتال بين أفراد الأسرة الحاكمة قد يعصف
الصفوى ويعيد إيران مرة أخرى إلى المذهب السنى . وبعد أن تم
قاعة « چهل ستون » بالقصر الملكى بقزوين ، سمى نفسه
الثانى (١) .

والواقع أن اسماعيل بدأ فترة حكمه القصيرة بداية سيئة
القتل العام فى طائفة الصوفيه (٢) التى كانت ترتبط بحسينقلى خليفة
أن اسماعيل سمل عينيه — وكلف مجموعة من الشراكسة بقتل أولاد
واخوته وأولاد إخوته . فقتل ستة من الأمراء الصفويين فى يوم
قزوين (٣) ، ولم يعد يعيش من الأمراء الصفويين تقريبا سوى محمد ميرزا
اسماعيل الأكبر وأولاده . وكاد يقتلهم لولا أنه خشى غضبة أمه

---

(١) زندگانى شاه عباس أول : جلد : ص ٢٣ .

(٢) المقصود بطائفة الصوفية أولئك الأشخاص الذين كانوا يتبعون
الروحية التى خلفها الشيخ صفى الدين وأولادة إلى أن قامت الدولة
يد إسماعيل ، وقد صاروا فيما بعد ذلك أتباعاً مخلصين لهذه التعاليم ولم
طائفة قائمة بذاتها بقدر ماهم خليط من مجموع قبائل القزلباش القسع ، وقد
وحدة الإيمان بالتعاليم الروحية الصفوية وصارت علامة عليهم . ولم
ينظرون إلى الملك الصفوى على أنه ملك بقدر ما هو المرشد الكامل أو
المرشد .

(٣) هؤلاء الأمراء هم إبراهيم ميرزا وكان رجلا فاضلا وشاعراً
فى شعره بجاهى . محمد حسين ميرزا بن شقيق إبراهيم محمود ميرزا من
إسماعيل. محمد باقر ميرزا بن محمود وكان له من العمر عندئذ سنة واحده . أما
ميرزا وأحمد ميرزا من أخوة إسماعيل.

كانت تتعلق بابنها الأكبر والـكفيف هو وأولادة ولـكن سرعان ماتغلبت على اسماعيل طبيعته القاسيه ، فقتل حسن ميرزا الأبن الأكبر لمحمد - وكان يعيش فى طهران - وأرسل غازى بيـگ من روساء طائفة ذى القدر القزلباشية إلى شيراز ليخبر محمد ميرزا وأولاده الآخرين بأن يـكونوا على استعداد لتنفيذ أية أوامر جديدة .

وفى شهر رجب عام ٩٨٥ هـ / ١٥٧٧ م . رزق الشاه اسماعيل أسماه أبا الفوارس شجاع الدين محمد [(١)] وقد زاده هذا الولد رغبة فى القضاء على ماتبقى من الأمراء الصفويين خشية أن يبقى منهم من ينافسه على العرش مستقبلا ، ولم يعد يتردد فى التفـكير فى قتل أخيه محمد وأولاده . ومن هذا المنطلق اختار عليقلى بيگ گوركان بن حسين خان من كبار قادة طائفة شاملو القزلباشية وخلع عليه لقب (خان) وعينه حاكما على إقليم خراسان ، وأمرة بقتل عباس ميرزا بن أخيه محمد [(٢)] وعهد بحـكومة مشهد إلى مرتضى قلى خان برناك تركان ، وأمرة بأن ينقل جثان أبيه طهماسب من قزوين إلى مشهد ليدفن بجوار ضريح الإمام الثامن للشيعة الإماميه . [(٣)]

---

(١) زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٢٤

(٢) أنظر بداية القسم الثانى من هذا الـكتاب تحت عنوان « الأمر باغتيال عباس ميرزا »

(٣) كان الشاه إسماعيل يريد نقل رفاة أبيه إلى مشهد قبل جلوسه على العرش ولـكن هذه الفـكرة لم تخرج إلى حيز التنفيذ حتى مقتله بسبب الخلاف الذى وقع بين رجال القزلباشى « زندگانى شاه عباس أول ، جلد أول ، ص ٢٥ ، حاشيه ٣ » وقد ورد فى روضه الصفا أنه عندما اقترب اليوم المحدد لجلوس الشاه إسماعيل على عرش إيران ، نقل رفاة أبيه طهماسب وحمل النعش على كتفه ، وأتفق الأمراء على نقل الرفاة من القصر الملـكى إلى ضريح « أمامزاده حسين » =

— ٤ —

الشاه اسماعيل الثانى والمذهب الشيعى

كان الشاه اساعيل يميل فى أعماقه إلى المذهب السنى ، فأراد أن يـ... ثانية إلى إيران ومن أجل ذلك شرع فى الحد من سطوة علماء الشيعة ، و... الدعايات المناهضة للمذهب السنى التى كانت سببا فى اختلافات بين الفري... ودافعا إلى إراقه الدماء [1] كما كان ينتقد فى مجلسه الخاص العداء المذهبى ... السنة والشيعة ، ولعن الخلفاء الثلاثة أبى بكر وعمر وعثمان . ولكنه فى نفس الوقت لم يكن يجاهر بعقيدته وإنما يمارس نشاطه السنى بالتدبير والسيا... والترغيب وإقامة الحجج .[2]

وحتى يصل الشاه اسماعيل الثانى إلى هدفه ، فقد أبعد عددا من علما... الشيعة المتعصبين عن البلاط ، وقرب عددا من علماء السنة إلية ، وجعلهم مح... رعايته وعنايته وأهل مشورته . ثم أمر بمنع لعن الخلفاء الثلاثة وعائشة فى

= فى قزوين ثم إلى مشهد . وأمر الشاه إسماعيل بإطعام الفقراء وا كرام العلما... فنصبوا الخيام وأقاموا المجالس الكبيرة لتقديم العزاء . وفى هذه الأثناء اختلف اثنان من قادة القزلباش هما مرتض قليخان برناك وسلطان حسين تكلو... وحدثت فوضى واشتبكت قوات كل من الطرفين . فاضطر إسماعيل إلى تهدي... القائدين وأسكت الفتنة . غير أن تاجه سقط منه على الأرض ، فتضايق إسماعيل وأصيب بالخجل وغضب من مرتضى قليخان الذى كان مكلفا بالإشراف على نقل رفاة طهماسب إلى مشهد . وقد أجل مثل هذا الأمر نقل رفاة طهماسب حتى نهاية حكم إسماعيل الثانى « روضة الصفا : جلد هشتم ، ص ١٦١ »

(١) زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ٢٦

(٢) ايران در زمان صفويه : ص ٤٢

المساجد والطرقات والمجتمعات ، وأعلن أن كل شخص سيخالف ذلك لا بد وأن يعاقب . وخصص مبلغا من خزانة المملكة لمن يمتنع عن لعن سائر صحابة الرسول (صلعم) . كما طالب بإزالة جميع الأشعار والعبارات التى تتضمن سبا للخلفاء أو مدحا لعلى من سائر الأماكن (١) .

ولكن تصرفات الشاه اسماعيل من حيث الرغبة فى إعادة المذهب السنى ثانية إلى إيران ، أثارت عليه حنق أغلبية الناس وبخاصة رؤساء بعض قبائل القزلباش ، فعقد قادة طائفتى تركمان وتكه لو — وكانوا يسيطرون على أهم وظائف البلاط والدولة — اجتماعا مع جمع آخر من قادة بقية طوائف القزلباش ناقشوا فيه عقيدة الشاه السنية ، واستقر رأيهم على تنصيب حسن ميرزا الابن الأكبر لمحمد شقيق اسماعيل ملكا إذا لم يتراجع اسماعيل عن مقصده . واختاروا من بينهم أميرخان موصلوى تركمان وحسيب خان تكه لو رسولين ليطلعان الشاه على حقيقة الأمر (٢) .

غير أن أحد الذين اشتركوا فى الاجتماع (٣) توجه إلى الشاه اسماعيل

---

(١) يقول البدليسى الكردى الأصل والسنى المذهب والمعاصر للشاه إسماعيل الثانى فى كتابه شرفنامه ، ص ٥٨١ :

« وقد أراد (يقصد الشاه إسماعيل) أن يمنع سب الشيخين وعثمان وبقية العشرة المبشرين على خلاف عقيدة آبائه وأجداده ، وأن يتصرف كل حسب مذهبه أو شيعيته ، دون تعرض للآخر فى العقيدة على اتساع أقاليم إيران ، ولكن رجال القزلباش ، قتلوا هذا السلطان العالم العادل المسلم من قبيل التعصب »

(٢) زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٢٦ ، ٢٧

(٣) قالوا إن الذى حمل هذا الخبر إلى الشاه إسماعيل الثانى هو خليفة أنصار قراداغلو حاكم قلعة قهقهه عندما كان إسماعيل محبوساً فيها . رغبة منه فى تعويض ما ارتكبه فى حق إسماعيل اثناء حبسه فى القلعة . ولكى يثبت له إخلاصه ووفاءه .

الثانى وأخبره بأن قادة طائفتى تركمان وتكه لو يريدون قتله و...
حسن ميرزا مكانه إذا لم يعد إلى المذهب الشيعى . فغضب الشاه ...
لسماع هذا الخبر ، واستدعى قادة الطائفتين وهددهم . ولكنهم ...
مانسب إليهم. فطلب من أمير خان وحسيب خان قتل حسن ميرزا ...
إثبات إخلاصهما له . وفعلا تراجع القائدان وكلفا واحداً من طائفة ...
بقتل حسن ميرزا . فذهب إليه فى طهران وخنقه وهو لم يزل صبيا ق...
عشرة من عمره [(١)] .

والواضح أن اختيار حسن ميرزا لتنصيبه ملكا من جانب قادة القزلباش
لم ينشأ أصلا عن تعصب للمذهب الشيعى بقـــدر مانشأ عن رغبة ...
فى استعادة نفوذهم الذى بطش به اسماعيل الثانى [(٢)] .

ونتيجة لهذه الحادثة ، فقد اسماعيل الثقة فى قادة طائفتى تركمان وتكه
وعاد إلى الاعتماد على أعدائه القدامى من قادة طائفة استاجلو فى المناصب
الرئيسية ، وبدأ يتراجع فى نفس الوقت عن المجاهرة بالعقيدة السنية ، إرضاء
لرغبة رجال القزلباش وتخفيفا من ثورة الناس ضده ، وأبعد علماء السنة عن

---

(١) زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٢٧

(٢) سبق أن ذكرنا أن بعض رؤساء القزلباش قد انصرفوا فى أكثر من
مناسبة عن عقيدتهم الشيعية بعد وفاة الشاه إسماعيل الأول ، عندما بدأ حرصهم
على مظاهر الحياة وماديانها يقوى فى بداية حكم الشاه طهماسب الأول . كما رأينا
كيف انسلخ البعض منهم من تبعيته للمرشد الكامل أى الشاه الصفوى ، وانضموا
إلى معسكر السلطان سليمان القانونى .

البلاط فى محاولة لابعادهم عن خطر اعتداء المتعصبين من الشيعة[١] ، وأضاف الى السكة هذا البيت من الشعر وترجمته[٢] .

— إذا كان لنا أمام من المشرق حتى المغرب ، فهو على وآله بالتمام .

— ٥ —

موت الشاه اسماعيل الثانى :

كان طبيعيا أن لا يفلت الشاه اسماعيل من مؤامرات رجال القزلباس المستمرة ضده بمعاونة اخته پريخان خانم التى أضارها أن يعاملها اسماعيل بالقسوة والعنف وهى صاحبة فضل فى تنصيبه ملكا على إيران .

---

(١) يقول جمالى حسن الشوشترى : « أنه بعد أن أقدم الشاه إسماعيل الثانى بتحريض من ميرزا مخدوم شريفى أحد علماء السنة على قتل الأمراء الصفويين وجمع من رؤساء قبائل القزلباش ، كتب قواد العسكر وبعض الرؤساء رسالة إلى الشاه إسماعيل مفادها : أنه إذا كان يرغب فى الاحتفاظ بالعرش فلا بد من قتل مخدوم شريفى . ووضعوا هذه الرسالة فى فراشه . فلما رآها إسماعيل أدرك أن نفسه ليس فى آمان من خطر معارضيه فاضطر إلى حبس مخدوم لانقاذ نفسه وانقاذ ميرزا مخدوم من القتل . وبعد قتل إسماعيل الثانى . تمكن ميرزا مخدوم بمساعدة پريخان خانم التى كانت تثق فيه من الهرب إلى الأراضى العثمانية . منظومة فتوح العجم : نسخة خطية فى مكتبة باريس . نقلا عن زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٢٧ وما بعدها ، حاشية ٢ » وإذا كان الشاه إسماعيل الثانى قد توقف بعد هذه الرسالة عن مجاهرته بالتسنن ، فإن هذا الاقدام من جانب پريخان خانم يشير فى نفس الوقت إلى ميلها للمذهب السنى .

(٢) نص هذا البيت بالفارسية هو :

ز مشرق تا بمغرب گر امام است   على وآل او مارا تمام است

ولذلك صح العزم منهم على التخلص من اسماعيل المولود فى عام ٩٤٣ هـ / ١٥٣٧ م ، وتم لهم ماأرادوا فى ١٣ رمضان عام ٩٨٥ هـ / ١٥٧٧ م . قتلت عن عمر يناهز ثلاثة وأربعين عاما قضى منه مايصل إلى العشرين عاما حبيس قلعة قهقهه ، وحكم منه مايبلغ عاما ونصف .

وقد اختلف الروايات فى الطريقة التى قتل بها الشاه اسماعيل الثانى وإن كانت تفيد فى معظمها أنه مات مسموما [١] فقد كان اسماعيل مدمنا للأفيون، وكان يجلس بعد تناول طعام الإفطار فى شهر رمضان ليتناول حبات الأفيون الخالصة مع غلامه حسين بيك حلواچى اغلى الذى لا يفارقه ليل نهار وقد انتهز أعداء اسماعيل هذه الفرصة ودسوا له السم فى حبات الأفيون ... أن الغلام نبه اسماعيل إلى أن علبة الأفيون ليست ممهورة بخاتمه ... كدليل على نقاوتها — إلا أنه لم يسمع له من فرط الادمان وتباعد ...

(١) يقول جمالى شوشترى فى منظومة فتوح العجم : أنه لما تجاوز اسماعيل كل حد ، وضاق رؤساء القزلباش به ذرعاً . اتفقت بريخان خانم ... أمير خان وعدد آخر من قواد القزلباش مثل حسيب خان ومحمد خان و... خان وشمخال خان وهو (شركسى) على أن يتخلصوا من إسماعيل ، وأقسموا على ذلك . ولبس الجميع وكان عددهم سبعة ملابس النساء . ثم بعثت بريخان خانم إلى اسماعيل تقول (إن الفتاة التى كنت تريدها قد حضرت ومعها نساء) فأمر إسماعيل بإدخالها . وطلب حبـات الأفيون . وحاول غلامه حلواچى أوغلى منعه من تناولها على أساس أنها غير ممهورة بخاتمه إلا أنه رفض فسرى السم فى جسده .

وحينئذ دخل عليه القواد السبعة وقتلوه . وقد ورد فى واحـدة من روايات الفاتيـكان أنه لما كان الشاه إسماعيل قد صمم على محاربة العثمانيين من جديد على خلاف رغبة قواد القزلباش . فانهم سموه بواسطة امرأة كان اسماعيل قد ضمها إلى عشيقاته بعد قتل زوجها (زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ص ٣ ، ٣١) .

تناول الأفيون فى شهر رمضان ، وأخذ يلقى الحبات فى فمه غير عابىء بتنبيه غلامه . ولم يخرج اسماعيل من فراشه حتى ظهر اليوم التالى . ولما دخلوا عليه وجدوه ميتا وبجواره حسن بيگ غلامه لا يقوى على الكلام من شدة الصدمة . ومع ذلك أشار بصعوبة إلى ماحدث فى الليلة السابقة . وبعد أن فحص الأطباء الجثة قرروا أنه مات مسموما . غير أن أمير خان وبيره محمد خان من مدبرى المؤامرة ومعهما الوزير سليمان ميرزا أمروا بعدم إجراء التحقيق بحجة أنه لم يعد مفيدا ، فقد وقعت الواقعة (١) .

ولما كانت وفاة الشاه اسماعيل يكتنفها الغموض ، فقد ظن الناس أنه لم يقتل ، ولكنهم أخفوه . مما ترك الفرصة لأشخاص يشبهونه شكلا وسلوكا وتصرفا فى انتحال شخصيته على اتساع ايران ، وكانت أقوى هذه المحاولات تلك التى وقعت بعد موته بأربع سنوات فى عام ٩٨٩ هـ / ١٥٨٢ م على يد شخص حرم من سنتيه الأماميتين . وادعى أنه اسماعيل (٢) . وقد أتت محاولة هذا المدعى أكلها عندما صدقه أهالى جبل كيلويه ورؤساء طوائف الور فقد كانوا يجهلون حقيقة الأوضاع فى العاصمة . واعترفوا به ملكا ، واجتمع حوله عشرون ألف مقاتل ، استطاع بهم هزيمة رجال القزلباش الذين كلفوا

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جلد أول ، ص ٣٣ .

(٢) يقول نصر الله فلسفى أن هذا المدعى كان يقول : إنه فى الثالث عشر من رمضان عام ٩٨٥ هـ . كنت أنام أنا وحسن بيك حلواچى — أى غلامه — فشعرت بجمع من أعدائى تجمعوا خارج حجرتى يريدون الدخول ، فألقيت بنفسى من النافذة وهربت وقد خنق أعدائى واحداً من غلمانى يشبهنى ظنا منهم أنه أنا . وصار معروفا أن الشاه اسماعيل قد مات . وقد طوفت بالأرض العثمانية لسنتين ، وأنا أتخفى فى لباس تنكرى . وقد عدت الآن كيما أنتقم من أعدائى .

بدفعه ، وقتل منهم عددا لا بأس به . ولكن أمره اكتشف فى النهاية . فحبسه اتباعه فى واحدة من قلاع جبل كيلويه وقتلوه . وظهر اسماعيليون آخرون فى لرستان وطالش والغور . وظلت هذه التمثيلية تجد حظها من التمثيل لمدة خمس سنوات بعد وفاة اسماعيل [١] .

— ٦ —

رأى فى الشاه اسماعيل الثانى :

اتصف اسماعيل منذ صدر شبابه بالعناد والقسوة . ولذلك فقد أبعده أبوه طهماسب لهذه الصفات عن ممارسة الحكم مبكرا ، وحبسه فى قلعه قهقهه لمدة قاربت العشرين عاما . ويبدو أن هذا الحبس الطويل وما تولد عنه من حرمان ، قد زاد اسماعيل عنادا على عناد وقسوة على قسوة . فبقى فى سجنه ينتظر وفاة أبيه أملا فى الوصول إلى العرش . وما أن تحقق له هذا الأمل ، لم يبق على أخ أو عدو خشية أن يفتقد ما أدركه من حرية وجاه ، وأطاح بكل من يقف فى طريقة ، وقتل أخوته وأولاد أخوته وأغلب الامراء الصفويين ممن لهم الحق فى ادعاء السلطنه [٢] .

كما أن حرص اسماعيل الثانى على العرش . جعله يفقد الثقة فى مواطنيه ومن ثم كانت عيونه تنتشر فى كل مكان تتخفى فى ملابس المتصوفة

---

(١) زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٣٤

(٢) ورد فى واحدة من وثائق مكتبة الفاتيكان التى تتضمن تقريراً عن عصر الشاه اسماعيل الثانى : انه قتل كثيرا من القواد والحكام لمجرد تجربة سيفه ، وأن ١٢ ألفاً قد قتلوا بيده أو أمره خلاف الذين سملت عيونهم أو نفوا فى أماكن بعيدة عن العاصمة .

والمتسولين ، وتتردد على إدارات الدولة والمساجد ومراكز تجمع الجماهير للتعرف على آراء الناس فيه . واقترنت تصرفاته تجاه رؤساء القزلباش بالحيطة والحذر الى حد أنهم كانوا يخشون على حياتهم اذا ما استدعوا إلى مجلسه ، لأنه يتحدث والسيف والسهم إلى جواره .

ومع أنه كان يميل إلى المذهب السنى ، إلا أنه كان يعادى الدولة العثمانية ، لأن السلطان العثمانى لم يرسل سفيرا إلى إيران لتهنئته بمناسبة جلوسه على العرش . وقد رووا أنه لهذا السبب فكر فى محاربة الدولة العثمانية واحتلال بغداد . ولكن رؤساء إيران لم تتوفر لديهم الرغبة فى تجديد الحرب مع الدولة العثمانية . بل كانوا يريدون على العكس إرسال سفير إلى البلاط العثمانى بهدف توطيد العلاقات الصفوية العثمانية[١] .

وعلى الرغم من ذلك كان اسماعيل يتصور نفسه عادلا وشفوقا ، ولذلك فهو يوقع أوامره بالعادل ، ويتخلص فى شعره بعادلى . ويفرض غرامة مالية على حاكم الولاية التى تتعرض فيها قافلة تجارية لسرقة أو نهب فقلت السرقات إلى حد كبير . وتمتعت إيران فى مدة حكمه القصيرة بأمن جزئى . ولم يكن أحد يجرؤ على المعارضة أو ممارسة الظلم ، وامتنع قطاع الطرق عن مزاولة نشاطهم[٢] .

ولا جدال فى أنه لو قدر لهذا الملك أن يحكم أكثر مما حكم ،

---

(١) شرفنامه : ص ٥٤٣

(٢) زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٣٢

لكان من الممكن أن تحدث آثار بعيدة المدى فى تاريخ هذه الأمة(١)

(١) مثلا فكر الشاه اسماعيل فى قتل عباس ميرزا أمير خراسان — الشاه عباس فيما بعد — ولكن الشخص المكلف بقتله أجل خطته بسبب وصوله إلى هراة فى شهر رمضان الكريم . ولو أنه أتمها ، لكان قد حرم إيران من أعظم ملوك الدولة الصفوية (تاريخ أدبيات ايران: جلد چهارم ، ترجمه رشيد ياسمى ، ص ٩٥) وقد ترك الشاه اسماعيل من نسائه العديدات ثلاث بنات غير ابنه أبى الفوارس شجاع ثلاث بنات هن شاهزاده خانم ، گوهر سلطان خانم وفخر جهان خانم التى تزوجت من صفى ميرزا بن الشاه عباس فيما بعد — زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٣٦ ، حاشية ٢»

الفصل السادس

السلطان محمد خدابنده

— ١ —

ما بعد موت الشاه اساعيل الثانى .

لاغرابة فى أن تسارع پريخان خانم أخت الشاه اساعيل الثانى — التى لعبت دورين مهمين فى تنصيبه ومقتله بعد أن جردها من ثروتها ، وأبعد عنها غلمانها وجواريها وملازميها ، ومنعها من مقابلة رؤساء المملكة ورجالها ، وفرض عليها العزلة التامه ، ولم يتوان عن قتل شقيقها سليمان ميرزا — إلى الظهور على مسرح الأحداث بأن حثت رجال الدولة على التكاتف والاتحاد وطرح العداوات القديمة جانبا بقصد تقوية بنيان الدولة الصفويه [1]

---

(١) ورد فى واحدة من الوثائق المتصلة بموت الشاه إسماعيل الثانى فى مكتبة الفاتيكان ما مضمونه ، أنه بعد موت الشاه إسماعيل ، جمعت پريخان خانم سبعة من رؤساء الدولة ونصحتهم بأن يطرحوا العداء جانباً — وكان مستحكما بين قبيلتى تركمان واستاجلو القزلباشيتين — وألا يفعلوا شيئاً ينتهى لصالح العثمانيين وأخلاف التتار ويكون مدعاة سرورهم . الأمر الذى قد ينتهى إلى انقراض الدولة الصفوية . وفعلا وافقها الرؤساء السبعة وأقسموا على سلطنة محمد خدابنده ولما ذاع خبر القتل الغامض لإسماعيل الثانى ، واجتمع النـاس حول القصر الملكى يطالبون بالملك ، أمرت پريخان خانم واحداً من القـادة بأن يرتدى ملابس إسماعيل ويصعد إلى سطح القصر — كما كان يفعل إسماعيل — ويدعو =

وبدأ الجميع يتشاورون فى من يـكون الشاه الجديد ؟ ولـكن
قلخا يحى اوغلى ذو القدر حاكم إقليم فارس والوصى على ابى
شجاع الأبن الرضيع للشاه اسماعيل أعلن عن عقيدته بأن ولاية
الملـكية حق لشجاع بعد وفاة ابيه ، وحتى تؤازرة الأميرة القوية پريخان
اقترح بأن تـكون هى الحاكم الفعلى فى المملـكة حتى يصل شجاع إلى
الرشد ، وأن تضرب السـكة وتقرأ الخطبة باسمه وبالتالى يحصل هو على
منصب نائب السلطاته أى خليفة الخلفاء .

ولم يوافق أغلب قادة القزلباش على هذا الرأى قائلين إنه مادام
ميرزا الابن الأكبر للشاه طهماسب وأولاده على قيد الحياة . فينبغى
الطرف عن هذا الطفل الرضيع . ولـكن لما كان محمد ميرزا كفيفا
رأت قلة من قادة القزلباش اختيار أحد ابنائه ، إلا أن الرأى الأول
وأقسم الجميع على أن السلطنة هى سلطنة محمد (١) .

وافقت پريخان خانم على هذا الاختيار ، بشرط أن تـكون
الأمور فى يدها ، وأن يكتفى محمد ميرزا بالاسم واللقب . وعلى هذا الأ
تم إعلان محمد ميرزا فى مقره بشيراز بما تم الاتفاق عليه ، فجلس على العرش

= الناس إلى الهدوء . وقد نجحت الحيله مؤقتاً ، ذلك أنه لم يـكن من الممكن إخفاء
موت إسماعيل على الدوام . وهنا أسرعت پريخان خانم ووزعت أمور الدولة
فى المجالين المدنى والعسكرى على هؤلاء القادة . ثم ذاع خـبر موت الشاه
إسماعيل بعد ذلك .

(١) كانت عادة رجال القزلباش اذا ما اتفقوا على شىء صاحوا الله الله

ق ٥ من ذى الحجة عام ٩٨٥ هـ/١٥٧٧ م [١] . وأصبح يعرف من هذا اليوم بالسلطان محمد خدابنده [٢] .

* * *

— ٢ —

مقدمات سلطنة محمد خدابنده :

تنافس بعض قادة القزلباش فى إعلان محمد خدابنده باختياره ملكا على إيران فى قصره بشيراز كى يكون لكل منهم قصب السبق ، وبالتالى تبوأ المناصب الملكية . ولكنه لم يصدق أولهم اسكندر بيگ القورچى وتصور أن هذا الخبر من الممكن أن يكون فخا ينصب له ، وطلب من غازى بيگ ذى القدر المكلف بمراقبته من جانب الشاه اسماعيل بإلقائه فى السجن حتى تتضح الحقيقة . وفى اليوم التالى وصل على بيگ ذو القدر من قزوين يؤيد الخبر . فأفرج عن اسكندر بيگ وخلع عليه لقب (أمير الأخبار الطيبة) وعهد بحكم شيراز إلى على بيگ ذى القدر . أما غازى بيگ ذو القدر ، فقد عينه مسئولا عن النقود فى البلاط .

وهنا بدأ يظهر دور مهد عليا خير النساء بيگم زوجة السلطان محمد (وأم الشاه عباس) فأمرت بإيداع غازى بيگ قلعة اصطخر ثم قتله . ولما

---

(١) ولد السلطان محمد فى عام ٩٣٨ هـ . وكان له من العمر عند وفاة أبيه ٤٦ عاما .

(٢) خدابنده كلمة فارسية بمعنى عبد الله . وهى فى قواعد اللغة الفارسية تركيب إضافى مقلوب . وقد اشتهر محمد بهذا اللقب لأنه اشتغل بالعبادة بعد ما كف بصره

كان محمد خدابنده كفيفا ، فقد وجدت مهد عليا الفرصة متاحة للتدخل فى شئون الحكم ، وشرعت تعزل وتنصب الحكام والولاة وقواد العسكر حتى قبل أن يصل ركب زوجها الى العاصمة قزوين قادما من شيراز [١] .

وكان لابد أن يقع الصدام ، صدام لم تعهده الدولة الصفوية منذ ظهرت فهو صدام الجنس الآخر ، وقد يكون مثل هذا الصدام قد سبق حدوثه بين نسوة الشاهات السابقين ، ولكنه كان بطريقة مستترة ، أما فى هذه المرة فقد كان بطريقة سافرة . ذلك أن مهد عليا زوجة السلطان شعرت بخطورة پريخان خانم اخته ، فهى لابد مسيطرة على زمام الأمور بما لها من نفوذ بين رؤساء القزلباش . ومن هنا اتفقت مع محمد خدابنده على التخلص منها وعهد الإثنان بهذه المهمة إلى خليل خان أفشار الوصى على پريخان خانم منذ زمان طهماسب ، فخنقها فى منزلها . وأعطياه كل ثروتها مقابل أداء هذه الخدمة [٢] .

وكما قضت مهد عليا على أخت الشاه الذكية — التى كان لها دور فعال فى توجيه أحداث الدولة الصفوية بعد وفاة طهماسب الأول — وهى فى الثلاثين من عمرها [٣] ، تخلصت من أبى الفوارس شجاع بن اسماعيل الثانى ولم يكن قد تجاوز السنة من عمره ، ومعه وصيه ولى سلطان قلخانجى أوغلى ذى القدر [٤] .

---

(١) زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٣٨و٣٩ .

(٢) كانت هذه الثروة تقدر بعشرة آلاف تومان إيرانى .

(٣) أصدرت مهد عليا أيضاً أوامرها بقتل شمخال سلطان جركس خال پريخان خانم بعد أن عهدوا إليه بحكم إقليم شكى .

(٤) زندگانى شاه عباس أول . جلد أول ، ص ٣٩ .

— ٣ —

حمزة ميرزا وليا للعهد .

بتحول أمور الدولة إلى زوجة السلطان محمد خدا بنده ، رأت أن يكون حمزة ميرزا ابنها الأكبر وليا للعهد(١) ، وأن يصدق بخاتمة على سائر الفرمانات السلطانية(٢) ، ثم وزعت مناصب الدولة على أعوانها وملازميها . فعينت أمير خان موصلوى تركمان الذى ساهم فى قتل الشاه اسماعيل الثانى أميرا على آذربيجان ، وسلطان حسين خان شاملو حاكما على قزوين ، وابنه على قلى خان كوركان شاملو وصيا على عباس ميرزا فى حكم هراة وجزء كبير من خراسان(٣) ومرشد قلى سلطان استاجلو بن شاه قلى خان يكان الذى كان قد عين حاكما على سيستان بعد قتل ابيه فى زمان اسماعيل الثانى حاكما على الخرز وخواف وقسما من خراسان(٤) .

وكان طبيعيا أن يؤدى هـــذا الفساد فى سياسة الدولة إلى حدوث اختلافات ومنازعات كبيرة بين رؤساء طوائف القزلباش ، وخاصة أن السلطان محمد كان يسترضى هذه الطائفة على حساب تلك ، ويجزل العطاء

(١) رزق الشاه محمد خدا بنده بأربعة أولاد هم على التوالى : حمزة ميرزا ، عباس ميرزا أبو طالب ميرزا وطهاسب ميرزا . وقد اغتيل الأول فى زمان أبيه وصار الثانى الشاه عباس الكبير . أما الثالث والرابع فقد سملت أعينهما بأمر من عباس بعد أن تولى الحكم وزج بهما سجينين فى قلعة ألموت .

(٢) ايران در زمان صفويه ، ص ٤٣

(٣) المرجع السابق : ص ٤٤

(٤) زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٤٠

البعض دون الآخر . ويوزع الأموال بلاحساب ، ويرد ماقتطعه الشاه طهماسب من رواتب رجال القزلباش ، ويصدر أوامر سلطانية متناقضة . وقد أدى ذلك إلى ضعف الحكومة المركزية[١] ، وفكر أعداء إيران من جديد فى تحقيق انتصارات أخرى توقفوا دونها إبان حكم الشاه طهماسب أو الشاه اسماعيل الثانى[٢] هذا بالإضافة إلى أن أغلب الرؤساء المجربين والمحنكين قد قتلوا فى المعارك التى وقعت فى عهد اسماعيل الثانى أو بعده . كما أن السلطان محمد قد رضى لنفسه أن يكون آداة فى يد زوجته ووزيرها ميرزا سليمان[٣] . ومن ثم لم يمر وقت طويل حتى واجهت الحكومة المركزية فوضى داخلية واعتداءات خارجية .

— ٤ —

الفوضى الداخلية مقدمة للحروب مع العثمانيين :

فى أول سنى سلطنة محمد خدا بنده ، استغل جمع من الأكراد فى ولايتى

---

(١) المرجع السابق : ص ٤١

(٢) تاريخ ادبيات ايران : جلد چهارم ، ترجمه رشيد ياسمى ، ص ٩٨

(٣) كان هذا الرجل — كما مر بنا — وزير الشاه اسماعيل الثانى ومن معاونى أخته پريخان خانم بعد قتله . وبمجرد أن تم اختيار محمد ميرزا ملكا غادر قزوين إلى شيراز ، وتمكن من الاقتراب من الملك الجديد وزوجته مهد عليا ولما علم بغيرة مهد عليا من پريخان خانم . أخذ يذمها ويقدحها . فراق فى نظر مهد عليا وزوجها . وبذلك استطاع أن يظفر بمنصب الوزارة فى العهد الجديد ، بل أصبح الوزير الأعظم أو اعتماد الدولة . وكان يمتاز بالدهاء وبعد النظر . وهو من أصفهان واسمه بالكامل ميرزا سلمان جابرى اصفهانى .

وان وآذربيجان فرصة ضعف وانحلال الدولة الصفوية ، وتمكنوا من دخول سلماس وأورومية وخوى حيث أعملوا فيها السلب والنهب ، وقتلوا العديد من أهل هذه المناطق بتحريض من خسرو باشا التركى حاكم منطقة وان . واتجه الأكراد والعثمانيون — لما بينهما من وحدة فى المذهب — إلى الحدود الغربية لآذربيجان ، وشرعوا يغيرون عليها . ولم يكن أمير خان موصلوى تركمان حاكم آذربيجان وصهر الشاه محمد خدا بنده قد وصل إلى مقرحكمه حينئذ ، الأمر الذى يسر للفريقين أن يعملوا السلب والنهب فى هذا الإقليم بل ويتقدمون صوب سلماس واورمية وخوى ، ويقتلون الناس فى هذه المناطق أو يأسرونهم. وفى هذه الأثناء وصل أميرخان موصلوى إلى آذربيجان ولكنه لم يفعل شيئا (١) .

وشجعت غارة الأكراد والترك هذه جمعا آخر من الأكراد فهاجموا حدود مراغة . كما طلب أهل شروان من السلطان العثمانى مراد الثانى الاستيلاء على منطقتهم ضيقا بظلم الحكام من رجال القزلباش (٢) .

وبذلك وجد السلطان مراد الثالث فى أوضاع إيران فرصة قد لاتعوض لتحقيق انتصارات ومكاسب فى أراضيها . فأمر بالهجوم على إيران مخالفا بذلك الاتفاق الذى كان قد أبرم بين جده سليمان القانونى والشاه طهماسب وجرد لذلك جيشا بقيادة مصطفى باشا (٣) فى ٢٦ صفر عام ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م

---

(١) زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٤٨

(٢) ايران درزمان صفويه : ص ٤٦ ، ٤٧

(٣) كان مصطفى باشا يعرف بـ (لله باشا) لأنه تعهد بالوصاية على السلطان سليم الثانى . وكلمة لله تعنى الوصى .

الذى تذرع بأنه قادم إلى إيران لينتقم من قتلة اسماعيل الثانى ، ويخلص المسيحيين فى گرجستان من ظلم حكام إيران .

وما أن وصلت أخبار الهجوم العثمانى إلى قزوين ، حتى أسرع السلطان محمد إلى كتابة رسالة ودية إلى زميله العثمانى ، يستفسر فيها عن سبب نقض الاتفاق المبرم بين الدولتين . ولكن لم يقدر لهذه الرسالة أن تصل لأن حرس الحدود اعتقلوا حاملها . ومنعوه من الوصول إلى السلطان العثمانى [١] .

وفى هذه الأثناء ، كان مصطفى باشا قد بدأ أعماله العسكرية ضد إيران بعد أن غادر اسكوتارى فى طريقه إلى ايران بجيش مجهز بالفرسان والمدفعية ومدعم بسبع من السفن الكبيرة والصغيرة غادرت ميناء طرابزون . وكان السلطان العثمانى قد مهد لهذه الحملة بالكتابة إلى محمد گراى قائد التاتار [٢]

---

(١) زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٤٩ ، ٥٠

(٢) محمد گراى هو تاسع قائد تترى من أحفاد جوجى خان بن جنكيز. وقد استطاع أجداده أن يقيموا حكما من عام ٨٢٣ هـ . فى منطقة نهر دن وشبه جزيرة كريمه (قريم) وجزء من شمال القفقاز وأول قائد تترى استطاع أن يسيطر على هذه النواحى هو حاجى گراى بن غياث الدين الذى حكم منذ ٨٢٣ إلى ٨٧١ هـ واسماء هؤلاء القواد منذ بداية الدولة الصفوية حتى بداية حكم عباس الكبير هى على النحو التالى :

الاسم	مدة الحكم	المعاصرون له من الملوك الصفويين
منكلى گراى خان	من ٨٨٣ حتى ٩٢١ هـ	الشاه إسماعيل الأول
محمد گراى خان الأول	من ٩٢١ من ٩٢٧	الشاه إسماعيل
غازى گراى خان الأول	ستة أشهر فقط فى عام ٩٢٩	الشاه اسماعيل
سعادت گراى خان الأول	من ٩٢٧ من ٩٣٢	الشاه اسماعيل والشاه طهاسب الأول =

بين دولت كراى – المؤيد للعثمانيين – يأمره بأن يدخل إقليم شروان من ناحية صحراء الخزر ودربند ، وأن يساند مصطفى باشا (١) .

وتمكن مصطفى باشا من احتلال قلعة قارص وشرع فى تعميرها (٢) . ثم دخل القفقاز . ولم يفلح فى صده الجيش الصفوى الذى أسرع بارساله السلطان محمد خدا بنده بقيادة مجموعة من رؤساء القزلباش . وواصل زحفه إلى قلعة چالدر حيث دارت معركة طاحنة بين الجيشين الصفوى والعثمانى ، انتصر فيها مصطفى باشا فى ٦ جمادى الثانى ٩٨٦ هـ / ١٠ أغسطس ١٥٧٨ م . بعد أن ذبح الكثير من رجال القزلباش وأقام برجين من أجساد القتلى .

وبعد هذا الانتصار ، تقدم مصطفى باشا واحتل قلعة تفليس ومدينة كورى عاصمة حكام گرجستان ووصل إلى شروان ، واحتلها بسهولة لرعونة حاكمها أرس خان . وعين مصطفى باشا حاكما عليها من جانبه هو عثمان باشا اوزدمراوغلى . ثم استولى على قلاع شماخى وبادكوبه وارس . وعاد فى

إسلام گراى خان الأول	من ٩٣٢ من ٩٣٩	الشاه طهماسب الأول
صاحب گراى خان الأول	من ٩٣٩ من ٩٥٧	الشاه طهماسب الأول
دولتگراى خان الأول	من ٩٥٧ من ٩٨٥	الشاه طهماسب الأول والشاه اسماعيل الثانى
محمد گراى خان الثانى	من ٩٨٥ من ٩٩٢	الشاه محمد خدابنده
إسلام گراى خان الثانى	من ٩٩٢ من ٩٩٦	الشاه محمد خدابنده

(١) زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٤٩

(٢) كانت المعاهدة التى وقعها كل من السلطان سليمان القانونى والشاه طهماسب الأول تنص على أن تبقى قلعة قارص خربة دائما كمنطقة منزوعة بين ولاية ارمنستان الإيرانية وولايه أرضروم العثمانية .

شوال ٩٨٦ هـ /١٥٧٨ م إلى ولاية أرضروم لقضاء الشتاء فيها[1] .

واهتزت قزوين العاصمة الصفوية بسبب انتصارات الجيش العثمانى الأمر الذى جعل مهد عليا صاحبة الطول والحول تصر على وقف هذا الزحف بأى ثمن ، فجمعت وزيرها ميرزا سلمان وجمعا من مدبرى أمور المملكة وابنها حمزة ميرزا ولى العهد ، وطالبتهم بالتحرك . فاستطاعوا تخليص شروان من أيدى التتار والترك وأسر عاد لگراى خان شقيق قائد التتار واجبار عثمان باشا قائد الترك على التقهقر عن قلعة شماخى والهروب إلى دربند وتمادت مهد عليا فى طلباتها . فأمرت الوزير سليمان بتعقب عثمان باشا ولكن سليمان وبقية القواد خالفوا أمرها بل إنهم أعادوا عاد لگراى التترى إلى قراباغ بعد أسره[2] . ولم يعجب هذا التصرف مهد عليا ، ووبخت القواد . مما جعلهم يتركون قراباغ ويعودون إلى العاصمة ومعهم عاد لكراى شقيق قائد التتار وعدد من ملازمية على الرغم من شدة البرد وتراكم الثلوج فى فصل الشتاء .

وفى قزوين ؛ أكرموا وفادة عاد لگراى خان ، وأنزلوه هو وملازميه فى أحد القصور الملكية من أجل كسب رضاء أخيه . وقد جعله هذا الكرم يستجيب لنداء الصفويين ويكتب رسالة إلى أخيه يحثه فيها على ترك التعاون مع العثمانيين وتحسين العلاقات مع الصفويين .

وتمادت مهد عليا فى غيها ، وضاق رجال القزلباش بتسلطها على زمام الأمور ذرعا . فشرعوا يفكرون فى الانتقام منها . وكانت وسيلتهم الأولى

---

(١) زندگانى فى شاه عباس أول : جلد ، ص ٥١.

(٢) عالم آراى عباسى : جلد أول ، ص ٢٣٧ إلى ٢٣٩

أن اتهموها بحب عاد لكراى التترى . وأرسلوا جمعاً قزلباشيا لأسر عادلكراى. ولكنه وملازميه اشتبكوا مع هذا الجمع . وبعد دفاع باسل قتل هو أعوانه (١) .

— ٥ —

قتل مهد عليا :

كان لزاما ومهد عليا زوجة محمد خدابنده امرأة غيورة وحقودة وعنيدة ، أن ينتهى أمرها بالقتل على يد رجال القزلباش . وهذا هو ماحدث بالفعل . فلم يكن يرضى مزاج القادة منهم أن تحكمهم امرأة بهذه الصفات يوما . فباتوا يجمعون لها الأخطاء ويرتبون لها المؤامرات .

انتهز قادة القزلباش فرصة إصرار مهد عليا على الانتقام من قتلة أبيها مير عبد الله خان — الذى كان يحكم فى مازندران موطن أجداده على أيام الشاه طهماسب — وبعثوا إلى زوجها يقولون : « إن مهد عليا امرأة لحوحة وقاصرة ، لاتلقى بالا إلى المصلحة العامة للدولة ، ولاتلتزم بنصائح رجالها . وليس لديها سوى تحقيرينا ومعاداتنا والاستهزاء بنا نحن خدام هذه الدولة على الرغم من أنه لم يصدر عنا جرم أو تقصير . ونحن فى قلق على أرواحنا بسبب تعنتها . وهى تعدنا أعداء لهذه الدولة فكيف إذن نأمن على أرواحنا ؟ ! وكيف يمكن تحمل هذا العار ! إن أعدائنا وجيراننا يتقولون علينا . وأنه لن يبقى فى الأسرة الصفوية رجل مادامت الأمور قد وصلت إلى حد أن نسوة قاصرات عقل قد تسلطن على أمور الدولة . . . لقد صارت حياتنا صعبة بوجود مهد عليا .

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جلد أول ، ص : ٥٢

وإذا لم توقف عند حدها فمن الممكن أن تقع حوادث تؤدى إلى ضعف وزوال هذه الدولة . »

وإزاء هذا التهديد ؛ استسلم محمد خدابنده ، وأبدى استعداد العزل عن أمور الدولة . وأعلن أنه من الممكن أن يتنحى عن السلطنة ويعود هو وأولاده ثانية إلى شيراز ، بشرط أن يغضوا الطرف عن قتل الملكة .

ولكن مهد عليا لم تكترث بهذا التهديد ، وأبلغت رجال القزلباش أنها لن تغير من مسلكها مادامت حية ، وإذا ما تصور رجال القزلباش أنهم قادرون على قتلها ، فليس فى هذا خشية ، لأن لها أربعة أولاد . وأنها على يقين من أنهم سينتقمون لدم أمهم [1] .

ولم يقتنع رجال القزلباش [2] برد الشاه محمد خدابنده ، وزادهم جواب مهد عليا تماسكا وإصرارا على قتلها . وتمكنوا بواسطة بعض المقربين من السلطان مثل صدر خان الدين خان صفوى من طائفة شيخاوند وأمام قلى ميرزاى موصلو من الدخول إلى فراشها ظهر يوم الأحد أول جمادى الثانى عام ٩٨٧ هـ / ١٥٨٩ م وقتلوها وهى تنام إلى جوار زوجها الكفيف ، بل وقتلوا أمها العجوز وجمعا من حاشيتها وأعيان مازندران وأعملوا السلب والنهب فى مقتنياتهم . وقام جماعة من الغوغاء بقتل المازندرانيين فى العاصمة وظلت الفوضى تسود العاصمة حتى المساء . وأمر السلطان محمد بالبحث عن جسد الملكة الذى كانوا قد ألقوه خارج المدينة ودفنه فى ضريح إمام زاده بقزوين .

---

(١) صدق ماتنبأت به مهد عليا ، فقد استطاع إبنها عباس أن ينتقم من قتلتها بنفسه (أنظر الفصل الثانى من القسم الثانى بهذا الكتاب)

(٢) وهم محمد خان تركمان ، قلى بيك افشار قورچى باشى ، قور خمس خان شاملو ، شاهرخ خان ذو القدر مهردار ، حسيب خان شرف الدين أغلى تكلو وپيره محمد خان استاجلو

ولم يخرج السلطان محمد من قصره احتجاجا على ماحدث من رجال القزلباش . فجاءوا إليه يعتذرون وأقسموا أنهم سيخلصون له ولولى عهده حمزة ميرزا . وكان من الطبيعى أن تصير أمور الدولة بعد قتل الملكة إلى الوزير سلمان ورؤساء القزلباش الذين دبروا قتلها . فوزعوا حكم الولايات عليهم [١] .

— ٦ —

عودة إلى العثمانيين :

رأى السلطان محمد الذى لم يكن له من السلطة سوى الاسم أن يتجه إلى خراسان لصد القوات العثمانية التى كانت أوقفت زحفها لحلول الشتاء. واتخذ من تبريز مركزا لعملياته الحربية خاصة وأن الجزء الغربى من آذربيجان وهو سلماس وخوى واورميه حتى حدود مراغه كان قد صار حتى ممتلكات العثمانيين . ولكن فى المقابل كان بهرام باشا القائد التركى قد اتجه على رأس ثلاثين ألف جندى صوب گرجستان ، وقاد حسن باشا أربعين الفا آخرين فى بداية الربيع لتسخير بقية آذربايجان وتخليص شروان من قبضة الصفويين ، بينما استولى عثمان باشا على قلعة دربند وهاجم داغستان [٢] .

وبعد وصول محمدخدابنده إلى تبريز ، جاءت الأخبار بأن محمد گراى قائد التتار أرسل جيشا إلى شروان للانتقام من قتلة أخيه . فتقرر أن يتجه الوزير ميرزا سلمان مع أمير خان تركمان حاكم آذربيجان وجمع آخرمن قادة القزلباش إلى شروان لوقف هجوم التتار عليها . غير أنهم كانوا قد سبقوا الجيش

---

(١) روضة الصفا : ج ٨ ، ص ١٩٦ وما بعدها

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، ج أول ص : ٥٨

الصفوى إليها ، وأعملوا فيها القتل والسلب والنهب . فعاد الوزير ميرزا سليمان هو وزملاؤه إلى تبريز . وكان الخلاف قد استبد بهم . فاغتنم عثمان باشا الفرصة واستولى على قلعة بادكوبه . ونظراً للخسائر التى حلت بالمزارع فى آذربيجان ، فقد حدث قحط كبير ، وارتفعت الأسعار . ومات عدد كبير من الفقراء[1] .

وهكذا فل فى عضد الدولة الصفوية من جديد ، وتعرضت لهزات عنيفة كادت أن تودى بها .

— ٧ —

أوضاع إيران بعد قتل مهد عليا :

تغيرت أوضاع إيران كلية بعد مقتل زوجة السلطان ، وعلى الأخص فى خراسان حيث كان يعيش الأمير عباس ، فقد انتهز حكام هذه المنطقة الفرصة ليستقلوا عن الحكومة المركزية فى العاصمة . واختاروا عليقليخان شاملو وصيا على عباس الذى أعلنوه أميرا على خراسان فى ربيع الأول عام ٩٨٩هـ ١٥٨٢م وضربوا السكة ووقعوا الأوامر والأحكام الصادرة باسمه وجعلوا الخطبة له ؛ ولم يكن قد بلغ الحادية عشرة من عمره[2] .

ولما وصلت هذه الأخبار إلى السلطان محمد ، بينما هو يجرى محادثات سلام مع العثمانيين ، ويحاول استرضاء السلطان مراد ، صمم على العودة إلى قزوين من مصيف قراباغ لتجريد جيش إلى خراسان بقيادة الأمير حمزة

---

(١) المرجع السابق ؛ ص : ٥٩

ميرزا ولى العهد للقضاء على المتمردين ، وذلك بإيعاز من الوزير ميرزا سلمان الذى نجح — من اجل إحكام قبضته على زمام الأمور — فى مصاهرة حمزة ميرزا(١) .

وفى بداية عام ٩٩٠هـ/١٥٨٣ م . عاد محمد خان تركمان واسماعيل قلى خان - من أعوان السلطان - قادمين من مشهد ، وأطلعاه على الأوضاع فى خراسان . وإزاء هذه الأحداث ، أصر ميرزا سلمان ومعه جمع من رؤساء طائفتى تركمان وتكه‌لو على ضرورة توجه الجيش رأسا إلى خراسان ، بينما عارض رؤساء طائفتى استاجلو وشاملو هذه الفكرة تأسيسا على أنه بالرغم من وجود علاقات تمهيدية مع العثمانيين ، فإنه لا يمكن الوثوق فى نواياهم وأنه إذا اتجه ولى عهده وقواد العسكر صوب خراسان ، فقد تصبح آذربيجان والولايات الغربية لإيران عرضة لهجوم العدو العثمانى فجأة . أما إذا أعلن عباس ميرزا ملكا فى خراسان واستقل بها فهو على أية حال من الأسرة الصفوية وليس أجنبيا ، بل قد يحول الاستقلال بها دون سيطرة الأوزبك - الذين مازالوا يتربصون بالدولة الصفوية العداء - على هذا الإقليم .

ولكن انتصر رأى ميرزا سلمان ، وتوجه الجيش لمحاربة ومى عباس ميرزا الذى تحصن فى قلعة هراة ، فحاصرها جيش السلطان ، واستمر الحصار وقتا طويلا . وفى هذه الأثناء ، وصلت أخبار من آذربيجان تفيد أن القائد العثمانى فرهاد باشا يزحف صوب إيران على رأس جيش كبير . ولذلك رأى

---

(١) عارض رؤساء القزلباش هذه المصاهرة . لأنهم رأوا أن سليمان ميرزا ليس جديرا بمصاهرة الأسرة الصفوية من ناحية ، وأنه سيزداد نفوذا بها من ناحية أخرى :

كبار رجال الدولة ـ وأن كان الخلاف قد استبد بهم إزاء هذه القضية ـ عقد صلح بين الطرفين من أجل التفرغ لقتال العثمانيين . وتم الصلح بإعطاء الجانب الخراساني واعترافه بحمزه ميرزا وليا للعهد فى مقابل الاحتفاظ بإقليم خراسان (١) .

وكان النزاع الصفوى العثمانى مازال قائما فى هذه الأثناء . فقد تمكن العثمانيون من الاستيلاء على بقية آذر بيجان وإخضاع عاصمتها تبريز (٢) .

---

(١) زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٧٠ ومابعدها وايران در زمان صفويه : ص ٤٩

(٢) حتى عام ٩٩١ هـ . كانت ولايات شروان وشكى وقسم مهم من ارمنستان وقلعة ايروان قد سقطت فى أيدى عثمان باشا وفرهاد باشا من قواد السلطان مراد الثالث . وبدأ السلطان مراد يشعر أن بامكانه مواصلة التوسع فى داخل إيران الضعيفه . وفى عام ٩٩٣ هـ شرع عثمان باشا يعد نفسه للاستيلاء على آذر بيجان فى الوقت الذى كان فيه حمزه ميرزا مشغولا بلهوه وعبثه ولكن لما شعر بالخطر العثمانى طلب من رؤساء طائفتى تركمان وتكلو مثل محمد خان تركمان حاكم كاشان وولى خان تكلو حاكم همدان وولى خان تكلو حاكم الرى إعداد الجيش لملاقاة عثمان باشا إلا أنهم تكاسلوا بل إن أيا من جيوش فارس وكرمان والعراق لم يتقدم صوب آذربيجان والسبب فى ذلك أن حمزه ميرزا كان قد عزل امير خان تركمان صديقهم من حكم آذر بيجان ، وحبسه فى قلعة قهقهه ، وصادر ثروته . وقد أفاد هذا التقاعس من جانب قواد القزلباش والمقرون بعبث حمزه ميرزا عثمان باشا من حيث لايحتسب فقد أصبحت آذربيجان مكشوفة أمامه فاستطاع السيطرة على آذر بيجان بما فيها العاصمة تبريز وأمر بإقامة قلعة فيها للدفاع عنها ، وعين جعفر باشا من قواده حاكما عليها . =

— ٧ —

حمزه ميرزا ولى العهد ومحاولاته من أجل استرداد تبريز :

كان حمزه ميرزا ولى العهد مازال شابا صغيراً ومغرورا وأنانيا ، يفرط فى الشراب ، ويغضب لأقل الأسباب ويتربص بقتلة أمه العداء(١) . ولكنه مع ذلك كان جريئا ، وقد أفادته هذه الجرأة فى جمع فلول جيشه ، والدفاع عن مدينة تبريز أكثر من مرة(٢) . وقد كان عهده مليئا بالثورات وحركات التمرد(٣) وبلغ الأمر بأعدائه من رؤساء طوائف تركمان وتكلو

= وحدث أن أهل تبريز تمكنوا من قتل قائد تركى ، فأمر عثمان باشا بتنفيذ القتل العام فيها . وتحولت تبريز بهذا الأمر العثمانى إلى مدينة خربة تماما . - زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٨٥ ومابعدها ،

(١) إيران در زمان صفويه : ص ٥١

(٢) اغتاظ حمزه ميرزا لما حل بتبريز ، فاستطاع - بإثارة النخوة فى نفوس بعض رجال القزلباش - أن ينزل خسائر فادحة بالجيش العثمانى فى الأرواح والأموال ، بل يأسر ويقتل عددا من قواده وباشواته . فكان رد الفعل لدى عثمان باشا أن مرض ومات فى ٥ ذى القعده ٩٩٣ هـ / ٢٩ اكتوبر ١٥٨٥ م وبعد موته عهد السلطان مراد بمنصب الوزير الأعظم للدولة العثمانية إلى خادم مسيح باشا .

(٣) من أمثلة حركات التمرد التى حدثت فى زمانه ، أنه بعد ان تزوج من ابنة الوزير ميرزا سليمان بدا لقادة القزلباش - على الرغم من العداوة المتأصله فيما بينهم - أن ميرزا سليمان شرع يطلق يده فى كل أمور الدوله - بحكم هذه المصاهرة - وهنا اتفقوا على المطالبة بعزله ، وإلا فستكون النتيجه عكسية من ناحيتين الأولى المطالبة بتعيين عباس ميرزا وليا للعهد والثانية قتل ميرزا سليمان وعلى الرغم من أن ميرزا سليمان وافق على التنازل عن مناصبه إلا أن رجال =

وذى القدر أن اختطفوا أخاه الأصغر طهماسب ميرزا لتنصيبه ملكا فى العراق العجمى والاستقلال بجزء كبير من إيران[١] . كما حدث بالنسبة لعباس ميرزا فى خراسان .

وقد ظن البعض حينئذ أن هذا العمل قد تم بموافقة السلطان محمد خدابنده لأنه لم يعد يرضى عن تصرفات إبنه الناقصة ، ولأنه كان يولى طائفة تركمان معزة خاصة لانتساب أمه إليها . وقد أدى هذا إلى إثارة حنق حمزه ميرزا ولى العهد على أبيه ، وزاد تصميمه على استرداد أخيه مهما كلفه الأمر من تضحيات ، ونجح فى تحقيق غرضه[٢] ، ثم رحل فى بداية عام ٩٩٤هـ/١٥٨٦م بقصد تسخير قلعة تبريز .

= القزلباش قتلوه هو وولديه فى حديقة زاغان بهراة ويقول بعض المؤرخين أنهم قتلوه فى حضور حمزة نفسه « زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٧٥ ومابعدها » .

(١) بدأت هذه الخلافات عندما رفض هؤلاء الرؤساء الاشتراك فى تجهيز الجيش الصفوى من أجل مواجهة عثمان باشا فى زحفه صوب آذربيجان وتصاعدت باعتقال أمير خان تركمان حاكم آذربيجان وأحد هؤلاء الرؤساء واستحكمت وتعقدت باعتماد حمزه ميرزا ولى العهد على طوائف استاجلو وشاملو فصح عزمهم - نكاية فى حمزه ميرزا - على اختطاف طهماسب ميرزا الأخ الأصغر ، وتنصيبه ملكا فى العراق العجمى وبذلك يحكمون فى جزء كبير من العراق باسمه على غرار ماحدث فى خراسان « عالم آراى عباسى : ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ » . وتمكنوا فعلا من تنفيذ عملية الاختطاف « روضه الصفا : جلد هشتم ، ص ٢٢٦ ومابعدها » .

(٢) من أجل أن يسترد حمزه ميرزا أخاه المخطوف ، توجه إلى أردبيل لزيارة قبر جده الشيخ صفى ، ويطلب بركاته فيما هو مقبل عليه . ثم توجه إلى سلطانيه عن طريق طارم والتقى جيشا حمزه ميرزا وطهماسب ميرزا فى صحراء =

وكان من الطبيعى ؛ وولى العهد حمزه ميرزا شابا لايقوى على إدارة أمور الدولة بتأثير تصرفاته المتناقضة وعدواته لرؤساء القزلباش ؛ أن ينتهى أمره بالقتل وهو نائم فى محله (أبو شحمه) بالقرب من گنجه فى يوم الخميس ٢٢ ذى الحجه عام ٩٩٤ هـ / ١٥٨٦م على يد خداوردى الذى كان يعمل دلاكا خاصا له(١) .

تنصيب أبى طالب ميرزا وليا للعهد وتطور الأحـــداث فى صالح عباس ميرزا :

— ٨ —

كان محمد خدابنده قد فكر بعد قتل حمزه ميرزا فى أن يمارس حكم الدولة بنفسه ، ولم يختر أحدا من أولاده الثلاثة لولاية العهد . فقد كان يعلم

منصيف چكچكى . ودارت بينهما معركة طاحنه . أبدى فيها حمزه ميرزا كل صنوف الشجاعة والجرأه وثبت ثباتا عجيبا فى ميدان المعركة التى انتهت لصالحه وتمكن من أسر أخيه وبعض من رؤساء طائفتى تركمان وتكلو المؤيدين له ، وكافأ عليقلخان استاجلو واسماعيل قلى خان شاملو اللذين وقفامعه فى حربه بتعيينهما حاكين لبعض الأقاليم ، وأودع أخاه قلعة ألموت . وبعد أن استقر فى قزوين لمدة شهرين غادرها إلى آذربيجان فى بداية صيف ٩٩٤ هـ .

(١) لم يكن حمزه ميرزا بماله من صفات معينة بالشخص الذى ينسى الانتقام من قتلة أمه . ولم يكونوا هم أيضاً بالذين يطمئنون إليه . وخوفا من تدركم تهوره . سبقوه بأن أتفقوا مع خداوردى الأرمنى الأصل والمعروف بـ(خودى) على قتله : فطعنه عدة طعنات قضت عليه : وقد أمر محمد خدابنده بدفن ابنه فى أردبيل بجوار جده الشيخ صفى : وأصر على قتل الجانى بنفسه وكان لحمزه ميرزا عند وفاته ولدين من جاريات بلاطه : الأول اسمه اسماعيل المولود فى ٢٦ جمادى الثانى عام ٩٩٢ هـ : والثانى : حيدر ميرزا المولود فى ٢ ربيع الأول عام ٩٩٣ هـ (زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ص ١٠٦ ومابعدها)

أن إختيار أى منهم سينتهى بثورة رجال القزلباش المنقلبين على بعض البعض . ففريق منهم يؤيد عباس ميرزا فى خراسان ، وآخر يساند طهماسب ميرزا السجين فى قلعة الموت ومعه أبا طالب ميرزا الذى مازال طفلا . والاختيار فى نظر طوائف القزلباش يعنى التفضيل، والتفضيل سينتهى باشعال فتنة داخلية تلتهم البناء الداخلى المهلهل والمحاط بالأعداء من الناحيتين الشرقية والغربية(١) .

وذات يوم جمع السلطان محمد خدابنده رؤساء القزلباش ، ودعاهم إلى التماسك وطرح الخصومة جانبا . وأعلن أنه يريد ممارسة الحكم بنفسه وليس لديه نية اختيار ولى للعهد . ولكن قتلة حمزه ميرزا كشفوا النقاب عن حقيقتهم وطالبوا بتعيين أبى طالب ميرزا وليا للعهد مخالفين رأى السلطان وأسرعوا فى تنفيذ مطلبهم . ومع أن هذه الأيام كانت توافق عزاء شهر

---

(١) المقصود بهم الدولة العثمانية وقبائل الأرزبك . والجدير بالذكر أنه قبل قتل حمزه ميرزا كانت قد تجمعت فى الأفق بوادر صلح مع العثمانيين ذلك أن فرهاد باشا قائد الحملة العثمانية على آذربيجان كتب لقواد القزلباش يقول : « إن مواصلة الحرب ليست فى صالح إيران فالبلاط العثمانى يعلم اختلاف رجال القزلباش جيدا ويدرك أن تسخير الولاية الإيرانيه (آذربيجان) ليس عملا صعبا واستمرار الحرب والخصومة فى مثل هذا الوضع سيلحق الضرر بإيران وسيفقدها ولايات أخرى : ومن الأفضل أن يحث القادة الايرانيون الأمير حمزه على قبول الصلح ويغضون الطرف عن ماوقع فى ايدى العثمانيين ويدخلون مع السلطان فى مفاوضات صلح . وسنتوسط لدى السلطان من أجل منع إراقة الدماء : ولدى وصول هذه الرساله : حدث اختلاف بين رجال القزلباش وولى العهد حمزه ميرزا فبينما رفضوا قبول الرسالة، كان يرى أنه لا يمكن تخليص آذربيجان ورجال القزلباش ينافقون ويختلفون فاجاب على الرسالة بانه مستعد للصلح بشرط استرداد تبريز عاصمة آذربيحان : فطلب فرهاد باشا ارسال أمير ايرانى إلى البلاط الثانى ليبقى هناك كرهينة مقابل استرداد تبريز . ووافق حمزه ميرزا على ارسال ابنه الصغير حيدر . وبدأ حمزه يستعد لتنفيذ الاتفاق ولكن القدر لم يمهله إذ قتلوه وهو فى الطريق إلى قزوين العاصمة :

المحرم عام ٩٩٦هـ/١٥٨٧م إلا انهم جمعوا أسباب تتويج الأمير ، وأصروا على أن يخلع السلطان محمد التاج ويضعه على رأس أبى طالب ، وأعلنوا بقية الولايات بهذا الاختيار ، واختاروا ميرزا محمد متسوفى الممالك وزيرا له .

وبعد ان شاع خبر مقتل حمزه ميرزا وتولية ابى طالب فى مختلف انحاء إيران . ظهر العصيان فى كل مكان من جانب طائفتى تركمان وتكلو المعارضة لطائفتى شاملو واستاجلو . واعتبر رؤساء هاتين الطائفتين انفسهم من انصار عباس ميرزا . واعلنوا التمرد فى كل من كاشان واصفهان وفارس .

ولم يجد السلطان محمد خدابنده بدا من إخماد التمرد ، فانتقل إلى هذه الجهات هادفا إخماد التمرد فيها غيره انه اصطلح مع حاكم كاشان ، وسيطر على اصفهان التى انقسمت فيها طوائف القزلباش إلى فريقين أنزلا بها خسائر كبيرة ونهبا اموال رعاياها .

وكان البعض من رؤساء طائفتى تركمان وتكلو قد أسرع بإبلاغ عباس ميرزا والمؤيدين له يعرضون عليهم خدماتهم المادية والمعنوية لأحقيته فى ولاية العهد . ولم ينتظر عباس ومؤيدوه ، فزحفوا إلى قزوين عن طريق دامغان ، فدخلوها فى العاشر من شهر ذى الحجة عام ٩٩٦ هـ / ١٥٨٨ م دون أدنى مقاومة لأن قورخمس حاكم المدينة سلمها لهم ودخل فى طاعتهم . ثم دعا مرشد قليخان الوصى على عباس إلى مجلس فى قصر السلطان محمد بقزوين ، حضره رؤساء القزلباش . وفى هذا المجلس خلع السلطان محمد نفسه من السلطنة بأن وضع التاج الملكى على رأس ابنه عباس . ومنذ ذلك التاريخ أصبح الشاه عباس أشهر ملوك الدولة الصفوية[١] .

---

(١) سنتبين تفصيل ذلك فى القسم الثانى من هذا الكتاب :

— ٩ —

رأى فى السلطان محمد خدابنده :

لم يكن السلطان محمد خدابنده بالشخص الجدير بتولى مسئولية الحكم فى الدولة الصفوية ، وهى مازالت بعد فى حاجة ماسة إلى ملك قوى يدعم كيانها ويثبت بناءها خصوصاً بعد تلك الفترة القصيرة التى حكمها الشاه اسماعيل الثانى وقتل فيها جل الأمراء الصفويين ماعدا شقيقه محمد ميرزا وأولاده .

وقد عرفنا أن الشاه قد أصيب بالعمى فى عام ٩٨٠ هـ / ١٥٨٣ م . ومنذ هذا الوقت وحتى جلوسه على العرش شغل نفسه بالعبادة ، فاشتهر بمحمد خدابنده (محمد عبد الله) وقد استغل طوائف القزلباش المنقلبين على بعضهم البعض والذين تحكم تصرفاتهم عداوات قديمة هذا العجز فى محمد خدابنده وأخذوا يتلاعبون بمصير الدولة الصفوية[١] .

ولم يكن تلاعب رجال القزلباش بمصير الدولة الصفوية من حيث تأييد هذا الأمير أو بتنصيب ذاك أو خطف الثالث فقط بل وصل إلى شخصية الشاه نفسه . فكانوا يسخرون منه ، وينشدون الأغانى التى تتضمن التهكم عليه . ومنها ما قالوه أثناء حملة العثمانيين على آذربيجان مخاطبين به السلطان محمد « لقد خربت تبريز وتركتها للسلطان مراد »[٢] .

---

(١) فى أيام السلطان محمد خدابندة تكاثرت طوائف القزلباش واختلطت وانقسمت وبدأت كل مجموعة تكون لها وضعا معينا بحيث أننا نجد أن عدد هذه المجموعات قد تجاوز الثلاثين فى بداية حكم عباس :

(٢) زندگانى شاه عباس أول : جلد أول ، ص ٨٦ حاشية ١

ولا جدال فى أن السلطان محمد خدابنده قد بدأ حياته بداية ضعيفة - وإن كان مضطراً فى ذلك بسبب عجزه - عندما ترك زوجته مهدعليا تسيطر عليه وتتسلط على زمام الأمور إلى حد أنه وافقها على قتل اخته پريخان خانم المنافسة الأولى لزوجته[١].

ويبدو أن محمد خدابنده كان ضعيف العقيدة الدينية، ولم يتمسك بقيمه التى عرفت عنه كعابد لله[٢] فنراه يقضى بعض أوقاته فى قصره مع المحظيات يقدم لهن العطايا والأموال، وقد ظل على هذه الحال إلى أن تنازل عن الحكم. وقد مات فى عام ١٠٠٤ هـ / ١٥٩٤ م فى قـــزوين عن عمر يناهز السادسة والستين حكم منه ثمانية سنوات، وقد أمر ابنه عباس بدفنه فى كربلاء[٣].

وإذا أردنا أن نأخذ برأى المؤرخين القدامى فيما يتصل بأخلاق السلطان محمد، فأفضل نموذج هو ما جاء فى ملحقات روضة الصفا لرضا قلى خان إذ يقول[٤]: «كان على دراية بعلوم عصره ولا نظير له فى العقل والكياسة والفضل والفراسة والجود والسماحة والفصاحة، وكان حليما فى السياسة والقتال، ولم يرض بقتل أحد[٥] وعلى وجه العموم كان السلطان محمد ملكا له خصال الدراويش أو درويشا له جلال الملوك».

---

(١) إيران در زمان صفوية: ص ٤٣

(٢) زندگانى شاه عباس أول: جلد أول، ص ٥٨، ٨٦ حاشيه ١

(٣) تاريخ أدبيات إيران: جلد چهارم، ترجمه رشيد ياسمى، ص ٩٨ وتاريخ إيران از مغول تاأفشاريه: ص ٣١٠

(٤) روضة الصفا: جلد هشتم، ص ٢٣٥

(٥) مثلا أصر السلطان محمد على قتل قاتل ابنه حمزه ميرزا بنفسة

ولكن مهما كانت أقوال المؤرخين القدامى فى الملوك ، فإن الرد على القول السابق يمكن استنتاجه من خلال ما ذكرناه عن هذا السلطان .

وفى رأينا أن السلطان محمد خدابنده لم يؤد عمـــلا ذا أهمية للدولة الصفوية سوى أنه ترك الظروف تتداعى رغما عنه . ليظهر من خلالها اية الشاه عباس الـكبير .



الشاه اسماعيل الأول



الشاه طهماسب الأول



الشاه محمد خدابنده

القسم الثانى

عباس الكبير

٩٩٦ — ١٠٣٨ هـ

= ١٥٨٨ — ١٦٢٩ م

دكتور بديع جمعة

الفصل الأول

إقامة عباس ميرزا فى خراسان وتتويجه فى قزوين

— ١ —

مولده :

ولد عباس ميرزا فى ليلة السبت غرة رمضان عام ٩٧٨ هـ(١) ، الموافق السابع من يناير عام ١٥٧١ م(٢) ، وقد كانت ولادته فى مدينة هراة مركز حكومة خراسان فى ذلك الوقت(٣) ، حيث كان والده محمد خدابنده يتولى أمر خراسان من قبل والده الشاه طهماسب . وقيل بأن محمد خدابنده عندما رزقه الله بهذا المولود أرسل يبشر الشاه طهماسب بمقدمه وطلب منه اختيار اسم له ، فقام الشاه طهماسب بتسمية المولود باسم (عباس)(٤) .

أما عن نسبه فهو غنى عن التعريف ، فقد سبق التعرف على والده الشاه

---

(١) مجلهٔ يادگار : سال سوم شمارهٔ دوم مهرماه ١٣٢٥ش مقالة بعنوان : مباحث تاريخى أز ابتداى صفويه تا آخر قاجاريه : پادشاهان إيران : هريك دركجا مدفونند . ص : ١٣

(٢) نصر الله فلسفى : زندگانى شاه عباس أول ؛ ج ١ ، تهران ١٣٣٤ ش ص : ١

(٣) دهخدا : لغت نامه ، مراجعهٔ دكتر محمد معين ، شماره ٧٦ ، طهران ١٣٤١ ش ، ص : ٤١

(٤) زندگانى شاه عباس أول ، ج ١ ص : ٢

محمد خدابنده فى القسم الأول من هذا الكتاب ، أما والدته فهى : مهد عليا خير النساء بيگم ابنة الأمير عبد الله خان المرعشى والى مازندران (١) ، والذى يتصل نسبه بسيد قوام الدين المشهور باسم الأمير الكبير (٢) ، وقد ورد ذكرها فى القسم الأول من هذا الكتاب ، كما سيتردد اسمها أيضاً فى الفصل الأول من هذا القسم الثانى .

وكان عباس الابن الثانى للشاه محمد خدابنده ، حيث رزق بأربعة أبناء هم على التوالى : حمزة ميرزا ، عباس ميرزا ، أبو طالب ميرزا ، وطهماسب ميرزا . وقد اغتيل حمزة ميرزا عام ٩٩٤ هـ ، أما أبو طالب وطهماسب فقد سملت أعينهما بأمر من عباس بعد أن تولى حكم الدولة وزج بهما سجينين فى قلعة ألموت (٣) .

وظل عباس ميرزا يعيش فى كنف والديه فى مدينة هراة حتى عام ٩٩٠ هـ (١٥٧٣ م) حيث صدرت الأوامر لأبيه بالتوجه صوب شيراز ، وترك إقليم خراسان ، ولكن شاء القدر ألا يسافر الطفل عباس مع والديه ، وأن يعيش محروما من عطف الوالدين بعد عام ونصف فقط من ولادته ، ولكن كيف تم ذلك ؟

---

(١) هدايت (رضاقليخان) ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصرى ، ج : ٨ قم (إيران) ١٣٣٩ ش ، ص : ١٩٦

(٢) لغت نامه ؛ شماره : ٧٦ ، ص : ٤١

(٣) ادوارد براون : تاريخ ادبيات إيران از آغاز عهد صفويه تازمان حاضر ، ترجمهٔ رشيد ياسمى ، چاب دوم ، تهران ١٣٢٩ هـ ش ، ص : ٩٧

— ٢ —

ولاية عباس أمر خراسان .

كان من المتبع منذ عهد الشاه اسماعيل الأول أن تسند حكومة خراسان لأكبر أبناء الملك ، فأسند أمرها إلى ابنه طهماسب ووفر لهـذه المنطقة ما يلزمها من قوات القزلباش التى تستطيع الدفاع عنها ، ورد أى هجوم أوزبكى عليها ، وبعد وفاة اسماعيل الأول ، أسند الشاه طهماسب أمر هذه الولاية إلى ابنه الأكبر محمد خدابنده . فعاش فيها فترة طويلة ، وكان يتركها أحيانا لفترات وجيزة ثم سرعان ما يعود لحكمها من جديد . ولكن حدث فى أواخر حكم الشاه طهماسب أن اختلف محمد خدابنده مع قائد الجند هناك وأخذ يشكو كل منهما الآخر للشاه طهماسب ، فحرص الشاه على أن يقضى على هذا النزاع حتى لا يكون مدعاة لاضطراب الأمور هناك ؛ ممـا قد يعرض خراسان لهجمات من قبل الأوزبك المتربصين بالدولة الصفوية ، فأصدر الشاه أوامره التى تنص على :

١ — أن يتوجه محمد خدابنده وجميع أبنائه عدا حمزة ميرزا إلى شيراز لكى يتولى حكم ولاية فارس .

٢ — إسناد ولاية خراسان ومركزها هراة إلى حمزة ميرزا بن محمد خدابنده[1] (وكان عمر حمزة ميرزا فى ذلك الوقت ثمانى سنوات) .

ولكن الأمير محمد خدابنده وزوجته مهد عليا رجوا الشاه طهماسب بالموافقة على تعيين ابنهما الثانى عباس ميرزا مكان أخيه الأكبر حمزة ميرزا

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، ج ١ ، ص : ٨ ، ٩

الشديد التعلق بوالديه خشية أن تعتل صحته إذا أبعد عنهما[١] . أما عباس فما زال طفلا رضيعاً لا يستطيع أن يشعر بمرارة ما يشبه اليتم ، ولعل تربية عباس بعيداً عن كنف والديه كانت ذات آثار بعيدة على مسلك عباس مع أسرته بعد ذلك ومما سنعرض له فى حينه .

وافق الشاه طهماسب على تعيين عباس على ولاية خراسان ومقرها هراة فى عام ٩٩٠ هـ ، ولما كان له من العمر وقت صدور الأمر عام ونصف ، فقد أمر الشاه طهماسب بأن يتولى الوصاية عليه شاهقلى سلطان[٢]

وهكذا بدأ اسم عباس يتردد على الألسنة كحاكم وهو ما زال طفلا رضيعاً ، وأصبحت منطقة خراسان كلها تحت إمرته الإسمية ، ولولا حرص محمد خدابنده على اصطحاب ابنه الأكبر حمزة ميرزا معه إلى شيراز ، لما تولى عباس أمر خراسان ، ولما أتيحت الفرصة لعباس لكى يلعب ذلك الدور الخطير الذى لعبه فى تاريخ إيران وما جاورها من البلاد ، لأنه لو سافر مع والده محمد خدابنده إلى شيراز ، وبقى حمزة ميرزا ، لكان من الممكن أن يلعب حمزة ميرزا ذلك الدور الذى أداه عباس بتخطيط من أمراء خراسان أولا ، وبتفكيره ثانياً . وهكذا قدم محمد خدابنده لابنه الرضيع عباس خدمة كبرى دون أن يدرى .

— ٣ —

الأمر باغتيال عباس ميرزا :

بعد رحيل محمد خدابنده إلى شيراز ، بقى عباس ميرزا فى هراة عاصمة

---

(١) المرجع السابق ، ص : ٩

(٢) لغت نامه . شماره : ٧٦ ، ص : ٤١

خراسان لايبرحها إلى غيرها من المدن ، ولم يرد فى الأخبار بأنه التقى بأبيه خدابنده منذ رحيله وحتى توليـــــه عرش الدولة الصفوية عام ٩٨٥ هـ (١٥٧٧م)(١) . وسارت الأمور على هذه الحال حتى توفى الشاه طهماسب عام ٩٨٤ هـ (١٥٧٦ م)(٢) . وتولى الحكم من بعده اسماعيل الثانى ، فأبقى على عباس فى منصبه والياً على خراسان ، كما أبقى على أبيه محمد خدابنده فى مكانه بشيراز .

وفجأة حدث تغير كبير فى علاقات أفراد البيت الصفوى وبدأت الاضطرابات تجتاح الدولة ، وانتشرت الدسائس فيما بينهم ، فأقدم الشاه اسماعيل الثانى على الفتك بعدد كبير من أمراء البيت الصفوى ، ولم يعد منهم على قيد الحياة إلا محمد خدابنده وأولاده ، وأخيرا فكر الشاه اسماعيل الثانى فى اغتيالهم والتخلص منهم .

وذكر البعض أنه أقدم على هذه الخطوة الأخيرة عندما أنجب ابناً أسماه (أبا الفوارس شجاع الدين محمد)(٣) ، فأراد أن يمهد الحكم لنفسه ولابنه من بعده دون منازع ، ولما لم يبق من أبناء الأسرة من يخشى بأسه سوى أخيه محمد خدابنده وأولاده ، فقد أصدر أوامره السرية إلى بعض حكامه وقواده بالقضاء على أخيه محمد خدابنده وجميع أبنائه ، فأوكل أمر محمد خدابنده إلى (ولى سلطان ذى القدر) أحد ولاة إقليم فارس ، وأسند مهمة

---

(١) كليفورد ادموند بوسورث : سلسله هاى اسلامى ، ترجمهٔ فريدون بدره اى . تهران : ١٣٤٩ ش ، ص : ٢٥٥

(٢) تاريخ ادبيات إيران از آغاز عهد صفويه تازمان حاضر ، ص : ٩٧ .

(٣) زندگانى شاه عباس أول ، ج : ١ ، ص : ٢٤

قتل عباس فى هراة إلى عليقليخان شاملو ، على أن يتولى عليقليخان هراة بعد ذلك[1] .

وتنفيذا الأوامر الشاه اسماعيل الثانى ، توجه عليلقيخان صوب هراة فوصلها فى السادس والعشرين من رمضان عام ٩٨٥هـ[2] ، وكان من المفروض أن يسفك دم عباس ميرزا بمجرد وصوله ، ولكنه تباطأ بعض الوقت شفقة بهذا الطفل الذى لم يرتكب جرما يستحق معه عقوبة الإعدام ، وبوازع من قدسية شهر رمضان المبارك ، فآثر الانتظار حتى ينقضى هذا الشهر الحرام وتنقضى أيام عيد الفطر[3] ، وبعد ذلك ينفذ المهمة التى أسندت إليه والتى وجد نفسه مضطرا لتنفيذها امتثالا لأوامر الشاه اسماعيل الثانى ، ولرغبته هو فى حكم مدينة هراة بعد التخلص من عباس .

ولكن شاء القدر أن ينجو عباس من القتل ، حيث وردت الأنباء إلى هراة من قزوين باغتيال الشاه اسماعيل الثانى نفسه فى الثالث عشر من شهر رمضان ٩٨٥ هـ (١٥٨٨ م) ، كما ذكرت الأنباء بأن قواد القزلباش قد اختاروا محمد خدابنده سلطانا على إيران وهكذا لم يعد عليقليخان مجبرا على سفك دم الطفل عباس ميرزا ، بل إن الحكمة تستدعى الحفاظ عليه والإبقاء على حياته ، إرضاء لوالده الشاه الجديد من جهة ، واحتمال استخدامه ورقة رابحة قد تفيد فيما بعد فى تدعيم جانب من يتولى رعايته وتصريف أموره من جهة أخرى .

---

(١) رضا پازوكى . تاريخ إيران از مغول تاافشاريه ، چاب أول ، طهران ١٣١٨ ش ، ص : ٣٠٦

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ١ ، ص : ٤٢

(٣) تاريخ ادبيات ايران از آغاز صفويه تازمان حاضر ، ص : ٩٥

وهكذا تولى عليقليخان الوصاية على عباس ميرزا ، وحكم باسمه فى هراة ، وعامل عباس معاملة الأب لابنه ، كما أحسنت زوجته رعاية هذا الابن الجديد لهما ، لدرجة أن عباس كان يناديها (أمى) ، وقد حفظ لهما عباس حسن رعايتهما له ، وظل وفيا لهما كما سأشير إلى ذلك عند الحديث عن مقتـل عليقليخان على أيدى القوات الأوزبكية ، وبعد ذلك ضم إليه زوجة عليقليخان لتعيش فى بلاطه ، فظلت ملازمة له ومشرفة على خدمته إلى أن توفيت عام ١٠٣٢ هـ (١٦٢٣) فى ملزندران ، وأمر بأن يدفن جسدها فى كربلاء [١] .

— ٤ —

التحفظ على عباس ميرزا فى هراة :

ما أن تولى محمد خدا بنده عرش الدولة الصفوية عام ٩٨٥هـ (١٥٧٨م) [٢] حتى حرص على استعادة ابنه عباس للعيش معه فى قزوين ، بعد أن أنجاه الله من عقوبة الإعدام امتثالا لأوامر الشاه اسماعيل الثانى ، فأرسل الأمير عبد الله خان المازندرانى خال عباس إلى هراة لاحضار عباس ميرزا [٣] ولكن ما أن وصـل إلى هراة حتى اعترض عليقليخان على تسليمه عباس ميرزا واحتج بقوله :

« إن ملك هراة يصل إلى حدود خراسان وما وراء النهر والتركستان وكلما كان ولى العهد أو أحد الأمراء الكبار مقيما بهراة ؛ كلما كان ذلك مدعاة

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ١ ، ص : ٤٢

(٢) سلسله هاى اسلامى ، ص : ٢٥٥

(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصرى ، جـ ٨ ، ص : ١٩٥

لاستقرار الأمور فى تلك المناطق ، وهذا أفضل لمصلحة الدولة كلها ..[١]

وقد أيده فى ذلك جمع أمراء خراسان ، وقالوا لرسول الشاه وزوجته : إن هراة منذ بداية الدولة الصفوية يوجد بها أحد الأمراء الكبار، وإن وجوده يوجب الاتفاق التام بين حكام مناطق خراسان المختلفة ، وبأوامره يمكن فض المنازعات والخلافات التى قد تنشأ بينهم ، فإذا رحل عباس إلى قزوين ؛ فستظهر على السطح من جديد الخلافات العديدة التى كانت قائمة قبل ذلك فى خراسان بين طوائف القزلباش ، وسيشغلون بها ، مما يجعل المسرح مهيأ لهجوم الأوزبك على مناطق خراسان ... »[٢].

لاشك أن كلا الحجتين بعيدتان عن الصواب ، والحقيقة أن هدف عليقليخان كان يتمثل فى الاحتفاظ بعباس فى هراة كرهينة فى يده يضغط بها على الشاه محمد خدابنده ، وعلى طوائف القزلباش الموجودة فى العاصمة قزوين ولكى يصل عليقليخان إلى تحقيق هذا الهدف نجده يحاول جمع أمراء خراسان حوله ، فانضم إليه جميع أمراء وقواد طائفته شاملو ، وكذلك أمراء وقواد طائفة استاجلو برئاسة مرشد قليخان حاكم خواف وباخرز[٣] ، وعقد هؤلاء جميعا اجتماعا اتفقوا فيه على الاتحاد فيما بينهم ضد طوائف القزلباش المسيطرة على مجرى الأحداث فى العاصمة قزوين ، كما اختاروا عليقليخان زعيما لهم ، وأطلقوا عليه لقب « خانلرخانى » أى رئيس الخانات[٤].

واعترض على هذا التجمع مرتضى قليخان حاكم مشهد ، لأنه كان على

---

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، ج ١ ، ص : ٤٣

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة

(٤) المرجع السابق . ص : ٤٦

ابق مع عليقليخان شاملو ، فشعر بأن بقاء عباس فى هراة تحت وصاية
ليخان مدعاة لافتخاره ، وربما يكون نواة لاستقلال خراسان عن العاصمة
متى سنحت الظروف لذلك . (١) أضف إلى ذلك أن مرتضى قليخان
من قبائل التركمان المتمركزة فى قزوين ، ويهمه ألا يكون للقزلباش من
شاملو واستاجلو أى سيطرة ، أو أن تكون فى أيديهم ورقة رابحة
بها فى الصراع الدائر بينهم وبين طائفته فى العاصمة قزوين .

وأمام هذا التعنت من عليقليخان ومرشد قليخان زادت مخاوف محمد
وزوجته مهـــد عليا على مصير طفلهما عباس ميرزا ، وصمما على
جاعه بأى طريقة ، وكلفا رسولا آخر بالتوجه فورا إلى هراة واحضار
وتهديد عليقليخان ومؤيديه ، ولـكن عليقليخان ومرشد قليخان رفضا
باع لأوامر الشاه وزوجته ، وصمما على احتجاز عباس فى خراسان
كانت العواقب ، فـكانت النتيجة أن أصدرت مهد عليـا — صاحبة
الأولى فى الدولة ـ أمرا بعزل عليقيلخان ، وإسناد هراة إلى مرتضى
حاكم مشهد والمؤيد لعودة عباس إلى والديه (٢) ؛ ولـكن هذا الأمر
.. !

وأخيرا استدعى الشاه محمد خدابنده وزوجته مهد عليا سلطان حسين
والد عليقليخان وأحد كبار رجال البلاط الصفوى بقزوين ، ووبخاه
احتجاز ابنه للأمير عباس ، وطالباه بضرورة العمل على إحضاره إلى
. فطلب سلطان حسين خان مهلة ثلاثة أشهر يتوجه فيها صوب هراة
عباس ، ولـكنه قال : « إذا كان جميع أمراء خراسان يجمعون على

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفاناصرى ، ج ٨ ، ص : ١٩٥

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، ، ج ١ ، ص : ٤٥

عدم الموافقة على رحيل الأمير عباس إلى قزوين ، فماذا يرجى منه
عليقليخان أن يفعلا ؟ » [١] .

سافر سلطـــان حسين خان كمبعوث ثالث إلى هراة ، وطا
عليقليخان بتسليمه عباس ميرزا لـكى يعود به إلى قزوين ، ولـكن
جمع أمراء خراسان المتآمرين معه ، وعقدوا مؤتمرا ناقشوا فيه مطا
حسين خان ، واتفقوا على عدم السماح لعباس ميرزا بالتوجه صوب
كانت العواقب [٢] .

تملـكت الحيرة سلطان حسين خان بعد هذا الرفض ، إذ كيف
العاصمة قزوين دون عباس ميرزا ؟ وبخاصة بعد أن قالت له مهد عليا
سفره : إن فشلت فى اقناع ابنك عليقليخان فى الإفراج عن عباس
إلى قزوين ، فلاداعى لعودتك أنت الآخر ، ولتبق فى خراسان كذلك
وأمام هذا التحذير بقى سلطان حسين خان فى هراة فترة يحاول إقناع
ولـكن دون جدوى ، فانتظر هناك لعل الأحداث تنفرج عن حل يخلص
هذا المأزق ! .

لم يطل انتظاره وترقبه ، فقد جاءته الأنباء بأن أمراء القزلباش فى
قد فتـكوا بمهد عليا زوجة الشاه محمد خدابنده ، وقتلوا معها والد
من أقاربها وأهل قبيلتها وذلك فى يوم الأحد الموافق الأول من جمادى
عام ٩٨٧ هـ (١٥٨٠ م) ، حيث أقلقهم نفوذها وتدخلها فى كل شئ

---

(١) ملحقات تاريخ روضه الصفاناصرى . ج ٨ ، ص : ١٩٥
(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٣) زندگانى شاه عباس اول ، ج : ١ ، ص : ٤٥ —

...ها على زوجها عديم الإرادة[1] .

وبوصول هذه الأنباء إلى هراة ، توقف سلطان حسين خان عن مطالبة ...عليقليخان بتسليمه عباس ميرزا ، وعاد بمفرده إلى قزوين دون خشية من محمد خدابنده الذى كان فى درجة من الضعف لا تسمح له بمحاسبة ...

...لاحظ من سرد أحداث هذه القصة كيف كانت إيران تحكم قبل عصر ... : سلطان ضعيف لا يقوى على تصريف أى أمر من أمور دولته ، بل ومن ...سرته ، فى مقابل ذلك سطوة لا حدود لها لأمراء القزلباش ، ومحاولة كل ...نهم الاستقلال إن أمكن بالإقليم الذى يتمركزون فيه ، ومن المسلم ... هذا الوضع سيؤدى إلى تطاحن وحروب بين طوائف القزلباش ... ، سواء فى داخل الإقليم الواحد ، وسواء بين طوائف القزلباش فى ... المختلفة ، وهذا ماسنراه واضحاً خلال سرد الأحداث بعد ذلك .

— ٥ —

...نصيب عباس ملكا فى هراة :

سبق أن ذكرنا أثناء سرد وقائع قصة احتجاز عباس فى هراة أن ...جر بين عليقليخان حاكم هراة ، ومرتضى قليخان حاكم مشهد ، وقد ...ى هذا الخلاف إلى وجود معسكرين فى خراسان : أحدهما معسكر عليقليخان ... مرشد قليخان وجميع أمراء القزلباش من طائفتى شاملو واستاجلو ، ... معسكر مرتضى قليخان ويؤازره بعض الأمراء المحيطين بمشهد ، وقد

---

(1) تاريخ ادبيات إيران از آغاز عهد صفويه تازمان حاضر ، ص : ٩٨

احتدم النزاع بين المعسكرين حتى وصل إلى الحرب المسلحة ، فتقدمت
عليقليخان ومرشد قليخان صوب مشهد والتقت بجيش مرتضى قلي
مشارفها ، وكان النصر حليف الجيوش المتقدمة ، مما اضطر مرتضى
إلى التراجع والاحتماء بمشهد نفسها . فتقدمت الجيوش المنتصرة
مشهد مدة أربعة أشهر دون أن تنجح فى اقتحامها[١] .

وأمام منعة مشهد اضطرت جيوش عليقليخان ومرشد قليخان
الحصار ، والتوجه صوب نيسابور المتحدة مع مشهد ، بغية الاستيلاء
ولكن حاكمها استطاع أن يحميها من هجومهم ، فارتدوا عنها دون
باحتلالها .[٢]

هذه الأحداث كانت ذات صدى فى العاصمة قزوين ، حيث
القزلباش هناك بأن عليقليخان قد تجاوز كل حـــدوده ، وأنه
أعوانهم فى خراسان ، فصمموا على الانتقام منه فى شخص والديه
القبض على سلطان حسين خان وزوجته ، ونفذوا فيهما حكم الإعدام
مما زاد الموقف سوءاً فى خراسان ، حيث جاهر عليقليخان بعدائه
للبلاط وأمراء القزلباش بالعاصمة ، وأقدم على تنفيذ خطوة جريئة
إعلان تنصيب عباس ملكا على خراسان كلها ، وذلك فى عام
(١٥٨٢ م) وأطلق عليه اسم الشاه عباس ، وقرأ باسمه الخطبة[٤] .

لاشك أن إقدام عليقليخان على إعلان عباس ملكا فى خراسان

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصرى ج ٨ ، ص : ٢٠٢
(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة .
(٣) زندگانى شاه عباس أول ، ج ١ ، ص : ٦٢
(٤) تاريخ ايران از مغول تاافشاريه ، ص : ٣٠٨

نتيجة لمقتل والديه فقط ، بل كانت هناك عوامل أخرى شجعت على اتخاذ هذا القرار ، وأهمها .

١ – ضعف الشاه محمد خدابنده ، وبخاصة بعد مقتل زوجته مهد عليا .

٢ – انغماس ولى العهد حمزة ميرزا فى لهوه وعبثه ، وعدم اكتراثه بأمور الدولة ، وعدم حرصه على مساعدة أبيه ضد الأخطار المحيطة به فى الداخل والخارج (١) .

٣ – انشغال الجيش الصفوى بصد هجوم عثمانى متقدم فى آذربايجان ، مما يجعل الفرصة سانحة لعليقليخان ليتخذ قراره دون خوف أو وجل .

٤ – كان هدف عليقليخان منذ وصوله إلى هراة يتمثل فى محاولة التسلط وفرض نفوذه على المنطقة كلها ، وجمع الأعوان حوله ، وقد وضح هدفه هذا من احتجازه لعباس ميرزا فى هراة ، ومن تجميعه أمراء القزلباش من طائفتى شاملو واستاجلو حوله ، وانتخابهم له ليكون رئيساً عاما لهم .

بإعلان عباس ملكا ، أصبح للدولة الصفوية – ولأول مرة فى تاريخها – ملكان ، أحدهما الشاه محمد خدابنده الحاكم الشرعى للدولة كلها ومقره قزوين ، وثانيهما ابنه عباس الذى نصبه عليقليخان ملكا عل خراسان ، ومقره هراة ، والنتيجة المتوقعة أن يندلع الصراع الحربى بينهما ، ويكون الصراع فرصة لأعداء الدولة الصفوية فى الداخل والخارج للتطاول على سيادتها وأملاكها ، مما يزيد الأحوال سوءاً ، ويهدد الدولة كلها بالزوال والاندثار .

وما أن وصلت أنباء هراة إلى الشاه محمد خدابنده وهو مشغول بمحاربة

---

(١) نفس المرجع السابق ، ونفس الصفحة

العثمانيين ، حتى آثر عقد صلح مع العدو الخارجى لكى يتفرغ لهذا الخطر الداخلى ، وأعد جيشه عدته للتوجه إلى خراسان لقمع الفتنة قبل أن يستفحل خطرها ، كما أخذ عليقليخان ومرشدقليخان ومؤيدهما يستعدون للقاء جيش قزوين وفعلا تقدمت جيوش خراسان للقاء جيش قزوين فى سبزوار، ولكن ما أن أقترب الشاه محمد خدابنده بجيشه حتى شعرت جيوش خراسان بأنه لا قبل لها بمحاربة الجيش المتقدم الذى يفوقها عدداً وعدة ، وتراجع كل جيش من جيوش خراسان إلى مقر حكمه ، فرجع مرشد قليخان وعسكر فى قلعة « تربة » ، وعاد عليقليخان أدراجه وعسكر فى قلعة هراة . فتقدم جيش الشاه محمد خدابنده أولا إلى قلعة تربة وحاصرها مدة ستة أشهر دون أن يتمكن من الاستيلاء عليها ، فتوسط بعض الأمراء بين الشاه وبين مرشد قليخان حتى تم الصلح بينهما، بشرط أن يسحب مرشد قليخان اعترافه بعباس ويعلن خضوعه للشاه محمدخدابنده ، ثم مثل أمامه ، فأمنه الشاه على نفسه وعلى مركزه وأعاده إلى حكم منطقته مرة أخرى (١) .

بعد ذلك تقدم جيش قزوين صوب هراة ، فالتقى بمقــدمات جيش عليقليخان وانتصر عليها فى بعض المعارك الصغرى ، ثم واصل تقدمه حتى حاصر قلعة هراة حيث يوجد عليقليخان وعباس ، واستمر الحصار مدةشهرين وقد فكر ميرزا سليمان وزير الشاه محمد خدابنده فى خطة مؤداها أن يصعد الجنود ذات ليلة السلالم، ليفاجئوا جنود عليقليخان وعباس بالداخل، ولكن أعداء هذا الوزير أبلغوا عليقليخان بالخطة عن طريق رسالة أرسلت بسهم إلى داخل القلعة ؛ (٢) مما أدى إلى فشل الخطة .

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصرى ، جـ ٨ ، ص : ٢١٦

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، حـ ١ ، ص : ٧٦

ثم حدث أثناء الحصار أن تقدمت الجيوش العثمانية صوب آذر بايجان واستولت على أجزاء منها ، مما كان يتحتم معه على الشاه محمد خدابنده وجيشه العودة لصد هذا الهجوم العثمانى ، لذا بدت فى الأفق بوادر صلح بين الجانبين ، فأرسل عليقليخان ابنه إلى معسكر الشاه محمد خدابنده ليقدم فروض الطاعة والمعاذير ، ويطالبه بفك الحصار عن قلعة هراة ، فأحسن الشاه استقباله وقبل اعتذار أبيه(١) ، ثم أصدر الشـــاه أوامره بتثبيت ابنه عباس على حكم خراسان كلها من قبله ، وأن يظل عليقليخان واصيا عليه(٢) ، كما أمر بعزل مرتضى قليخان عن حكم مشهد(٣) حتى لا تتجدد الاضطرابات فى منطقة خراسان ، فى مقابل أن يعيد عليقليخان اسم الشاه محمد خدابنده إلى الخطبة فى خراسان ، وتسك النقود باسمه ، وأن يعترف عليقليخان وعباس ميرزا بولاية العهد لحمزة ميرزا(٤) .

بعد أن اطمان الشاه محمد خدابنده على إخماد فتنة عليقليخان ، وابنه عباس ميرزا ؛ سارع بالعودة إلى العاصمة استعدادا لصد الهجوم العثمانى على آذر بايجان ، وقد وصل إلى العاصمة فى جمادى الأولى عام ٩٩١ هـ .

هدأت الاحوال فى خراسان بعض الوقت بعد عودة الشاه إلى قزوين ، وانتصاره على فتنة ابنه عباس والمتآمرين معه ، ولكن على الرغم من هذا الانتصار فإننا نلاحظ أن عباس بقى فى خراسان وباعتراف من الشاه نفسه ، بعد أن حاول فى حياة زوجته مهد عليا استعادته إلى قزوين وفشل فى ذلك ،

---

[١] ملحقات تاريخ روضة الصفاناصرى ج ٨ ، ص : ٢٠٢

[٢] تاريخ ايران از مغول تاافشاريه . ص: ٣٠٨

[٣] زندگانى شاه عباس أول ، ج ١ ، ص : ٧٧

[٤] المرجع السابق ، ونفس الصفحة

وبقاؤه فى خراسان معناه احتمال معاودة التآمر ضد الشاه ، وهذا ما حدث وسنعرفه بعد ذلك ، كما أحرز عليقليخان بعض المكاسب ، حيث عينه الشاه بأمر شرعى منه وصيا على ابنه عباس ميرزا ، ومعنى ذلك أنه كوصى على عباس قد اكتسب شرعية فى أن يكون صاحب الكلمة الأولى فى خراسان كلها لا فى هراة وحدها ، وبخاصة أنه نجح فى دفع الشاه محمد خدابنده لعزل مرتضى قليخان عن حكم مشهد ، وبذلك خلت خراسان من أى قوة مناوئة له ، ولكن على الرغم من ذلك لم يواته الحظ كما كان يأمل ، بل سار الحظ فى ركاب رفيقه مرشد قليخان ، فما أسباب هذا التحول ؟

— ٦ —

عباس ميرزا فى مشهد :

ما أن عاد الشاه محمد خدابنده إلى قزوين ، حتى عاد مرشد قليخان إلى شق عصا الطاعة ، فتقدم صوب مشهد وطرد منها (سلمانخان) حاكمها من قبل الشاه محمد خدابنده وذلك عام ٩٩٢ هـ ، كما سيطر على بعض المناطق المجاورة لمنطقة نفوذه الأصلية فى خواف وباخرز ، ووزعها على أقاربه من أمراء طائفة استاجلو[١]

وبعد أن شعر باتساع نفوذه ، بدأ يخطط لنقل عباس ميرزا من هراة إلى مشهد لتكون له الوصاية عليه ، وتكون الكلمة الأولى فى خراسان كلها له ، لذا نراه يحاول أن يدعو عباس ميرزا إلى زيارة الأعتاب المقدسة فى مشهد ، حتى يروح عن نفسه[٢] ، فبدأت الشكوك تساور عليقليخان فى

---

[١] زندگانى شاه عباس أول ، ص : ١١٦

[٢] تاريخ ايران از مغول تاافشاريه ، ص : ٣٠٩

نوايا مرشد قليخان ، وماذا يبغيه من وراء دعواته المتكررة لعباس ميرزا لزيارة مشهد ، وزادت شكوكه عندما وصلته رسالة من مرشدقليخان يدعوه ومعه عباس ميرزا للحضور إلى مشهد للتشاور معاً فى تسخير أجزاء خراسان الغربية حتى حدود دامغان وبسطام واستراباد ، فتملك الضيق عليقليخان من هذه الدعوة ، إذ كيف يجرؤ مرشد قليخان على دعوته وعباس المثول لديه فى مشهد ، والمفروض أنه يأتمر بأمره ، ويمثل هو فى هراة ويقدم له ولعباس ميرزا فروض الطاعة ، لذا سارع عليقليخان بتوجيه رسالة إليه يدعوه فيها الحضور إلى هراة لكى يقدم فروض الطاعة .

كتم مرشدقليخان حقده ونواياه وسافر إلى هراة ، وهناك جرت محاولة لاغتياله مما جعله يطلب العودة فورا إلى مشهد على الرغم من اعتذار عليقليخان بأن ماحدث لم يكن على علم به [١] ، وأخيراً عاد إلى مشهد واحتدم الصراع بين الطرفين ، ثم تطور النزاع إلى حد الاستعداد للحرب ، وأخيراً التقى جيش هراة وجيش مشهد فى معركة وقعت على الطريق بين المدينتين عند بلدة تسمى (سوسفيد) .

وأثناء احتدام القتال بينهما ، حدث حادث مفاجىء غير سير الأحداث فى خراسان وإيران كلها بعد ذلك . فقد ذكر البعض بأن عباس ميرزا كان موجودا مع عليقليخان فى هذه الحرب ، فأوصى مرشد قليخان بعض جنوده بمحاولة اختطاف عباس ميرزا ، وقد واتتهم الفرصة عندما طعن فرس عباس فى المعركة ، وترجل عنه وضل طريق عودته صوب عليقليخان ، فألقى جنود مرشد قليخان القبض عليه وأسروه ، وأخذوه صوب مرشد قليخان الذى

---

[١] زندگانى شاه عباس أول ، ص : ١١٧

سارع بإرساله إلى مشهد ليكون تحت وصايته بعد ذلك.[1] وقد حاول عليقليخان استمادته أو قتله ولكن دون جدوى.

وبعد أن ظفر مرشد قليخان بوجود عباس ميرزا فى مشهد حاول أن يعيد الوئام بينه وبين عليقليخان، فراسله يدعوه للحضور إلى مشهد للتصالح والتعاهد على الود مرة أخرى، كما أفرج عن الأسرى من طائفة شاملو وقلد من رغب منهم البقاء فى مشهد مناصب هامة فى بلاط خراسان بتشهد ونصب بعضهم مناصب قيادية فى جيش عباس، وعلى الرغم من كل ذلك رفض عليقليخان دعوته، فأقدم مرشد قليخان على عقد مؤتمر كبير فى « كوه سنگين » أحد متنزهات مشهد وذلك فى بداية عام ٩٩٤ هـ، حيث أعاد فيه تنصيب عباس ملكا على خراسان وخطب له وسك النقود باسمه وأطلق على نفسه نائب السلطنة، وقد ساعده فى ذلك انشغال محمد خدابنده وحمزة ميرزا فى محاربة العثمانيين بآذربايجان.[2]

وهكذا انتقل عباس ميرزا للعيش فى مشهد بعد أن قضى فى هراة أربعة عشر عاما، إذ ولد بها عام ٩٧٨ هـ ولم يغادرها إلا بعد أسره فى معركة سوسفيد عام ٩٩٢ هـ، وبانتقاله إلى مشهد يكون قد انتقل إلى وصاية مرشد قليخان، الذى أصبح بوصايته على عباس ميرزا أكبر أمراء خراسان نفوذا وقوة، مما أوجد سوء تفاهم دائم بينه وبين عليقليخان، ولم ينقض سوء التفاهم هذا إلا بمقتلهما بعد ذلك، كما أن انتقال عباس إلى مشهد، نقل مركز الأحداث فى خراسان من هراة إلى مشهد، وضاعت معه آمال عليقليخان فى استخدام عباس كورقة رابحة قد تصل بينه وبين الحكومة المركزية

(1) Sir Percy Syikes: A History of Persia, Vol II, London 1951, p. 173.

[٢] زندگانى شاه عباس أول ج ١، ص ١٢٠

إذا نجح فى فرض عباس ملكا على الدولة الصفوية كلها ، وانتقلت تلك الآمال إلى الوصى الجديد مرشد قليخان الذى نجح فيما لم ينجح فيه عليقليخان ، كما سنعرف من تطور الأحداث بعد ذلك .

— ٧ —

النزاع حول ولاية العهد .

كانت الأحوال فى العاصمة قزوين إبان حكم الشاه محمد خدابنده تتسم بعدم الاستقرار والاضطراب ، مما أدى إلى وجود مزيد من الاغتيالات فكلما شعر قواد القزلباش بوجود شخصية قوية من بين أفراد أسرة الشاة ، يمكن أن تقف فى طريقهم وتحد من تسلطهم ،سارعوا باغتيالها، وهذا ماحدث لكل من پريخان خانم أخت الشاه ، ثم زوجته مهد عليا ، وأخيرا تم اغتيال ولى العهد حمزة ميرزا فى ٢٢ من ذى الحجة عام ٩٩٤ هـ[١].

وما أن اغتيل ولى العهد حتى عمت الاضطرابات جميع مدن إيران ، وزاد الجدل حول من سيكون ولى العهد الجديد من بين أبناء محمد خدابنده الباقين على قيد الحياة ، وهم حسب ترتيب أعمارهم عباس ميرزا ، وأبوطالب ميرزا ، وطهماسب ميرزا ، وكان الشاه يتطلع إلى أن يباشر الحكم بنفسه ، وألا يولى أحد أولاده ولاية العهد ، لأنه لو أسند ولاية العهد إلى ابنه عباس فسيجعل الكلمة بعد ذلك لقواد طائفتى استاجلو وشاملو ، وسيغضب الطوائف المتمركزة فى العاصمة قزوين ، وإذا أسند ولاية العهد إلى أبى طالب أو إلى طهماسب ،فإنه سيغضب ابنه عباس والطوائف المؤيدة له ، وبالتالى فإن إقدامه على تعيين أى ولى للعهد سيثير الفتن والاضطرابات من جديد ، وقد خاطب

[١] تاريخ أدبيات إيران أز اغاز عهد صفوية تازمان حاضر ، ص ٩٧

قوادة فى ذلك ، فلم يوافقوه رأيه ، وقالوا له ، لابد من تعيين ولى للعهد لأن ضرير لا يستطيع سياسة أمور الدولة .[١]

وقد انقسم الأمراء والقواد إلى مجموعتين ، مجموعة ترى أن تسند ولاية العهد إلى الابن الأكبر عباس ميرزا الموجود فى خراسان ، ومجموعة أخرى ترى أن يسند المنصب إلى أبى طالب المقيم فى قزوين ، ثم برزت جماعة ثالثة رأت عدم الإضرار بأيهما ، على أن تقسم ولاية العهد بينهما ، فتقسم أراضى الدولة الصفوية إلى قسمين ، وتعهد ولاية عهد كل قسم منهما إلى أمير من هذين الأميرين[٢] . ولكن الرأى الأخير كان خافتاً ولم يتردد كثيرا .

أما عن الجماعة التى رأت أن تسند ولاية العهد إلى أبى طالب فتتمثل فى بعض طوائف القزلباش المتمركزة فى قزوين ، وكان هدفها من ذلك فرض نفوذها على مجرى الأحداث فى الدولة كلها ، وذلك لضعف الشاه محمد خدابنده ، ولحداثة سن أبى طالب المرشح لولاية العهد ، كما أنها رأت أن تبعد عباس عن ولاية العهد حتى لا تعطى الفرصة لأمراء القزلباش من طائفتى استاجلو وشاملو للوصول إلى العاصمة فى حالة تولى عباس العرش ، مما يقضى على مكاسبها وسطوتها ، وقد تزعم هذا الاتجاه إمامقليخان فى قزوين[٣] .

واحتج أصحاب هذا الرأى ببعض الحجج الواهية ، ومنها أن حمزة ميرزا كان قد أوصى قبل وفاته ، بأن تعهد ولاية العهد من بعده لأخيه أبى طالب ، وعلى هذا يجب أن تنفذ وصيته ، ويستبعد عباس من ولاية

---

[١] زندگانى شاه عباس أول ج ١ ، ص : ١١٤

[٢] تاريخ ايران ازمغول تاافشاريه ، ص : ٣٠٩

[٣] أحمد تاج بخش [دكتور] : ايران در زمان صفويه ، تبريز ١٣٤٠ ش ، ص : ٥١ .

العهد[١] . كما احتجوا أيضاً بأن عباس قد عاش طيلة حياته فى خراسان ، ومن الأفضل له وللدولة أن يظل هناك ، ولا داعى لمزيد من المشاكل وإسناد ولاية العهد له ، وإنما الأجـدر بها من عاش بقزوين طيلة حياته وهو أبو طالب[٢] .

أما الجناح المضاد الذى رأى ضرورة إسناد هذا المنصب للابن الأكبر عباس ميرزا ، فقد كان يتمثل أولا فى أمراء القزلباش من طائفتى استاجلو وشاملو المتواجدين فى خراسان ، وانضم إليهم بعض أمراء طائفتى التركمان وتكلو فى قزوين وما جاورها ، وكذلك مرتضى قليخان وأبناؤه فى دامغان ، على الرغم من عدائهم السابق لكل من مرشد قليخان استاجلو ، وعليقليخان شاملو[٣] ، وانضم إلى مؤيدى عباس حكام كاشان وكرمان ويزد وأصفهان[٤] .

ولكن على الرغم من كثرة المؤيدين لعباس ميرزا ، فقد استطاع الجناح الآخر إجبار الشاه محمد خدابنده ، على إصدار أوامره بأن يتولى ولاية العهد لابنه أبو طالب ، متخطيا بذلك حق الابن الأكبر عباس ميرزا ، وكان لهذا القرار أثره الكبير فى زيادة الاضطراب فى الدولة ، بل إنه أدى إلى عزل الشاه محمد خدابنده نفسه بعد ذلك .

---

[١] زندگانى شاه عباس أول ، ج ١ ، ص ١١٤٠

[٣] ايران در زمان صفويه ، ص ٥١

[٣] نفس المرجع ونفس الصفحة

[٤] زندگانى شاه عباس اول ، ج ١ ، ص : ١٢١

— ٨ —

تحرك عباس صوب قزوين :

سبق أن ذكرت أنه بعد موت حمزة ميرزا ، اضطربت الأحوال فى إيران ، واختلاف أمراء القزلباش حول شخصية ولى العهد ، ففكر مرشد قليخان فى استطلاع أحوال قزوين ، لذا أرسل رسولا من قبل عباس ميرزا إلى العاصمة ليقدم مراسم العزاء إلى أبيه الشاه محمد خدا بنده فى وفاة حمزة ميرزا ، وقد حمل مرشد قليخان هذا الرسول عدة رسائل موجهة إلى رؤساء طوائف القزلباش فى قزوين يدعوهم إلى الألفة والمحبة ، ونبذ الخلافات وضرورة الاتفاق على المناداة بعباس وليا للعهد .(١)

ومن المؤكد أن الغرض الرئيسى الذى كان يهدف إليه مرشد قليخان من سفر هذا المبعوث إلى قزوين ، يتلخص فى استطلاع أحوال العاصمة وكيف تساس الأمور هناك ، حتى يستطيع أن يتصرف على بينة ، ويرسم خططه على أساس الإفادة من مواطن الضعف فى العاصمة .

وأخيرا عاد رسول عباس ، ومرشد قليخان من العاصمة يحمل نبأ رفض أمراء القزلباش اختيار عباس وليا للعهد ، وإعطاءهم المنصب لأبى طالب ميرزا ، ولكن أهم ماعاد به هو اطلاعه على أحوال قزوين وما يكتنفها من اضطرابات وضعف . وأمام هذه الأنباء أدرك مرشد قليخان أن الفرصة سانحة للتقدم صوب قزوين والإطاحة بالشاه محمد خدا بنده ، وتنصيب عباس مكانه وقد شجع مرشد قليخان على التوجه صوب العاصمة ـ إلى جانب سوء الاضطراب هناك ـ عدة عوامل منها انشغال محمد خدا بنده خارج العاصمة ،

[١] ايران در زمان صفويه ، ٥١

حيث كان موجودا باصفهان [١] ، وكذلك الهجوم المفاجىء الذى يشنه الأوزبك على المناطق الشرقية من خراسان ، وتقدمهم صوب هراة ، فكان مرشدقليخان يخشى تقدمهم صوب مشهد ، لذا آثر سرعة الحركة للابتعاد عن خراسان ، ومع ذلك فقد أفاد من هجومهم هذا عند بداية تحركه حيث أعلن أنه خارج ومعه عباس ميرزا وجيشهما لصد الهجوم الأوزبكى ودفعه خارج خراسان [٢] ، ولكنه بعد ذلك توجه صوب قزوين لا صوب هراة ، كما سبق أن أعلن .

بدأت رحلة عباس ومرشد قليخان فى بداية عام ٩٩٦ هـ [٣] (١٥٨٧م) وقد بلغ عدد الجيش المرافق لهما خمسمائة وستين جندى [٤] وسلكت الرحلة طريق دامغان وسمنان ، وعند وصولهم إلى دامغان انضم إليهم أبناء مرتضى قليخان ، كما أحسن حاكم سمنان استقبالهم ، وفى كل مدينة كانوا يمرون بها كان عدد من الجنود ينضمون إلى جند عباس ، مما كان يزيدهم قوة وتفاؤلا بتحقيق النصر والاستيلاء على قزوين ، وقد ذكر البعض أن عدد جيش عباس وصل وهو على مشارف قزوين إلى ألفى فارس وجندى [٥] ، أى مايعادل أربعة أضعاف من خرجوا معه من مشهد .

وبعد استقبالهم الحافل فى سمنان ، واصلوا السير حتى بسطام ، وهناك كتب مرشد قليخان وعباس رسالة إلى حاكم قزوين يطالبانه فيها بالاستعداد لاستقبال عباس وتسليمه المدينة ، فإذا بحاكم قزوين يلجأ إلى ممالأة كل من الابن والأب معا ، إذ أرسل رسالة إلى الشاه محمد خدابنده

---

[١] إيران در زمان صفويه ، ص: ٥٢
[٢] تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٠٩
[٣] زندگانى شاه عباس أول جـ ١ ، ص. ١٢٨
[٤] ملحقات تازيخ روصه الصفا ، جـ ٨ ، ص: ٢٣٢
[٥] زندگانى شاه عباس أول ، جـ ١ ، ص : ١٢٩

فى أصفهان يدعوه إلى العودة بسرعة إلى قزوين قبل أن يصلها عباس أرسل - فى نفس الوقت - رسالة إلى عباس ومرشد قليخان يرحب بمقدمهما ، واستعداده لتقديم فروض الطاعة والولاء لعباس[1] اتخذ حاكم قزوين هذا الإجراء لكى يضمن بقاءه فى منصبه إذا نجح الوالد أو الابن فى الوصول أولا إلى قزوين ، والتغلب على الجناح المضاد له.

وما أن وصلت رسالة حاكم قزوين إلى عباس حتى سارع بالتوجه صوب العاصمة ودخلها قبل أبيه فى عشرة من ذى القعدة عام ٩٩٦ هـ (١٥٨٨م) دون مشقة أو قتال[2] وبمجرد دخولهم المدينة أعلن مرشد قليخان تنصيب عباس كشاه جديد للدولة الصفوية ، كما أعلن تعيين نفسه نائبا للسلطنة للشاه عباس[3].

وهكذا كللت رحلة عباس ومرشد قليخان بالنجاح ، فظفر عباس بالسلطنة وظفر مرشد قليخان بمنصب نائب السلطنة ، مما جعل موقف الشاه محمد خدابنده صعبا ؛ فإما أن يحاول اقتحام العاصمة والدخول فى حرب مع ابنه ومرشده وإما أن يسلم بالأمر الواقع ، ويتنازل عن العرش للشاه عباس ، ويتوارى عن الظهور على مسرح الأحداث ، فإلام انتهى الموقف بينهما ؟.

— ٩ —

تتويج الشاه عباس الأول :

بعد أن نجح مرشد قليخان فى تنصيب الشاه عباس ، كان لزاما عليه أن

---

[١] المرجع السابق ونفس الصفحة

[٢] إيران در زمان صفويه ، ص : ٥٢

[٣] ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٢٣٢

يستعد للقاء قواد القزلباش المناصرين للشاه محمد خدابنده ، إذا فكروا فى مهاجمة قزوين والإطاحة بالشاه عباس ومؤيديه ، ولذا نجده يكلف أحد قواده ويدعى « پيرغيب استاجلو » بالتوجه على رأس قوة كبيرة من الجند صوب الطريق الموصل بين قزوين وأصفهان - حيث كان يوجد الشاه محمد خدا بنده - لكى يتصدى لأى هجوم محتمل من جيش العراق [1] المناصر للشاه المخلوع [2].

أما عن الشاه محمد خدا بنده ، فبمجرد أن وصلته — وهو فى اصفهان — أنباء تقدم عباس ومرشد قليخان صوب العاصمة قزوين ، وذلك من خلال الرسالة التى بعث بها حاكم قزوين إليه ، يدعوه فيها إلى العودة إلى العاصمة قبل وصول عباس إليها ، فإنه سارع بالعودة ومعه ولى عهده أبو طالب ميرزا [3] وعندما اقترب من مدينة قم أرسل يستدعى حاكمها ليقدم فروض الطاعة والولاء ، ولكن هذا الحاكم المؤيد لمعسكر الشاه عباس ومرشد قليخان ، رد على استدعاء محمد خدا بنده بإغلاق أبواب المدينة فى وجهه ، ورفض السماح لجيش العراق دخول مدينته [4].

وعندما أدرك الشاه محمد خدا بنده وقواده أن عودتهم إلى قزوين لن تكون بالأمر الهين ، وأن الشاه عباس قد سبقهم إليها وتم تنصيبه ، أخذوا يتشاورون فى الأمر ، وانقسمت الآراء حول الخطوة التالية بعد منعهم من

---

[١] يقصد بجيش العراق ، الجيش المكون من طوائف القزلباش المتركزة فى مناطق قزوين واصفهان وهمدان وأجزاء إيران الغربية ، وذلك تمييزا له عن جيش خراسان المكون من طوائف القزلباش المتمركزة فى هراة ومشهد وغيرهما من مدن خراسان المختلفة

[٢] زندگانى شاه عباس أول ، جـ ١ ، ص : ١٢٩

[٣] تاريخ إيران از مغول تا افشارية ، ص : ٣١٠

[٤] ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٢٣٢

دخول قم ، فرأى بعض قواده العدول عن التوجه صوب قزوين « [illegible]
مسارهم نحو همدان ، واتخاذها عاصمة جديدة للدولة الصفوية تحت حكم [illegible]
محمد خدا بنده ، وحجتهم فى ذلك أن خزانة الدولة معهم ، وبدون الأموال
لن يستطيع مرشد قليخان وعباس تصريف الأمور فى قزوين ، وسيضطر
ماهم فيه من فقر إلى الرضوخ والإذعان ، مما سيقضى على فتنتهم دون حرب
أوعراك [١] .

أما الرأى الآخر ، فقد صمم أصحابه على ضرورة التوجه صوب قزوين
والتصدى لمرشد قليخان وعباس والقضاء عليهما وعلى أعوانهما ، لأن ترك
العاصمة لسيطرة مرشد قليخان قد يقضى على نفوذهم وسيطرتهم نهائيا .

وأخيراً تغلب أصحاب الرأى الثانى ، وأخذ جيش الشاه محمد خدابنده
يستعد للهجوم على قزوين ، ولكن حدث أثناء استعدادهم ما أدى إلى [illegible]
كل خططهم ، حيث وصل إلى مسامع جنده تحذير مرشدقليخان الذى قال
فيه : من لم يعد من هؤلاء الجنود بسرعة إلى العاصمة قزوين وقد تخلى عن
سلاحه ، وأعلن موافقته على اعتلاء عباس عرش الصفويين ، فإن جند الشاه
سيستولون على ممتلكاته وأمتعته ودياره وزوجته [٢] .

وأمام هذا التحذير بدأ جنود الشاه محمد خدابنده يتخلون عن
مناصرته ، ويحاولون الإسراع الى قزوين ليطمئنوا على ذويهم وديارهم
وبخاصة أنهم تركوهم منذ فترة ليست بالقصيرة ، ولم تمض فترة وجيزة حتى
انخفض عدد جنود الشاه المعزول من ثلاثين ألف جندى إلى عشرة آلاف
جندى فقط [٣] .

---

[١] زندگانى شاه عباس ، جـ١ ص ١٣٠ .

(٢) A History of Persia Vol II, p.173.

[٣] زندگانى شاه عباس أول ، جـ١ ، ص ١٣١ .

وبعد أن أدرك أمراء القزلباش المحيطون بالشاه محمد خدا بنده صعوبة الموقف بالنسبة لهم ، وللشاه ، وبعد انسحاب معظم جنودهم ، بدأوا يبحثون عن حيلة يمكن أن تحفظ لهم بعض نفوذهم وسيطرتهم في قزوين ، فاقترحوا على الشاه محمد خدا بنده التوجه صوب العاصمة وإعلان تنازله عن الحكم لابنه الشاه عباس الأول ، عملا بالمبدأ القائل « من الأفضل للشيخ أن يسلم النوبة إلى الشاب » (١) ، كما أن أعداء إيران من الأوزبك والعثمانيين قد استباحوا أرضها واحتلوا أجزاء كثيرة منها ، فإذا استمر النزاع بين الابن والأب حول العرش فإن الفرصة مواتية لهؤلاء الأعداء لزيادة المساحات التي يسيطرون عليها ، وعلى هذا فصوت العقل يدعو إلى أن يتولى زمام الأمور الأقوى وهو الشاه عباس حتى تستطيع إيران أن تقف أمام هؤلاء الغزاة في الشرق والغرب (٢) .

ولعل صوت العقل هذا لم يكن إلا محاولة من أمراء القزلباش المحيطين بالسلطان محمد خدا بنده للتظاهر بتأييدهم للشاه الجديد عباس الأول ، حتى يضمنوا الانضمام إلى كفته الراجحة ، انتظارا لما تسفر عنه الأحداث ، لعلهم يجدون الفرصة للإطاحة بمرشد قليخان ، وبعدها يحيطون بالشاه عباس ، ويسيطرون على مجرى الأمور كما كان الحال مع الشاه المعزول محمد خدابنده .

وهكذا وجد السلطان محمد خدا بنده نفسه مضطرا لقبول الأمر الواقع والتقدم صوب قزوين لا لكي يسترد عرشا ضاع ، ولكن ليعلن تنازله الرسمي عن الحكم لابنه الشاه عباس الأول ، وعندما وصل إلى مشارف العاصمة ومعه ابنه أبو طالب ميرزا ، كان الشاه عباس في استقبالهما ، فرحب بمقدمهما ،

---

(١) تاريخ إيران آز مغول تاافشاريه ، ص : ٣١٠

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص ٥٢ ، زندگانى شاه عباس أول ج ١ ، ص ١٣١ .

وأقبل على والده مقبلا يده ، وربت على كتف أخيه أبى طالب [(١)] .

وفى هذه الأثناء كان مرشد قليخان قد جمع رؤساء القزلباش والأمراء فى عمارة « چهل ستون » مقر الحكم فى قزوين ، وأعد العدة لتتويج الشاه عباس رسميا ، بعد أن تم تنصيبه فعليا منذ فترة ، فتقدم الشاه عباس وهو يمسك بيد والده السلطان محمد خدا بنده . وعندما وصلا إلى كرسى العرش جلس الشاه عباس وخلع السلطان محمد خدا بنده التاج عن رأسه ووضعه على رأس ابنه [(٢)] كما قام بتسليمه ودائع الأسرة الصفوية ونفائسها كما تنص على ذلك قوانين الوراثة ونظام انتقال السلطة فى الدولة الصفوية من حاكم إلى من يليه [(٣)] .

وهكذا أصبح الشاه عباس ملكا متوجا بطريقة شرعية منذ ذلك اليوم بعد أن كان يعرف قبل ذلك بشاه خراسان ، عندما نصبه مرشد قليخان فى عام ٩٩٤ ﻫ فى مدينة مشهد . ولكن متى تم هذا التتويج الشرعى ؟

اختلف المؤرخون حول تحديد التاريخ الحقيقى لتتويج الشاه عباس الأول إذ ذكر البعض بأنه توج فى أوائل شهر ذى القعدة من عام ٩٩٥ ﻫ (١٥٨٧م) [(٤)] وقال آخرون إنه توج فى شهر ذى الحجة من عام ٩٩٦ ﻫ (١٥٨٨ م) [(٥)] إلى غير ذلك من التواريخ المتأرجحة بين شهور هذين العامين ، وقد أشار الأستاذ نصر الله فلسفى إلى هذا التضارب فى قوله :

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصرى ، ﺣ ٨ ، ص : ٢٣٤

(٢) إيران در زمان صفويه ، ٥٢

(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا ﺟ ٨ ص : ٢٣٤

(٤) أنظر تاريخ إيران آز مغول تا افشارية ، ص : ٣١١ ، دائرة معارف البستان ﺣ ١١ ، ص ٤٨٥

History of Persia Vol II, p. 174

(٥) تاريخ ادبيات اذ آغاز ايام عهد صفويه تازمان حاضر ، ص: ٩٧ ، مجله يادگار ، سال سوم ، شمارة درم مهرماه : ١٣٢٥ ، ص ١٣

«إن التاريخ الصحيح لتتويج الشاه عباس فى قزوين لم يحدد فى أى مرجع تناول الدولة الصفوية حتى الآن، فقد ذكر المؤرخ الألمانى «زامبور» أن ذلك كان فى أول المحرم عام ٩٩٦ هـ وذلك بأصفهان، ومن المسلم به خطأ التاريخ والمكان، وكتب المؤرخ الفرنسى لوسى بن لوى بلان فى كتابه (الشاه عباس الأول، حياته وتاريخه) أن تاريخ جلوس الشاه عباس كان فى آخر شهر مايو عام ١٨٥٧ م المطابق للثالث والعشرين من شهر جمادى الآخرة عام ٩٩٥ هـ، وهذا التاريخ بالقطع غير صحيح لأن الشاه عباس حتى ذلك الوقت كان فى خراسان، وأنه ورد إلى قزوين فى العاشر من ذى القعدة عام ٩٩٦ هـ. ولكن لما كان معظم المؤرخين قد ذكروا أن تاريخ جلوس عباس كان وله من العمر ثمانية عشر عاما وشهران ونصف، فإن تاريخ جلوسه يكون فى منتصف شهر ذى القعدة من عام ٩٩٦ هـ. حيث أن ولادته كانت فى أول رمضان ٩٧٨ هـ[1].

وفى رأيى أن التاريخ المقبول لتتويج الشاه عباس الأول يقع فى أواخر عام ٩٩٦ هـ (١٥٨٨ م) وسواء أكان ذلك فى شهر ذى القعدة أو فى شهر ذى الحجة من ذلك العام فهو لا يمثل أى مشكلة فى تحديد التاريخ القريب إلى الصحة لأن الشهرين متعاقبان وليس الفرق بينهما كبيرا.

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ج ١، ص: ١٣٣ (حاشية)

الفصل الثانى

سياسة الشاه عباس الداخلية

— ١ —

الانفراد بالحكم :

منذ مقدم الشاه عباس إلى الوجود وأحوال الدولة الصفوية تسير من سىء إلى أسوأ ، فالاضطرابات مستمرة ، والتطاحن بين أبناء البيت الصفوى على أشده ، والاغتيالات السياسية قد أودت بحياة عدد من أفراد البيت الحاكم ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر ، الشاه اسماعيل الثانى وأخته پريخان خانم ، ومهد عليا زوجة السلطان محمد خدابنده وحمزة ميرزا الأخ الأكبر للشاه عباس . وقد أدى هذا الوضع المضطرب إلى تسلط أمراء وقواد القزلباش على كل شىء فى الدولة ، وأخذوا يصرفون الأمور وفق مصالحهم الشخصية ويتحكمون فى الشاه نفسه . وقد عانى الشاه عبـــاس شخصيا من نفوذهم وتسلطهم ، حيث احتجزوه قهراً فى خراسان ، حينما رفض عليقليخان السماح له بالسفر من هراة إلى قزوين ليعيش مع والديه ، كما احتجزه مرشد قليخان فى مشهد بعد أن نقله إليها قهرا بعد انتصاره على عليقليخان فى عام ٩٩٢ هـ

لذا ما أن تولى الشاه عباس حكم الدولة الصفوية بصفة شرعية ، حتى وضع نصب عينيه ضرورة العودة بالبلاد إلى سابق مجدها واستقرارها إبان حكم الشاه اسماعيل الأول والشاه طهماسب ، ولكنه أدرك أنه لن يستطيع

تحقيق ذلك إلا إذا أصبح مرهوب الجانب من الجميع ، وأن تكون الكلمة فى الدولة فى يده ، وأن يكون حاكما مطلقا ، ولكى يحقق ذلك عمل على أن يتخلص من كل وصاية ، وأن يقضى على كل من يحتمل أن ينافسه فى المطالبة بالعرش من أبناء البيت الصفوى ، ولهذا رأيناه يقدم على اغتيال وصيه مرشد قليخان ، كما تخلص من معظم أفراد أسرته فكيف تم له ذلك ؟

أولا : التخلص من مرشد قليخان :

بعد أن تم تتويج الشاه عباس ، اعتبر مرشد قليخان نفسه وصيا على الشاه الجديد على الرغم من بلوغه الثامنة عشرة من عمره ، وبدأ يصرف الدولة وكأنه صاحب الكلمة العليا ، فأخذ يوزع المناصب على قواده وأتباعه ، كما حرص على ألا يتيح للشاه عباس أن يتدخل فى أى أمر من أمور الدولة[١] ، ووصل الأمر به إلى حد مساءلة الشاه إذا أقدم على إتيان أى عمل ، حتى ولو كان هذا العمل يتمثل فى إنعام أعطاه لأحد رعاياه ، وإذا رغب الشاه فى الخروج للصيد أو التجول ، منعه من فعل هذا وذاك ، وإذا أبدى الشاه رأيا ذات مرة فى أى أمر مهم سارع مرشد قليخان بتعنيفه والاستخفاف برأيه على مسمع من الجميع[٢] .

وهكذا بدأ نفور الشاه عباس من مرشد قليخان يزداد يوما بعد يوم ، ولكن الشاه ـ على الرغم من ذلك ـ لم يكن حريصاً على التخلص منه بسرعة وذلك لأنه لم يكن على خبرة كاملة بتصريف أمور الدولة ، فحرص على الإبقاء

---

(١) اسكندربيك تركمان منشى : تاريخ عالم آراى عباس ج ٢ ص ٤٠٠ تهران ١٣٣٤ ش .

(٢) تاريخ زندگانى شاه عباس أول ج ١ ص ١٤٣

عليه حتى يتمرس أساليب الحكم ، ويستطيع الاستقلال بتصريف الأمور
كما أبقى عليه حتى يتخلص عن طريقه من عدد كبير من قواد القزلباش في
العاصمة قزوين ومنطقة العراق العجمى ، لذا نراه يدافع عنه عندما ثار هؤلاء
ضد القرار الذى اتخذه مرشد قليخان بأن عين نفسه حاكما على منطقة أصفهان
وضم إلى حوزته الأملاك السلطانية هناك ، والتى كانت قد منحت لحمزة ميرزا
ثم لأبى طالب ميرزا بعد مقتل حمزة ميرزا ، ولكن بدلا من أن يستجيب
الشاه عباس لمطالب هؤلاء القواد الثائرين أصدر أوامره بخلع تاج القزلباش
عن رءوسهم ، وأن تضرب رقابهم ، وتسحب جثثهم على الأرض ، ثم توثق
أقدامهم بالحبال ، وبعد ذلك تدلى جثثهم من فوق قصر السلطنة[1] .

وعلى الرغم من وقوف الشاه عباس بجانب مرشد قليخان ، وقضائه على
مناوئيه ، فقد أقدم مرشد قليخان على ارتكاب حماقات كثيرة زادت الشاه
نفوراً منه ، وعزما على الخلاص من وصايته ، ومن هذه الحماقات أنه أراد
مصاهرة الأسرة الصفوية تثبيتا لمكانته وسطوته ، فطلب من الشاه الموافقة على
زواجه من إحدى أميرات البيت الصفوى ، فرفض الشاه هذا الطلب[2]
ولعل هذا الرفض كان بداية للصدام المعلن بين الطرفين .

ونتيجة لهذا الصدام أقدم مرشد قليخان بتحريض من أتباعه على
ارتكاب حماقة أخرى ، فقد قال له بعض مؤيديه من طائفته (استاجلو) إن
الشاه يفكر فى نهاية سيئة لك ؛ وعما قريب سيقضى عليك ، وسيصبح زعيم
طائفة استاجلو فى منزلة التراب الأسود[3] . فأرسل مرشد قليخان من أحضر

---

(١) ملحقات روضة الصفا ج ٨ ص ٢٣٧
(٣) عالم آراى عباسى ج ٢ ، ص : ٤٠٠
(٤) المرجع السابق ، ونفس الصفحة

الشاه المعزول محمد خدابنده وأبناءه من قلعة ألموت حيث كانوا مسجونين بها بعد تتويج الشاه عباس ، وكانت حجته فى ذلك أن القلعة قريبة من جيلان الثائرة ، ومن المحتمل أن ينتهز البعض فرصة انشغال الشاه بصد الأوزبك عن خراسان ، ويفرج عن المسجونين ، ويولى أحـــدهم عرش الدولة الصفوية ، ولكن الشاه عباس أدرك أنه يريد بذلك التلويح بأن فى استطاعته عزله وتولية أى فرد من الأسرة الصفوية مكانه ، وأمام هذه الحماقة صمم الشاه على ضرورة الإطاحة بمرشد قليخان قبل أن يطيح هو به .

أما الحماقة الأخيرة التى قصمت ظهر البعير فقد تمثلت فى تقصير مرشد قليخان فى تقديم العون لقوات القزلباش فى هراة ، عندما تمكن الأوزبك من محاصرتهم داخل قلعة المدينة ، وقد أمره الشاه عباس بالإسراع فى إرسال التعزيزات العسكرية لنصرة عليقليخان والمحاصرين معه داخل القلعة ولكن مرشد قليخان تباطأ فى إرسال العون أملا فى الخلاص من عليقليخان غريمه الأول ، وخوفه من أن يجد طريقه مرة أخرى إلى بلاط الشاه عباس إذا نجا من هجمة الأوزبك على قلعته ، وبخاصة أن الشاه عباس كان يتوق دائماً للقائه ، ولم ينس معاملته الطيبة له أثناء وجوده معه فى مدينة هراة . فكان مرشد قليخان يدعى فى كل يوم أن العون العسكرى سيرسل فــوراً إلى خراسان ، وظل يماطل ويسوف حتى وصلت إلى قزوين الأنباء باقتحام الأوزبك لقلعة هراة وقتلهم عليقليخان وعـــــدداً كبيراً من جنود القزلباش (١) .

وعند ذلك شعر مرشد قليخان بالراحة والاطمئنان ، ودق طبول (أنا

---

(١) تاريخ ادبيات ايران أز آغاز عهد صفويه تازمان حاضر ، ص : ٩٩ ، وتاريخ إيران أز مغول تا افشاريه ، ص : ٣١٢

ولا غيرى)[1] ، وخلال فترة وجيزة — بعد أن اطمأن قلبه — جهز الجيش وأعد العدة للتحرك صوب خراسان . فشعر الشاه عباس بأن مرشد قليخان بمماطلته وتسويفه قد تسبب فى مقتل مربيه عليقليخان ، فصمم على التخلص منه وبأقصى سرعة ممكنة قبل أن يستفحل خطره أكثر من ذلك .

وواتت الفرصة الشاه عباس عندما تحرك الجيش الصفوى فى ربيع ... ٩٩٧ ﻫ (حوالى أبريل ١٥٨٩ م) قاصدا خراسان لدفع الأوزبك وطردهم، وعندما وصل إلى بسطام عسكر الجيش فى معسكر شاهرود[2] ، وهناك اتفق الشاه عباس مع أربعة من قواده المخلصين على اغتيال مرشد قليخان وهو ... فى خيمة الشاه ، حيث غلبه النعاس وهو يتحدث مع الشاه فى خيمته ، ... هؤلاء الأربعة وشاركوا فى قتله والإجهاز عليه ، والشاه يرقب كل ذلك ويشجعهم ويحثهم على الإسراع من مهمتهم ، وبعد أن أنهوا المهمة أمر ... فى نفس الليلة بقتل عدد كبير من مؤيدى مرشد قليخان ، كما أمر بعزل ... ابراهيم خان عن مشهد ، وقتله كذلك .

أما عن الأربعة الذين تولوا تنفيذ مهمة اغتيال مرشد قليخان ... أمت بيك ، قراحسن قورچى ، الله وردى بيك ، ومحمد بيك ساروقچى ... وقد كافأهم الشاه عباس بأن أعطاهم أموالا ومناصب هامة فى دولته ... ذلك[3] .

وبتخلص الشاه عباس من مرشد قليخان ، يكون قد تخلص لأول ...

(١) ملحقات تاريخ روضه الصفا ، ج ، ٨ ، ص : ٢٥٢

(٢) تاريخ أدبيات إيران از آغاز عهد صفويه تازمان حاضر ، ص: ... وعبد الله رازى همدانى : تاريخ إيران ، ص طهران : ١٣١٧ ﻫ . ش

(٣) عالم آراى عباسى ، ج : ٢ ، ص ، ٤٠١ ، وزندگانى شاه عباس أول ج ١ ، ص : ١٤٦

فى حياته من ضغط الوصاية عليه ، وأصبح بذلك الملك المطلق اسما وفعلا [١] ، يحكم حكما مطلقا ، ويبطش بكل من خالف له أمراً ، سواء صرح برأيه المخالف ، أو ظن به عباس ذلك ، ولم يعد أمام رجال الدولة إلا تنفيذ أوامره دون جدال ، حتى ولو أمر أبا بقتل ابنه فليس من حقه التكاسل عن تنفيذ الأمر ، وإلا أمر الابن بقتل ذلك الأب [٢] . وبسبب هذه السلطة المطلقة اتهمه المستشرقون بأنه وصل الى درجة جعلت مواطنيه يقدسونه ويؤلهونه خوفا من بطشه وتجنبا لشره [٣] .

ومن الملاحظ أن بطشه وجبروته لم يقتصر على قواده وأفراد حاشيته ، بل تعداهم إلى أفراد أسرته وأقرب الناس إليه ، رغبة منه فى التخلص من أى خطر قد يهدد سلطنته ، فكان هذا هو المسلك الثانى الذى أمن به طريق انفراده بالحكم .

ثانياً : التخلص من أفراد أسرته :

عندما دخل الشاه عباس العاصمة قزوين عام ٩٩٦ هـ ، لم يكن هناك من أبناء البيت الصفوى من هم على قيد الحياة غير والده السلطان محمد خدا بنده ، وأخويه أبى طالب وطهماسب ، وابنى أخيه القتيل حمزة ميرزا وهما اسماعيل وحيدر ، حيث مات جميع أبناء البيت الصفوى عدا هؤلاء أثناء حكم الشاه اسماعيل الثانى . وما أن استقبت الأمور لعباس ومرشد قايخان فى العاصمة ، حتى أمرا بإلقاء القبض عليهم جميعا وإيداعهم قلعة ألموت ، [٤] وظلوا هناك

---

(١) تاريخ أدبيات إيران ، جـ ٤ (براون) ص : ٩٩
(٢) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٢ ، ص : ٧٨ — ٧٩
(٣) ايران در زمان صفويه . ص ٣٧٤
(٤) تاريخ أدبيات ايران جـ ٤ [براون] ص : ٩٧

حتى بدأ عباس يستعد للتوجه صوب خراسان وطرد الأوزبك من
وما جاورها، فإذا بمرشد قليخان يعيدهم إلى العاصمة بحجة أن قلعة الموت
من جيلان، ومن الحكمة عدم تركهم هناك والشاه خارج العاصمة، حتى لا
حكام جيلان إلى القلعة ويتم الإفراج عن المسجونين، وربما يتم تنصيب
ولكن عباس أدرك أن مرشد قليخان يهدده بمقدمهم، لذا أمر بعض
المخلصين بنقلهم إلى قلعة ورامين وتشديد الحراسة عليهم (١).

وبعد أن عاد الشاه إلى العاصمة قزوين، أمر بفك أسر أبيه وإعادته إلى
قزوين ليعيش تحت رقابته فى القصر، ومنعه من الخروج أو الاختلاط
القزلباش، كما كان يأخذه معه إذا سافر خارج قزوين، وظل الحال كذلك
أن توفى السلطان محمد خدا بنده عام ١٠٠٤ هـ، وهكذا استراح عباس من
أحد منافسيه، كما كان يتخيل ذلك.

أما عن أخويه أبى طالب ميرزا وطهماسب ميرزا وابن أخيه
ميرزا ؛ فقد أمر الشاه عباس عام ٩٩٩ هـ بسمل عيونهم حتى لا يصلح أحدهم
ذلك لتولى العرش، وأعادهم إلى قلعة ألموت حيث بقوا فيها إلى أن توفوا
فمات أبو طالب عام ١٠٢٩ هـ، ومات طهماسب واسماعيل ميرزا فى ذات
بعد وفاة عباس نفسه (٢).

وأما حيدر ميرزا ابن حمزة ميرزا، فقد أرسله الشاه عباس إلى
العثمانى ليكون رهينة لديهم وذلك فى عام ٩٩٨ هـ (٣)، وظل هناك حتى أصيب

---

(١) زندگانى شاه عباس أول، ج : ٢ ص : ١٦٤
(٢) المرجع السابق، ص : ١٦٩
[٣] إيران در زمان صفويه، ص : ٥٢

بالطاعون ومات عام ١٠٠٥ هـ ، فكان خبر وفاتـــه مبعث سرور فى البلاط الإيرانى .

وهكذا كان الشاه عباس قاسيا مع أبيه وأخوته ، وذلك خوفا على عرشه وسلطانه ، ولم يقتصر بطشه على هؤلاء بل تعداهم إلى أبنائه كذلك .

كان للشاه عباس خمسة أبناء هم على التوالى : محمد باقر ميرزا (وعرف باسم صفى ميرزا)،وحسين ميرزا،وخدا بنده ميرزا، واسماعيل ميرزا ، وأخيرا إما مقلى ميرزا وقد توفى كل من حسين واسماعيل فى صغرهما ،[١] فأراحهما الله من بطش أبيهما ، أما ابنه الأكبر صفى ميرزا فكان الجميع ينظرون إليه على أنه ولى العهد والوريث الشرعى لأبيه ، وقد أحرز شعبية وحبا من الجميع مما أوغر صدر أبيه ضده ، وخشى أن يقوم بالدور الذى قام به هو ضد أبيه السلطان محمد خدا بنده ، فأخذ يتلمس الفرص للخلاص منه ، حتى اختار أحد أعوانه من الشراكسة للقيام بمهمة اغتيال صفى ميرزا ، فنفذ جريمته فى الثالث من المحرم عام ١٠٢٤ هـ[٢] ، وبدلا من أن يتظاهر الشاه عباس بمعاقبة القاتل، فإنه أنعم عليه بمنصب أكبر مما كان يشغله قبل تنفيذ الجريمة[٣] ويقال إن الشاه عباس شعر بعد ذلك بتأنيب الضمير وظل يبكى الفقيد طوال عام كامل ؛ وإن كنت أشك فى صحة هذا الخبر ، لأنه لو بكى هذا الابن ، وندم على فعلته ، لما أقدم على تعذيب ابنيه الآخرين بعد ذلك .

وابنه الثالث المدعو خدا بنده ميرزا حاز هو الآخر مكانة كبيرة فى البلاط

---

(١) لغت نامه ؛ شماره : ٧٦ ، ص : ٤١

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، ج : ٢ ، ص : ١٧٨

(٣) History of Persia, Vol II.p. 175.

وخارجه لتمتعه بمزايا عديدة منها الكرم والشجاعة والإخلاص وبشاشة الوجه
حتى أن الجميع نادوا به كحا كم موعود بالعرش بعد أبيه ، فكانت النتيجة
أن تملك الغيظ أباه ، وعبر عن استيائه من حب الجميع له باغتيال صديقه
أغضب خدا بنده ، وجعله يسرع صوب البلاط معلنا احتجاجه ، ووصلت
ثورة غضبه إلى حد إشهاره السيف فى وجه أبيه ، فأمر الشاه عباس بسمل
عينيه ، مما أصاب هذا الابن بما يشبه الجنون ؛ فأقدم على الانتحار بتناول
السم [1] .

ولم يكن حظ الابن الخامس إماممقلى ميرزا أفضل من حظ أخويه
السابقين حيث أمر الشاه عباس بسمل عينيه فى عام ١٠٣٦ هـ ، حتى يحرم
من ولاية العهد وحتى لا يلتف حوله رجال البلاط والقواد مثلما فعلوا مع
أخويه صفى ميرزا وخدا بنده ميرزا .

وبإقدام الشاه عباس على الخلاص من أبنائه واجه فى أواخر عمره مشكلة
اختيار ولى عهده ، فلم يجد إلا سام ميرزا ابن صفى ميرزا القتيل والذى أنقذته
أمه من القتل بأن أبعدته دائما عن مجالس الشاه عباس وعن رجال بلاطه
فعاش فى الحريم حتى توفى الشاه عباس عام ١٠٣٨ هـ (١٦٢٩ م) فتولى الحكم
باسم الشاه صفى .

ونلاحظ إلى جانب بطش الشاه عباس بأبنائه وأفراد أسرته ، أنه استن
سنة جديدة فى تربية ولى العهد ، فبعد أن كانت السنة المتبعة منذ عهد الشاه
اسماعيل الأول هى إرسال ولى العهد إلى إحدى الولايات الكبيرة ليشرف
على تصريف أمورها ، ويتمرس الحكم فيها ، قبل أن يتولى زمام الدولة

---

[١] المرجع السابق ، ص ١٨٣

أسرها ، فإن الشاه عباس أمر بأن يلزم ولى العهد الحريم ولا يسمح له بالاختلاط بالقواد ، ولا يحادث إلا الخدم والجوارى ومربيه الخصوصى . وقد دافع الشاه عباس عن موقفه هذا بأنه يجنب الدولة الفرقة والانقسام [1] ولعله لجأ إلى ذلك حتى لا يرتكب أحد ولاة العهد معه مثلما ارتكبه هو مع والده السلطان محمد خدا بنده ، ولكن هذا القرار كان ذا آثار مدمرة على الدولة الصفوية إذ تولى أمورها ملوك عديمو الخبرة بالحكم والسياسة .

وهكذا كان الشاه عباس حاكما مستبدا منفردا بالسلطة، ولا يسمح لأحد بأن يشاركه الرأى والحكم ، كما كان يسارع باغتيال كل من يظن فيهم خيانة، حتى ولو كانوا أقرب الناس إليه . ولكى ينجح النجاح المطلق فى الانفراد بالحكم خطط للقضاء على كل نفوذ لقواد القزلباش ، كما صمم على تكوين جيش مركزى يأتمر بأمره ، ويقضى على كل فتنة تثار ضده ؛ فما مدى نجاحه فى تنفيذ هذين المخططين ؟

— ٢ —

التخلص من نفوذ رؤساء طوائف القزلباش :

انتهز رؤساء الطوائف فرصة اضطراب الحياة السياسية خلال عصر الشاه اسماعيل الثانى ، وكذلك ضعف شخصية السلطان محمد خدا بنده الكفيف البصر ، وبدأوا فى بسط نفوذهم وسيطرتهم على كل شىء فى الدولة، وسلكوا فى تحقيق هذه السيطرة كل مسلك حتى ولو أدى ذلك إلى اغتيال أفراد الأسرة الصفوية نفسها ، وكان ممن اغتالوهم والدة الشاه عباس مهد عليا وأخوه حمزة

---

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ٣٧٥ - ٣٧٦

ميرزا[١] وقد ترك هذا الأمر آثارا قاتمة على شعور عباس تجاهم
يضمر لهم السوء ، ويعقد العزم على التخلص من شرورهم والقضاء
واتته الفرصة .

وكان عدد طوائف القزلباش قبل تولى الشاه عباس الحكم
طائفة ، وهذه الطوائف كانت منتشرة فى كل مكان من الدولة
وكانوا يملكون الكثير من الأراضى فى كل ربوع إيران ، ويعتبرون
أعلى مكانة وأكثر أصالة من بقية أفراد الشعب الإيرانى ، على
عمر تواجدهم قد بدأ منذ عصر حيدر والد الشاه اسماعيل الأول فقط[٢]
عدد أفراد هذه الطوائف جميعها ستين ألف فرد وتدفع
خزانة الدولة .[٣]

وقد لوحظ كذلك أن جميع حكام الأقاليم قبل عصر الشاه عباس
من بين رؤساء طوائف القزلباش فقط[٤] .

ونتيجة لإشراف طوائف القزلباش الكامل على الشئون
والإدارية ، فإن تسلط رؤسائهم قد فاق كل حد ، ولكى يستطيع الشاه عباس
أن ينفرد بالحكم كان لزاما عليه أن يصفى نفوذهم ، ويحطم شوكتهم
ماأقدم عليه ، فما أن تم تتويجه حتى أصدر أوامره بإلقاء القبض على
القزلباش الذين شاركوا فى اغتيال أخيه حمزة ميرزا ومنهم عليقليخان

---

(١) لغت نامه ، شماره ٧٦ ، ص : ٤٢
(٢) زندگانى شاه عباس أول ، ج : ٢١ ص : ١٧٣
(٣) أنظر لغت نامه شماره ٧٦ ص : ٤٢ ، إيران در زمان صفويه ص
٥٣ ، وغيرهما من المراجع
(٤) زندگانى شاه عباس أول ، ج ١ ، ص : ١٧٤

...، واسماعيل قليخان وكثيرون غيرهما ، ونفذ فيهم جميعاً حكم الإعدام ، ... اتخذ هذا القرار بالمشاركة مع مرشد قليخان .[١]

وإلى جانب اقتصاصه من قتلة أخيه ، فإنه أقدم على قتل من اشتركوا في اغتيال والدته ، فقد ورد فى الأخبار بأنه ألقى القبض على قور خمس خان أحد مدبرى جريمة إغتيال والدته ، وقام الشاه عباس بقتله بيده، وكان فى هذا العمل ترضية نفسية له حيث انتقم لوالدته بقتل من اشتركوا فى اغتيالها[٢] .

ثم انتهز الشاه عباس فرصة ثورة بعض رؤساء القزلباش ضد مرشد قليخان عندما اختص نفسه بمنطقة أصفهان ، فأصدر الشاه أوامره بتجريدهم من قلنسوة القزلباش وقطع رقابهم جميعاً ، كما صادر ممتلكاتهم وممتلكات أسرهم ، ووزعها على عدد من أنصاره ومؤيديه .

ولم تمض فترة طويلة بعد تتويج الشاه عباس حتى تخلص من مرشد قليخان كما أمر بقتل عدد كبير من الملتفين حول مرشد قليخان ، حتى ولو كانوا من طوائف أخرى غير طائفة استاجلو .

وهكذا كان الشاه عباس ينتهز أى فرصة سانحة ليفتك بعدد من رؤساء طوائف القزلباش وقوادهم ، انتقاما لمقتل إفراد أسرته ، ودرءاً لأى خطر قد يهدد سلطنته إذا ماتوانى فى تعقبهم والخلاص من شرورهم ، وإلى جانب قتله الكثيرين منهم ، لجأ إلى أساليب أخرى للقضاء على نفوذهم ، وبخاصة فى مجال الجيش ، فبعد أن كان الجيش يعتمد اعتماداً كليا على أفراد طوائف القزلباش، أصدر الشاه أوامره بتكوين جيشين جديدين، أحدهما من الأرمن

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٢٣٤

(٢) المرجع السابق ، جـ ٨ ص : ٢٥٩

والشركس والكرجيين التابعين لسلطانه ، والآخر من خاصة محبيه من مواطنيه بغض النظر عن الطوائف التى ينتسبون إليها ، وأطلق على الجيش الثانى اسم « شاهسون » أى محبى الملك ، وكان الجيشان يتلقيان أوامرهما من الشاه مباشرة ، وبذلك تخلص من إشراف رؤساء القزلباش على النشاط العسكرى مما أعطاه حرية أكبر فى البطش بهم ، والقضاء عليهم[١] .

كما أصدر الشاه أوامره بتجريد رؤساء طوائف القزلباش من مناصبهم الإدارية الهامة فى الدولة ، وأسندها لقيادات شابة جديدة[٢] ، فكان يقرب إليه بعض الشبان الذين يتوسم فيهم الإخلاص والتفانى فى خدمته ، ويسبغ عليهم بأرفع الأوسمة والألقاب ، ويوليهم حكم الولايات المختلفة ، والمناصب الهامة فى البلاط ، ولكن إذا ظن بأحدهم سوءاً أو رغبة فى التسلط والظهور سارع بالفتك به والخلاص منه ، وهكذا جعل كبار رجال الدولة وحكام الولايات يخافونه ويرهبون سطوته .

ولجأ الشاه عباس إلى وسيلة أخرى لإحكام سيطرته وقبضته على كل مقاليد الحكم فى الدولة الصفوية ، فبعد أن كان نظام الحكم منذ عصر الشاه اسماعيل الأول لامركزيا ، حيث أعطى حكام الولايات حق الحكم المطلق فى ولاياتهم ، وليس الحاكم مطالبا إلا بإرسال قدر معين من المال والغلال كهدية للشاه فقط[٣] ، وجدنا الشاه عباس يحكم قبضته على حكام الأقاليم ويحيلهم إلى مجرد مرءوسين يأتمرون بأمره ، وليس من حق أحدهم الامتناع عن تنفيذ أى أمر يصدر إليه من الشاه[٤] ، بل أصبح من حقه أن يعزل أى

---

(١) History of Persia, Vol II. p. 175.

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص : ٥٤

(٣) زندگانى شاه عباس أول ، ج ١ ص : ١٧٦

(٤) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٢٣٩

حاكم لايروق له ، ويعين آخر مكانه ، وهكذا شعر حكام الأقاليم بأن بقاءهم في مناصبهم أمر متعلق برضاء الشاه عنهم أو غضبه عليهم ، بعد أن كان منصب حكام الأقاليم حكرا لرئيس طائفة القزلباش المتمركزة فى كل إقليم .

ونتيجة لهذه السياسة المتشددة استطاع الشاه عباس أن يقضى على سطوة طوائف القزلباش وتدخل رؤسائهم فى كل صغيرة وكبيرة من أمور الدولة، وأن يعيد للدوله هيبتها ووحدتها ، بل يجبر رجال القزلباش على الالتفاف حوله رهبة منه وخوفا من بطشه ، بعد أن كانت تلتف حول الشاه اسماعيل والشاه طهماسب حبا وودا . وبقضائه على نفوذهم زاد من فرص تمتعه بحكم مطلق وبصوت مسموع لدى الجميع فى كل ربوع إيران .

— ٣ —

الاهتمام بالجيش الصفوى :

كان الجيش الصفوى قبل عصر الشاه عباس يعتمد على رجال القزلباش البالغ عددهم ستون ألف جندى ، وكانوا يتلقون أوامرهم من رؤساء الطوائف التابعين لهم ، إذ لم يكن من حق الشاه الصفوى إصدار الأوامر مباشرة لجنده ، بل عليه أن يصدر الأمر لرؤساء الطوائف ثم يقوم كل رئيس طائفة بإبلاغ الأمر لتابعيه من الجنود [١] ، ونتيجة لهذا النظام العسكرى أصبحت قبضة الشاه على رجال القزلباش ضعيفة ، لأن رؤساء الطوائف إذا لم يرق لهم أمر الشاه امتنعوا عن إبلاغه للجنود ، بل أصبح فى استطاعة هؤلاء

---

(١) لغت نامه ، شماره ٧٦ ص ٤٢

الرؤساء بعد ذلك تأليب أتباعهم ضد الشاه ، وشق عصا الطاعة ضده وسرعان ما كان يستجيب الأعوان لهم ، ومافعله عليقليخان ومرشدقليخان فى خراسان أيام أن كان عباس موجودا هناك خير شاهد على سطوة رؤساء القزلباش وتحديهم لأوامر الشاه الصفوى .

وما أن تولى الشاه عباس الحكم حتى أدرك أن القضاء على نفوذ رؤساء طوائف القزلباش يعتمد بالدرجة الأولى على إضعاف القوات التابعة لهم فأقدم على تخفيض عدد جنود القزلباش إلى النصف بحيث أصبح عددهم ثلاثين ألف فقط .(١)

وإلى جانب هذه الخطوة ، وجدنا الشاه عباس يجابه جماعة أخرى كان لها نفوذها قبل عصره ، ونعنى بها جماعة الصوفيين وهى جماعة تكونت منذ قيام الدولة ، وزعم أفرادها أنهم أنصار البيت الصفوى والمدافعون عنه حيث انتهز هؤلاء فرصة ضعف الدوله أيام حكم السلطان محمد خدابنده وزادوا من نفوذهم وسطوتهم ، كما حاولوا إثارة القلاقل فى بداية حكم عباس على أمل إعادة السلطان محمد خدابنده إلى الحكم، فما كان من الشاه عباس إلا أن شل حركتهم وأضعف نفوذهم ، وأبعدهم كلية عن المشاركة فى الدفاع عن الدولة وأفراد البيت المالك، ولم يسند إليهم إلا أحقر الأعمال، كتنظيف قصور الدولة ، ومنصب الجلاد وغير ذلك من الوظائف الدنيا(٢) .

وبعد أن أضعف الشاه عباس قوة رجال القزلباش و كذلك سطوة جماعة الصوفيين شعر بأنه فى حاجة ماسة إلى تجديد الروح العسكرية فى

---

(١) History of Persia, Vol II, p. 175.

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، ج ١ ، ص ، ١٨٥ — ١٨٦

إيران وتنشيطها ، وبخاصة أن البلاد تتهددها أخطار من الشرق ممثلة فى الهجمة الأوزبكية ، ومن الغرب ماثلة فى احتلال الدولة العثمانية لكثير من أراضى إيران الغربية ، وأمام هذه الحاجة الملحة أقدم الشاه عباس الأول على اتخاذ خطوات عملية فى سبيل تدعيم قواته العسكرية ؛ ومن هذه الخطوات إنشاء جيشين جديدين ؛ أحدهما يتكون من رعايا الدولة الصفوية من غير المسلمين ويضم أبناء طوائف الكرجيين والأرمن والشركس [1]، وهو جيش خاضع للسلطان مباشرة ، ويأتمر بأوامره ، ويتقاضى أفراده رواتبهم من خزانة الشاه وهذا الجيش شبيه فى تكوينه بأى جيش انكشارى [2] فى ذلك الوقت إذ كان يتولى الدفاع عن الشاه وحراسة قصوره فى مقابل مايدفع لأفراده من رواتب ومخصصات . أما الجيش الثانى فيتكون من رعايا إيرانيين ينتسبون إلى طوائف الشعب المختلفة سواء أكانوا من أفراد القزلباش السابقين أو ممن لم ينضموا تحت لواء أى طائفة من طوائف القزلباش ، الشىء الوحيد الذى يربط بينهم هو الالتفاف حول الشاه عباس ، والتفانى فى تنفيذ أهدافه ، والدفاع عن أرض إيران ضد أعدائها وأعداء الشاه عباس وقد أطلق على هذا الجيش الثانى اسم « شاهسون » أى محبى الملك [3].

وبتكوين الشاه عباس لهذين الجيشين اللذين يأتمران بأوامره المباشرة استطاع أن يحكم قبضته فى الداخل ، كما استطاع أن يوجههم لمحاربة أعدائه فى الخارج ، فأحرز بفضل إخلاصهم له انتصارات فى الشرق والغرب .

ومن العوامل التى ساعدت على تطوير القوة العسكرية الصفوية فى عصر

---

(١) إيران در زمان صفوية ، ص : ٥٣

(٢) History of Persia, Vol II, p. 182

(٣) إيران در زمان صفوية ، ص ، ٥٤

الشاه عباس الأول إقدامه على تسليح بعض فرق جيشه بالبنادق و...
فقد أدرك أن الجيش العثمانى ينتصر دائماً على الجيش الصفوى لا بفضل ك...
العددية ، ولـكن لأنه مزود بالبنادق والمدافع . وقد ذكر المؤرخون أ...
جيشه بخمسمائة عربة مدفع وستين ألف بندقية[1] ، وقد صنعت هذه الأ...
النارية داخل إيران، حيث أنشأ الشاه عباس مصنعاً لإنتاج السلاح والذخيرة
وقد ساعده فى إقامة هذه الصناعة أفراد البعثة البريطانية التى وفدت إلى إ...
عام ١٠٠٧ هـ (١٥٩٧ م) بقيادة الأخوين شرلى ، كما ساعده أفراد البعثة
رسم الخطط العسكرية وشارك بعضهم فى الحروب التى دارت بين الجيشين
الصفوى والعثمانى، فقد ورد فى الأخبار أن روبرت شرلى أسندت إليه ر...
إحدى الفرق العسكرية الصفوية فى الحرب التى دارت بين الجانبين الصفوى
والعثمانى خلال عامى ١٠١٣ ، ١٠١٤ هـ[3].

وعلى الرغم من مجهودات الشاه عباس لتطوير قوته المسلحة البرية
فإنه لم يتنبه إلى إنشاء قوة عسكرية بحرية تستطيع مجابهة خطر القوات البرتغالية
فى جزيرة هرمز وبعض موانى إيران فى منطقة الخليج العربى ، وعندما فكر
فى طرد البرتغاليين وجدناه يستعين بقوات شركة الهند الشرقية الإنجليزية
التى سارعت بتقديم العون لا أملا فى مساعدة إيران ، ولـكن تطلعاً إلى
إخراج البرتغال من ميدان التنافس التجارى فى منطقة الشرق عامة و...
خاصة . وقد حاول البعض الدفاع عن هذا القصور من جانب الشاه عباس
بقولهم ، إن جو السواحل الإيرانية فى منطقة الخليج العربى لا يساعد على

---

(١) تاريخ إيران آز مغول تا افشاريه ، ص ٣٢١ .
(٢) لغت نامه ، شماره : ٧٦ ، ص : ٤٢
(٣) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٣ ، ص ٢٤١

البيئة المستقرة[١] . ولكن يمكن الرد عليهم بأن هذه السواحل نفسها قد عاش فيها الأوربيون الوافدون من البرتغال وأسبانيا ، وتحملوا ارتفاع الحرارة بها ، فكيف يهرب منها الإيرانيون وهم أصحاب البلاد والمطالبون بالدفاع عنها ؟ وقد أدى قصوره هذا إلى أن حلت القوات الإنجليزية محل القوات البرتغالية ، وبسطت نفـوذها على جميع موانىء الخليج العربى بعد ذلك .

* * *

ولكن إذا تجاوزنا القصور فى إنشاء قوة بحرية إيرانية ، فإننا يجب أن نعترف بأن سياسة عباس العسكرية قد نجحت نجاحا ملحوظا فى الداخل والخارج ، حيث أعادت للدولة هيبتها ، وللشاه سلطانه ، وقد بدا ذلك واضحا فى صده لحملات الأوزبك والعثمانيين ، وفى قضائه على جميع الفتن الداخلية التى أثارها حكام الأقاليم فى وجهه بعد أن أفقدهم سلطانهم ، وأضعف رجال القزلباش التابعين لهم . فما أهم هذه الفتن الداخلية ؟ وكيف جابهها الشاه عباس الأول ؟

— ٤ —

إخماد الشاه عباس للفتن الداخلية :

بعد أن تم تتويج الشاه عباس ، بدأ يتطلع إلى الانفراد بالحكم ، والقضاء على سلطة القواد والحكام ، وإعادة الحكم المركزى إلى ما كان عليه أيام الشاه اسماعيل الأول والشاه طهماسب ، ولكن أهدافه هذه اصطدمت

---

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص : ٤١٥ — ٤١٦

بأطماع بعض حكام الأقاليم المتطلعين إلى بسط نفوذهم على الأماكن التى [illegible] حكمها ، فكان لزاما على الشاه عباس أن يجابه خطوهم قبل أن [illegible] ودخل فى حروب كثيرة مع هؤلاء الثائرين وانتصر عليهم ، وفرض [illegible] على الجميع ، ومن أهم هذه الفتن الداخلية التى أخمدها الشاه عباس [illegible] الفتن الأربع :

١ — فتنة يعقوبخان ذى القدر فى فارس :

بعد أن توج الشاه عباس أصدر أوامره بأن يتولى أمر فارس يعقوبخان ذو القدر ، ولكن هذا الحاكم سرعان ماعمل على زيادة رقعة نفوذه ، فضم [illegible] حكمه مناطق يزد و كرمان ، وبدأ يتصرف فيما تحت حكمه من بلاد دون الرجوع إلى الشاه عباس ، وبدأ يتصرف وكأنه حاكم مستقل لدرجة أنه كون جيشا وسلحه بأسلحة كثيرة تمكنه من مناوءة جيش الشاه عباس إذا ماحاول الشاه التعرض لسلطانه .

وأمام هذا الخطر تقدم الشاه عباس بجيشه صوب أصفهان ، ووصلها فى عام ٩٩٨ هـ (١٥٩٠ م) ، وأرسل يدعو يعقوبخان للتصالح فيما بينهما والصفح عنه ، مقابل خضوعه للشاه عباس ، فلم يقبل يعقوبخان إلقاء السلاح إلا بعد أن أقسم الشاه بأنه سيصفح عنه ، وأخيرا دخل الشاه عباس فارس ، وحافظ على قسمه مدة ثلاثة أيام ، حتى اطمأن يعقوبخان ، وفى صبيحة اليوم الرابع دخل يعقوبخان على الشاه عباس فى البلاط ، فإذا رجال الشاه يقيدونه ويفتكون به ، كما أمر عباس بمثول جميع أفراد أسرة يعقوبخان وأعوانه إلى البلاط وتقبيل قدميه لكى يصفح عنهم ، وقد فعلوا ذلك ، ولكن الشاه فتك بهم بعد ذلك [1] .

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٢ ، ص ١٢٥ — ١٣٠ .

٢ — فتنة خان أحمد خان حاكم جيلان :

كان خان أحمد خان يتولى حكم جيلان من قبل الشاه طهماسب الأول ، ولكنه حاول الاستقلال بها ، فألقى الشاه طهماسب القبض عليه وسجنه فى قلعة اصطخر ، وظل فى السجن مدة عشر سنوات إلى أن تولى الحكم السلطان محمد خدا بنده ، فأفرج عنه وأعاده إلى حكم جيلان ، وزوجه أخته مريم سلطان بيكم [1] ، على أمل أن تكون العلاقة الأسرية دافعا له للحفاظ على مكانة الأسرة الصفوية وعدم الخروج عليها ، ولكن خان أحمد انتهز فرصة ضعف السلطان محمد خدا بنده ، وبدأ يوسع دائرة نفوذه ، ويفرض سلطانه المستقل ، وظل الحال كذلك إلى أن تولى الشاه عباس ، فرغب فى إخضاع حاكم جيلان لكلمته ، ولكن خان أحمد رفض كل محاولات عباس ، بل إنه جعل من جيلان مأوى لعدد كبير من قواد القزلباش الفارين من سطوة عباس ، فأرسل الشاه إلى خان أحمد يطلب منه تسليمه هؤلاء الثائرين ، فرفض حاكم جيلان تسليمهم للشاه مما زاد الموقف بينهما تأزما واضطرابا [2] .

وانتهز خان أحمد اشتداد الصراع بين الدولتين العثمانية والصفوية ، وحاول استثمار ذلك الصراع لصالحه ، فراسل السلطان العثمانى يدعوه لمهاجمة لاهيجان بحرا ، وسيقوم هو بمساعدة القوات العثمانية فى احتلالها ، ثم تتقدم الجيوش العثمانيه بعد ذلك إلى قزوين وتحتلها . ثم تحتل باقى مدن إيران ، وسيكون هو

---

(١) دكتر عبد الحسين نوائى : شاه طهماسب صفوى ، مجموعه اسناد ومكاتبات تاريخى ، ص ١٣ ، تهران ١٣٥٠ ش

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، ج ٣ . ص ١٣١ — ١٥٧

فى عون القوات العثمانية فى مقابل تثبيت حكمه المستقل فى منطقة جيلان [١]
وقد عرف الشاه عباس أمر هذه الدعوة بعد أن عقد معاهدة صلح مع الدولة
العثمانية ، وأدرك أنه لابد وأن يقضى عليه ، ولكن انشغال الشاه بإخماد فتنة
ذى القدر فى مارس ، ودفع الأوزبك عن خراسان ، جعله كل هذا يهادن
خان أحمد مؤقتا . فأرسل إليه يطالبه بإثبات حسن نواياه بإرسال زوجته —
عمة الشاه عباس — وابنته لتقدما فروض الطاعة نيابة عنه إلى الشاه ، ولكن
خان أحمد رفض هذا الطلب [٢] .

كما ذكر البعض بأن الشاه عباس لجأ إلى رباط المصاهرة للقضاء على هذه
الفتنة ، حيث عرض على خان أحمد إعلان خطبة ابنته إلى صفى ميرزا أكبر
أبناء عباس ، ولكن خان أحمد رفض ذلك بحجة صغر سن ابنته حيث كان
لها من العمر فى ذلك الوقت أربع سنوات [٣] .

وأمام تعنت خان أحمد وتأزم الموقف فيما بينه وبين الشاه عباس ، أصدر
الشاه أوامره إلى قائد جيشه فرهاد خان بالتحرك صوب جيلان والقضاء على
فتنة خان أحمد خان ، وأخيرا التقى الجيشان فى جيلان ، وعندما أدرك الحاكم
أن الهزيمة من نصيبه آثر الفرار بحرا إلى شيروان ، ومنها واصل سيره إلى
العاصمة العثمانية ، حيث عاش هناك فترة ، وحاول بعد ذلك الرجوع إلى حكم
جيلان مرة أخرى مع تقديم فروض الطاعة ، ولكن الشاه عباس رفض
عودته إليها [٤] .

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ص ٢٦١ - ٢٦٢

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٣ ، ص : ١٣١ - ١٥٧

(٣) شاه طهماسب صفوى . مجموعهٔ اسناد - ص : ١٣

(٤) ملحقات تاريخ روضه الصفا جـ ٨ ص ٢٦٣

أما زوجه خان أحمد — وهى عمة الشاه عباس — وابنته فقد تم ترحيلهما إلى العاصمة حيث تعذر على خان أحمد أن يأخذهما معه ، فعاشتا فى بلاط الشاه عيشة مكرمة إلى أن أدركت الوفاة الزوجة عام ١٠١٧ هـ ، وعندما بلغت الابنة سن الزواج طلب الشاه من ابنه صفى ميرزا أن يتزوجها ، ولكن الأمير رفض ذلك ، مما دفع الشاه عباس نفسه إلى أن يتزوجها [١] .

٣ — فتنة شاهور ديخان فى لرستان .

انتهز شاهور ديخان فرصة انشغال الشاه عباس ببعض المهام ، وهاجم قلعة « صد مرة » ، واحتلها ، ودعا جميع أمراء منطقة لرستان للاتحاد معه ضد الشاه عباس أحد قواده ويدعى مهد يقلى خان شاملو بالتوجه صوب قلعة صد مرة والقضاء على شاهورديخان ، وتقدم جيش الشاه صوب القلعة واحتلها مما دفع شاهور ديخان للهرب إلى بغداد .

وبعد فترة الانتظار والترقب ، استغل شاهورديخان انشغال الشاه عباس بأمور خراسان والقضاء على الخطر الأوزبكى ، وعاد مهاجمة لرستان واحتلها ، فاضطر الشاه لارسال حملة أخرى إلى المنطقة ، واستطاعت هذه الحملة القضاء على الفتنة ، وألقت القبض على شاهورديخان وقتلته ، كما قتلت الكثيرين من أتباعه ، وأمر الشاه بإيداع ولدى شاهورديخان قلعة ألموت [٢] .

٤ — فتنة حاكم لار المتمتعة بالحكم الذاتى :

كانت منطقة لار بفارس تتمتع منذ أيام الدولة الساسانية بحكم ذاتى ،

---

(١) شاه طهماسب صفوى ، مجموعهٔ اسناد . . ص : ١٣

(٢) ملحقات روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص ٢٧١ ، ٢٨٥ ، ٣٠٢ - ٣٠٥ ، أنظر أيضاً زندگانى شاه عباس أول جـ ٣ ، ص : ١٦٥

وحرص حكامها على مهادنة أى حكومة قوية تجاورهم ، وكانوا يتفقون مع هذه الحكومات على دفع الجزية فى مقابل الإبقاء على الاستقلال الذاتى لحكومة لار ، وظل الحال كذلك حتى حكمت الدولة الصفوية إيران ، فتعهدوا للشاه اسماعيل بدفع الجزية والبقاء مستقلين عن الدولة ، فوافق الشاه اسماعيل واستمر الحال كذلك فى عهد الشاه طهماسب ، ولكن ما أن اضطربت أحوال الدولة الصفوية خلال فترتى حكم الشاه اسماعيل الثانى والسلطان محمد خدابنده ، حتى امتنع حكام لار عن دفع الجزية ، وعندما تولى الشاه عباس الأول الحكم حرص على تأديب حكام لار وإرغامهم على دفع الجزية ، وإلا قوض دعائم حكومتهم وضم لار إلى حكمه المباشر ، وقد واتته الفرصة عندما بلغه أن حاكم لار ويدعى ابراهيم خان يعامل أهالى تلك المنطقة بقسوة وغلظة مما جعل أهالى لار يتطلعون إلى الشاه عباس كى يخلصهم من ابراهيم خان وقسوته (١) .

أخيراً تأزم الموقف بين الشاه عباس وحاكم لار عندما اعتدى هذا الحاكم على أحد التجار الأجانب الوافدين إلى إيران بتشجيع من الشاه عباس وقد استولى على أمواله وأموال زوجته ، فحرص الشاه عباس على استرضاء التاجر الأجنبى ، فأرسل إلى ابراهيم خان يطلب منه الإسراع فى رد أموال التاجر وأموال زوجته ، ولكن ابراهيم خان تباطأ فى تنفيذ مطلب الشاه عباس، مما جعله يصدر أوامره إلى حاكم فارس اللهورديخان لكى يتقدم صوب لار ، ويؤدب ابراهيم خان ويعيد أموال التاجر إليه ، ويقوض بعد ذلك دعائم حكومة لار المستقلة .

وامتثالا لأوامر الشاه عباس تقدم اللهورديخان إلى منطقة لار وقمع فتنة

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ج ٨ ، ص : ٣٣٤

حاكمها ، وألقى القبض عليه وأرسله مكبلا بالقيود إلى العاصمة أصفهان وذلك عام ١٠١٠ ﻫ كما فرض ضرائب باهظة على سكان لار تعويضا عن السنوات التى امتنعوا عن الدفع فيها قبل عصر الشاه عباس (١) ، كما استولى القائد الإيرانى على خزائن حكومة لار ، ومن بين ماعثر عليه فى هذه الخزائن تاج مرصع بالدر والياقوت ، قيل إنه تاج كيخسرو الساسانى ، وقد احتفظ حكام لار بهذا التاج منذ العهد الساسانى حتى هذه المعركة إذ كانوا يتوارثونه فيما بينهم ، وقد أرسل اللهورديخان هذا التاج إلى الشاه عباس فى أصفهان (٢) .

وهكذا قضى الشاه عباس على فتنة حاكم لار ، كما قضى على حكومة تتمتع بالحكم الذاتى داخل حدود الدولة الصفوية ، مما كان يشعره بالضيق لوجود جزء من إيران لا يخضع لسلطانه المباشر وحكمه المطلق .

هذه هى أهم الفتن التى آثارها بعض حكام الأقاليم فى بداية حكم الشاه عباس الأول ، وإلى جانبها نشبت فتن أخرى أقل أهمية استطاع الشاه عباس القضاء عليها قبل أن يستفحل خطرها ، ومن هـــذه الفتن فتنة شاه ملك فى جيلان ، وفتنة الجماعة التى عرفت باسم سياه پوش فى استراباد (٣) .

وقد أدى نجاح الشاه عباس فى إخماد هذه الفتن إلى استتباب الأمن فى الدولة الصفوية ، وتمتع الشاه بالحكم المطلق والسلطة المركزية ، إذ أصبح جميع حكام الأقاليم يخشون سطوته ، ولا يفكرون فى الخروج عليه وإلا واجههم بالقتل والتشريد ؛ ولكن إذا كان الشاه عباس قد حكم الدولة حكما فرديا ،

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، ج ٣ ص ١٨٣ - ١٨٧

(٢) عالم آراى عباس ص : ٤٢٥ - ٤٢٧

(٣) تاريخ إيران از مغول تاافشاريه ، ص : ٣١٩

فهل معنى هذا أنه لم يستعن بوزير أو رئيس ديوان أو قائد جيش ... أشرف بنفسه على كل صغيرة أو كبيرة فى الدولة ، أم انه استعان ... إدارى كامل يصرف أمور الدولة ، ولكن من خلال توجيهات ... وأوامره ؟ هذا ما سنعرفه من خلال الكلام عن الإدارة فى عصر ... عباس .

— ٥ —

الإدارة فى عصر الشاه عباس الأول (١) :

على الرغم من الحكم المطلق للشاه عباس ، فإنه كان يستعين بعدد ... المعاونين من وزراء وقواد وكتاب ، وذلك لاتساع رقعة الدولة الصفـ... وكثرة المهام التى يزاولها الشاه ، وانشغاله بالحروب الكثيرة ، وأهم هؤلاء المعاونين أولئك الذين كانوا يكونون مجلس البلاط ، وهم سبعة أفراد وترتيب... حسب أهمية مناصبهم كما يلى :

أولا : اعتماد الدولة (الوزير الأعظم) وهو الشخص الثانى بعد الشاه كما أنه الرئيس الأعلى لأركان الدولة وعامة أمراء البلاط وجميع أمراء الولايات ، وهو المشرف على الأمور المالية والمتصرف فى جميع نفقات الخزانة (٢) ، ويجلس إلى يمين الشاه فى المجلس ، لذا كان يقال له أحيانا وزير ...

---

(١) للمزيد من التفصيلات يرجع إلى :

Tadbkirat Al-Muluk Trans, by. V. Menorsky London 1943.

وقد نشر مع الترجمة الأصل الفارسى [المجهول المؤلف]

وكذلك : إيران در زمان صفويه ، ص : ٤٠٤ - ٤١٠

وكذلك : زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٢ ، ص : ٣٩٧ - ٤٠٧

(٢) تذكرة الملوك ص : ٨ - ٩

الميمنة ، وكان الوزير يوقع القرارات أولا ، ثم ترفع بعد ذلك للشاه لكى يعتمدها(١) .

وقد تولى هذا المنصب سبعة وزراء فى عصر الشاه عباس ، وهؤلاء الوزراء هم :

١ - ميرزا شاهولى : وكان وزيرا لمرشد قليخان قبل مقدم الشاه عباس إلى قزوين ، وعندما تم تتويج عباس فى آخر عام ٩٩٦ هـ اسندت الوزارة إلى هذا الوزير استجابة لطلب مرشد قليخان ، وظل يشغل المنصب حتى اغتيل مرشد ، فأبعد عن الوزارة(٢) .

٢ - ميرزا محمد كرمانى : وقد ساعد الشاه عباس فى القضاء على مرشد قليخان ، لذا كافأه الشاه بمنصب الوزارة ، ولكنه عزل عنه بعد حوالى ستة شهور فقط ، وتم قتله فى عام ٩٩٨ هـ ، إذ حاول تقليد مرشد قليخان فى فرض سيطرته وسلطانه ، والتصرف فى كل أمور الدولة دون الرجوع إلى الشاه عباس(٣) ، كما ارتكب ابنه بعض الأعمال المستهجنة والتى أثارت الشاه ضده وضد أبيه ، فصمم على التخلص من هذا الوزير(٤) .

٣ - ميرزا لطف الله الشيرازى ، وقد تقلد المنصب مدة عامين إلى أن تم عزله فى عام ١٠٠٠ هـ (١٥٩٢ م) .

٤ - حاتم بيك الأردوبارى : وتولى الوزارة عشرين عاماً ، امتدت ما بين عام ١٠٠٠ هـ وعام ١٠١٩ هـ ، وقد تولى قبل الوزارة منصب مستوفى

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٢ ص : ٣٩٩

(٢) نفس المرجع و نفس الصفحة

(٣) عالم آراى عباس جـ ٢ ص : ٤٠٤

(٤) ملحقات روضة الصفا ، جـ ٨ ص : ٢٥٨

الممالك وأثبت كفاءة عالية فى عمله ، مما لفت نظر الشاه إليه وعينه وزيراً له وقد نجح فى هذا المنصب الجديد والدليل على ذلك أنه ظل يتقلد المنصب حتى توفى ، بل إن نجاحه شجع الشاه عباس على استوزار ابنه من بعده .

٥ — ميرزا أبو طالب خان ابن حاتم بيك ، وشغل المنصب مدة عشر سنوات امتدت حتى عام ١٠٣٠ هـ ، وأخيرا عزله الشاه عباس لسوء خلقه وإدمانه الشراب ، وعدم توفيقه فى اختيار أصدقائه وندمائه [١] .

٦ — سلمانخان استاجلو ، وشغل المنصب مدة خمس سنوات ، امتدت بين عامى ١٠٣٠ — ١٠٣٤ هـ حيث توفى فى ذلك العام الأخير بمرض السرطان [٢] .

٧ — سلطان العلماء خليفة سلطان : وتولى الوزارة عام ١٠٣٤ هـ ، وظل يشغلها بعد وفاة الشاه عباس فى عام ١٣٠٨ هـ (١٦٢٩ م) ، حيث استوزره الشاه صفى حتى عام ١٠٤١ هـ [٣] .

* * *

ثانياً : ركن السلطنة وهو الشخص الثانى فى بلاط الشاه بعد اعتماد الدولة ورئاسة جميع طوائف القزلباش معقودة له ، وهو يتولى إدارة الحرس الخاص ويوقع على كشوف المرتبات لهذا الحرس ، ومن بين الذين تولوا هذا المنصب فى عصر الشاه عباس ، عيسى خان الصفوى رئيس طائفة شيخاوند وصهر الشاه عباس [٤] .

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٢ ، ص : ٤٠٠

(٢) المرجع السابق ، ص : ٤٠١

(٣) تاريخ إيران از مغول تاافشاريه ، ص ٣٤١

(٤) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٢ ، ص : ٤٠٢

ثالثا : ركن الدولة ، أى رئيس غلمان الشاه ، فقد تولى رئاسة ذلك الجيش الذى كونه الشاه عباس من خاصة غلمانه ، ومعظمهم من الكرجيين والشركس والأرمن ، وقد أنشىء هذا الجيش للقضاء على سلطان القزلباش وسطوتهم (١) وأول من تولى هذا المنصب فى عهد الشاه عباس كان الله ورديخان .

رابعاً : كبير الياوران : وهو المسئول عن تنظيم مجلس الشاه وتحديد المكان الذى سيجلس فيه كل عضو ، وكذلك تحديد عدد الواقفين ، وكان يرأس أربعين من المشرفين على التشريفات ، ويتناوبون فيما بينهم تنظيم مجالس الشاه .

خامساً : قائد حملة البنادق ، وهو قائد الجيش الذى كونه الشاه عباس من الفلاحين ، ورعايا الولايات وأعراب خوزستان ، وقد سلح الشاه عباس هذا الجيش بالبنادق ، وكانت مهمة هذا القائد الإشراف على تدريب هذه الفرقة وإعدادها الإعـداد الذى يسمح للشاه باستخدامهم فى إضعاف قوة القزلباش .

سادساً : رئيس الديوان : ويشرف على جميع قصور الشاه وخزائنها ، وكذلك أملاك الشاه الخاصة ، كما يعتمد ميزانية تلك القصور ويرسلها إلى اعتماد الدولة كى يوقعها . وتصبح سارية المفعول ، ومن واجباته أيضا توفير أردية الشاه الخاصة ، وكذلك الخلع التى سينعم بها الشاه طوال عام قادم على من يريد .

سابعاً : كاتب مجلس الشاه ، وهو أكثر الناس احتراما فى البلاط بعد شخص الوزير الأعظم ، لذا كان يسمى (عاليجاه مقرب الخاقان) ، وهو

---

(١) تذكرة الملوك ، ص : ١٢

يجلس إلى جوار الشاه فى المجالس الخاصة والعامة ، ويحاول الجميع كسب ودّه لمعرفته التامة بجميع أسرار الدولة ، ولأنه يخط بيده كل أوامر الشاه ، ومن مهام هذا الكاتب إعداد جميع أوامر الشاه وتبليغها للجميع ، وإعداد ردود الشاه على مراسلات الملوك الأجانب ، كما يتولى عرض رسائل حكام الولايات على الشاه ، وفى المجلس يجلس إلى يسار الشاه دائمـــا ، لذا كان يقال له أحيانا (وزير الميسرة) .

هذه مناصب كبار رجال الدولة فى عصر الشاه عباس ، ومنهم يتشكل مجلس البلاط الذى يرأسه الشاه ، وفى بعض الأوقات كان المجلس يضم إلى جوار هؤلاء بعض شاغلى المناصب الأخرى إذا كان المجلس فى احتياج إليهم وأحيانا يضم المجلس بعض من يثق الشاه عباس فى رأيهم حتى ولو كانوا من غير شاغلى المناصب الإدارية فى الدولة ، فقد ورد فى الأخبار بأن عمة الشاه عباس وتدعى زينب بيكم كانت تحضر بعض المجالس الرسمية للشاه ، وكانت المرأة الوحيدة التى يسمح لها بالحضور وإبداء الرأى . حيث كان الشاه يأخذ برأيها أحيانا [1] .

ويجدر بنا أن نشير إلى حقيقة هامة جدا تتعلق بتصريف الأمور فى عصر الشاه عباس ، وهذه الحقيقة تتمثل فى تسلط الشاه وفرديته ، فعلى الرغم من أن مجلس البلاط كان يضم كبار رجال الدولة ، فإن رأى جميع المشتركين فيه استشارى فقط وغير ملزم للشاه ، بل إن رأى الشاه هو الملزم للجميع ولا يجرؤ أحدهم على مناقشته ورده إذا رأى رأيا غير ما يراه أعضاء المجلس وعلى هذا فإن جميع هؤلاء الأعضاء ماهم الا مستخدمون فى بلاط الشاه ، ومن

---

(١) شاه طهماسب صفوى ، مجموعهٔ اسناد . . . ص ١٦

حقه أن يبقيهم ومن حقه كذلك أن يطرد أى واحد منهم ، بل ويقتله ، وقد وضح ذلك عندما ذكرت أسماء الوزراء الذين عملوا مع الشاه عباس.

وإلى جانب هذه المناصب الرسمية ، فإن الشاه عباس كان يلجأ فى تسيير أمور الدولة إلى الاعتماد على نظام التخابر والتجسس ، حيث بث عيونه ومخبريه وجواسيسه فى كل مكان لكى يخبروه بكل مايدور من أحداث فى جميع أركان إيران ، كما كان يكلف بعضهم بالتصنت على أحوال الناس وسماع شكاياتهم من الأمراء والحكام ، وقد وصل فى جمعه المعلومات إلى درجة متقدمة جدا حتى أن أحدا من الإيرانيين لم يكن يجرؤ على التحدث عن عيوب الشاه عباس مع أخلص أصدقائه ، أو حتى داخل بيته (١).

ولكن على الرغم من قسوة الشاه عباس وجبروته ، يجب علينا الاعتراف بأنه كان ناجحا فى إدارته للدولة الصفوية ، وخير دليل على هذا النجاح ، مقارنة وضع الدولة الصفوية قبل عصر عباس وما كان يكتنفها من اضطراب وفوضى وفتن داخلية ؛ بوضعها تحت حكم الشاه عباس ، وما اتسمت به من تقدم وازدهار حضارى ، ووحدة بين جميع أقاليمها ، وقوة عسكرية مكنته من التصدى لجميع أعداء إيران فى الشرق والغرب وانتصاره عليهم .

— ٦ —

النشاط الاقتصادى فى عصر الشاه عباس :

كانت النقود المتداولة فى عصر الشاه عباس بعضها ذهبى ، وتسك فى المناسبات الخاصة كعيد النيروز ، أو الاحتفال بعيد ميلاد الشاه ، وكانت

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٣ ، ص ١٧٦ - ١٧٧

هذه العملة الذهبية تحفظ لدى أصحابها كتذكار ، حيث لم تكن
في التعامل التجاري ، أما العملة المتداولة فكانت فضية وأشهر
تلك العملة المعروفة باسم « عباسى » وهى تساوى مائتى دينار ،
ذلك أجزاء هذه العملة ، ومثل « نيم عباسى » أى نصف عباسى
مائة دينار ، ثم « شاهى » ويساوى خمسين دينارا ، و كذلك «
(عشرين) وهو يساوى عشرين دينارا (١)

وفى عصر الشاه عباس لم يكن هناك حدود تفصل بين الميزانية
وميزانية الشاه الخاصة ، بل كلاهما ميزانية واحدة ، والشاه عباس هو
والمتحكم فى توجيه مواردها النقدية والعينية وفق ما يرى ، ومصادر
هذه الميزانية متعددة ، منها . (٢)

(١) العوائد التى تحصلها الدولة على الأراضى الزراعية ، وتعرف
باسم « الرسوم » ، وإلى جانبها فرض الشاه عباس على حكام الولايات
إمداد الشاه والخزانة العامة بنصيب من إنتاجها الزراعى أو الحيوانى
البشري كذلك ، فكانت كردستان ملزمة بتوريد جزء من
العاصمة أصفهان ، وبلاد الكرج فرض عليها توريد بعض الغلمان والجوارى
فى حين تقدم خوزستان عددا معينا من الخيول العربية الأصيلة ، أما
فلاشتهارها بجودة حريرها ، فقد فرض عليها الشاه عباس أن تقدم له
من هذا الانتاج الجيد .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .
(٢) للمزيد من التفصيلات راجع زندگانى شاه عباس أول ،
ص : ٢٦٢-٢٦٦ .

(ب) العوائد التى تحصل على الأملاك الخاصة للشاه نفسه .

(ج) الضرائب على ذوى الدخول المرتفعة والملاك ، كأصحاب قطعان الماشية ، والحرفيين ، ومنها العوائد المفروضة على منتجى الحرير ، وقد فرض عليهم تقديم ثلث إنتاجهم للدولة .

(د) الجزية المفروضة على غير المسلمين من الشركس والأرمن ، والكرجيين وغيرهم ممن يدينون بالمسيحية أو اليهودية أو الزردشتية .

(ه) حصيلة الجمارك التى تحصل فى الموانى الإيرانية المطلة على الخليج العربى ، حيث كان الشاه عباس يحصل جمارك تعادل عشرة فى المائة من أثمان الواردات إلى إيران .

(و) ضريبة التبغ ، وكانت تدر مبلغا كبيرا على الخزانة العامة ، حيث كان استعمال التبغ منتشرا بدرجة كبيرة ، أدت إلى أن الشاه أصدر فى عام ١٠٢٧ ه أمرا بتحريمه خوفا على صحة مواطنيه . ولكنه عاد وسمح باستعماله بعد ذلك .

وذكر المؤرخون بأن الدخل اليومى للخزانة كان حوالى ألف ومائتى تومان ، فى حين كان الانفاق اليومى حوالى ألف تومان (١) ، ومعنى هذا أن الميزانية كانت تنعم بوجود فائض كبير سمح للشاه عباس بإحداث نهضة عمرانية فى أصفهان وغيرها من مدن دولته ، وأتاح له القيام بحروب متصلة فى الشرق والغرب ، كما سمح له بتبادل الهدايا والتحف مع ملوك أوربا والهند .

أما عن الأنشطة الاقتصادية فى عصر الشاه عباس ، فكانت تتمثل أهمها فى ثلاثة أنشطة ، هى النشاط التجارى والنشاط الزراعى والنشاط الصناعى ، ويجدر

---

(١) المرجع السابق ، ص : ٢٦٨

بنا أن نتناول كل نشاط باختصار ، لنتعرف على مجهودات الشاه عباس في كل منها .

أولا : النشاط التجارى .

حرص الشاه عباس على تحقيق الانفتاح التجارى لبلاده على العالم شرقه وغربه ، كما حرص على أن يجعل من أصفهان العاصمة مركزا تجاريا هاما في الشرق يفد إليه التجار من جميع أنحاء العالم[١] ، لذا نجده يدخل في صفقات تجارية مع الجميع ، حيث وصل النشاط التجارى الخارجى حتى الصين والهند شرقا ، وممالك أوربا المختلفة غربا[٢] ، ولكى تفلح مساعيه في تحقيق انفتاح تجارى أخذ يدعو تجار العالم إلى زيارة إيران ، ويبذل كل مساعيه لتشجيع هؤلاء التجار على التبادل التجارى مع التجار الإيرانيين ، ولكى يطمئن تجار أوربا المسيحيين إلى نواياه الصادقة قدم لهم الضمانات الكافية والمشجعة ، ومن هذه الضمانات[٣] :

(أ) أصدر أوامره المشددة إلى جميع حكام الأقاليم بعدم التعرض للتجار الأجانب متى وفدوا إلى إيران ، والسماح لهم بالتجول بحرية في جميع أرجاء إيران ، وقد ذكرت أن من أسباب قضائه على حكومة لار المستقلة ذاتياً اعتداء حاكمها ابراهيم خان على أحد التجار الأجانب وسلبه أمواله .

(ب) السماح لهؤلاء التجار الأجانب بالسلوك حسب عاداتهم وتقاليدهم الخاصة ، دون إلزامهم بمراعاة العادات والتقاليد الإيرانية .

---

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ٥٥

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٤٠

(3) History of Persia Vol II p.177.

(ج) إصدار الأوامر المشددة لرجال الدين الشيعى بعدم التعرض لهؤلاء التجار الأجانب وكلهم - تقريبا - مسيحيون ، وأن يسمح لهم بإقامة شعائر دياناتهم ، وكان متشددا فى ذلك الأمر ، حتى أن رجال الدين الشيعى أحسنوا معاملة هؤلاء المسيحيين بطريقة تفضل بكثير معاملتهم للرعايا الايرانيين الذين يتبعون المذهب السنى .

ومن الوسائل التى لجـأ إليها الشاه عباس لتشجيع التبادل التجارى كذلك حرصه على أن تكون مفاوضات جميع رسله إلى أوربا تشمل الى جانب التعاون السياسى والعسكرى ، التباحث فى التعاون التجارى وتبادل البضائع بين إيران وبين الدول التى يزورها هولاء المبعوثون ، فعندما سافر أنتونى شرلى وحسينعلى بيك بيات الى أوربا ، عقدا معاهدات تجارية لبيع الحرير الإيرانى إلى الدول التى زاراها[1] .

وتشجيعا للنشاط التجارى وتسهيله وتأمينه ، اهتم الشاه عباس بإنشاء الطرق وتعبيدها ، ومنها طريق مازندران الساحلى ليربط مناطق بحر الخزر شرقيها بغربيها ،[2] كما أنشأ النزل لتقديم جميع احتياجات التجار والمسافرين من طعام وجياد وأماكن للمبيت ، كما زودت هذه النزل والأربطة بالقوات الخاصة بحراستها وحراسة الطرق وتأمينها ضد قطاع الطرق .

ونظراً للمكانة العظيمة التى حظيت بها التجارة فى عصر الشاه عباس الأول ، ونتيجة لازدهار التبادل التجارى بين إيران ودول العالم الخارجى ،

---

(١) نصر الله فلسفى . تاريخ روابط إيران وأوربا در دوره صفويه ، قسمت أول . طهران ١٣١٦ ش ص : ٢١

(٢) لغت نامه ، شمارة ٧٦ ، ص : ٤٣ .

نجد الشاه عباس يهتم بموانى إيران المطلة على الخليج العربى ، ويقوم بـ
ميناء (بندر عباس) ليحل محل ميناء كمبرون الذى فقد مكانته بعد طرد القوات
البرتغالية منه ، (١) وقد ازدهرت موانى الخليج فى فترة حكم الشاه عباس
حيث حرصت الشركات التجارية الأجنبية على إقامة دور تجارية لها فى هذه
الموانى وفى غيرها من مدن إيران المختلفة ، فقد أنشأت كل من شركة الهند
الشرقية الانجليزية وشركة الهند الشرقية الهولندية دورا تجارية لها فى بندر
عباس وأصفهان وشيراز . ولاشك أن اهتمام الشركات الاحتكارية بـ
الخليج جلب الكثير من الكوارث بعد ذلك إلى جميع البلاد المطلة على
الخليج العربى ، حيث فتح الشاه عباس لبعض هذه الشركات الباب للتواجد
فى المنطقة ، ومن بعده لم يوجد فى إيران ولا فى البلاد العربية المطلة على الخليج
الشخصية السياسية التى توقف هذه الشركات عند حد التعامل التجارى
فانقلب وجودها الى استعمار أوربى سيطر على معظم البلاد المطلة على الخليج
من جهتيه العربية والإيرانية .

وتجارة إيران الخارجية كانت تعتمد بالدرجة الأولى على بيع الحرير الإيرانى
ذى الشهرة العريضة فى أوربا ، ونظراً لأهمية الاتجار فى الحرير بالنسبة لإيران
وجدنا الشاه عباس يحتكر هذه التجارة لنفسه ، فكان يشرف على جميع
عمليات تسويقه ويحقق لنفسه الأرباح الطائلة من وراء هذه التجارة (٢)

وكانت قوافل تجارة الحرير تتخذ أكثر من طريق إلى أوربا
الطريق البرى عبر العراق والشام (وكلاهما خاضع للدولة العثمانية) ، ومن

---

(١) لورانس ليكهارت : انقراض سلسلهٔ صفويه وأيام استيلاء افاغنه
در ايران ، ترجمهٔ مصطفى قلى عماد ، طهران ١٣٤٣ ش ، ض : ٤١٤

(٢) Hisrory of Persia, Vol II P- 189

تنقل بحرا إلى موانى أوربا ، وكانت الدولة العثمانية تحصل من هذه القوافل رسوم عبور للمرور عبر أراضيها ، وهناك طريق آخر بحرى ؛ حيث يرسل الحرير إلى ميناء هرمز فى جنوب الخليج ، وتأتى السفن الأوربية فتحمله ، وتتوجه به إما صوب الهند ، وإما صوب أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح . وكان هناك طريق ثالث ، حيث تسلك القوافل طريقا بريا عبر الأراضى الروسية ومنها إلى عواصم أوربا . (١)

والملاحظ أن الشاه عباس كان حريصا على تصدير الحرير عن طريق موانى الخليج وذلك لكثرة الحروب بينه وبين الدولة العثمانية ، وعدم رغبته فى دفع رسوم عبور لهذه الدولة المعادية ، (٢) ولكن هذه الرغبة اصطدمت بمشكلة أخرى تمثلت فى جشع البرتغاليين المسيطرين على حركة الملاحة في الخليج العربى باحتلالهم لجزيرة هرمز وأجزاء أخرى من سواحل الخليج ، فقد حرص هؤلاء البرتغاليون منذ مجيئهم إلى هذه المنطقة أيام حكم الشاه اساعيل الأول على احتكار التجارة فى المنطقة ، وعدم السماح بتصدير الحرير الإيرانى إلى الهند أو أوربا إلا عن طريقهم (٣) وقد أدى مسلكهم هذا الى ضيق الشاه بهم ومحاولته التخلص منهم عن طريق التآمر مع مندوبى شركة الهند الشرقية الإنجليزية لطردهم من المنطقة ، وبخاصة أن الشاه عباس كان حريصا على إيجاد منافسة بين تجار عديدين فى كل البلاد الأوربية ، وستؤدى هذه المنافسة الى رفع قيمة الحرير الإيرانى . وقد نجح الشاه عباس فى تحرير تجارة الحرير من احتكار البرتغاليين وبيعه لأى مشتر يدفع السعر الذى يحدده الشاه عباس .

---

(١) إيران درزمان صفويه ، ص ١١٧

(2) History of Persia, Vol II P. 189

(٣) إيران درزمان صفويه ، ص : ١١٧

وهكذا نلاحظ أن الانفتاح التجارى فى عصر الشاه عباس، كان نافذة أطلت منها إيران على العالم، وجعل أصفهان تعج بالتجار الأجانب من كل بلاد العالم، وقد وفر لها هذا الانفتاح ازدهارا اقتصاديا وعمرانيا لم تشهد له مثيل فى أى عصر آخر من عصور وجودها سواء قبل عصر الشاه عباس أوسواء بعدعصره، ونتيجة لهذا الازدهار أطلق البعض عليها عباره (أصفهان نصف الدنيا).

ثانيا: النشاط الزراعى:

كانت الأراضى الزراعية فى عصر الشاه عباس مقسمة الى أربعة أقسام(١)

ا — أراضى الإيالات والولايات، ويشرف عليها حكام الأقاليم ويقومون بتوزيعها على من يرغبون من رعيتهم وأتباعهم، وهذه الأراضى تمثل أكبر نسبة بين أراضى إيران الصالحة للزراعة.

ب — الأملاك الخاصة بالشاه عباس، ودخل هذه الأراضى يؤول الى خزانة الشاه الخاصة، وإن كان الشاه يقدم بعضا منها لأفراد حاشيته وكبار قواده.

جـ — أراضى الأوقاف الخيرية، وهى الأراضى التى أوقفها أصحابها على المؤسسات الدينية والأماكن المقدسة، وقد يكون الواقف لهذه الأراضى الشاه نفسه، أو أحد أفراد الرعية.

د — أراضى عامة الشعب، وهى نسبة ضئيلة لاتكاد تذكر بالنسبة للأراضى الأخرى وهى التى كان الشاه عباس يمنحها للمواطنين فى صورة

---

(١) زندگانى شاه عباس أول، جـ ٣، ص: ٢٧٠.

إيجار رمزى مدته تسع وتسعون سنة ، وبعد انقضاء المدة تعود الأرض إلى حاكم الإقليم الذى يعيد توزيعها من جديد إما على مستغلها الأول ، أو على منتفع جديد .

ومما لاشك فيه أن عدد العاملين بالزراعة كان يفوق عدد العاملين فى أى مهنة أخرى : وذكر بعض السائحين الأوربيين - ومنهم شاردن الفرنسى أن الفلاحين الإيرانيين على الرغم من حرمانهم التقريبى من ملكية الأراضى التى يزرعونها ، إلا أنهم كانوا فى عصر الشاه عباس وعصر من خلفوه من حكام الدولة الصفوية ، يعيشون حياة رغدة تفوق معيشة أقرانهم فى أوربا . (١)

ونلاحظ من خلال هذا التقسيم للأراضى فى عصر الشاه عباس ، أن الشاه كان يملك مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية ، كما أن سلطانه فى هذا الأمر لايعرف الحدود والقيود ، حيث كان فى مقدوره ضم أى أراض إلى ملكيته الخاصة وقد حدث هذا على سبيل المثال ، عندما كان يأمر بضم أملاك قواد القزلباش الذين فتك بهم ، ومنهم مرشد قليخان ، إلى ملكيته الخاصه(٢) كما أصدر أوامره بامتلاك جميع أراضى الشاه طهماسب الأول فى منطقه أصفهان ، التى كانت فى حوزة أخيه حمزة ميرزا ، ومن بعده أخوه أبو طالب ميرزا (٣)

---

(١) ايران در زمان صفويه ، ص : ٣٨٢ .

(٢) ملحقات تاريخ روضه الصفا ج ٨ ، ص ٢٥٢ .

(٣) زندگانى شاه عباس أول ، ج ٣ ، ص : ٢٧٩

ثالثاً : النشاط الصناعى .

من أهم الصناعات الحديثة الظهور فى عصر الشاه عباس ، صناعة الأسلحة النارية [١] فقد انتهز الشاه عباس فرصة مقدم البعثة الإنجليزية بقيادة الأخوين شرلى ، وتباحث معهم على تطوير قواته المسلحة ، فأشاروا عليه بإنشاء مصنع لإنتاج الأسلحة ، وأنهم على دراية بهذا الأمر ومستعدون للمساعدة فى إنجاح هذه الصناعة فى إيران ، فرحب الشاه عباس بهذا الرأى ، وأنشأ المصانع التى أمدت جيشه بستين ألف بنـــدقية ، وخمسمائة عربة مدفع [٢] ، وقد ساعدته هذه المعدات فى التصدى للدولة العثمانية ومحاولة الانتصار عليها .

ومن الصناعات الهامة التى ازدهرت فى عصر الشاه عباس كذلك صناعة النسيج وبخاصة فى مدينة أصفهان ، حيث اختص الشاه مصانع العاصمة بإنتاج المنسوجات التى يهديها إلى ملوك أوربا وعظماء دولته ، وأدى هذا الأمر إلى خلق المنافسة بين مصانع العاصمة لتقديم الأجود [٣] .

كما اهتم الشاه عباس بصناعة السجاد ، حيث أنشأ مكتباً خاصا يتولى إدخال الخيوط الذهبية والفضية والحريرية فى صناعة السجاد ، كما أن أمر بصناعة سجاجيد حريرية تستعمل فى قصوره الخاصة ، أو ليقدمها هدايا لملوك أوربا وقد أحرز هذا السجاد المصنوع من الحرير شهرة فائقة ، أدت إلى أن أحد ملوك بولندا المعاصرين للشاه عباس أرسل بعض التجار ليشتروا له عدة سجاجيد حريرية ليزين بها قصره [٤] .

---

(١) لغت نامه ، شماره ٧٦ ص : ٤٣

(٢) تاريخ أيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٢١ .

(٣) إيران در زمان صفويه ، ص : ٢٨٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص : ٢٩٦ .

ومن الصناعات التى يرجع الفضل فى انتشارها فى العصر الصفوى إلى الشاه عباس ، صناعة الزجاج والأوانى الفخارية ، فقد استدعى إلى ايران العمال المهرة فى صناعة الزجاج ، وأشرفوا على إقامة مصانع لإنتاجه فى شيراز ، وأصفهان وغيرهما من المدن الإيرانية ، كما أحضر بعض الصينيين المهرة فى صناعة الفخار وتطويره وعهد إليهم بمهمة الارتقاء بهذه الصناعة فى إيران .

وهكذا وجدنا الشاه عباس مهتما بالصناعة ، وأفاد من الانفتاح الاقتصادى لكى يطور الصناعة القائمة ، أو ليقيم صناعات جديدة لم تكن معروفة فى إيران قبل عصره . مما أدى إلى رواج فى حياة الصناع ، وارتقاء مستواهم الفنى نتيجة اختلاطهم بالفنيين القادمين من أوربا والهند والصين ، وظهر أثر ذلك فيما خلفوه لنا من صناعات وآثار مازال بعضها باقيا فى العاصمة أصفهان ، وفى متاحف إيران والعالم .

* * *

وهكذا استطاع الشاه عباس بعد أن أعاد الاستقرار السياسى ، تحقيق الرواج الاقتصادى فى الدولة الصفوية بعد فترة سادها الاضطراب والانحطاط أيام حكم أبيه السلطان محمد خدابنده ، وقد أفاد خلفاء عباس من هذا الرواج وإن لم يستطعوا الوصول إلى درجة الازدهار التى وصل إليها الشاه عباس ، حيث كان عصره شبيها بواحة من الازدهار وسط صحراء من الاضطرابات والانحطاط السياسى والاقتصادى .

— ٧ —

سياسة الشاه عباس مع عامة الشعب ، ورجال القبائل :

أولا : مع عامة الشعب :

يقول الإيرانيون إنه على الرغم من اتسام سياسة الشاه عباس بالقسوة والغلظة مع رؤساء طوائف القزلباش وحكام الولايات والقواد ، فإنه كان برأ عطوفا فى علاقاته بعامة الناس و كادحيهم ، وحريصا على الأخذ بأيديهم والتخفيف عن كواهلهم ، ومساندتهم ومناصرتهم ضد أى حاكم إقليم يريد فرض سلطانه عليهم ، بل إنه كان فى سفرياته يسأل سكان الأقاليم التى يمر بها عن مسلك حكامهم معهم ، فإن أشتكى أهل إقليم من مسلك حاكمهم ، عزله على الفور وأمر بمحاكمته[1] . ولهذا حرص الحكام على تنفيذ جميع المهام التى كان الشاه عباس يكلفهم للقيام بها لخدمة جماهير ولاياتهم وإلا تعرض للعقاب من جانب الشاه .

كما أن حالة الاستقرار السياسى التى نعمت بها إيران خلال عصر الشاه عباس أتاحت الفرصة لوجود مرحلة من التقدم والازدهار فى جميع المجالات ، فأفادت العامة من هذا الازدهار ، وكان أكثر المستفيدين العاملون فى مجال التجارة ، حيث كانت إيران فى عصره تتاجر مع الشرق والغرب . وكانت أصفهان تعج بالتجار الأجانب الوافدين من كل مكان ، كل هذا أدى الى تمتع طبقة التجار بحياة رغدة ، ودخول مرتفعة لم تتحقق لهم قبل هذا العصر وساعدهم على ذلك تشجيع الشاه عباس لهم وتقديم المساعدات لمن يحتاجها

---

(١) زندگانى شاه عباس أول جـ٣ ، ص : ٢٤٣ .

منهم ، لدرجة أنه كان يقدم رأسمال جديد لـكل تاجر انتكست تجارته . وأتاح للتاجر المقترض أن يسدد ديونه على أقساط ميسرة ، وإن كان الشاه عباس يتنازل فى حالات كثيرة عن هذه الأقساط(١) .

كما أن اهتمام الشاه عباس بالتصنيع وإنشاء مصانع جديدة ، وتدريب العمال على هذه الصناعات ، ساعد على الارتقاء بطبقة الصناع والحرفيين ، وزاد من دخولهم ، وقد أدى رواج حالهم إلى تـكوينهم نقابات وتشكيلات تتولى الحفاظ على حقوقهم والدفاع عن مصالحهم(٢) .

وشارك الفـــلاحون فى جنى ثمار ذلك الرواج والازدهار السياسى والاقتصادى الذى ساد البلاد فى عصر الشاه عباس ، حيث كان الشاه حريصا على حمايتهم من كل طغيان ، وكان يجود بالماشية والأرض على من جار عليه الزمن منهم ، كما كان الشاه يوقف بعض أراضيه لصالحهم ، وقد حدث هذا بعد انتصاره على العثمانيين فى معركة شماخى فى عام ١٠١٦هـ(٣) .

وتعاطفا من الشاه عباس مع عامة الشعب ، نجده يصدر أوامره بأن تتحمل الميزانية العامة كل ما ينجم عن الحرب من خسائر(٤) ، بمعنى أن تقوم الدولة بتعويض الناس عما أصابهم فى ممتلـكاتهم من ويلات الحروب العديدة التى تمت بين الشاه عباس وبين أعداء دولته فى المشرق والمغرب . ولاشك أن هذا القرار سيشجع عامة الناس على خوض المعارك وتأييد الشاه عباس فى سياسته الحربية ، مادامت الخزانة العامة ستتـكفل بتعويضهم ، ولن يضاروا

---

(١) المرجع السابق جـ٢ ، ٣٦٧ .

(٢) أيران در زمان صفويه ص : ٣٨١ .

(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ٨ ، ص : ٣٩٠ .

(٤) زندگانى شاه عباس أول ، جـ٢ ص : ٣٦٩ .

هم فى أرزاقهم وممتلكاتهم وهذا التشجيع له أثره على مواصلة الشاه عباس لخوض المعارك دون تبرم من شعب أو ضجر مهما تعددت الحروب وكثرت ويلاتها .

ومن الأعمال التى كان الشاه عباس يتقرب بها من العامة ، حرصه على إطعام زوار الأماكن المقدسة والمزارات الشيعية ، وبخاصة زوار العتبة الرضية فى مشهد ، وزوار قبر الشيخ صفى الدين جد الأسرة الصفوية فى أردبيل فكان يأمر بتقديم الطعام لهؤلاء الزوار طوال العام لا فى شهر رمضان المبارك فقط ، كما كان يصرف لبعضهم نقوداً كذلك(١) .

وهكذا كان الشاه عباس عطوفا مع طبقات الشعب الكادحة ، حريصاً على الأخذ بأيديهم ضد الفاقة ، ومصائب الزمان . وهذا العطف دفع البعض للقول بأن الشاه عباس فى عطفه هذا وعدله يعد أنوشيروان الثانى(٢) .

وفى رأيى أن الشاه عباس كان يلجأ إلى هذا التعاطف خدمة لأهدافه ومصالحه؛فحرصه على التخلص من رؤساء طوائف القزلباش والقواد والحكام كان يلزمه بالبحث عن جبهة أخرى يستند اليها وتؤازره . فكانت هذه

---

(١) المرجع السابق ص : ٣٧٠ .

(٢) تاريخ ايران از مغول تا افشاريه ، ص ٣٤٠ ، وأنو شيروان هو : كسرى أنو شيروان الملقب بالعادل ، الحاكم العشرون من حكام الدولة الساسانية التى حكمت إيران قبل الإسلام ، وقد تولى بعد أبيه قباد الذى شجع ديانة مزدك مما سبب اضطراب الأحوال السياسية والاجتماعية فى إيران ، وما أن تولى أنو شيروان حتى قضى على المزدكية وقتل الكثيرين من أتباعها ، وأعاد لإيران الأمن والطمأنينة وحكم بين الناس بالعدل ، فأحبه الجميع وأطلقوا عليه لقب « العادل » ، وكان مولد محمد عليه السلام فى أواخر سنى حكمه . انظر : الكرديزى : زين الأخبار ، ص ٣١ - ٣٣ ، تهران ١٣٤٧ ش .

الجبهة عامة الشعب والجماهير الكادحة ؛ وهم الذين اعتمد عليهم فى تكوين جيوشه الجديدة التى مكنته من التخلص من سيطرة القزلباش ؛ وهم الذين التفوا حوله نتيجة عطفه عليهم ؛ وواصلوا الحروب فى الشرق والغرب وحققوا جميع الانتصارات التى مجدت الشاه عباس فى تاريخ إيران بعد ذلك.

. . .

ثانياً : مع القبائل والطوائف المختلفة :

أما معاملته للقبائل والطوائف القاطنة أرض إيران والخاضعة للحكم الصفوى فكانت خاضعة لظروف كل قبيلة وطائفة ، ومدى حرصها على التبعية للتاج الصفوى ، ومدى خضوعها للشاه عباس وامتثالها لأوامره ونواهيه ، ولكى نتفهم هذه المعاملة يجمل بنا أن نتحدث عن مسلكه مع مجموعتين من هذه القبائل والطوائف ؛ إحداهما قبائل الأكراد السنية ، وثانيهما جماعات الأرمن المسيحية.

القبائل الكردية تقطن المناطق الشمالية الغربية من آذربايجان ومنطقة كردستان لذا فهم يجاورون الحدود العثمانية ، ويتبعون مذهبها السنى ، مما أوجد نوعا من التعاطف بينهم وبين العثمانيين . وقد كانوا يعلنون تبعيتهم للدولة الصفوية أيام حكم الشاه اسماعيل الأول والشاه طهماسب ، ولكن عندما اجتاحت الاضطرابات الدولة الصفوية أيام حكم الشاه اسماعيل الثانى والسلطان محمد خدابنده ، واستطاعت الدولة العثمانية احتلال أجزاء كبيرة من آذربايجان ، أعلن هؤلاء الأكراد تعاطفهم مع العثمانيين رفقاء المذهب السنى ، وعندما تولى الشاه عباس الحكم واستطاع طرد العثمانيين من مناطق

آذربايجان ، صمم على الانتقام من هؤلاء الأكراد السنيين وتشريدهم حتى سنحت الفرصة لذلك .

وفى عام ١٠١٣ هـ حدثت فتنة كردية ضد حكامهم الصفويين . أدت إلى استيلاء الأكراد من قبيلة مكرى على بعض القلاع الحصينة فى منطقتهم ومنها قلعتا پسك وما كو (١) ، فأمر الشاه عباس جنوده بالتحرك صوب المنطقة الثائرة والاستيلاء على القلاع الحصينة بها ، والتى يحتمى بها الثائرون والبطش بضراوة وقسوة بهؤلاء الأكراد ، فتقدم الجيش الصفوى وحطم قلاع الأكراد وأشاع فيهم القتل والتشريد حتى أصبح الرجال طعمة للسيوف ووقعت النسوة والصبية فى ذل الأسر (٢) .

وقد حاول الأكراد المكريون استعطاف الشاه عباس بعد أن أبقى على حياتهم ، وتقدم زعيمهم قباد خان ومعه مائة وخمسون فارس إلى الشاه عباس الموجود فى مراغة فى ذاك الوقت . وذلك لإظهار خضوعهم وتقديم فروض الطاعة للشاه ، ولكن ما أن وصلوا إلى بلاطه حتى فتك بهم جميعاً (٣) .

ولم يكتف الشاه عباس بالتنكيل بهم فى ديارهم ، وإنما أقدم على اتخاذ خطوة أشد قسوة ، وهى تهجير عدد كبير منهم بالقوة إلى مناطق أخرى ليفقدوا الحماس للأرض التى يعيشون عليها ، فتخبو نار ثورتهم ، ويعيشون ق

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، حـ٨ ، ص : ٣٧٢ - ٣٧٣ .

(٢) عالم آراى عباس ص ٥٧٥ .

(٣) محمد أمين زكى خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن ، ترجمة : محمد على عونى . القاهرة ١٩٣٦ م ص : ٢٠٧ ، ٢٠٨ :

قل الغربة والاستكانة ، فقد أمر بنقل خمسة عشر ألف أسرة كردية ، ومعهم كل أمتعتهم ووسائل معيشتهم وقطعان ماشيتهم من كردستان إلى شرقى خراسان ، ليكونوا فاصلا بشريا بين الإيرانيين وبين الأوزبك فيما وراء النهر[1] ؛ ولعله أراد بهذا الإجراء أن يجعل من هؤلاء الأكراد السنيين أول من يتلقون ضربات الأوزبك السنيين ، وبذا يتخلص من كليهما معا ويستريح من فتن الأكراد فى إيران ومن أى هجوم أوزبكى مفاجىء على حدوده الشرقية

ولم يكتف الشاه عباس بما فعله معهم حتى الآن بل فرض عليهم ضرائب باهظة ، ووضعهم تحت رقابة صارمة ، وحكم حديدى ، كى لا يتيح لهم أى فرصة للخروج عليه ومعاودة الثورة ضده .

هكذا عامل الشاه عباس الأكراد السنيين بقسوة بالغة وعنف شديد ، وعلى النقيض من ذلك كانت معاملته للأرمن المسيحيين ، حيث كان بهم براعطوفا ، وحرص على التقرب منهم والتودد إليهم ، حتى أنه كون جيشا جديدا عماده أبناء الطوائف المسيحية القاطنة إيران ومنهم الأرمن والشراكس والكرجيين . كما أن الشاه عباس لجأ إلى تهجيرهم ، ولكن بغرض حمايتهم لا بهدف تشريدهم كما فعل مع الأكراد ، فعندما عاودت الدولة العثمانية هجومها على آذربايجان فى عام ١٠١٣ هـ ، أصدر الشاه عباس أوامره بتهجير سكان أرمينيا من ديارهم وإحراق كل المزروعات ، فعل ذلك حتى يؤمن الأرمن من أخطار الحرب ، وحتى لا يجد العثمانيون مايقتاتون به إذا دخلوا تلك الديار ، وقيل إن عدد الأرمن الذين هجروا كان حوالى ستين ألف شخص ، ووزعهم الشاه عباس على ولايات إيران المختلفة . وأنزل بعضهم ضاحية جديدة بنيت

---

(١) History of Persia Vol 11, p·174.

والمرجع السابق ص : ٢١١ .

من أجلهم بجوار العاصمة أصفهان ، وعرفت باسم « جلفا » وهو نفس اسم عاصمتهم التى هجروها فى آذربايجان . وقد زود الشاه عباس الضاحية الجديدة بكل مايلزم المهاجرون الجدد ، وبنى لهم فيها كنيسة كبيرة (١) .

ولاشك أن الشاه عباس أحسن معاملة الأرمن أملا فى خطب ود الدول المسيحية الأوربية ، ورغبة فى التحالف معها ضد العدو المشترك وهو الدولة العثمانية ، كما أراد الإفادة من هؤلاء الأرمن المهجرين إلى أصفهان فى تنشيط التجارة الإيرانية وبخاصة الحرير (٢) ، حيث كانوا ذوى مهارة فى التجارة فرغب فى أن يستشيرهم فى مشروعاته التجارية وأن يعهد إليهم بتسويق الحرير الإيرانى الذى يمتلك بمفرده حق بيعه خارج إيران .

والحديث عن سوء معاملة الشاه عباس للأكراد السنيين . وحسن معاملته للأرمن المسيحيين يقودنا إلى الحديث عن سياسته المذهبية وتعامله مع أصحاب المذاهب الأخرى والديانات المختلفة .

— ٨ —

٨ — سياسة الشاه عباس المذهبية

أولا : تعصبه الشيعى

كان الشاه عباس شديد التعصب للمذهب الشيعى ، حريصا على إرساء دعائمه ، وقد بذل قصارى جهده فى ترويج المذهب الإثنى عشرى الشيعى ومن مظاهر هذا الاهتمام الزائد حرصه على الاحتفال بكل المناسبات الشيعية مثل أعياد ميلاد جميع أئمة الشيعة ، وكذلك إقامة العزاء فى ذكرى وفاتهم

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ٣ . ص : ١٨٨ .

(٢) إنقراض سلسلة صفويه ، ص : ٥٣٩ .

أو استشهادهم، فقد كان يقيم فى كل عام مراسم العزاء فى اليوم التاسع عشر حتى السابع والعشرين من شهر رمضان بمناسبة استشهاد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، كما كان يقيم مراسم العزاء فى الأيام العشرة الأولى من محرم وفى ليلة عاشوراء .(١)

ومن مظاهر اهتمامه كذلك إبقاؤه على صيغة الآذان التى استنها جده الشاه اسماعيل الأول ، وهذه الصيغه تضيف إلى الصيغه الإسلامية المألوفة فى البلاد السنية المذهب ، عبارتى : أشهد أن عليا ولى الله ، وحى على خير العمل (٢) .

وكان الشاه عباس حريصا كذلك على الإكثار من زيارة أضرحة مشايخ الشيعة وأئمتهم ، والقيام بخدمتها،فكان يزور ضريح جده الشيخ صفى الدين فى أردبيل ، كما أكثر من زيارة ضريح الإمام الرضا فى مشهد ، وقد زار هذا الضريح ذات مرة سيرا على الأقدام من اصفهان إلى مشهد (١٣٣٣ كم) وذلك وفاء لنذر غير معروف ، وقد بدأ الرحلة يوم الخميس الخامس عشر من جمادى الأولى عام ١٠١٠ هـ، ووصل إلى مشهد فى الرابع عشر من جمادى الأخرة من نفس العام ، وقضى هناك ثلاثة أشهر يقوم بالخدمة ، ويعلق رضا قليخان هدايت على هذه الرحلة بقوله :

يدرك علماء التاريخ أنه لا يوجد حاكم سلك مثل هذا الطريق الذى سلكه الشاه عباس،وإذا كان هرقل قد سار من القسطنطينية إلى بيت المقدس فقد فرشوا له أرض الطريق بالورود والرياحين . فى حين سلك الشاه عباس

---

(١) زندگانى شاه عباس أول، حـ٣ ، ص : ٦ .

(٢) لغت نامه ، شماره : ٧٦ ص : ٤٢ .

الطريق على الحصى والرمال دون أن يعبد أو يمهد . وقد آثر أن يسير حافي القدمين : (١)

وبعد أن تمكن من فتح بغداد عام ١٠٣٢ هـ . واستولى على العتبات المقدسة لدى الشيعة والموجودة فى كل من كربلاء والنجف والكوفة ، نجده يسارع بزيارتها (٢) . بعد ان كان يتوق لذلك منذ تولى الحكم . ولكنه لم يتمكن من القيام بمثل تلك الزيارة لخضوع تلك المزارات تحت حكم الدولة العثمانية . وقد ذكر البعض بأنه قضى عشرة أيام فى ضريح على بن أبى طالب فى النجف ، حيث قام بخدمة زواره وبكنس أرض المقبرة (٣) .

وإمعانا فى إعلان تبعيته لآل على بن أبى طالب ،وتمسكه بالمذهب الشيعى لقب نفسه بـ (كلب عتبة على) أو (كلب عتبة الولاية) . ونقش هذا اللقب على خاتمة لكى يستعمله فى المراسلات الرسمية (٤) .

ولكن على الرغم من تعصبه للمذهب الشيعى ؛ فقد حرص على إضعاف نفوذ رجال الدين الشيعى ، وكف أيديهم عن التدخل فى شئون الدولة الصفوية السياسية والحربية ، والقضاء على اتجارهم بالدين (٥) لدرجة أنه أعلن مرارا كراهيته للحية واتخاذها وسيلة للخداع والنفاق . وقد حرص على التصدى لنفوذ رجال الدين نتيجة للفوضى التى اجتاحت النواحى المذهبية خلال حكم أبيه السلطان محمد خدابنده. حيث أهمل رجال الدين الاهتمام بالأمور الدينية

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ٨ ، ص : ٣٣١ .

(٢) تاريخ ايران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٣٦ .

(٣) زندگانى شاه عباس أول ، جـ٣ ، ص : ١٩ .

(٤) المرجع السابق ص : ١٧ .

(٥) انقراض صفويه (لكهارت) ، ص : ٢٦ .

وحرصوا على التسلط والسكسب المادى والتدخل فى كل صغيرة وكبيرة فى الدولة ؛ مستغلين فى ذلك ضعف السلطان خدابنده ، وعدم قدرته على إيقافهم عند حد الإشراف على مسائل الدين ، وترك أمور الدولة للوزراء والقواد وغيرهم ممن يشغلون المناصب الإدارية ، وقد نجح الشاه عباس فى كف أيدى الأئمة ورجال الدين عن التدخل فيما لا يعنيهم من أمور الدولة . إذ أن حرصه على الانفراد بالحكم لن يجعله يعطى لرجال الدين الفرصة للتدخل والحكم . كما لا يعقل أن يقضى على نفوذ رجال القزلباش . ويترك لرجال الدين الفرصة لمناوأته أو حتى مشاركته الحكم .

ثانيا : موقفه من الفتن المذهبية . . . .

إن حرص الشاه عباس الشديد على نصرة المذهب الشيعى . دفعه للبطش بجميع المذاهب الباطلة ، والفتن الدينية التى ظهرت فى عصره ، وتمثل فى انتشارها خطرا على المذهب الإثنى عشرى . ومن هذه الفتن ، فتنة النقطويين . ينسب المذهب النقطوى إلى أحد سكان جيلان ويدعى « محمود نامى » — يبدو أنه بدأ يدعو إلى مذهبه فى عام ٨٠٠ هـ — وتدور دعوته المذهبية على أساس أن ظهور وخلق كل شىء كان من التراب ، والتراب ليس إلا نقطة ، ولذا عرفت دعوته باسم (النقطوية) (١) .

وقد تعرضت هذه الدعوة للتنكيل من قبل الشاه طهماسب الأول (٩٣٠ — ٩٨٤ هـ = ١٥٢٣ — ١٥٧٦ م) ولكن اضطراب الأحوال خلال سنى حكم الشاه اسماعيل الثانى ، والسلطان محمد خدا بنده (٩٨٤ — ٩٩٦ هـ

(١) لمعرفة المزيد عن هذا المذهب يمكن الرجوع إلى ملحقات روضة الصفا جـ ٨ ، ص ٢٧٣ ومابعدها ، وزندگانى شاه عباس أول جـ ٣ ، ص : ٤٠ وما بعدها .

= ١٥٧٦ — ١٥٨٨ م) ساعد على ازدهار تلك الدعوة من جديد . ولما
تولى الشاه عباس الحكم ، واطلع على تفشى خطر النقطويين ، حتى صمم على
التخلص منهم ، وتخليص البلاد من شرورهم ، فأسرع على الفور إلى مقر
هذا المذهب للاطلاع عليه ، ولمعرفه أسباب إقبال العامة على مبادئهم ، ولكي
يعرف السراديب السرية فى دارهم ، فوجدها مليئة بالخمر المعتقة ومعدات اللهو
واللعب ، فأمر بإلقاء القبض على رؤسائهم ، والفتك بكل من تبع هذا المذهب
الهدام ، ومن بين الذين ألقى القبض عليهم درويش خسرو ويوسف تركش
دوز [١] ، وقد نفذ الشاه فيهما حكم الإعدام [٢] .

وعندما أدرك أتباع المذهب النقطوى بأنه لا بقاء لمذهبهم فى إيران
طالما كان عباس يتعقبهم ويقضى عليهم ، نجدهم يرحلون إلى الهند ويعيشون

---

(١) ترتبط نهاية يوسف تركش بقصة طريفة ، فالشاه عباس من المؤمنين
بالطالع وحركة الكواكب ، وقد رأى فى ذلك الوقت أن الكواكب تشير إلى
أن عظيما فى إيران سيموت قريباً . فظن الشاه عباس بأنه المقصود بذلك العظيم
فاستشار منجمه الذى رأى أن يتنازل الشاه عباس عن العرش والتاج مدة ثلاثة
أيام ، ويسند هذا المنصب إلى يوسف تركش لكى ينفذ فيه حكم الإعدام بعد
ذلك ، وهكذا يتحقق الطالع ويموت العظيم الذى أخبرت عنه الكواكب ،
وبعد انقضاء الثلاثة أيام ، يعود الشاه عباس إلى مزاولة الحكم ولبس التاج ،
وفعلا تم تنصيب يوسف تركش وأحيط بالخدم والحشم ، وقضى الشاه عباس
تلك الأيام الثلاثة فى الصيد واللعب . وأخيراً تم اغتيال يوسف هذا ، وتخلصت
إيران من خطر المذهب النقطوى . وكان تنازل عباس عن الحكم فى الفترة من
٧ إلى ١٠ من ذى القعدة عام ١٠٠١ هـ .

لمعرفة المزيد عن هذه القصة ، يرجع إلى : ملحقات روضة الصفا جـ ٨ ،
ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، زندگانى شاه عباس أول جـ ٢ ص ٣٤٠ - ٣٤٣ ،

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٢٧٣ - ٢٧٧ .

فى كنف حاكمها جلال الدين محمد أكبر ، الذى اتسم عهده بالتسامح الدينى والمساواة بين جميع أبناء آدم دون النظر إلى مذهبهم أو جنسهم (١) .

ومن الفتن الدينية التى قضى عليها الشاه عباس ، تلك الفتنة التى حدثت فى جيلان وترأسها شخص يدعى (سيد محمد) الذى ادعى بأنه نائب إمام الزمان وأنه المهدى المنتظر ، ونتيجة لسوء العلاقة بين أهل جيلان وبين الشاه عباس ، التف معظم أهالى جيلان حول صاحب هذه الفتنة ، كما ساعد مرض الشاه عباس فى مازندران (عام ١٠٢٩ هـ) على زيادة نفوذ سيد محمد ، وعلى انتشار دعوته وظل الحال كذلك إلى أن برأ الشاه عباس من علته ، وصمم على البطش بنائب إمام الزمان والملتفين حوله ، ولكنه لجأ إلى الحيلة والخديعة، حيث أظهر استعداده للدخول فى طاعة هذا المدعى ، ولكن يلزمه أن يلتقى به ويتعرف على أفكاره وتعاليمه ، لذا أرسل الشاه عباس فى طلبه إلى مازندران حيث كان يقيم فى ذلك الوقت ، وبعد مثوله إلى هناك ألقى القبض عليه ، وعلى أعوانه ، وتم اغتيالهم جميعا والقضاء على هذه الدعوة الباطلة (٢) .

وهكذا كان الشاه عباس حريصا على تدعيم المذهب الشيعى والقضاء على أى مذهب هدام يسىء إلى الإسلام، ويقلل من شأن المذهب الشيعى ،ولكنه لم يكتف فى هذا المجال بمعاداة المذاهب الهدامة فقط ، بل تعدى ذلك إلى معاداة المذهب السنى ، وإلحاق الأذى والضرر بأتباعه .

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ٣ ، ص : ٤٨ .

(٢) المرجع السابق ص : ٥٢-٥٣ .

ثالثاً : معاملة الشاه عباس لأهل السنة ...

كانت الخلافة العثمانية تعتبر نفسها حامية حمى المذهب السنى فى العالم الإسلامى فى حين ظهرت الدولة الصفوية معلنة نفسها المدافعة عن المذهب الشيعى المتصدية لكل مخالفيه ، وقد أدى هذه الاختلاف المذهبى بين العثمانيين والصفويين إلى حدوث نزاع مسلح متواصل بين هذين المعسكرين ، ولكن كفة العثمانيين كانت هى الراجحة منذ ظهور الصفويين وحتى السنوات الأولى من حكم الشاه عباس الأول ، ولكن بعد أن تمكن عباس من التخلص من الخطر الأوزبكى فى الشرق ، وأعاد تنظيم جيوشه وتسليحها بأسلحة نارية ، دخل فى عراك مع العثمانيين ، استطاع الانتصار فى النهاية وطردهم من الأراضى الإيرانية التى احتلوها أيام حكم أبيه السلطان محمد خدا بنده ، بل واستطاع الاستيلاء على بغداد ومزارات الشيعة فى العراق .

وقد كان لهذه المعارك المستمرة أثر بالغ فى زيادة الخصام المذهبى بين الصفويين والعثمانيين ، وفى زيادة تعصب الشاه عباس الأول للمذهب الشيعى وعدائه للمذهب السنى ، ومحاولته الانتقام من أهل السنة متى واتته الفرصة لذلك ، وقد وصل العداء لدرجة أن عباس حاول إقناع الإيرانيين بالتخلى عن الذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج ، والاكتفاء بزيارة قبر الإمام الثامن على بن موسى الرضا فى مشهد (١) وذلك لأن الواجب القومى يحتم عدم سفر الإيرانيين إلى مكة عبر أراض الدولة العثمانية ، حتى لا يدفعوا لهذه الدولة المعادية رسم عبور ، ولكى يرغبهم الشاه عباس فى التوجه إلى مشهد ، كان يكثر من التردد عليها وزيارة قبر الإمام الثامن بها ، كما أن سيره على

---

(١) History of persia vol II. p.181

الأقدام من أصفهان إلى مشهد كان وسيلة من وسائل ترغيبهم فى تقليده والحج إلى ذلك المزار المشهدى ، بدلا من التوجه إلى الكعبة المشرفة فى مكة .

ولعلنا أدركنا أن المعاملة السيئة التى عامل بها الأكراد الإيرانيين مرجعها بالدرجة الأولى إلى تبعية هؤلاء الأكراد للمذهب السنى ، وعدم قبولهم الدخول فى المذهب الشيعى ، مما جعلهم هدفا لغضبه وحقده . ووصل الأمر فى تعنته معهم إلى درجة التشريد فى البلاد . ونقل عدد كبير منهم من كردستان إلى خراسان بما فى ذلك من ألم نفسى وإحساس دائم بالغربة والتشريد[١] .

ومن مظاهر تعنته مع أهل السنة ، ما فعله مع سكان قلعة (أندخود) بما وراء النهر ، وكان الشاه عباس قد فتح هذه القلعة عام ١٠١١ هـ وأمن أهلها من السنة على حياتهم وممتلكاتهم ، وطمأنهم بأنه لن يتعرض لهم بالسوء بسبب اعتناقهم المذهب السنى ، ولكن حدث فى عام ١٠١٢ هـ ، وهو عائد من محاصرة مدينة بلخ أن مر بقلعة أندخود هذه ، وفجأة وبلا سبب واضح أمر جنوده بالإغارة عليها وأسر جميع أكابرها وأعيانها وقاضيها وعظمائها ، وأن يسوق كل جندى صفوى أمامه أسيرا من أهل هذه القلعة حتى يصلوا إلى منطقة العراق (أصفهان) وقد علق اسكندر بيك منشى على هذه الحادثة بقوله :

« فى طرفة عين خربت تلك القصبة ، ووقع العديد من النساء

---

(١) للإطلاع على المزيد من مظاهر القسوة التى عامل بها الشاه عباس وجنده القبائل الكردية السنية يمكن الرجوع إلى « خلاصة تاريخ الكرد وكردستان » .

والصبيان فى ذل الأسر ، وقلة من الجنود هم الذين جاءوا وليس فى سيمتهم أسرى من قلعة اندخود »[١].

وكان الشاه عباس غالبا قاسى القلب خشنا مع الأسرى العثمانيين والأوزبكيين — وهم من أهل السنة — وكان أقل عقاب يوقع عليهم إلا يقتلوا ، هو سمل عيونهم ، ولم يكن يصفح عن أى أسير منهم إلا إذا أعلن تخليه عن المذهب السنى ودخوله فى المذهب الشيعى ، ومن الذين فعلوا ذلك شريف باشا حاكم قلعة وان بمنطقة آذر بايجان ، فقد أعلن — بعد أسره — تخليه عن خدمة السلطان العثمانى ودخوله فى المذهب الشيعى والبقاء فى إيران فصفح الشاه عباس عنه وأجرى عليه راتبا شهريا من خزانته الخاصة[٢].

وقد ذكر جلال الدين محمد اليزدى المنجم الخاص للشاه عباس فى كتابه (تاريخ عباسى) العديد من مظاهر تعنت عباس مع أهل السنة ، ومما ذكره ما يلى[٣].

نزل الشاه عباس فى عام ١٠٠٨ هـ ببلدة سمنان ، وبسبب تطاول حاكمها عليه وعدم امتثال أهلها لقوانينه ، تم اعتقال عدد كبير من السنين بها ، وأمر الشاه بإطعام جهالهم بآذان علمائهم وأنوفهم ، ثم حصّل ثلاثمائة تومان منهم تكفيرا لجرمهم .

وفى عام ١٠١٨ هـ بلغه أن حاكم مدينة همدان ويدعى محمود الدباغ وهو سنى المذهب يظلم الشيعة هناك ، فأمر بإلقاء القبض عليه والفتك به ، ولكن

---

(١) عالم آراى عباسى ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، جـ٣ ، ص : ٣٨ .

(٣) نقلا عن المرجع السابق : ص : ٣٧ ومابعدها .

محمودا اختفى ، فأصدر الشاه أمرا مؤداه : إذا لم يظهر محمود الدباغ فى ظرف ثلاثة أيام فسيتم قتل كل أفراد القبائل السنية فى المدينة ، ويتم الاستيلاء على أموالهم ونسائهم وأطفالهم ، وأخيرا أتى القبض على الدباغ وأعدم .

وفى عام ١٠٢٠ هـ زار الشاه عباس قبر الشيخ زاهد الجيلانى مرشد جده الشيخ صفى الدين الأردبيلى ، وتصدق بأموال طائلة لكى توزع على خدام القبر وزواره ، بشرط ألا يقدم منها شىء لأى سنى ، كما قام بلعنهم .

وعلى الرغم من هذا العداء السافر للمذهب السنى وأتباعه ، فإن الشاه عباس كان يتظاهر أحيانا — تبعا لمصلحته الخاصة — بالعطف على السنيين وإكرام وفادة بعضهم ، فقد ذكر البعض بأنه كان يحسن استقبال التجار السنيين الوافدين من بلاد إسلامية أخرى ، وينزلهم لديه منزلا كريما [١] . ولاشك أن الشاه عباس كان يفعل ذلك مع هؤلاء التجار لحرصه على إزدهار تجارة إيران التى يعود النصيب الأكبر من ربحها عليه شخصيا . وبالتالى كان يتنازل مؤقتا عن عدائه المذهبى ، مقابل مايأمله من كسب مادى نتيجة التعامل مع هؤلاء التجار السنيين .

ومما لاشك فيه بأن عداء الشاه عباس للمذهب السنى وحماته العثمانيين ، هو الذى دفعه للاتصال بملوك أوربا المسيحيين ، ومحاولته عقد معاهدات للتعاون المشترك بينه وبينهم من أجل تقويض دعائم الدولة العثمانية السنية المذهب ، حتى ولو قدم لهؤلاء الأوربيين العديد من التنازلات ، كما سنعرف ذلك أثناء الحديث عن السياسة الخارجية فى الفصل الخامس .

• • •

---

(١) البستانى : دائرة المعارف ، جـ ١١ ، ص ٤٨٦ ، طبع مصر : ١٩٠٠ م .

رابعاً : معاملة الشاه عباس للمسيحيين :

وعلى النقيض من معاملته للسنيين ، كانت معاملته للرعايا الإيرانيين الذين يعتنقون الديانه المسيحية ، وكذلك لرعايا الدول المسيحية الذين يفدون إلى ايران بغرض السياحة أو حتى التبشير للدين المسيحى فى إيران .

سبق أن أشرنا إلى كيفية معاملة الشاه عباس للأرمن المسيحيين بعد نقلهم من جلفا فى آذربيجان إلى جلفا الجديدة بجوار أصفهان ، وهى الضاحية التى بناها على نمط المدينة المهجورة وحملت نفس الاسم ، حتى لا يشعر الأرمن بغرابة الجو الجديد الذى يعيشون فيه ، كما أمر بقصر الإقامة فى هذه الضاحية على المسيحيين دون سواهم ، وحرم على المسلمين اتخـــاذ الدور فيها ، حتى لاتثار أى مشاكل مذهبية ، وبعد ذلك بالغ الشاه عباس فى التعاطف معهم ، ومع غيرهم من الطوائف المسيحية القاطنة أرض إيران ؛ كما أحسن وفادة أى مسيحى أوربى وفد إلى قصره لأى غرض .

وقد أصبحت جلفا الجديدة مركزاً مسيحيا نشطا فى إيران ؛ حيث لعبت دوراً هاماً فى الحفاظ على الديانة المسيحية ، وعملت على نشرها ، والتبشير بتعاليمها . وظل هذا المركز يموج بالحركة الى فترة متأخرة ؛ حيث كان التجار الأوربيون وأعضاء البعثات المسيحية ينزلون دواماً فى هذه الضاحية(١) ولعل ذلك للاعلان عن تعاطفهم مع سكان جلفا وتأييدهم لهم لكى يظلوا متمسكين بديانتهم المسيحية وعدم التحول إلى الإسلام .

وكان مسلك الشاه عباس مع سكان جلفا وغيرهم من مسيحيي أوروبا مشجعا لتجار أوربا على الوفود إلى إيران أملا فى عقد صفقات تجارية معها .

(١) History of Persir, vol II, p. 181.

وكان الشاه عباس يبذل قصارى جهده لتشجيع هؤلاء الأوربيين على زيارة إيران والتعامل معها ، ولكي يطمئنهم على أنهم لن يجدوا فى إيران أى عنت أو مشقة ؛ أصدر أوامره فى عام ١٠٠٧ هـ بعدم التعرض لهم ، والسماح لهم بحرية التجوال فى أراضى الدولة الصفوية كلها ، وهذا نص الأمر الملكى :

« ... من اليوم يسمح لمواطنى الدول المسيحية ومن يدينون بدينهم بالحضور إلى أى بقعة من وطننا ولا يسمح لأى شخص بأى حال من الأحوال إهانتهم ، ونظرا لما بيننا وبين الملوك المسيحيين من علاقات ود ومحبة ، فيسمح للتجار المسيحيين بالتجول فى جميع أجزاء ايران ، ومزاولة نشاطهم التجارى فى أى بقعة من الوطن ، دون أن يتعرض لهم بالإيذاء أى شخص سواء أكان حاكما أو أميرا أو خانا أو موظفا أو تابعاً لدولتى ، كما تعفى جميع أموال تجارتهم التى يحضرونها معهم من ضرائب المال ، وليس لأى شخص مهما بلغت مكانته أن يزاحمهم أو يكلفهم المشاق ، وليس من حق رجال الدين مهما كانت وظائفهم التجرؤ على الإضرار بهم ، أو التحدث معهم بخصوص العقائد المذهبية ... (١) »

ولم يكتف الشاه عباس بإصدار هذا الأمر وتنفيذه ، بل كان حريصا على التعاطف مع المسيحيين فى كل مناسبة ، والاشتراك معهم فى احتفالاتهم الدينية ففى عام ١٠١٨ هـ أرسل إلى بلاد الكرج فى إحضار عدد من الخنازير ليقدمها هدية لمسيحيي جلفا فى عيدهم ، ثم ذهب بعد ذلك لتهنئتهم بالعيد ، وشاركهم احتساء الخمر ، وأمر جميع مرافقيه من رجال البلاط الصفوى باحتساء الخمر مشاركة للمسيحيين فى هذه المناسبة ، على الرغم من توافق ذلك العيد

---

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٠٣ .

المسيحى مع اليوم الخامس عشر من شهر رمضان ، فاضطر أفراد الحاشية إلى شرب الخمر والإفطار على محرم[1] .

وقد حاول المسيحيون الإفادة من هذا التعاطف ، وعمقوا صلاتهم بالشاه عباس ، وطلبوا منه السماح لهم بالتبشير بالديانة المسيحية فى إيران ، وبناء الكنائس فى أصفهان وغيرها من المدن ، فوافق عباس على ذلك ، وأمر ببناء كنيسة فى جلفا الجديدة على نفقته الخاصة[2] .

ومن مظاهر تعاطفه مع المسيحيين ، حرصه على زيارة الكنائس والقساوسة ، والتباحث معهم فى أمور دينهم ، ومشاهدة مراسمهم الدينية وسماع مواعظهم وترانيمهم ، حتى أصبح على دراية كبيرة بتعاليم الدين المسيحى مما شجع بعض القساوسة على دعوة الشاه عباس للدخول فى الدين المسيحى ولكنه اعتذر برفق ودون ثورة ، وقال : لنترك هذا الكلام إلى وقت آخر[3] .

وقد أدى هذا التعاطف إلى اتهام البعض للشاه عباس بأنه كان ضعيف الإيمان بالدين الإسلامى ، وبالمذهب الشيعى ، ولكن يدافع الايرانيون عنه قائلين بأن الشاه عباس كان يلجأ إلى التعاطف مع المسيحيين كضرورة سياسية لا عن عقيدة مذهبية[4] ، إذ كان حريصا على خطب ود الدول المسيحية لتسانده فى حروبه ضد الدولة العثمانية المتزمتة إسلاميا ، والمشتركة فى حروب مع العالم المسيحى فى أوربا .

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ٢ ، ص : ٢٦٤ .

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص : ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٣) زندگانى شاه عباس أول ، جـ٣ ص : ٧٢ .

(٤) عبدالله رازى همدانى : تاريخ إيران از أزمنه باستانى تاسال ١٣١٦ طهران ١٣١٧ ش ، ص : ٥٥٧ ، وتاريخ إيران از مغول تا افشاريه ص : ٣٤٠ وزندگانى شاه عباس أول ، جـ٣ ؛ ص : ٦٧ .

ويدلل الإيرانيون على صحة تدينه وحسن إسلامه بما فعله مع الكرجيين — وهم مسيحيون — من تنكيل وتخريب لديارهم ، وتحويل كنائسهم إلى مساجد(١) كما أن الشاه عباس كان يقرض التجار المسيحيين أموالا ويشترط على من يتعذر فى السداد أن يعفيه مقابل اعتناقه الإسلام ، فلولا حرص الشاه عباس على الإسلام لما حول الكنائس إلى مساجد ، ولما أجبر بعض التجار المسيحيين على اعتناق الإسلام(٢) .

ولكن هذه المعاملة الخشنة مع المسيحيين كانت استثناء ، والقاعدة أنه كان يحسن معاملتهم ولا يمكن الحكم على الاستثناء وترك القاعدة، علما بأنه لم يقدم على تحويل كنائس الكرجيين إلى مساجد إلا لأنهم خرجوا عليه وثاروا ضده ، فكان هذا التحويل وسيلة من وسائل العقاب والردع لهؤلاء الثائرين ، وعلى هذا يمكن القول بأن الشاه عباس كان مغاليا فى تعاطفه مع المسيحيين ، متماديا فى التقرب منهم ، مشجعا لهم على التحرك فى إيران والتبشير للدين المسيحى ، معينا لهم على بناء الكنائس فى أصفهان وغيرها من المدن الإيرانية ، وهذا المسلك لم نجد مثيلا له فى عصر أي حاكم صفوى سبقه على الإطلاق ، مما يجعلنا نقول بأن عصر الشاه عباس ، إذا قيس بعصور سابقيه من ملوك الدولة الصفوية ، كان عصرا ذهبيا بالنسبة للمسيحيين فى إيران .

خامسا : مسلك الشاه عباس مع اليهود :

كانت صورة اليهود فى العالم كله وبخاصة فى أوربا خلال عصر الشاه

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ج٣ ، ص : ٨٨ .

(٢) تاريخ روابط إيران وأوربا در دورهٔ صفويه ، قسمت أول ، ص : ٤٣ .

عباس (٩٩٦ — ١٠٣٨هـ = ١٥٨٨ — ١٦٢٩م) صورة بغيضة ، إذ كانت تصرفاتهم المقسمة بالخسة ملوك أوربا وقساوستها على حرمانهم من ممارسة الزراعة ، وضيقوا عليهم الخناق فى مجال التجارة ، فلم يعد لهم من مجال للكسب إلا فى تجارة الذهب والمجوهرات ، والقيام بإقراض المعوذين بالربا الفاحش وذلك من شأنه أن يخلق أحقاداً وعداوات ، وأن يعطى عن اليهود صورة قبيحة شوهاء كتلك التى أبرزها لنا شكسبير فى شخصية (شيلوك) تاجر البندقية ، ونتيجة لهذا المسلك أصبح اليهود معزولين عن الجميع ، ويقطنون أماكن وحارات خاصة بهم عرفت باسم (جيتو) (أى حارة اليهود) وبالتدريج أصبح نظام الجيتو يفرض إجباريا على اليهود ، حيث لا يسمح لهم بالإقامة فى غير حاراتهم ، أو التجول ليلا فى غير حيهم [1] .

هكذا كان حال اليهود فى العالم عامة ، وفى أوربا بصفة خاصة ، فكيف كان حالهم فى إيران خلال عصر الشاه عباس الأول ؟

لم يكن الشاه عباس يحب اليهود، بل كان على الدوام ينفر منهم وينظر إليهم بعين السوء ، وكانوا يقيمون فى أماكن خاصة بهم سواء فى أصفهان أو فى سائر المدن الإيرانية ، ولما كانت هذه الجماعة — كما يقول نصر الله فلسفى فى كتابه زندكانى شاه عباس أول ، الجزء الثالث — بعيدة عن طريق الأمانة والصدق كطبيعة تكوينهم وكعاداتهم الفطرية ، فإنهم كانوا هدفا لحقد الناس واحتقارهم وملامتهم ، بل وإيذائهم أحيانا . وعندما رغب الشاه عباس فى تحويل يهود أصفهان إلى الدين الإسلامى ، أمر بأن يصرف لكل

---

(١) دكتور حسن ظاظا : اسرائيل كفصيلة خاصة من فصائل المعسكر الاستعمارى ، القسم الأول من كتاب : الصهيونية العالمية واسرائيل ، القاهرة ١٩٧١ م ، ص ٥٨ ، ٥٩ .

يهودى يعتنق الإسلام أربعة تومانات ، فأخذ جمع كبير من اليهود النقود ، وتظاهروا بقبول الإسلام ، ولكن عندما أدرك الشاه بعد فترة وجيزة أن دخولهم الإسلام كان خشية منه ، لا عن إيمـــان قلبى ، تركهم أحرارا فى دينهم [1] .

وكان تعداد اليهود أيام الشاه عباس قليلا ، ولكنهم على الرغم من ذلك كانوا خلافا لسائر الأقليات الأخرى ، دائمى الانقسام فيما بينهم ، مما جعلهم يتحملون الكثير من الكوارث التى ألحقوها بأنفسهم . فقد ورد فى إحدى التذاكر الأوربية (رحلات بيتر ودلاواله، الجزء الخامس ،صفحة ١٥، ١٦) [2] :

فى الواحد والعشرين من شهر نوفمبر ١٦١٩م (الثالث عشر فى ذى الحجة عام ١٠٢٧) وقع فى أصفهان خلاف بين اليهود ، وتشاكوا إلى الشاه ، وأخذ كل منهم يتهم الآخر ، ووسط ذلك اتهم بعضهم ثلاثة أو أربعة من زعمائهم الدينيين بالسحر وارتكاب جنايات كبرى ، وبعد أن جرت المحاكمة صدرت الأوامر بقتلهم ، وذلك بتركهم للكلاب المتوحشة التى أعدت خصيصا لقتل المذنبين والمحكوم عليهم بالإعدام ، وقبل تنفيذ الحكم خيرهم الشاه عباس بين اعتناق الإسلام أو الإعدام ، فاختار ثلاثة منهم الدين الإسلامى ورفضه واحد اسمه (عبا) ، فنفذ فيه حكم الإعدام ، حيث هجمت عليه الكلاب المتوحشة ، وقطعت جسده إربا إربا .

وهكذا كان مسلك الشاه عباس مع اليهود شبيها بمسلك حكام أوربا معهم ، حيث كانت خستهم دافعا على النفور منهم ، والضيق من تصرفاتهم .

* * *

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، ج ٣ ص : ٩٧ .

(٢) نقلا عن المرجع السابق ، ص : ٩٨ .

بعد أن استعرضنا سياسة الشاه عباس المذهبية يمكن القول بأنه كان فى النواحى المذهبية خاضعا للظروف السياسية ، فهو شيعى متعصب ليجمع كلمة الشيعة وهم الغالبية العظمى من سكان إيران ، وليكون جديرا بمنصب الشيخ الكامل والحاكم الشرعى للدولة الصفوية التى قامت على أساس الحفاظ على المذهب الشيعى ونشره ، وهو معاد للمذهب السنى نتيجة للعداء السافر بين الصفويين والعثمانيين من جانب ، والصفويين والأوزبك من جانب آخر ، وكلا هذين العدوين من معتنقى المذهب السنى . وهو عطوف مع المسيحيين لحاجته السياسية إلى تأييد ومساندة الدول الأوربية المسيحية له فى صراعه مع الدولة العثمانية ، أما نفوره من اليهود ، فكان هذا سمة العصر إذ كانوا يستحقون هذا النفور والازدراء فى كل مكان وجدوا فيه .

وهكذا نجد الناحية المذهبية أيام حكم الشاه عباس الأول خاضعة للناحية السياسية ، بعد أن كانت الناحية المذهبية متحكمة فى كل الأمور السياسية خلال عصور كل من سبقوه من ملوك الدولة الصفوية !

الفصل الثالث

اصفهان فى عهد الشاه عباس الأول

بعد أن استقر حكم الشاه عباس وتخلص من نفوذ القزلباش وحكام الأقاليم وقضى على الفتن الداخلية ، بدأ يهتم بحركة التعمير والتشييد وشهدت مناطق كثيرة من إيران آثار الاهتمام الذى شمل العمارة الدينية كالمساجد والأضرحة وإدخال التحسينات على المزارات القديمة ، فقد عمر مرقد وقبة الإمام الرضا فى مشهد وذلك فى عام ١٠١٠ هـ[١] وأوصل مياه نهر الفرات إلى مسجد الكوفة ، وعمر قبر على بن أبى طالب فى النجف ، وذلك بعد أن فتح بغداد عام ١٠٣٢ هـ ، وغير ذلك من المزارات والمساجد التى شيدت باسمه فى جميع مدن إيران المختلفة .

وشمل اهتمامه كذلك العمارة المدنية ، حيث شيد العديد من القصور والمبانى ، وأنشأ الحدائق العامة وخطط الميادين الفسيحة ، ووصل اهتمامه إلى درجة إنشاء مناطق سكنية جديدة تحولت بعد ذلك إلى مدن مستقلة كمدينة نجف أشرف التى كانت بمثابة مصيف له ثم أخذت تتسع بالتدريج إلى درجة أن أصبحت مدينة كاملة الآن ، ومن المناطق التى شيدها كذلك ، منطقة جلفا الجديدة بجوار أصفهان .

واهتم الشاه عباس بتعبيد الطرق وإصلاحها وتزويدها بالنزل والرباطات

---

(١) لغت نامة ، شماره ٧٦ ، ص ٤١ .

حتى تزدهر التجارة ويعم الأمن ، ومن إصلاحاته كذلك إنشاء عدد من مصانع الأسلحة النارية فى أصفهان وغيرها من المدن الإيرانية [١] :..

وهكذا شملت حركة التشييد والتعمير فى عصر الشاه عباس أماكن عديدة من إيران ، حتى قال جوستاف لوبون : إن معظم العمارات والمبانى الأثرية الهامة فى إيران قد شيدت فى زمان سلطنة الشاه عباس الأول [٢]. ولكن القسط الأكبر من الآثار التى خلفها الشاه عباس — ومازال بعضها شاهدا على عظمته ، ومدى اهتمامه بالعمران والبناء — موجود بعاصمته أصفهان ؛ ولكن قبل الحديث عن هذه الآثار يجب أن نعرف لماذا اتخذ الشاه عباس أصفهان عاصمة له ، وتخلى عن العاصمة التى تم تتويجه بها وهى قزوين .

كانت تبريز أول عاصمة للدولة الصفوية منذ عهد الشاه اسماعيل الأول ، ولكن قرب هذه العاصمة من الدولة العثمانية ، جعل فى مقدور حكامها الاستيلاء عليها أكثر من مرة وهروب الشاه اسماعيل منها ، لذا وجدنا الشاه طهماسب ينقل عاصمته إلى قزوين حتى تكون بعيدة بعض الشىء عن متناول الجيوش العثمانية ، وظلت قزوين عاصمة للصفويين خلال حكم طهماسب الأول والشاه اسماعيل الثانى والسلطان محمد خدابنده ، والسنوات العشر الأول من حكم الشاه عباس الأول (أى من عام ٩٩٦ — ١٠٠٦ هـ) .

وفى عام ١٠٠٦ هـ (١٥٩٨ م) شعر الشاه عباس بأن منطقة قزوين تضيق به وبأفراد حاشيته الكثيرين ، وبجيوشه الكثيفة العدد ، وحيث تقل المياه فى تلك المنطقة مما جعل فرصة الزراعة بها قليلة ، ومحاصيلها لاتفى باحتياجات

---

(١) راجع سجل أعماله فى المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

سكانها (١) ، وأخذ يبحث عن مكان أخر يكون أكثر صلاحية من قزوين فوقع اختياره على مدينة أصفهان ، وذلك لأنها تقع على نهر زاينده رود ، مما يجعل فرصة الاستزراع فيها أوسع وأرحب ، وبذلك تتوفر المحاصيل اللازمة لإعاشة الأعداد الكبيرة من الجنود ورجال الحاشية ، كما أن مدينة أصفهان تقع فى داخل البلاد ، وبذلك تكون أكثر أمنا من أى هجمة عثمانية شرسة (٢) فقد كان الشاه عباس يستعد للدخول فى صراع مرير لطرد القوات العثمانية المحتلة لآذربايجان كلها ولأجزاء كبيرة من العراق العجمى ، ولهذا آثر أن ينقل العاصمة إلى الداخل حتى لاتكون مهددة بالاحتلال كما كان الحال بالنسبة لتبريز إبان حكم الشاه اسماعيل الأول .

وأخيرا تم نقل العاصمة إلى أصفهان عام ١٠٠٦ هـ ، وحرص الشاه عباس على تزيينها وتشييد العديد من المبانى الفخمة فيها ، وكذلك إنشاء الميادين والحدائق العامة بها ، وقد بذل فى هذا المضمار جهدا كبيرا ، وضح فى الآثار العديدة التى خلفها،ووضح كذلك فى كتابات معاصريه،وفيما سجله المستشرقون فى كتب رحلاتهم ، ونتيجة لما بلغته أصفهان من رقى وتقدم لم تبلغه فى أى عصر من عصورها السابقة ، راج تعبير مشهور وهو (اصفهان نصف جهان) أى (أصفهان نصف العالم) وهذا التعبير لم يكن ليروج إلا إذا كانت أصفهان غاية فى الجمال والأبهة والعظمة ، وتفوق جميع مدن إيران فيما حظيت به من أثار آية فى الإبداع والجمال وحتى أن الزائر لها كان يشعر بلمسات الذوق الرفيع والفن العالى المنزلة فى كل مكان بها،حيث أصبحت المدينة معرضا للفن،ونتيجة لشدة اهتمام الشاه عباس بأصفهان،والعناية بجمالها وزينتها،فقد أصبحت عاصمة تعج

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٣٠٤ .
(٢) انقراض سلسلهٔ صفويه ، ص : ٥٣٧ .

بالسكان وبالسائحين ، حتى ذكر البعض بأن تعداد سكانها فى عهد الشاه عباس بلغ حوالى ستمائة ألف نسمة [١] .

وكثير من الآثار التى شيدت فى عصر الشاه عباس قائمة حتى اليوم ناطقة بالجمال وتجد من يقبل على زيارتها والتمتع بجمالها الفنى ولكن بعض هذه الآثار قد امتدت إليها يد التخريب أيام حكم الدولة القاجارية ، فجميع الآثار والأبنية التى كانت موجودة على الشاطىء الأيمن من نهر زاينده رود ، والتى أفاض السياح الأجانب فى وصفها لم يعدلها وجود الآن ، كما أن بعض الأبنية التى كانت موجودة بداخل إيران قد امتدت لها يد العبث والتخريب ، فأقدم البعض على محو نقوشها ، أونزع نوافذها وأبوابها [٢] ...

وأهم الآثار التى خلفها الشاه عباس فى أصفهان تلك التى شيدها حول ميدان نقش جهان ، وفى أماكن أخرى من المدينة ، ولنبدأ بالحديث عن الميدان ومابنى حوله ، ثم نتبع ذلك بأهم المبانى الأخرى التى خلفها عباس ، وأضفت على أصفهان جمالا مازال أثره باقيا حتى اليوم .

١ — ميدان نقش جهان : (ميدان الشاه)

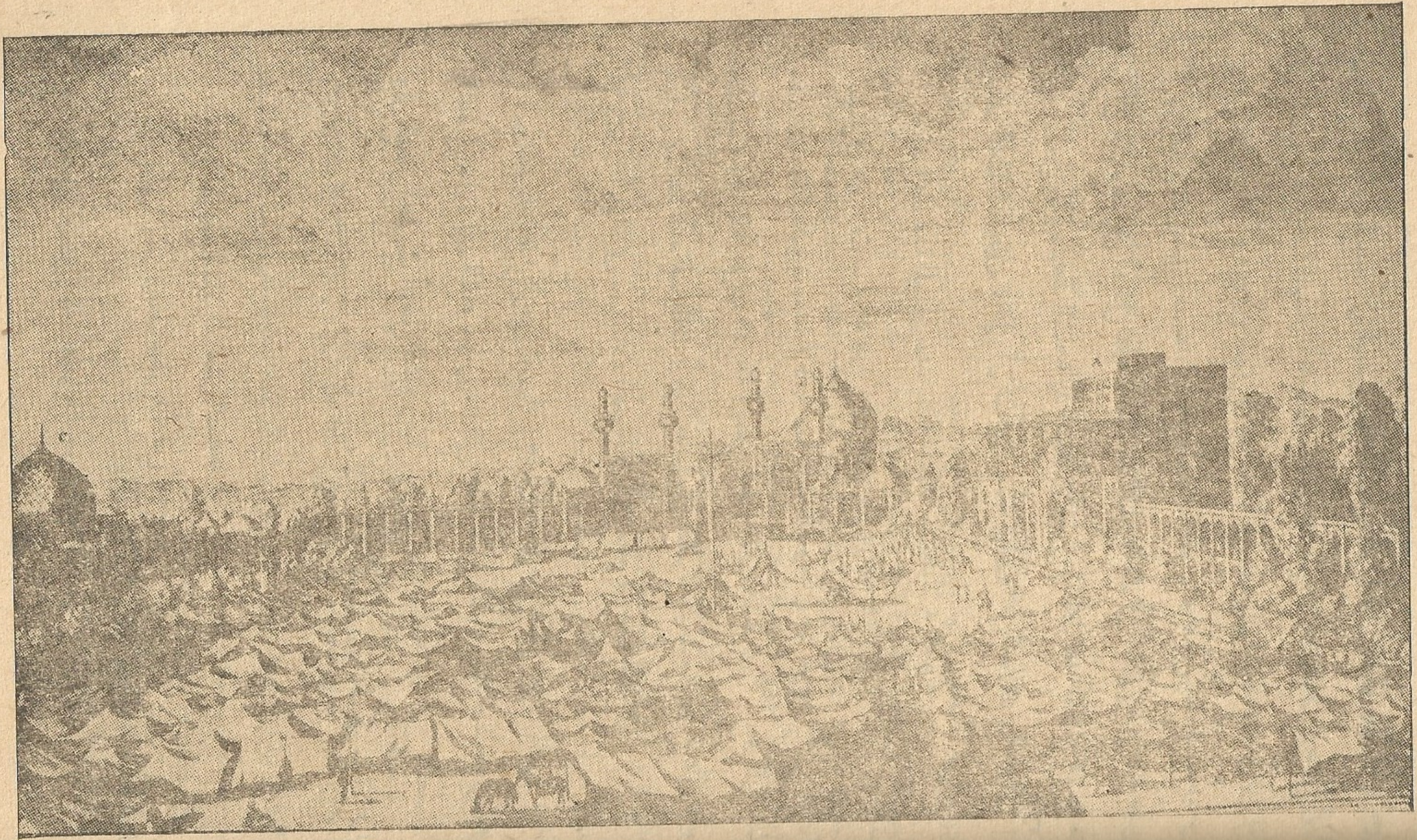
يقع ميدان نقش جهان - الذى وصفه شاردن الفرنسى بأنه أجمل ميدان فى العالم فى ذلك الوقت - [٣] وسط مدينة أصفهان تقريبا ، وقد اختلف الرواة

---

(١) مسعود كيهان : جغرافياى مفصل إيران ح ٢ ، ص ٣١٤ ، تهران ١٣١١ ش .

(٢) عباس اقبال (مقالة) اصفهان وآثار تاريخى آن : مجلة يادگار سال دوم ، شماره نهم : ارديبهشت ١٣٢٥ ش ، ص : ٢ .

(٣) أبو القاسم رفيعى مهر آبادى : آثار ملى اصفهان ، تهران ١٣٥٣ ش ص : ٢٨٧ .



ميدان نقش جهان بأصفهان في العصر الصفوي

حول من بناه ، فقد ذكر البعض بأنه كان موجودا قبل الصفويين ، فى حين أن المشهور عن هذا الميدان أنه بدىء فى بنائه عام ١٠١١ هـ فى زمان الشاه عباس الأول [١] ، أى أن العمل فى بنائه بدأ فى نفس الوقت الذى بدأ فيه بناء كل من عمارة عالى قابو ومسجد الشيخ لطف الله تقريبا وهما من بناء الشاه عباس كما أن الشاه عباس أدخل عليه تحسينات كثيرة بعد أن انتهى من بناء هذين المبنيين ومن بناء مسجد الشاه ، إذ أمر بأن تبنى على أطرافه كذلك مجموعة من المبانى ذات الطابقين ، على أن تكون متشابهة فى الفن المعمارى والنقوش [٢].

وقد اتخذ هذا الميدان منذ بنائه شكلا مستطيلا ، فطوله — كما ذكر المستشرق هيربرت ـ ٥٦٠ يارة ، فى حين بلغ عرضه ١٧٤ يارة [٣] . وكانت هذه المساحة الكبيرة معدة لإقامة مسابقات الصولجان وركوب الخيل والرمى بالسهام ، وأحيانا حرب الديكة وبعض الحيوانات الأخرى [٤] . وكان الشاه عباس يشاهد هذه المسابقات وهو جالس فى الشرفة الرئيسية بعمارة عالى قابو ، كما يشترك أحيانا فى مسابقات الصولجان التى تقام فى هذه الميدان .

وبعد فترة من الزمن تغير اسم هذا الميدان من نقش جهان إلى (ميدان الشاه) إشارة إلى الشاه عباس ، وظل هذا الاسم الأخير متداولا حتى اليوم . وفى العصر الحديث أدخل الشاه رضا بهلوى عليه الكثير من التحسينات حيث بنى وسطه حوضا وأوصل إليه الماء . كما أضفت عليه الحكومة الإيرانية

---

(١) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص ٢٦٦ .

(3) History of Persia vol. II p. 198

(٤) إيران در زمان صفويه ، ص ٢٦٦ .

تعديلات أخرى كثيرة فى السنوات الأخيرة ، حتى أصبح يبدو فى صورة عصرية جميلة أخاذة .

٢ — عالى قابو :

وبعد أن نقل الشاه عباس عاصمته من قزوين إلى أصفهان ، أقام فى قصر قديم هناك ، ولكنه بعد فترة صمم على أن يكمل بناء عمارة صغيرة مطلة على ميدان نقش جهان فى الجهة الغربية ، وكانت قد بقيت عن التيموريين (١) — وإن ذكر البعض بأنها بقيت عن السلاجقة (٢) — وأن يبنى مجموعة من الأبنية الجديدة فى الجهة المقابلة لها ، ويتخذ العمارة مقرا لحكمه . وقد أطلق على المبنى الجديد اسم « عالى قابو » أى « الباب العالى » ولعله أراد بذلك مضاهاة الباب العالى فى الآستانة ، ولذلك نراه يبالغ فى تزيينه وتعظيمه .

وذكر جابر الأنصارى فى تاريخ أصفهان والرى ، أن من أسباب شهرة عالى قابو أن عتبته أحضرت من النجف ، وقد أدى هذا إلى التفاف الناس حول هذا القصر وتقديس عتبته ، لدرجة أن الشاه عباس نفسه كان يترجل عن فرسه عندما يقترب من هذه العتبة ، ثم يدخل إلى القصر سيرا على الأقدام (٣) .

وهذا القصر يشتمل على ثلاثة طوابق رئيسية ، كل طابق منها ينقسم إلى طابقين أى أنه فى الحقيقة يشتمل على ستة طوابق ، ويبلغ ارتفاع الطوابق كلها ثمانية وأربعين مترا ، فى حين يبلغ إرتفاع المدخل الرئيسى ثمانية وعشرين

---

(١) إيران در زمان صفويه ، ص ٢٦٠ .

(٢) آثار ملى اصفهان ، ص : ٣٦٢ ش .

(٣) نقلا عن : المرجع السابق ، ص : ٢٦٢ ، ٢٦٨ .

(٤) المرجع السابق ، ص : ٣٦٣ .

متراً ، أما عن الطوابق العليا فـكانت مخصصة لأعمال الشاه الخصوصية، حيث كان يقضى معظم أيامه بهذا القصر ، حيث يواصل منه تسيير دفة الأمور بل كان يتناول فيه معظم طعامه ، وكان كل طابق يضم قاعة رئيسية وعدة حجرات صغيرة ودهاليز مختلفة ، وكانت جدران الحجرات مذهبه بأكملها ومزدانة بألوان غاية فى الجمال ، كما كان السقف مذهبا كذلك [١] .

وفى واجهة هذا القصر توجد القاعة الـكبرى وهى تقوم على أعمدة خشبية حيث بنيت على طراز الأبنية الصفوية . وفى القاعة الـكبرى كان الشاه عباس يحتفل بعيد النيروز ، ويقابل السفراء الأجانب ، ويستعرض الجيش ، كما كان يشاهد ما يدور بالميدان من مسابقات الصولجان وسباق الخيل وعراك الحيوانات المفترسة [٢] .

وعلى الرغم من أهمية هذه العمارة ، وما كانت تتمتع به من جمال ، فإنه بعد انقضاء عصر الدولة الصفوية أهمل المبنى كغيره من الآثار التى خلفها الصفويون ، وخلال العصر القاجارى أقام بهذه العماره نائب السلطنة فى أصفهان فأزال الرسوم التى نقشت على جدرانه حيث أتم طلاءها بالمصيص [٣] .

٣ — مسجد الشيخ لطف الله [٤] :

يقع هذا المسجد فى الضلع الشرقى من ميدان نقش جهان ، أى فى الجهة

---

(١) إيران در زمان صفويه ص : ٢٦١ .

(2) History of Persia Vol. p 199

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٦٢ .

(٤) الشيخ لطف الله بن عبد الـكريم بن إبراهيم فى الأصل من سكان ميس إحدى قرى جبلى عامل فى لبنان ، وأسرته من فقهاء الإمامية ، ونظرا لاهتمام ملوك =

المقابلة لعمارة المسجد والمدرسة الملحقة به ليكونا مقرا لإقامة وإمامة الشيخ لطف الله العاملى ، حيث أمر الشاه عباس أن تقام فى أصفهان مدرستان مطلتان على ميدان نقش جهان ، تكون إحداهما لإقامة وتدريس ملا عبدالله الشوشترى ، والأخرى لإقامه وتدريس الشيخ لطف الله ، ومازالت مدرسة ملا قائمة حتى اليوم بجوار سوق القيصرية فى الضلع الشمالى ، من ميدان نقش جهان ، أما مدرسة الشيخ لطف الله والتى كانت ملحقة بالمسجد نفسه فقد تهدمت (١) .

= الدولة الصفوية بترويج المذهب الشيعى فإن هذا الشيخ وآخرين كثيرين من مشايخ وعلماء البحرين وجبل عامل رحلوا إلى ايران ، واقام هو فى مدينة مشهد وهناك درس على مشايخها المشهورين ، وبعد ذلك عينه الشاه عباس ليكون فى خدمة مزار الإمام الرضا. فأقام فى مشهد حتى تعرضت لهجوم الأوزبك وخوفا من بطشهم لجأ إلى قزوين ، واشتغل هناك بالتدريس ، فأحضره الشاه من قزوين إلى أصفهان ، وأمر فى عام ١٠١١ هـ بإقامة مدرسة ومسجد يحملان اسمه لكى يتولى التدريس والإمامة والإقامة بهما . وكان الشيخ لطف الله له فتاويه الشرعية وعقائده الخاصة به ، وعلى سبيل المثال كان يعد صلاة الجمعة فى غياب الإمام واجبة ، وهو شخصيا يؤدى الجمعة فى مسجده ، وتأليفات الشيخ لطف الله تنحصر فى الحواشى والتعليقات التى كان يكتبها على كتب الفقه الخاصة بسابقيه ، وعلى الرسائل التى كان يكتبها ردا على الفتاوى الدينية التى يقدمها له معاصروه ، كما كان ذا مهارة فائقة فى قرض الشعر باللغتين العربية والفارسية ، وقالوا ان الأشعار التى كتبت على الجهتين الشمالية والجنوبية من المسجد كانت من اشعاره ، وتاريخ وفاته ، كما ذكره مؤلف مجمل التواريخ ، هو عام ١٠٣٢ هـ ، أى فى نفس العام الذى فتح عباس بغداد ، وإن ذكر مؤلف عالم آراى عباسى بأنه توفى فى أوائل هذا العام وقبل فتح بغداد الذى تم فى الثالث والعشرين من ربيع الأول عام ١٠٣٢هـ.

أنظر مجله يادكار ، سال أول شماره أول ، ص ٥٢ — ٥٩ .

وآثار ملى أصفهان ، ص : ٧٠٢ .

(١) مجله يادكار ، ص ٥٥ .

وقد اختلف فى تاريخ البدء فى بنائه ، إذ ذكر بعض المؤرخين أن البناء بدأ عام ١٠١١ هـ ، فى حين ذكر البعض الآخر بأن ذلك كان فى عام ١٠١٢ هـ وقد استند أصحاب الرأى الأخير على الأمر الملكى ببنائه والذى نقش على الباب الرئيسى للمسجد ، وهذا الأمر فيما يلى نصه :

« أمر بإنشاء هذا المسجد المبارك السلطان الأعظم والخاقان الأكرم محيى مراسم آبائه الطاهرين ، مروج مذهب الأئمة المعصومين ، أبو المظفر عباس الحسينى الموسوى الصفوى بهادرخان ، خلد الله تعالى ملكه وأجرى فى بحار التأييد فلكه ، بمحمد وآله الطيبين الطاهرين المعصومين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، كتبها عليرضا العباسى ١٠١٢ »(١)

والملاحظ أن عليرضا العباسى الخطاط قد ذكر فى نهاية الأمر الملكى أنه خطه عام ١٠١٢ هـ ولكننى أرجح عام ١٠١١ هـ كعام البدء فى بناء هذا المسجد ، إذ من المرجح أن الأمر الملكى صدر أولا ، ثم بدأت المراحل الأولى للبناء عام ١٠١١ هـ ، ثم مرت فترة زمنية حتى استطاع البناءون إعداد

---

١ — آثار ملى أصفهان ، ص : ٧٠٣ ، وكاتب هذا الأمر الملكى كما ورد فى نهاية النص . هو عليرضا العباسى أشهر الخطاطين والرسامين فى عصر عباس وكان يقيم أولا فى تبريز ، أحرز هناك شهرة فائقة فى الرسم وحسن الخط . مما أدى إلى أن استدعاه الشاه عباس وقرن اسمه باسمه فأصبح يعرف باسم على رضا عباسى ، بعد أن كان يعرف باسم على رضا تبريزى وأسند إليه ديوان الكتابة ، فأعد بأمر الشاه عباس كتابا يضم مجموعة من خطوط كبار الخطاطين وصور أشهر المصورين والنقاشين ، وأطلق عليه اسم (كتاب الخرقة) كما أن جميع اللوحات الخطية التى كتبت فى مسجد الشيخ لطف الله ، وعمارة عالى قابو وسوق أصفهان ، ومسجد الشاه باصفهان ، وكذلك المدخل الرئيسى لعالى قابو فى قزوين ، كانت كلها بخط عليرضا العباسى . [انظر : ايران درزمان صفويه ص : ٣٨١] .

المدخل الرئيسى والبوابة الكبيرة ، وبعد ذلك خط الخطاط الأمر الملكى فى عام ١٠١٢ هـ كما هو مدون حتى اليوم . وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا فى عام البداية ، فقد اتفقوا جميعا فى أن البناء انتهى عام ١٠٢٨ هـ (١).

وهذا المسجد قليل النظير فى الدنيا بأسرها ، نظرا لما فيه من (قيشانى) يغطى القبة من الداخل والخارج ، وقد سطرت عليه الكثير من الآيات القرآنية والعبارات المختلفة بطريقة تتسم بعلو منزلتها ، وجمال إخراجها ، حتى يمكن القول بأن القيشانى الذى يزين القبة ، أجمل قيشانى تخلف عن العصر الصفوى كله (٢) ، وقد قال شادروان فى وصفه لهذه القبة: « إنها من الأعمال المعمارية التى يندر وجود مثيل لها فى آسيا كلها (٣) .

وهذا المسجد مازال قائما حتى اليوم ، وقد أعيد تجديده وترميمه فى عام ١٣٠٧ هـ أى فى زمان رضا شاه پهلوى (٤) .

* * *

٤ — مسجد الشاه :

يقع هذا المسجد فى الضلع الجنوبى من ميدان نقش جهان ، أى أنه يتوسط عمارة عالى قابو ، ومسجد الشيخ لطف الله .

وقد اتفق الجميع على أن بناء هذا المسجد تم بعد الانتهاء من بناء مسجد الشيخ لطف الله ، ولكن متى بدأ البناء ؟ ومتى انتهى ؟

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٩٤ ، يادگار ، سال أول ، شمارة أول ص : ٥٢ ، وايران درزمان صفويه ، ص : ٢٦٧ ، وغيرها .

(٢) إيران در زمان صفويه ص : ٢٦٦ .

(٣) آثار ملى اصفهان ص ٦٩٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص : ٧٠٣ .

اختلف المؤرخون فى تاريخ تحديد البدء فى البناء ، فقال بعضهم بأن ذلك كان عام ١٠٢٠ هـ[1] فى حين ذكر آخرون أن البناء بدأ قبل وفاة الشاه عباس بسبعة عشر عاما[2] ، ولما كان موت الشاه عباس فى عام ١٠٣٨ هـ (١٦٢٩ م) فمعنى ذلك أن تاريخ البدء فى بنائه كان عام ١٠٢١ هـ ، ويمكن التوفيق بين الرأيين ، بأن الأمر الصادر ببنـــاء المسجد كان عام ١٠٢٠ هـ وانقضى هذا العام فى هدم المنزل الذى كان يشغل المكان قبل بناء المسجد ، وبعد ذلك بدأ العمل فى بنائه عام ١٠٢١ هـ .

وعلى المدخل الرئيسى للمسجد خط أمران ملكيان ، يستفاد منهما بأن الشاه عباس هو الذى أمر ببناء هذا المسجد ، وقد جاء أحد الأمرين مذيلا بتاريخ كتابته ، أما الأمر الآخر فقد خلا من أى تاريخ ، وهذا هو الأمر المذيل بالتاريخ :

« أمر ببناء هذا المسجد الجامع من خالص ماله أشرف خواقين الأرض نسبا ، وأكرمهم حسبا ، وأعظمهم رفعة وشأنا ، وأقواهم حجة وبرهانا ، وأشملهم عدلا وإحسانا ، تراب العتبة المقدسة النبوية ، وقمامة الساحة المطهرة العلوية أبو المظفر عباس الحسينى الموسوى الصفوى بهادرخان ، لازالت رقاب أعاظم الخواقين خاضعة على بابه ، وجباه أفاخم السلاطين معفرة بتراب أعتابه وقد أهدى ثوابه إلى روح جده الأعظم الأكرم الأفخم شاه طهماسب سقى الله ضريحه صوب الرضوان وأسكنه غرف الجنان . كتبه عليرضا العباسى فى سنة ١٠٢٥ »[3] .

---

(١) عالم آراى عباسى ، جـ ٢ ،ص : ٨٣١ :

(٢) آثار ملى اصفهان ، ص ٦٥٩ ، نقلا عن كتاب (نصف جهان فى تعريف الاصفهان) .

(٣) المرجع السابق ، ص : ٦٦٥ .

ووجود هذا التاريخ جعل البعض يفكرون بأن عام ١٠٢٥ هـ كان عام الانتهاء من بناء هذا المسجد الذى يعرف كذلك - كما جاء فى الأمر الملكى - باسم المسجد الجامع ، وهذا غير صحيح حيث أن بناء هذا المسجد تم على مرحلتين ، المرحلة الأولى وتم فيها بناء المدخل الرئيسى للمسجد ، وهو الواجهة المطلة على ميدان نقش جهان ، وقد تمت هذه المرحلة الأولى فى عام ١٠٢٥ هـ حيث كان الشاه حريصا على الانتهاء منها بسرعة حتى تكتمل زينة الميدان ، وهذه المرحلة هى التى أشار إليها الأمر المذيل بالتاريخ ، أما المرحلة الثانية والتى تم فيها بناء بقية المسجد ، فلم يعرف متى انتهت ، حيث قال البعض بأن ذلك كان فى أواخر حكم الشاه عباس ، وقال آخرون بأن ذلك كان بعد وفاة الشاه عباس ، حتى حدد البعض تاريخ الانتهاء منه بعام ١٠٤٠ هـ (١) أى بعد وفاة الشاه عباس بعامين .

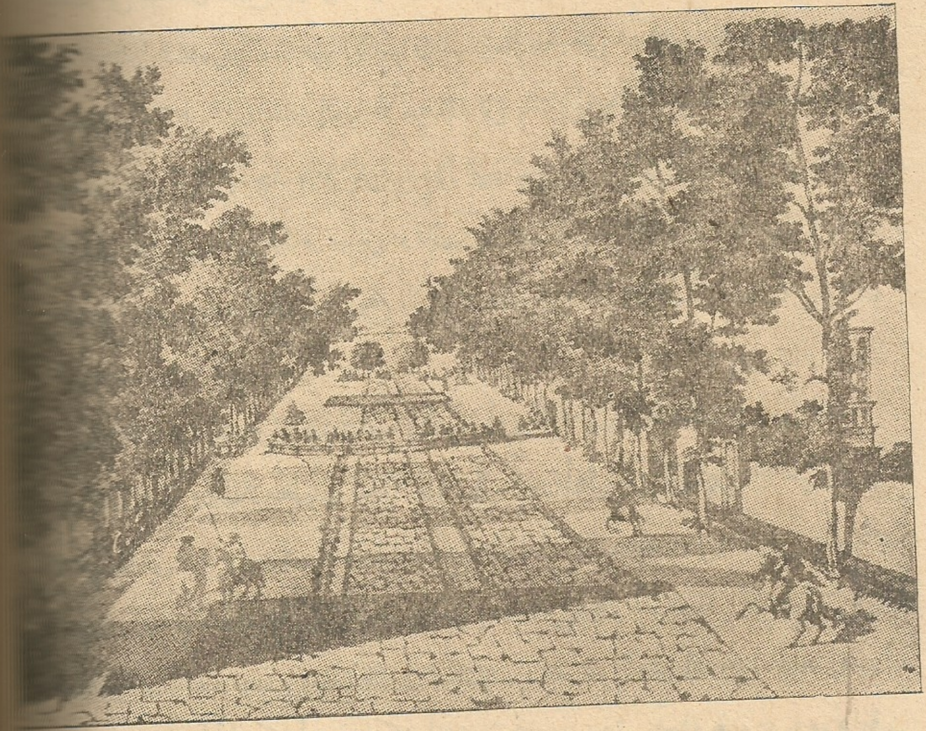
وهذا المسجد له ثلاث قباب وأربعة أروقة ، أكبرها ذلك الرواق المتجه صوب القبلة ، والملاحظ أن قبة الرواق الكبير أعلى من القبتين الأخريين ، وعلى جانبى هذا الرواق الكبير ترتفع أعلى مئذنتين بالمسجد ، وعلى مقربة من محراب ذلك الرواق الكبير يوجد منبر من حجر المرمر ، وقد نحت من قطعة واحدة ، ونصب بعد ذلك فى مكانه . وقد تم استيراد هذا المرمر من رانجون بالهند (٢) . كما أن بواكيه المرتفعة محددة بتجاويف ، ومزدانة بتجاويف داخلية مسقوفة بخزف مطلى بالميناء ومحاطة بإفريز من القرميد المكتوب عليه آيات من القرآن الكريم . كما أن ساحته الداخلية يوجد بها حوض من الرخام (٣) .

---

(١) إيران در زمان صفوية ، ص : ٢٦٧

(٢) آثار ملى اصفهان ص : ٦٦٤

(٣) History of persia, Vol. II p.199



طریق چهار باغ

٥ — خيابان چهارباغ[١] :

أصدر الشاه عباس أوامره إلى عماله أثناء إنشغالهم ببناء ميدان نقش جهان والمبانى المطلة عليه بشق طريق يربط بين هـــذا الميدان ونهر زاينده رود[٢]، وأن يعبر هذا الطريق النهر بواسطة إنشاء قنطرة عرفت فيما بعد باسم (قنطرة الله وردى خان) ثم يواصل الطريق امتداده بعد ذلك حتى أسفل الجبل الموجود جنوبى أصفهان، على أن تغرس على جانبي هذا الطريق أربعة صفوف من أشجار الدلب[٣]، ولهذا عرف باسم شارع الحدائق الأربع، وقد بلغ طول هذا الطريق أكثر من ثلاثة كيلومترات[٤].

وعلى مدخل هذا الطريق أقيمت عمارة صغيرة، كانت عبارة عن إيوان ونوافذ وقد بنيت على هذا الشكل حتى يستطيع الجالس فيها مشاهدة الطريق من مكان مرتفع، ويكون فى إمكانه رؤية أكبر قدر من هذا الطريق[٥]، وقد عرفت هذه العمارة باسم «جهان نما» أى «الـكاشفة للدنيا»، وقد عرف هذا القسم الذى يربط بين جهان نما ونهر زاينده رود باسم: «طريق چهار باغ السفلى».

كما أنشئت فى نهاية الطريق حديقة عظيمة واسعة متدرجة بين مرتفع ومنخفض، تصل إلى تسع طبقات، وأطلق عليها حديقة «عباس آباد»،

---

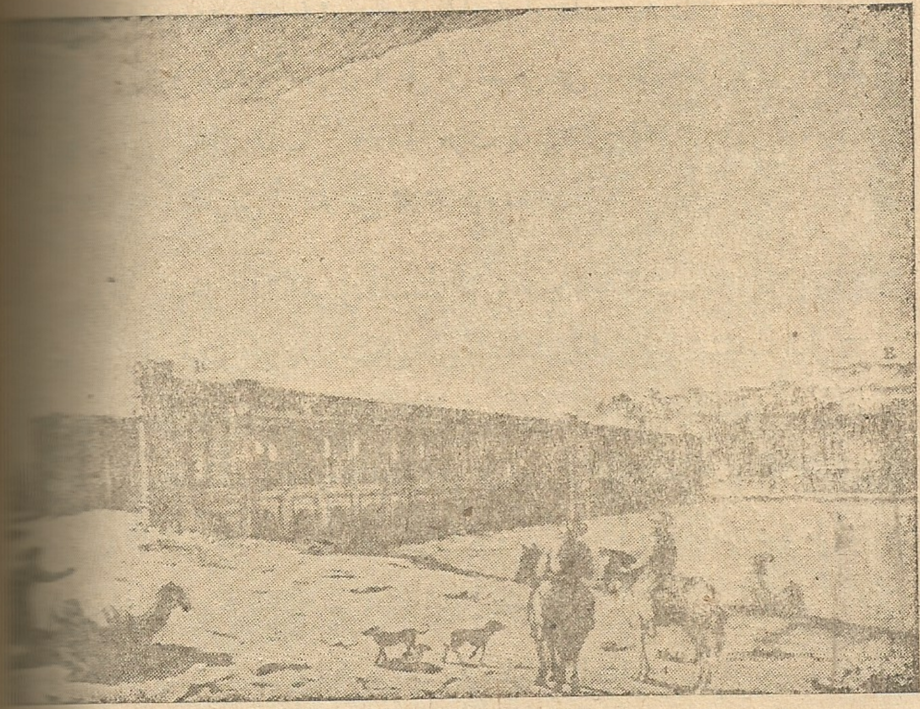
(١) أى طريق الحدائق الأربع.

(٢) عالم آراى عباس؛ ص: ٥٤٤ - ٥٤٥.

(٣) إيران در زمان صفويه، ص: ٢٦٥

(٤) جغرافياى مفصل إيران، ج ٢، ص ٤١٤

(٥) آثار ملى أصفهان، ص: ١٦٤



قنطرة الله وردی خان

وأنشيء وسط الحديقة قصر عظيم عرف باسم (هزار جريب)[١] أى (البالغ مساحته ألف ألف متر) . وقد عرف هذا الجزء الممتد من نهر زاينده رود حتى قصر هزار جريب باسم « چهار باغ العليا » .

ولكى يضمن الشاه عباس سرعة تجميل الشارع وزراعته بالحدائق ، فقد قسمه على أمراء الدولة وأعيانها ، وذلك لكى يتولى كل واحد منهم إنشاء حديقة فى القسم الذى وكل إليه به .

وقد أجمع السائحون الأوربيون الذين زاروا إيران خلال عصر الدولة الصفوية على أن هذا الطريق كان غاية فى الذوق والجمال ، فقد قال شاردن الفرنسى مثلا : إن طريق چهار باغ يعد أجمل طريق رأته عينه[٢] .

وكان الإيرانيون يخرجون للتنزه فى حدائق هـــذا الطريق ، للتمتع بمناظره الجميلة ، وبرائحة الورود المنتشرة على جانبيه ، وقد أصدر الشاه عباس أوامره بأن تخصص بعض الأيام لخروج النساء وليتمتعن بالتنزه فى هذا الطريق .

. . .

٦ — قنطرة اللهورديخان[٣] :

أنشئت هذه القنطرة فوق نهر زاينده رود لكى تصل بين قسمى طريق

---

١ - إيران در زمان صفويه ، ص ٢٦٤

٢ - المرجع السابق ، ص : ٢٦٥

٣ - اللهورديخان : قائد جيوش الشاه عباس ، وحاكم فارس من قبله كذلك وكان فى الأصل غلاما أرمنيا اعتنق الإسلام ، وانضم إلى غلمان الشاه الخصوصيين وترقى حتى أصبح رئيس هؤلاء الغلمان ، ثم أسند إليه الشاه عباس الإشراف على المذهبات فى الدولة ، أى الإشراف على ما يرد إلى الدولة من جواهر وفضة =

چهار باغ السفلى والعلوى ، ويقال إن الشاه عباس أمر ببنائها عام ١٠١١ﻫ
وأوكل أمر بنائها إلى قائده وحاكمه على منطقة فارس وهو اللهورديخان .
وقد عرفت هذه القنطرة بعدة أسماء منها[٢] :

(١) قنطرة الشاه عباس . حيث أنشئت فى عصره ، وبأمر منه .

(ب) قنطرة اللهورديخان : إذ أشرف اللهورديخان على بنائها .

(ﺣ) قنطرة الأربعين فتحة : فقد كانت تضم يوم بنائها أربعين فتحة .

(د) قنطرة الثلاث والثلاثين فتحة :

حيث تهدم من فتحاتها سبع فتحات ، وبقيت منها ثلاث وثلاثون فتحة ، مازالت قائمة حتى اليوم .

(ﻫ) قنطرة جلفا :

فقد كانت تربط مدينة أصفهان بضاحية جلفا الجديدة التى بناها الشاه عباس ليقيم فيها الأرمن بعد تهجيرهم إليها .

وذكر المؤرخون أن طول هذه القنطرة كان يوم بنائها ٢٠٥ متر ، فى حين كان عرضها ١٣٫٧٥ مترا[٣] ، وتضم هذه القنطرة ستة طرق للعبور :

= وذهب ، وما يخرج منها . وفى عام ١٠٠٣ﻫ أسندت إليه ولاية فارس وقيادة جيوش إيران ، وقد ظل فى فارس حتى عام وفاته فى عام ١٠٢١ ﻫ ، وقد شارك الشاه عباس فى تشييع جثمانه ، وأمر بأن ينقل ليدفن فى مشهد ، ولكى يكرمه عباس أصدر أوامره بأن يتولى حكم فارس ابن اللهورديخان ويدعى إمامقليخان ، وقد ظل فى منصبه حتى توفى الشاه عباس . وقد سميت القنطرة باسم اللهورديخان لإشرافه على بنائها بتكليف من الشاه عباس الأول . انظر مجلة يادگار سال جهارم ، شماره جهارم ، ص : ٢٩

(١) آثار ملى أصفهان ، ص : ٣١٧

(٢) آثار ملى أصفهان ، ص : ٣١٨

(٣) ايران در زمان صفويه ، ص : ٢٦٤

بيانها كالآتى:[١]

الطريق الأول : وهو الطريق الأوسط ، وقد خصص لعبور الفرسان والعربات .

الطريقان الثانى والثالث : وهما على طرفى القنطرة فى طابقها الأول ، وقد خصصا للمشاة .

الطريقان الرابع والخامس : ويعلوان الطريقين الثانى والثالث ، وكان الناس يصعدون إليهما للفرجة والمشاهدة ، وذلك عن طريق سلالم جميلة موجودة فى أول القنطرة وآخرها .

الطريق السادس : ويوجد أسفل القنطرة .

لعلنا لاحظنا من خلال الحديث عن طرق عبور القنطرة ، أنها كانت ذات طابقين فقد بنى الطابق أولا ؛ ولكن حدث فى وقت الفيضان أن مياه نهر زاينده رود كانت ترتفع وتغطى الطرق ، مما يعرقل حركة عبور المشاة فوق القنطرة ، لذا أقدم اللهورديخان على بناء الطابق الثانى لضمان انسياب الحركة مهما علت مياه الفيضان .

وقد لفتت هذه القنطرة أنظار الأوربيين الذين زاروا أصفهان أيام حكم الشاه عباس ، أو بعد ذلك ، وأسهبوا فى وصفها والتعبير عن جمال تنفيذها ، ومن هؤلاء شاردن ، وتاورنيه الفرنسيان ، وسايكس الإنجليزى الذى قال عنها : إن هذه القنطرة على الرغم مما أصابها من تهدم وتصدع ، فإنها تعد واحدة من أعظم قناطر العالم[٢] .

وهذه القنطرة ما زالت قائمة حتى اليوم ، ويؤمها الخلق للتنزه .

---

(١) آثار ملى أصفهان ، ص : ٣١٨ ، ٣٢٧

(٢) Histoay of Persia; vol. II p. 201

هذه أهم الآثار التى بنيت فى عصر الشاه عباس ، وتحت إشرافه ، وإلى جانبها توجد بعض المبانى التى شرع الشاه عباس فى بنائها ولكنها لم تكتمل إلا فى عصور سلفه من حكام الدولة الصفوية ، ومن هذه المبانى كاخ چهلستون (أى قصر الأربعين عمودا) ، وكان فى البداية جزءاً من حديقة نقش جهان الملحقة بعمارة عالى قاپو فاقتطع الشاه عباس جزءاً منها وبنى وسطه عمارة على الطراز الأوربى ، ولكن الشاه عباس الثانى زاد عليها الكثير ، وانتهى من البناء عام ١٠٥٧ هـ [١] وعرف المبنى الجديد باسم (كاخ چهلستون) ومن المبانى التى بدأ العمل فيها خلال حكم عباس ولم يكتمل البناء قبل وفاته أيضاً ، قصر هشت بهشت (أى الجنات الثمانى) ، وقد اقتطعت كذلك من حديقة نقش جهان وبنيت فى عهد عباس عمارة صغيرة ، ولكن أعيد بناؤها بصورة كبيرة فى عام ١٠٨٠ هـ أيام حكم الشاه سليمان الصفوى [١] .

كما بنى الشاه عباس ضاحية جلفا الجديدة ، والتى سبق أن أشرت اليها أثناء الحديث عن معاملة الشاه عباس لكل من الأرمن والمسيحيين .

ولاشك أن مابناه الشاه عباس فى أصفهان وما أدخله عليها من تجديدات حسن تخطيط وتزيينات ، أحال أصفهان إلى مدينة يؤمها السياح ويبالغون فى تعظيمها والإشادة بجمالها ، حتى أطلق الجميع عليها فى ذلك الوقت (أصفهان نصف الدينا) [٢] .

---

(١) أثار ملى أصفهان ، ص : ٣٣٩ وما بعدها

(٢) المرجع السابق ، ص : ٣٣٤

(٣) لمعرفة المزيد عن المبانى التى بناها الشاه عباس فى أصفهان ، يحسن الرجوع إلى المرجع السابق حيث تكلم بالتفصيل عن جميع هذه المبانى ، وأورد صوراً كثيرة لها .

الفصل الرابع

حروب الشاه عباس مع المعسكر السنى

أولا : مع الأوزبك

— ١ —

مقدمات الهجوم الأوزبكى على خراسان :

بعد أن أحرز مرشد قليخان النصر على عليقليخان فى معركة سوسفيد عام ٩٩٢ ﻫ (١٥٨٤ م) ، واستطاع أسر عباس ميرزا ونقله للعيش معه فى مشهد ، فقد عليقليخان بذلك ورقة رابحة كان يتخذ هاوسيلة للاشراف على جميع أمراء خراسان ، لذا حاول استعادة عباس ميرزا أو قتله بأى طريقة ، حتى لا يترك هذه الورقة الرابحة فى يد مرشد قليخان يستغلها فى فرض سلطانه عليه وعلى كل أمراء خراسان ، ولما لم يفلح عليقليخان فى مساعيه هذه بدأ يلجأ الى أعداء الدولة الصفوية فى المشرق وهم حكام دولة الأوزبك لعلهم يساعدونه فى استعادة سلطانه على خراسان ، فأرسل رسله إلى ما وراء النهر ، وحملهم هدايا عديدة إلى عبد الله خان الأوزبكى الذى توسعت الدولة الأوزبكية فى عهده ، حتى وصلت فى المشرق إلى فرغانة وكاشغر والختن ، ووصلت فى الجنوب إلى بلخ وطخارستان وبدخشان ، ووصلت فى الغرب إلى استراباد التى اغتصبها فى غفلة من حاكمها[1].

ثم سلمه الرسل رسالة أعلن فيها عليقليخان حرصه على الدخول فى طاعته كما ضمنها التحريض على تقدمه صوب خراسان والاستيلاء عليها ، وقد تعهد فيها بتسليمه مدينة هراة بمجرد قدومه إليها ، بل إنه سيساعده فى

(١) لغت نامه شماره ٧٦ ص : ٤٢



الشاه عباس الأول

الاستيلاء على كل ولايات العراق وهمدان بعد ذلك (١) .

ما أن وصل الرسل إلى عبد الله خان الأوزبكى ، حتى أخذ يعد العدة للتقدم بجيوشه نحو خراسان، ولـكن هذا الإعداد احتاج إلى بعض الوقت،مما دفع عليقليخان لإرسال وفد آخر صوب ماوراء النهر ، ليستحث عبد اللهخان للاسراع بالتقدم صوب خراسان، و كان موعد توجه هذا الوفد الثانى فى بداية عام ٩٩٦ هـ (١٥٥٨ م) .

وفى ذلك الوقت كان مرشد قليخان يتقدم ومعه عباس ميرزا صوب هراة بغرض المصالحة مع عليقليخان ، ولـكن ما أن اقترب ركبهما من هراة حتى جاءتهما الأنباء بتقدم عبـــد الله خان الأوزبكى صوب هراة استجابة لتحريض عليقليخان من جانب، ولحرصه على اقتطاع أجزاء من الدولة الصفوية المعادية من جانب آخر ، وأمام هذا الخطر تراجع مرشد قليخان وعباس ميرزا وعادا أدراجهما إلى مشهد، ومنها واصلا المسيرة نحو قزوين للابتعاد عن الخطر الأوزبكى الذى يتهدد منطقة خراسان كلها ، ولينتزع عباس الحكم من أبيه السلطان محمد خدابنده .

— ٢ —

سقوط هراة :

عندما اقترب عبد اللهخان الأوزبكى بجيوشه من هراة أرسل إلى عليقليخان لـكى يسلم له المدينة بلا حرب، وقد جاء فى رسالته : « . . لقد تحركت لتسخير خراسان بناء على دعوتـكم لنا، فإن كنت مازلت على وعدك، فلتخطب باسمى فى هراة منذ اليوم، ولينقش اسمى على النقود، كى أبقيك على حكم هراة أو أنصبك

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ١ ، ص : ١٢٤

حكومة أى إقليم آخر فى ما وراء النهر، وإن كنت قد رجعت عن قولك فتترك هراة ، ولترحل إلى أى مكان تريد ... »[١] .

ما أن تسلم عليقليخان هذه الرسالة ، حتى اعتراه الخجل والندم ، وبدأ يبذل قصارى جهده فى الاستعداد لصد الهجوم الأوزبكى ، ولكن عبد الله خان استطاع التقدم ومحاصرة قلعة هراة ، واستمر حصاره لها مدة أحد عشر شهراً ، لاستماتة جيش عليقليخان فى الذود عن القلعة ؛ على الرغم من قله المؤن وتفشى الأمراض والأوبئة بين الجنود ، وقد كان عليقليخان يأمل طوال هذه الفترة أن تصله الإمدادات العسكرية من العاصمة قزوين ، ولكن العاصمة كانت مشغولة بالنزاع بين عباس وبين السلطان محمد خدابنده ، فلم يكن هناك من يهتم بمشاكل خراسان وما يتهددها من خطر أوزبكى .

وبعد أن نجح الشاه عباس فى انتزاع السلطنة من أبيه ، كان حريصاً على تقديم العون العسكرى لمربيه الأول عليقليخان ، فكان يصدر فى كل يوم أوامره لمرشد قليخان المسيطر على كل شىء فى الدولة الصفوية ، بالإسراع فى إرسال العتاد والجنود صوب هراة لإنقـــاذ عليقلوخان ومن معه من جنود القزلباش ، ولكن مرشد قليخان تباطأ فى تنفيذ أوامر الشاه عباس المتكررة لما كان بينه وبين عليقليخان من ضغائن سابقة ، وخوفا من عودة العلاقات الودية بين عباس ومربيه الأول ، مما يهدد مكانته وسيطرته على الشاه عباس وعلى الدولة الصفوية كلها .

وظل مرشد قليخان يسوف ويماطل حتى فقد عليقليخان كل مقدرة على المقاومة ، وبدأت الهزيمة تحل به ، مما اضطره ومعه جمع من القواد إلى ترك قلعة هراة ، والتوجه صوب قلعة أخرى صغيرة ، تقع على مقربة من قلعة هراة

---

١ - زندگانى شاه عباس أول ، ج ١ ، ص: ١٢٥

وعلى أثر فرارهم دخل الأوزبك قلعة هراة ، وقتلوا عدداً كبيراً من رجال القزلباش ، كما أسروا عدداً كبيراً من نساء قبيلة شاملو وصبيتها . وتم إرسال السبايا إلى ما وراء النهر (١) .

أما عن عليقليخان ، فإنه لم يستطع ومن معه من الجنود والقواد الصمود فى القلعة التى لجأوا إليها إلا لمدة يومين فقط ، ثم سقطوا أسرى فى أيدى الأوزبك حيث نفذوا فيهم حكم الاعدام فى أكبر حديقة بمدينة هراة ، وكان ذلك فى ربيع الأول عام ٩٩٧ هـ (١٥٩٩ م) (٢) .

— ٣ —

تحرك الشاه عباس صوب خراسان وتراجعه :

ما أن وصلت أنباء سقوط هراة ومقتل عليقليخان إلى العاصمة قزوين ، حتى سارع مرشد قليخان بإعداد الجنود والعتاد بعد أن اطمأن على التخلص من غريمه ، وخرج الجيش الصفوى يتقدمه الشاه عباس ومرشد قليخان وجمع كبير من قواد القزلباش ، وسلك الجيش الطريق إلى هراة ، وكان الشاه عباس فى ضيق شديد من مسلك مرشد قليخان الذى اتسم بالتراخى والإهمال فصمم على التخلص منه انتقاماً لمقتل مربيه الأول عليقليخان ، ولسقوط هراة فى أيدى أعداء إيران من الأوزبك ، وما أن وصل الجيش الصفوى إلى مدينة بسطام حتى نفذ ماعزم عليه من اغتيال لمرشد قليخان (٣) .

بعد ذلك واصل الجيش الصفوى مسيرته صوب خراسان ، لطرد الجيش الأوزبكى الذين يواصل تقدمه بغية الاستيلاء على مدينة مشهد وما يجاورها

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٢٣٨

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ١ ، ص : ١٢٦

(٣) راجع قصة التخلص من مرشد قليخان ص : ٢٢٥ وما بعدها من هذا الكتاب.

من مدن ، ولكن وردت أنباء إلى الشاه عباس وهو فى الطريق بأن فرهاد باشا القائد العثمانى قد تقدم بجيشه صوب قراباغ بآذربايجان، وأنه احتل كنجه كما تقدم چغال أو من ناحية بغداد صوب همدان ونهاوند[1] .

وهنا أدرك الشاه عباس بأن موقفه أصبح غاية فى الدقة والحرج ، إذ تتعرض دولته لهجوم أوزبكى من الشرق ، وهجوم عثمانى من الغرب ، كما توجد بعض الفتن الداخلية التى يقوم بها عدد من قواد القزلباش وحكام الأقاليم أملا فى الإبقاء على سيطرتهم ، وأمام هذه الأخطار جميعها ، آثر الشاه عباس العودة إلى قزوين ، والتخلى عن دفع الأوزبك حتى يوقف الغزو العثمانى ويقضى على الفتن الداخلية[2] .

وبعد فترة من عودة الشاه عباس إلى العاصمة استطاع القضاء على عدد من الفتن الداخلية ، كما نجح فى عقد معاهدة صلح مع العثمانيين ، تنازل لهم بمقتضاها عن جميع المناطق التى احتلوها فى آذربايجان والعراق العجمى وذلك لكى يؤمن ظهره إذا تقدم صوب خراسان لصد الأوزبك .

— ٤ —

سقوط مشهد :

لا شك أن الهجوم العثمانى وما ترتب عليه من عودة الشاه عباس إلى قزوين أتاح فرصة سانحة للأوزبك لكى يواصلوا زحفهم فى خراسان، وإشاعة الفوضى والاضطراب . ونشر الخراب والدمار بكل شىء ، فتقدمت جيوش عبد الله خان الأوزبكى غرباً واحتلت بعض المدن الواقعة بين هراة ومشهد ، ثم تقدم عبد الله خان صوب مشهد وحاصرها ، ونهبت جيوشه الحبوس الكثيرة التى

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ج ٨ ، ص ٢٥٢

(٢) تاريخ إيران أز مغول تا افشارية ؛ ص : ٣١٢

كانت موقوفة على زوار ضريح الإمام الرضا ، مما جعل القائمين على الضريح يكتبون إلى عبد الله خان يسألونه كيف تسمح له مشاعره الدينية أن يدمر جيشه ممتلكات الإمام ، فيقضى بذلك على موارد يعيش من فيضها آلاف كثيرة من الحجاج الأتقياء وفيهم كثير من أهل السنة.

وهنالك انبرى للرد عليهم من كان بمعسكر الأوزبك من شيوخ أهل السنة، فحملوا بعامة الشيعة حملة شعواء طويلة، واحتجوا بأن أصحاب هذا المذهب هم على مقتضى أحكام السنة أشد كفراً من المشركين الذين أمر الله بقتلهم والقضاء عليهم:

« فإذا كان فرضا على كل مسلم أن يقاتل المشركين ، فأولى به أن يحاسب الذين حادوا عن طريق الحق ، وهم - أى الشيعة - برغم صلاتهم بذلك الولى الذى ترقد عظامه بين ظهرانيهم ، قد سقطوا فى حمأة الضلال المبين »[(١)].

وعندما فشلت محاولات المشايخ فى رد الهجمة الأوزبكية أرسل حاكم مشهد الصفوى « أمت الله خان استاجلو » إلى الشاه عباس يطلب النجدة والعون ، فانتظر الشاه حتى استتب الوضع الداخلى ، وتوقف الخطر العثمانى ، ثم أعد العدة وتحرك بالجيش قاصداً خراسان ، ولكن ما أن وصل الجيش إلى منطقة طهران الحالية وعسكر هناك حتى تفشى الوباء العام بين الجنود ، ودهم المرض الشاه عباس نفسه ، ولم يعد فى مقدور الشاه وجيشه مواصلة التقدم. فكانت أنباء هذا المرض وتفشى الوباء دافعاً للجيش الأوزبكى لتشديد حملته على مشهد، كما كان عاملا مهما فى إضعاف الروح القتالية لدى جنود القزلباش المحاصرين بداخل قلعتها. مما أدى إلى سقوطها بعد حصار دام أربعة أشهر[(٢)].

وقد أشاع الأوزبك القتل العام بالمدينة ، كما أغارو على كل شىء بها ،

---

(١) ارميفنيوس فامبرى : تاريخ بخارى، ترجمة الدكتور أحمد محمود الساداتى القاهرة ١٩٦٥م ، ص : ٣٤٢

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٢٥٣

فحاول العديدون من سكانها الاحتماء بقبر الإمام الرضا ، ولكن الأوزبك أطلقوا عليهم السهام وقتلوا عدداً كبيراً منهم ، بل إن عبد المؤمن خان بن عبد الله خان والذى تولى قيادة الجيش الأوزبكى بعد عودة أبيه إلى ما وراء النهر ، أمر بالقتل العام وهو واقف فى صحن الضريح دون خجل أو حياء من صاحب الضريح ، كما أغار جنـوده على الضريح نفسه واستولوا على المصابيح الذهبية والفضية ، وعلى عدد من المصاحف والمخطوطات التى قيل إنها كتبت بخطوط الأئمة أنفسهم [١] .

كما لم ينج من خطر الأوزبك السنيين الأموات فى مقابرهم ، حيث أقدم جنودهم على نبش قبر طهماسب ، وكان مثواه إلى جوار مقام الإمام الرضا وذروا فى الريح مابقى من أشلائه مصحوباً باللعنات [٢] .

وقد أراد عبد المؤمن أن يكسب ود عدو سنى آخر من أعداء الصفويين حين ينهى إليه خبرا ستيلائه على مشهد ، فبعث بحاجبه محمد قلى إلى السلطان مراد الثالث بالقسطنطينية ، ومع رسالة يصف فيها انتصاراته فى خراسان ، ويصف فيها ما فعله بأشلاء طهماسب ، كما أخبره بأنه ينوى مواصلة الزحف حتى يستولى على العراق (قزوين) ليقضى على أصحاب المذهب الشيعى .

ولكن هذه الخطة الطموحة التى كان عبد المؤمن خان يتطلع للقيام بها لم تتحقق لأن العثمانيين عزفوا عن مساعدته ، بل دخلوا فى صلح مع الشاه عباس مكنه من التفرغ لقتال الأوزبك ، كما أن الشاه عباس سرعان ما برأ من مرضه وأخذ يبذل غاية جهده للقضاء على الخطر الأوزبكى فى خراسان [٣] .

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٢٥٣ ، ٣٥٦

(٢) تاريخ بخارى ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦

(٣) المرجع السابق ، ص : ٣٤٦

بعد ذلك واصل عبد المؤمن خان زحفه ، واستولى على كل من خواف وباخرز و بوشنج وغوريان ، كما حاصر قلعة اسفرايين لمدة أربعة أشهر ، وعلى الرغم من قتل الأوزبك لجميع من كانوا بالقلعة بعد فتحها ، فإن جنود القزلباش — كما يقول مؤلف عالم آراى عباسى — قد قتلوا عددا كبيراً من جنود الأوزبك يقدر بحوالى أربعة آلاف قتيل (١) ثم عاد عبد المؤمن خان بعد هذا الفتح إلى ماوراء النهر استعداداً لجولة أخرى ، أما الشاه عباس فقد عاد بعد شفائه إلى العاصمة لتصريف بعض أمور دولته، والقضاء على الفتن الداخلية التى أطلت برأسها من جديد .

— ٥ —

تقدم عباس صوب خرسان ، وتحرير مشهد :

وفى ١٠٠١ هـ (١٥٩٣م) تقدم الشاه عباس على رأس جيش كبير قاصدا خراسان . وعندما وصل الركب إلى مدينة بسطام عسكر فيها فترة ، لينظم صفوفه ، ثم واصل تقدمه بعد ذلك ، وما أن اقترب الجيش الصفوى من مدينة مشهد أرسل عبد المؤمن خان رسالة إلى الشاه عباس قال فيها : « . . . إننا مستعدون للسلم والحرب معا ، فإن كنتم تودون السلم فاتركوا لنا خراسان ، وعودوا إلى العراق (قزوين) وإن ترغبوا فى الحرب ، فتقدموا ! » :

فرد الشاه عباس برسالة قال فيها : « نحن بفضل الله واثقون ، ولن نتخلى عن حكم خراسان التى ورثناها منذ مائة عام ، فإن تتخلوا عن أرض خراسان ، نقبل المصالحة، ولن نتدخل فى حكم أراضيكم، وإلا فنحن للحرب مستعدون، ولها نتقدم باشتياق من العراق إلى خراسان، وإننا على استعداد للنزال فى أى مكان (٢) .

(١) عالم آراى عباسى ، جـ ٢ ، ص : ٤٢٥

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٢٦٤

أمام هذا الرد العنيف من الشاه عباس بدأت الرهبة والتوجس والخوف تدب فى قلوب بعض قواد الأوزبك لذا تخلى كثيرون منهم عن البلاد التى يحتلونها فى خراسان ، وبدأوا يتجمعون فى مشهد ، وذلك لكى يتصدوا للشاه عباس وجيشه كجبهة واحـــدة قوية ، ولمعرفتهم بأن الشاه عباس حريص على مشهد ولا يريد إلحاق الدمار والخراب بها ، مما يجوز معه عدم [illegible] لهم فى تلك المدينة المقدسة ، أما عن عبد المؤمن خان فقد تراجع عن [illegible] وعسكر فى مدينة جام ، ومن هناك أرسل للشاه عباس رسالة أخرى أكثر رقة وأدبا من سابقتها ، لعله بذلك يخطب وده ويعيده دون قتال ، ولكن الشاه عباس لم يأبه بهذه الرسالة الودية ، وتقدم صوب نيسابور واستعادها دون قتال ، كما استعاد كلا من سبزوار وجاجرم ، ثم واصل زحفه حتى أصبح على مشارف مدينة مشهد ، وهناك دهمه الشتاء واشتدت البرودة وتساقطت الثلوج ، ولم يعد المكان مناسبا لإقامته ، فاضطر للعودة صوب قزوين ، تاركا المنطقة تحت إشراف درويش محمد خان ومعه عدد كبير من الجند[1] .

وبعد ذلك حدث خلاف بين نور محمد خان والى مرو واو كنج ، وبين حاجى محمد خان حاكم خوارزم ، فرغب عبدالله الأوزبكى استثمار هذا الخلاف لمصلحته ، حيث كان يبغى الاستيلاء على أملاك هذين الأميرين على الرغم من أن أحدهما وهو والى مرو كان ابن عم عبدالله خان ، وقد تمكن من طردهما من ديارهما واستولى على أملاكهما ، مما دفعهما للجوء إلى الشاه عباس طلبا للعون ، والمساعدة فى استرداد المناطق التى طردا منها[2] . ولاشك أن ضم تلك المناطق إلى ملك عبدالله خان الأوزبـكى كان سببا فى شعوره بالقوة والزهو

---

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣١٥

(٢) زندگانى شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص ١٢٨

وشجعه ذلك على معاودة الهجوم على خراسان ، واغتصاب أراضى جديدة وضمها إلى مملكته .

وفى عام ١٠٠٤ هـ (١٥٩٦ م) جمع الشاه عباس جيوشه وتوجه بها صوب خراسان، وتقدم حتى أصبح على مقربة من اسفرايين الخاضعة لنفوذ الأوزبك ، فاضطر عبد المؤمن خان إلى التراجع عنها حيث كانت عادة الأوزبك التراجع السريع إذا أحسوا باقتراب الجيش الإيرانى منهم ، كما أرسل عبد المؤمن رسالة إلى الشاه عباس يطالبه بإغماض عينيه عن خراسان ، والقناعة بملك العراق ، إلا أن الشاه عباس رد عليه برسالة عنيفة مليئة بالتهديد والوعيد ، وتقدم بعدها واستعاد السيطرة على قلعة اسفرايين ، ولكنه بدلا من أن يتوجه صوب سبزوار ونيسابور ثم مشهد فإنه توجه صوب استراباد فى طريق عودته إلى قزوين ، مما شجع عبد المؤمن خان على معاودة الهجوم على اسفرايين ، وإحداث قتل عام فى سبزوار ، فاضطر الشاه للعودة صوب سبزوار حيث استعادها ، وتقدم منها صوب نيسابور ، ولكنه عاد إلى قزوين مع مقدم الشتاء(١) .

ظل الحال فى خراسان على هذا المنوال ، حيث يحدث هجوم أوزبكى يعقبه مقدم الشاه عباس لصدهم ، ثم معاودة الهجوم بعد عودته إلى قزوين ، إلى أن جاء عام ١٠٠٦هـ (١٥٩٨) ، حيث حدث خلاف بين عبد الله خان سلطان الأوزبك ، وابنه عبد المؤمن خان ، وكاد الموقف ينتهى بينهما إلى الحرب ، ولكن حدث أن مرض عبد الله خان وتوفى ، فتولى عبد المؤمن خان حكم الأوزبك ، وتم تنصيبه مكان أبيه(٢) .

---

(١) زندگانى شاه عباس أول، جـ ٤، ص : ١٣٤

(٢) تاريخ إيران از مغول تا أفشاريه . ص : ٣١٧

ولاشك أن هذا الخلاف بين عبد المؤمن وأبيه قد أضعف الروح القتالية لدى جيش الأوزبك مما شجع الشاه عباس على التوجه صوب خراسان للقضاء على الخطر الأوزبكى وطردهم من جميع أراضى خراسان التى احتلوها ، وأمر بأن تتقدم جميع الجيوش الإيرانية نحو خراسان ، وأن تكون منطقة بسطام مكان الالتقاء والتمركز . فسلكت جميع الجيوش الإيرانية طريق الشمال عدا جيوش فارس وكرمان التى سلكت طريق يزد عبر صحراء كوير ، وأخيرا التقت الجيوش الصفوية فى بسطام حيث تم تنظيمها استعداداً للهجوم العام ضد الأوزبك[١] .

بعد ذلك تقدم الجيش الصفوى بقيادة فرهادخان من بسطام قاصدا نيسابور وتم له استعادتها بلا مشقة ، ثم تقدمت طلائع الجيش الصوفى صوب مشهد وعلى مقربة منها وصلت الأنباء بمقتل عبد المؤمن خان الأوزبكى ، بعد أن ثار القواد ضده لظلمه وطغيانه ، فاشعل هذا الخبر حماس الجنود الايرانيين الذين تقدموا نحو مشهد واستطاعوا دخولها بلاعناء ، وذلك فى اليوم الخامس والعشرين من ذى الحجة عام ١٠٠٧ هـ (١٥٩٩)[٢] . وبعد ذلك صمم الشاه عباس على التوجه صوب هراة لكى يحررها .

أما عن الأوزبك فقد ثارت الخلافات فيما بينهم بعد مقتل عبد المؤمن خان ، وأعلن ثلاثة منهم تولى الحكم ، حيث أعلن پير محمد خان نفسه ملكا على بخارى ، ونصب عبد الأمين خان نفسه ملكا على بلخ ، فى حين تولى دين محمد خان ملك هراة[٣] .

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا جـ ٨ ، ص : ٣٠٩

(٢) زندگانى شاه عباس أول جـ ٤ ، ص : ١٣٥

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

— ٦ —

تحرير هراة والتخلص من الخطر الأوزبكى :

تقدم الشاه عباس بجنوده صوب هراة ليحررها من دين محمدخان ، وأصدر أوامره إلى قائد جيشه فرهاد خان بأن يستدرج الأوزبك للقتال خارج هراة ، حتى لا يلحق أى دمار بالمدينة التى ولد فيها عباس وتربى فيها ، لذا ما أن اقترب جنود عباس من مشهد حتى تظاهروا بالتراجع خوفا من الهزيمة ، فانخدع دين محمد خان بهذا التراجع ، وأمر جنوده بالخروج إليهم وتعقبهم خارج هراة ، وعلى بعد أربعة فراسخ من المدينة دارت معركة حامية بين الجيشين ، وقد تمكن الجيش الأوزبكى من إحراز النصر فى الجولة الأولى ، فاتهم الشاه عباس قائده فرهادخان بالتراخى فى الدفاع والحرب ، ثم أمر باغتياله،[1] وتولى قيادة

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص ٣١٦ — ٣١٨ . وقد كتب المؤلف ، قصة حياة فرهاد خان ولماذا أمر الشاه عباس باغتياله ، وهذا ملخص القصة : كان فرهادخان أحد قواد الجيش الصفوى إبان حكم السلطان محمد خدابنده . ولكن عندما اشتدت الاضطرابات فى ذلك الوقت ، نزع فرهادخان وأخوته إلى الدولة العثمانية التى لم ترض عن مقدمهم ، وأقدمت على قتل أخيه الأكبر رستم خان ، مما أضطره للهرب إلى إيران مرة أخرى ، والتحق بجيش القزلباش من جديد . وعندما تولى الشاه عباس الحكم أسند إليه منصب القائد العام لجيوشه كما ولاه إمارة آزربايجان ، فقدم فرهادخان العديد من الخدمات للشاه عباس فى السنوات الأولى من حكمه ، حيث ساعده فى القضاء على كثير من الفتن الداخلية ، ولكن حدث فى الفترة الأخيرة أن فقد الشاه عباس ثقته فى إخلاصه ، وبدأ يشم منه رائحة النفاق ، مما جعله يضعه موضع التجربة ، حتى وقعت الحرب بين الجيش الصفوى ودين محمد خان الأوزبكى على مقربة من هراة ، وقد تولى فرهاد خان قيادة مقدمة الجيش الصفوى المهاجم هراة ، إلا أنه لم يكن حازما شجاعا فى خوض غمار الحرب ، بل إنه آثر الفرار وتحمل الهزيمة على الرغم من كثرة عدد الجنود معه ، فتيقن الشاه بأن فرهاد خان هو الذى افتعل الهزيمة متعمدا ، وبخاصة أنه عندما فر لم يرجع إلى حيث يوجد الشاه ، بل سلك طريقا آخر ، وعندئذ أصدر الشاه أوامره للهورديخان وجمع من القواد باغتيال فرهادخان ، وتم تنفيذ ما أمر الشاه عباس به .

الجيوش الصفوية بنفسه ، فخاض معركة حامية ، استطاع فى نهايتها إحراز نصر مؤزر على دين محمد خان الذى قتل فى المعركة ، وبعد ذلك تمكن الشاه عباس من استعادة هراة دون أن يلحقها أى دمار من جراء الحروب التى دارت خارج ديارها .

وهكذا استعاد الشاه عباس جميع مدن خراسان ، وحررها من الخطر الأوزبكى وأصبح سلطانه يهدد دولة الأوزبك فى ماوراء النهر ، بعد أن ظلوا فترة طويلة مصدر تهديد لأمن الدولة الصفوية ، فقد تقدم الشاه عباس فى عام ١٠١١ هـ وحاصر مدينة بلخ ولكنه عاد دون فتحها ، حيث تفشى وباء عام بين جنده ، كما تعرضوا لهجمات شرسة من بدو الأوزبك القاطنين الصحارى المحيطة ببلخ ، مما اضطر الشاه عباس لإنهاء حصاره والعودة دون أن يحقق هدفه من حملته [١] .

كما أصبح الشاه عباس الملاذ والملجأ لبعض حكام الأوزبك إذا ألم بهم أى خطر ، فقد حدث فى عام ١٠٢٠ هـ أن فقد ولى خان الأوزبكى عرشه الذى تولاه عام ١٠١٤ هـ ، فلجأ إلى الشاه عباس لكى يعيده إلى عرشه ويقضى على مغتصبيه ، فأحسن الشاه عباس وفادته ، ولكن نتيجة لانشغال الجيش الصفوى بالحروب مع الدولة العثمانية ـ اكتفى الشاه عباس بإمداده بالمال دون الرجال ، وأوكل أمره إلى أحد قواده لكى يصحبه حتى خراسان ، ومن هناك يتسلل إلى ماوراء النهر لينظم أتباعه ويحاول استرداد ملكه ، وقد فعل هذا ، ولكنه هزم وقتل بعد ذلك [٢] .

وعلى الرغم من انتصار الشاه عباس على الأوزبك وتيقنه من ضعفهم

---

(١) تاريخ بخارى ، ص : ٣٦٦

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٤ ، ص ١٢٧ - ١٣٩

وعدم مقدرتهم على معاودة الهجوم على خراسان ؟ إلا أنه كان يرغب فى تأمين حدوده المشتركة معهم ، حتى لا ينتهزوا فرصة إنشغاله بالحرب مع الدولة العثمانية ، ويحاول بعضهم التطاول على أراضى الدولة الصفوية ، لذا أمر الشاه عباس بنقل عدد كبير من القبائل الكردية من كردستان إلى حدود خراسان الشرقية ، وذلك ليكونوا بمثابة منطقة عازلة بين الأوزبك وخراسان ، ولكى يتحمل هؤلاء الأكراد أى خطر قد تتعرض له المدن الخراسانية مستقبلا (١).

وهكذا أمن الشاه عباس حدوده الشرقية ، وأطمأن على المدن الخرسانية ، ولم يعد الأوزبك يمثلون أى خطورة على دولته ، بل أصبحوا يخشون سطوة عباس ونفوذه ، وبذلك يكون عباس قد نجح بانتصاره على الأوزبك فى التغلب على أول معسكر سنى كان يهدد دولته الشيعية المذهب .

(١) History of Persia Vol II. p. 174

ثانيا: حروب الشاه عباس مع العثمانيين

— ١ —

معاهدة ٩٩٨هـ (١٥٩٠ م):

انتهز العثمانيون فرصة الاضطرابات التي اجتاحت إيران خلال فترة حكم كل من الشاه اسماعيل الثانى والسلطان محمد خدا بنده، حيث هاجمت قواتهم الأراضى الإيرانية واستولت على أجزاء كبيرة منها، فقد استولى فرهاد باشا على قراباغ وضمها إلى كنجه التى كان يسيطر عليها من قبل، كما أن جعفر باشا حاكم تبريز العثمانى مد سيطرته على جميع المناطق المجاورة لتبريز حتى منطقة سراب، وفى جبهة العراق تمكن جغال أوغلى مد سيطرته حتى مدينة نهاوند وحدود لرستان، كما بنى قلعة كبيرة فى نهاوند (١).

وعندما تولى الشاه عباس الحكم، كانت المناطق الغربية من دولته تتعرض للهجوم العثمانى بين آونة وأخرى، وما أن خرج من العاصمة قزوين قاصداً خراسان لدفع القوات الأوزبكية المغيرة، حتى فوجىء بهجوم عثمانى جديد على مناطق آذربايجان وولايات إيران الغربية، فاضطر الشاه عباس للعودة إلى قزوين، والسعى من أجل عقد معاهدة صلح مع العثمانيين، حتى يوقف زحفهم المستمر، ويفرغ بعد ذلك لمحاربة الأوزبك. وتحقق للشاه عباس ماتطلع إليه وقبل العثمانيون الدخول فى مفاوضات لعقد معاهدة صلح بين الطرفين، وقد جرت المفاوضات فى اسطانبول عاصمة العثمانيين الذين فرضوا شروط المنتصر على الشاه عباس المغلوب على أمره، وقد تم التوقيع على هذه المعاهدة فى نيروز

---

(١) زندگانى شاه عباس أول، ج: ٥، ص: ٥

عام ٩٩٨ هـ أى فى ٢٢ مارس ١٥٨٠ م ، [١] وقد تضمنت هذه المعاهـــدة الشروط التالية : [٢]

١ — أن تتنازل إيران للدولة العثمانية عن حكم تبريز والولايات الغربية من إيران ، أى منطقة العراق العجمى وخوزستان وشماخى وتفليس وجزء من منطقة لرستان .

٢ — أن تتوقف إيران عن سب الخلفاء الثلاثة الأول ، وسب السيدة عائشة .

٣ — أن يبقى حيدر ميرزا بن حمزة ميرزا أخى الشاه عباس فى اسطنبول كرهينة حتى لا ينقض الشاه عباس هذه المعاهدة . وكان حيدر ميرزا ضمن الوفد الإيرانى الذى سافر إلى اسطنبول لعقد معاهدة الصلح . (وقد ظل حيدر ميرزا فى اسطنبول حتى عام ١٠٠٥ هـ) .

٤ — الإفراج عن أسرى الطرفين ، وكان الإيرانيون قد أسروا عدداً من باشوات تركيا ومن بينهم مراد باشا ، وزجوا بهم فى قلعة قهقهة بقراداغ ففك الشاه عباس أسرهم على مضض ، وعلى نفس المنوال تم الإفراج عن الأسرى الإيرانيين ومنهم شاهرخ سلطان مهر دار ، ومهد يقليليخان شاملو وغيرهما ؛ وأعيدوا جميعاً إلى إيران [٣] .

ولعل العثمانيين قبلوا الصلح - وكان فى مقدورهم تحقيق المزيد من التوسع والتوغل فى الأراضى الإيرانية - لأنهم حققوا بهذه المعاهدة هدفين استراتيجيين

---

(١) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ، ص : ١٧٦

(٢) لغت نامه شمارهٔ ٧٦ ، ص : ٤٢

(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ص ٢٥٨ ؛ ٢٥٩

أولها يتمثل فى تأمين جبهتهم الشرقية ؛ حتى يتفرغوا لحروبهم مع المعسكر المسيحى فى أوربا ، وثانيهما تمثل فى إيقاف الحملات العدائية التى كانت الدولة الصفوية الشيعية المذهب تشنها ضد المذهب السنى ، وضد الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول ، حيث اعتبر العثمانيون أنفسهم خلفاء الخلفاء ، وأن أى معاداة لهؤلاء الخلفاء تعتبر معاداة لهم أيضاً ، ومن واجبهم الشرعى التصدى لمثيرى هذه المعاداة .

وبعد توقيع هذه المعاهدة سيطر الهدوء على منطقة الحدود الجديدة بين الدولتين والتى نصت عليها هذه المعاهدة ، وانتهت بذلك فترة من الحروب والمناوشات استمرت اثنى عشر عاما ، وذلك فى الفترة الممتدة بين عامى ٩٨٥ و ٩٩٨ هـ (١٥٧٧ – ١٥٩٠ م) [١] . وكان الشاه عباس حريصا كل الحرص على أن يستمر هذا الهدوء ، مهما حدث مايعكر صفوه ، وذلك لكى يتفرغ لجبهة خراسان من جانب ، ولعدم وجود القدرة لديه فى ذلك الوقت لطرد العثمانيين من المناطق التى استولوا عليها ، فعندما ثار خان أحمد حاكم جيلان على الشاه عباس ولجأ إلى الدولة العثمانية حيث أحسنوا استقباله ، لم يحتج الشاه على ذلك [٢] ونفس الشىء حدث مع شاهور ديخان حاكم لرستان الذى ثار ضد الشاه عباس ، وحاصر قلعة (صدمره) القريبة من خرم آباد وعندما تقدم جيش الشاه لمحاصرته والقضاء على فتنته سارع بالهرب إلى بغداد للاحتماء بالدولة العثمانية المسيطرة على العراق [٣] .

وكان الشاه عباس فى هذه الفترة حريصا على إظهار وده تجاه السلاطين

---

(١) تاريخ أدبيات إيران — جـ ٤ (براون) ص ، ٩٩
(٢) راجع ص : ٢٤٣ وما بعدها من هذا الكتاب
(٣) ملحقات تاريخ روضه الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٣٧١

العثمانيين، وأن يسلك معهم طريق الود والخنوع بدلا من القوة والنخوة، حتى أنه إذا أرسل رسالة إلى السلطان العثماني كان يكتب في مقدمتها مايقرب من أربعين سطرا بين نثر ونظم في تعداد مناقب السلطان المرسل إليه الرسالة، كما كان عباس يحاول التظاهر بأنه يعاضد العثمانيين في حروبهم ضد أوربا ولكنه في نفس الوقت يحاول الاتفاق مع زعماء المسيحيين الأوربيين للتعاون فيما بينهم وبينه ضد السلطان العثماني، كما قيل إن الشاه عباس عندما وصلته الأنباء بموت السلطان مراد الثالث عام ١٠٠٣ هـ (١٥٩٥ م)، وتولى مكانه السلطان محمد خان الثالث، أرسل وفدا للعزاء والتهنئة مكونا من ثلاثمائة رجل وعندما وصل الوفد إلى اسطانبول كان السلطان الجديد مشغولا بالحرب في أوربا، فظل الوفد في العاصمة العثمانية حتى عاد إليها السلطان وقدم إليه تعازيه في وفاة مراد الثالث، وتهانيه بتوليه حكم الدولة العثمانية [١].

وبعد أن حقق الجيش الصفوي انتصارات حاسمة على الأوزبك في خراسان وبدأ الشاه عباس يخطط للدخول في مواجهة سافرة مع الدولة العثمانية، شعر بأن وجود العاصمة في قزوين، يجعلها قريبة من أي هجوم عثماني متوقع، لذا آثر نقل العاصمة إلى أصفهان لتكون بعيدة عن أيدي المغيرين العثمانيين [٢].

كما أخذ الشاه عباس يبذل قصارى جهده في تقوية جيشه، والتفاني في تدريبه وتنظيمه وتسليحه، وقد أفاد في ذلك من مقدم الأخوين شرلي ورفاقهما البريطانيين، حيث أعانوه على إنشاء مصنع للأسلحة النارية، وزودوا جيشه بالمدافع، وأحسنوا تدريب جنود القزلباش حتى أصبح الجيش الصفوي قادرا على منازلة الجيش العثماني، مما شجع الشاه عباس على نقض معاهدة عام ٩٩٨هـ

(١) زندگاني شاه عباس أول. ج ٥، ص: ٧ وما بعدها

(٢) راجع ص ٢٨٧ وما بعدها من هذا الكتاب

متى واتته الفرصة ، وبخاصة أنه اطمئن إلى هدوء الجبهة الداخلية ، كما حقق الهـــدوء فى الجبهة الشرقية المتاخمة لدولة الأوزبك بعدا نتصاراته الحاسمة عليهم .

— ٢ —

الجولة الحربية الأولى بين جيش الشاه عباس والجيش العثمانى :

بعد أن اطمأن الشاه عباس إلى قوته ، واستقرار أحوال إيران السياسية بدأ يسلك مع السلطان العثمانى مسلـكا مختلفا ، فلم يعد يبدى الخنوع الزائد ، بل أخذ يجهر ببعض شعوره الحقيقى تجاه العثمانيين ألد أعدائه ، ففى عام ١٠٠٧ هـ وفد إليه سفير من قبل السلطان محمد الثالث [١٠٠٣ — ١٠١٢ هـ = ١٥٩٥ م ١٦٠٣] (١) ، وطلب السفير من الشاه إعادة النظر فى اتفاقية عام ٩٩٨ هـ ، بغرض الحصول على المزيد من الامتيازات ، كما طالبه بأن يترك خراسان للأوزبك ـ وصـــل السفير والجيش الصفوى يتقدم لاسترداد مشهد من الأوزبك ـ كما طلب السفير من الشاه عباس أن يرسل ابنه الأكبر ليـكون رهينة فى البلاط العثمانى ـ حيث أن حيدر ميرزا ابن حمزة ميرزا كان قد توفى عام ١٠٠٥ هـ ـ فما كان من الشاه عباس لا إأن قال « إن ابنى هو ولى عهدى ، وسيكون ملـكا من بعدى ، وليس من حقى أن أجعل الملك من بعدى رهينة لدى أى سلطان .. » ثم أمر الشاه بنتف لحية ذلك السفير العثمانى وأن ترسل لحيته على شكل هدية للسلطان العثمانى .(٢)

وقد ساعدته على التصريح بعدائه للعثمانيين ـ إلى جانب قوة جيشه وهدوء

(١) سلسله هاى إسلامى ؛ ص : ٢٠٩

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، ج : ٥ ، ص : ١٣ ، ١٤

جهته الداخلية وانتصاراته فى خراسان - بعض الظروف التى كانت تمر بها الدولة العثمانية نفسها ، واعتبرها الشاه عباس مواتية له ، وهـذه الظروف تمثلت فيما يلى :

١ - بعد وفاة السلطان مراد الثالث (١٠٠٣ هـ - ١٥٩٥ م) ، ثارت بعض الفتن التى تزعمها بعض الباشوات ، واستمرت بعض هذه الاضطرابات طوال فترة حكم السلطان محمد الثالث (١) ، وكانت هذه الأحداث مشجعة للشاه عباس لكى يتخلص من ربقة معاهدة ٩٩٨ هـ التى وقعها مع السلطان الراحل ، كما أن الاضطرابات الداخلية فى الدولة العثمانية ستضعف من موقف جنودها فى الولايات الإيرانية المحتلة ، مما يشجع الشاه عباس على محاربتهم .

٢ - كما ثار بعض العامة من رعايا الدولة العثمانية وهم من عرفوا باسم الجلاليين ضد حكومتهم المركزية ، واستطاعوا السيطرة على بعض أقاليم تركيا الشرقية ، وعاثوا فيها وفى مناطق آذربايجان فساداً ، وقد حاول السلطان محمد الثالث احتواء ثورتهم ولكن دون جدوى (٢) وعلى الرغم من عبثهم الذى امتد إلى آذربايجان الإيرانية الخاضعة لحكم العثمانيين . فإن الشاه عباس كان يساندهم فى ثورتهم ضد السلطان العثمانى ؛ فعندما زاد ضغط الدولة العثمانية عليهم ، هربوا فى عام ١٠١٧ هـ إلى إيران حيث أحسن الشاه عباس وفادتهم (٣) .

٣ - وفى بغداد ثار غلمانها على حاكمها العثمانى وأخرجوه منها ، وولوا

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٤٥

(٢) مختصر تاريخ الكرد وكردستان ، ص : ٢٠٢

(٣) زندگانى عباس أول ، ج : ٥ ، ص : ٥٦ - ٦١

مكانه أحمد آقا نامى . ونتيجة لهذه الثورة توقفت إمدادات المؤن عن قلعة نهاوند العثمانية ؛ مما دفع معظم حراسها إلى التفرق . ومن بقى منهم ، كانوا يغيرون على القوافل ويسلبون متاعها وأموالها . مما أثار حنق كل من الشاه عباس والدولة العثمانية التى أرسلت قائدا جديدا للإشراف على تلك القلعة ولكن الأفراد المتبقين بها منعوه من ذلك . بل سلبوه ما كان معه من أموال ومتاع . فشكا هذا القائد ويدعى محمد آقا نامى أمره إلى الشاه عباس ، فعزم عباس على مساعدته ؛ أملا فى تأمين طريق القوافل . ولكن قبل أن يجهز الشاه عباس الجيش الذى سيسير معه لتسخير القلعة ، حدثت فتنة فى تلك القلعة وهاجمها السكان المحيطون بها لكثرة اعتداءات جنودها على ممتلكاتهم وقد دفعت ثورة الأهالى إلى هرب محمد آقا نامى . مما أغضب الشاه عباس فأصدر أوامره فى عام ١٠١١ هـ إلى قواده بضرورة الاستيلاء على هذه القلعة وهدمها . وتحقق للشاه عباس ما أراد . وتقدمت بعض فرق الجيش الإيرانى واستولت على قلعة نهاوند ، وجعلتها فى مساواة الأرض تماما [١] . وقد كان هذا العمل حافزا للشاه عباس على مواصلة تحديه للدولة العثمانية التى لم تتخذ أى رد عنيف على احتلاله لقلعة نهاوند وهدمها .

٤ — وفى منطقة وار أغار حاكمها العثمانى على التجار الإيرانيين واستولى على أموالهم ، مما أثار حفيظة الشاه عباس فعقد العزم على تأديب هذا الحاكم العثمانى ، وكل حاكم آخر يعتدى على الرعايا الإيرانيين . وبخاصة أن معظم حكام مناطق الحدود العثمانيين وحكام منطقة أرمينية الكبرى ومنطقة أرزنة الروم لم يعودوا يحترمون نصوص الاتفاقية المعقودة بين الدولتين عام ٩٩٨ هـ [٢] .

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج : ٨ ، ص ٣٤٥ .

(٢) المرجع السابق ، ونفس الصفحة

٥ - حدث فى عام ١٠١١ هـ نزاع مسلح بين الجيش العثمانى المتمركز فى تبريز بقيادة على باشا وبين غازى بيك الكردى حاكم سلماس . مما دفع الأخير إلى إرسال ابنه إلى الشاه عباس يطلب عونه ومساعدته . أما على باشا فقد أعد عدته وتقدم بالقسم الأكبر من جيوشه نحو سلماس ، حيث أطلق يد النهب والسلب ، وقتل العديدين من سكانها (١) .

ولعل خلو تبريز من معظم جنود الحامية العثمانية المتمركزة فيها ، كان أفضل فرصة انتهزها الشاه عباس لبدء هجمومه على آذربايجان ؛ لكى يسترد تبريز وغيرها من المدن التى تنازل عنها بمقتضى اتفاقية عام ٩٩٨ هـ ولكى يقضى على المآسى التى يعيش فيها سكان أزربايجان والولايات الغربية الإيرانية الخاضعة للاحتلال العثمانى .

استرداد تبريز :

انتهز الشاه عباس وجود على باشا خارج تبريز ،وأمر بإعداد الجيش الصفوى على وجه السرعة ، وأعلن لجنوده أن وجهة التحرك ستكون صوب مازندران ، وبدأ الجيش الصفوى تحركه من أصفهان فى يوم الأحد الموافق السابع من ربيع الثانى عام ١٠١٢ هـ (١٦٠٣ م) (٢) . وتقدم الركب صوب كاشان ، ومنها إلى قزوين . وعلى مقربة منها أفصح الشاه عباس لجنوده بأن الغرض الحقيقى لتحركهم تحرير تبريز وطالبهم بسرعة المسير لكى يصلوها قبل عودة على باشا ومن معه من الجند إليها . كما أصدر الشاه أوامره لحاكم قزوين بأن يتبعهم بغلمانه وجيشه ، ونفس الأمر صدر إلى ذى الفقارخان حاكم أردبيل .

---

(١) مختصر تاريخ الكردو كردستان ، ص : ١٩٦

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٣٤٦ وما بعدها

وبعد مضى أربعة عشر يوما فقط من مغادرتهم أصفهان، أى فى الحادى والعشرين من ربيع الثانى استطاعوا الوصول إلى مشارف تبريز . وهناك لجأ الشاه عباس إلى الحيلة لكى يتمكن من استرداد المدينة بأقل مجهود . فأمر جماعة من جنده بالتخفى وإبدال ثيابهم العسكرية . ودخول المدينة على أنهم من المواطنين العاديين . كما تقوم مجموعة أخرى من الجنود بالتخفى فى زى التجار الذين يسبقون القوافل التجارية عامة ، حتى يعرف أهالى تبريز أن هناك قافلة قادمة . وبذلك يتم خداع الجنود الأتراك ؛ وفى الساعة المتفق عليها بين الشاه عباس والجنود المتخفين بداخل المدينة يبدأ الهجوم من الداخل والخارج ؛ فيجد الجنود العثمانيون أنه لا قبل لهم بمحاربة هؤلاء وهؤلاء ؛ وبالتالى لا يكون أمامهم إلا التسليم والهزيمة[1] .

ونجحت خطة الشاه عباس ودخل المدينة بلا مشقه تذكر ، فاستقبله الأهالى استقبالا حاراً حيث استطاع تحرير مدينتهم واستردادها بعد أن ظلت تحت الحكم العثمانى زهاء عشرين عاماً[2] .

بعد ذلك أرسل الجنود العثمانيون إلى على باشا من أخبره بدخول الشاه عباس تبريز ، فسارع بعقد صلح مع غازى بيك الكردى ، ليعود مسرعا إلى تبريز على أمل طرد الشاه عباس وجنده منها ؛ وفى طريق عودته تخلى عنه الجنود المنتمون إلى نخجوان وإيروان ؛ مما أضعف جبهته ، وفى مدينة صوفان على بعد ستة فراسخ من تبريز عسكر على باشا ليعيد تنظيم صفوفه ؛ ولكن الشاه عباس عاجلهم واستطاع أن ينزل بهم هزيمة ساحقة . كما تمكن

---

(١) زندگانى شاه عباس أول جـ ٥ ، ص ٢٢ نقلا عن رحلات شاردن الفرنسى الجزء الثانى ص : ٣٤٢ — ٣٤٣

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٢٥

سن أسر على باشا نفسه ؛ وقتل عدد كبير من القواد العثمانيين المصاحبين لعلى باشا الذى أحسن إليه الشاه وأبقى على حياته[١] .

وبعد ذلك تقدم الشاه عباس صوب قلعة تبريز ليحررها من الجنود العثمانيين المرابطين فيها ؛ فأمنهم على حياتهم إذا استسلموا له ؛ وقد تم تسليم القلعة بلا حرب ولا مشقة ؛ وكان ذلك فى يوم الجمعة الثامن عشر من شهر جمادى الأولى عام ١٠١٢ هـ (١٦٠٣ م)[٢] . وبعد ذلك أصدر أوامره إلى أهالى تبريز بهدم هذه القلعة كرمز للقضاء على الاحتلال العثمانى فى آذربايجان كلها .

. . .

الاستيلاء على نخجوان وايروان بأرمينيا :

بعد نجاح الشاه عباس فى استرداد تبريز بدأ يعمل جاهدا لاسترداد جميع مدن آذربايجان الواقعة تحت وطأة الاحتلال العسكرى العثمانى ، فأمر جيوشه بالتوجه أولا صوب قلاع نخجوان وايروان، فتقدم ذو الفقار خان الذى تولى إمارة تبريز بعد تحريرها — صوب قلعة نخجوان وحاصرها ، فسارع الجنود العثمانيون بطلب الأمان ، حيث كان عددهم لا يسمح بمقابلة الجيش الصفوى المحاصر لهم ، فأمنهم ذو الفقار على حياتهم، وتسلم منهم القلعة دون قتال[٣] .

وبعد ذلك تقدم الجيش الصفوى بقيادة الشاه عباس صوب قلاع ايروان الثلاث ، حيث كانت حامية ايروان مزودة بثلاث قلاع ، إحداها تعرف

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٣٤٨

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٥ ، ص: ٢٦

(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ : ٨ ، ص : ٣٥٠

باسم القلعة القديمة ، وقد بنيت عام ٩٩١هـ ، وكانت تقسم بمنعتها وصعوبة الوصول إليها، وفيها يقيم قائد الحامية شريف باشا، وثانيها قلعة (كوزجي) وهي قلعة صغيرة تقع في الجنوب الغربي من المدينة ، وثالثها قلعة جديدة أمر ببنائها شريف باشا على عجل في عام ١٠١٢ هـ لتساعد في صد جيش الشاه عباس ، وكانت هذه القلاع تضم حوالى اثنى عشر ألف جندي بقيادة شريف باشا (١) .

تقدم الجيش الصفوى ليحاصر القلاع الثلاث والاستيلاء عليها، كما أصدر أوامره لفرقة المدفعية بالتمهيد للفرق الثلاث وذلك بضرب القلاع ومحاولة القضاء على التحصينات التي قد تعوق تقدم فرق المشاه .

حدث أثناء احتدام المعارك بين جيش الشاه عباس والجيش العثماني بقيادة شريف باشا، أن وردت الأنباء بوفاة السلطان محمد الثالث، وتولى ابنه السلطان أحمد (٢) وله من العمر ستة عشر عاما . وقد صحب ذلك حدوث بعض الاضطرابات والفتن في العاصمة العثمانية ، فكانت هذه الأنباء مثبطة للروح القتالية لدى الجنود العثمانيين الذين فقدوا الأمل في سرعة وصول الإمدادات العسكرية من جانب العاصمة لانشغالها بالاضطرابات والفتن ، في حين انتهز الجيش الصفوى هذه الفرصة وشدد من هجماته على القلاع الثلاث واستولى على القلعتين الصغيرتين أولا وذلك في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر ذى الحجة عام ١٠١٢ هـ ثم ركز أفراده هجومهم على القلعة القديمة حتى سقطت في أيديهم . واستسلم من بقى منهم على قيد

---

(١) زندگانى فى شاه عباس أول ، ج : ٥ ، ص : ٣٠

(٢) كان ذلك عام ١٠١٢ هـ (١٦٠٣م)

الحياة، فتم أسرهم، وكان من بينهم القائد شريف باشا وعدد كبير من مساعديه العسكريين، وذكر بعض المؤرخين أن عدد القتلى من الجنود العثمانيين بلغ مايقرب من أربعة آلاف جندي[١]، أما شريف باشا فقد أحسن الشاه عباس معاملته وبصورة لم يكن يتوقعها شريف باشا نفسه، مما جعله يدخل فى المذهب الشيعى ويستأذن الشاه عباس فى السفر إلى مشهد والإقامة بجوار ضريح الإمام، فأذن له، وسافر شريف إلى مشهد وظل بها حتى توفى[٢].

وأثناء انشغال الشاه عباس بمحاصرة ايروان، أصدر أوامره إلى اللهوردى خان حاكم فارس بالتقدم على رأس جيش كبير صوب آذربايجان ليقدم العون للجيش المحارب هناك، فأعد اللهورديخان جيشه، وتقدم به صوب آذربايجان، ولكنه فى الطريق تعارك مع حاكم بغداد العثمانى، واستطاع محاصرة بغداد، والتغلب على حاكمها، ولكنه لم يبق بها، وآثر مواصلة السير نحو آذربايجان، حيث تدور المعارك الرئيسية بين الجيش الصفوى وبين الحاميات العثمانية فى مدن آذربايجان المختلفة.

— ٣ —

الجولة الحربية الثانية بين جيش الشاه عباس والجيش العثمانى بقيادة چغال أوغلى:

بعد أن حقق الشاه عباس تحرير تبريز والعديد من مدن آذربايجان، آثر أن يستريح بعض الوقت، ويلتقط أنفاسه حيث أقبل الشتاء، ومن عادة الجنود فى هذا الفصل اللجوء إلى الراحة نظراً لشدة البرد وتساقط الثلوج فى

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا، ج: ٨، ص: ٣٥٥

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

منطقة آذربايجان ، لذا سمح للعديدين من أفراد جيشه بالسفر إلى مناطقهم الأصلية لزيارة ذويهم والاطمئنان عليهم (١) ، ثم يعودون بعد ذلك لاستئناف جولة جديدة من الحروب مع الحاميات العثمانية الباقية فى مدن آذربايجان .

أما بالنسبة للدولة العثمانية ، فقد هالها استرداد الشاه عباس لنهاوند ثم تبريز وعدد من مدن آذربايجان مثل نخجوان وإيروان وجغور سعد فأمر السلطان أحمد بإعداد جيش عظيم يتولى قيادته الصدر الأعظم والسردار الأكبر سنان باشا المعروف باسم جغال أوغلى، وذلك ليؤدب عباس ويسترجع جميع المناطق التى استولى عليها الجيش الصفوى ، ثم يواصل تقدمه ويسخر إيران كلها ويقضى على الدولة الصفوية .

وتحرك الجيش العثمانى وسار بهمة حتى وصل إلى مدينة قارص على الحدود الإيرانية العثمانية ، وهناك توقف جغال أوغلى لكى ينظم جيشه الكثيف العدد ، وليضع خطته التى يبدأ بها الهجوم على أراضى آذربايجان ، وليختار الطريق الذى سيسلكه للقضاء على الشاه عباس وجيشه .

وكانت أخبار هذه الحملة تصل أولا بأول إلى علم الشاه عباس ، حيث أرسل بعض جواسيسه إلى اسطانبول لإطلاعه على كل تحرك تركى ضده ، فاستطاع بعض هؤلاء الجواسيس مراقبة جيش جغال أوغلى ومعرفة كل أخباره ، وإرسالها فورا إلى الشاه عباس ، حتى يتخذ حذره ، وأخيراً وصلت الأنباء بأن الجيش العثمانى سوف يتوجه صوب ايروان ونخجوان حتى يلتقى بالجيش الصفوى هناك ويقضى عليه (٢) ، فوجد الشاه عباس نفسه فى

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، ج : ٥، ص: ٣٧

مأزق ، إذ كيف يلتقى بالجيش العثمانى الكثيف العدد والعتاد ، وعدد كبير من جنده قد سافروا إلى ذويهم ، لذا نراه يؤثر التراجع إلى تبريز ، وذلك ليغرى جغال أوغلى بالتقدم داخل أراضى آذربايجان ، وبالتالى لا يكون قريباً من الأراضى العثمانية حتى يصعب إمداده بالرجال والعتاد فى وقت قصير (١) كما أن الشاه عباس أقدم على إحراق كل مظاهر الحياة ووسائل المعيشة في الطريق الذى سيسلكه جغال أوغلى فى هجومه على آذربايجان ، وردم جميع آبار المياه حتى لا يجد الجيش العثمانى أثناء تقدمه غذاء وماء ، وبالتالى تكون الطبيعة خير سلاح يتصدى للجيش العثمانى ويكبده خسائر كثيرة فى الأرواح نتيجة للجوع والعطش ، كما أمر الشاه عباس بترحيل جميع سكان المدن الواقعة على الطريق المتوقع أن يسلكه جغال أوغلى، وأن يتم إسكانهم بمدن إيران الداخلية ، وقدر البعض عدد من أمر الشاه بترحيلهم بحوالى عشرين ألف نسمة ، كان بينهم عدد كبير من الأرمن ، حيث أسكن بعضهم فى ضاحية جديدة بنيت بجوار أصفهان ، وعرفت الضاحية الجديدة باسم « جلفا الجديدة »

وللمزيد من الاستعداد أمر الشاه عباس ببناء قلعة جديدة فى تبريز،وذلك مكان القلعة . التى أمر بهدمها يوم استرداد المدينة فبنيت القلعة على عجل حيث تم بناؤها فى عشرين يوماً فقط ، وذلك فى المدة ما بين الثامن والعشرين من ذى الحجة عام ١٠١٣ هـ (١٦٠٤ م) إلى الثامن عشر من المحرم ١٠١٤هـ، وأمر بحفر خندق عظيم يحيط بها ، كما جهزها بمعدات ومؤن تكفى المعسكرين فيها مدة ثلاث سنوات (٢).

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج : ٨، ص: ٣٦٢

(٢) زندكانى شاه عباس أول ، ج ٥ ،ص :٣٧

وعندما استكمل جغال أوغلى استعداداته الحربية ، ونظم عساكره ، تقدم من قارص قاصدا ايروان ونخجوان على الرغم من قسوة الأحوال الجوية وتساقط الثلوج ، فتكبد جيشه العديد من المشاق ، وزاد من هذه المشاق أنهم وجدوا كل شيء فى طريقهم قد أحرق بأمر الشاه عباس . فلم يجدوا أى زاد أو ماء بالطريق ، مما دفعهم للتذمر والامتناع عن مواصلة السير ، فاضطر جغال أوغلى للعودة صوب وان بعد أن تحمل الكثير من الخسائر فى الأرواح والمعدات (١) .

وهكذا نجحت خطة الشاه عباس فى استدراج جغال أوغلى وترك للطبيعة القاسية تحاربه ، وبذلك يحقق نصراً كبيراً دون الدخول فى مواجهة قد يكون الخاسر فيها ، نظراً لكثرة عدد الجيش العثمانى ووفرة أسلحته .

* * *

كانت هزيمة جغال أوغلى وتراجعه ، من العوامل المشجعة للشاه عباس لكى يعاجل الجيش العثمانى ، ويهاجمه فى وان قبل أن يستكمل تنظيم صفوفه المبعثرة ، وقبل أن تصله أى إمدادات عسكرية يعوض بها خسائره فى الأرواح والعتاد ، لذا أصدر الشاه عباس أوامره إلى قائده العام اللهوردیخان بالتقدم السريع صوب وان ومهاجمة الجيش العثمانى المرابط هناك ، وأخذه على غرة ، وعندما اقتربت جيوش القزلباش من بلدة وان فوجىء بمقدمهم جغال أوغلى ، ورأى أن الحكمة تقضى بعدم خروجه لمقابلتهم ، بل يجب احتماؤه بقلعة وان ، فى حين يضرب بقية قواده حصارا حول المدينة من عشرة اتجاهات ، ويتولون الدفاع عنها دون المخاطرة بالهجوم والتقدم لصد الجيش الصفوى ، وعلى الرغم

---

(١) تاريخ إيران از مغول تاافشارية ، ص: ٣٢٧

من كل هذه الاستعدادات فقد بادر الصفويون بالهجوم على مشارف المدينة حتى انتصروا على القوات العثمانية التى تولت الدفاع خارج الأسوار ، مما أجبر هذه القوات على التراجع إلى داخل المدينة للاحتماء بأسوارقلعتها(١) .

وأثناء اشتداد المعارك وصلت الأنباء إلى قائد الجيش الصفوى بأن الإمدادات فى طريقها إلى جغال أوغلى ؛ فأصدر أوامره إلى بعض وحداته بالانسلاخ من المعركة والإسراع باعتراض طريق الإمدادات العثمانية ، حتى لا تكون سندا للجيش المحاصر ، ونجحت الوحدات الصفوية فى التغلب على القوات العثمانية القادمة لنجدة الجيش العثمانى فى وان ، كما قامت بعدذلك بمهاجمة جيش جغال أوغلى من الخلف ،(٢) مما أشعر جغال أوغلى بأنه فقد كل فرصة للانتصار ، كما أصبح لا قبل له على مواصلة الحرب نتيجة لمقتل عدد كبير من جنوده وانقطاع الإمدادات العثمانية ، مما اضطره إلى الهرب عن طريق بحيرة وان متجها صوب الأراضى العثمانية ، ومعه عدد كبير من قواده ومستشاريه(٣) ، وقد لحقتهم الهزيمة الثانية فى آذربايجان .

وبعد انتهاء المعركة عاد الجيش الصفوى بقيادة اللهورديخان إلى تبريز حيث يوجد الشاه عباس الذى خرج لاستقبالهم والحفاوة بهم ، وتهنئتهم على النصر الكبير الذى أحرزوه على الجيش العثمانى .

• • •

بعد فرار جغال أوغلى عبر بحيرة وان ، أخذ يجمع حوله الجيوش من جديد ،

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٧١

(2) Hiatory of Persia Vol, II p. 178.

(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٧١

ويستعد لجولة أخرى يحقق فيها النصر على الجيش الصفوى ، وقبل التقدم صوب آذربايجان راسل جميع رؤساء القبائل الذين انتصر عليهم الشاه عباس وأدخلهم تحت حكمه . ودعاهم فى هذه الرسائل إلى مساندته ومشاركته فى محاربة الشاه عباس ، ثم تقدم نحو آذربايجان وعسكر على مقربة من مدينة سلماس

كان الشاه عباس موجوداً فى ذلك الوقت فى مدينة (خوى) حيث كان يشرف على بناء قلعة جديدة ، فإذا به يتوجه صوب مدينة (مرند) ليكون قريباً من المكان الذى عسكر فيه جيش جغال أوغلى . ومن هناك أرسل عيونه وجواسيسه لكى يستطلعوا أحوال الجيش العثمانى القادم للانتقام من الهزائم السابقة . فأخبره هؤلاء العيون بأن الجيش العثمانى يبلغ زهاء المائة ألف جندى . مما جعل الشاه عباس يتوجس خيفة من لقاء الأتراك وجد فى جمع أكبر عدد من الجنود حتى وصل تعداد جيشه إلى ما يقرب من اثنين وستين ألف جندى (١) . وعلى الرغم من ذلك فقد فكر فى التراجع صوب تبريز وإحراق كل مظاهر الحياة بين مرند وتبريز . وذلك لكى يصل جيش جغال أوغلى إلى تبريز منهوك القوى . فيستطيع الجيش الصفوى الظفر به ، والانتصار عليه . ولكن قواده رفضوا فكرة التراجع حتى لا يكون ذلك حافزا للجيش العثمانى على مهاجمتهم . فاقترح اللهورديخان القائد العام للجيش الصفوى فى ذلك الوقت أن يلزم الجيش الصفوى الدفاع ، وألا يبادر بالهجوم . فاعترض بعض القواد قائلين : إن إحجامنا عن التقدم معناه تشجيع العثمانيين على مواصلة التقدم كما أن الحلم فى بعض المواضع ذلة ! (٢) .

وأمام إصرار القواد ، أمر الشاه عباس ببدء الهجوم ، ورأى أن يقود

---

(١) لغت نامهٔ شمارة ٧٦ ، ص : ٤٢

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ج ، ٨ ، ص : ٣٧٥

الحملة بنفسه . ولـكن اللهورديخان رفض ذلك قائلا : « .. من الحـكمة أن يظل الشاه بعيدا عن المعركة . فإذا قدر وهزم الجيش الإيرانى ،فإن بقاء الشاه عباس على قيد الحياة ، سيحيى الأمل فى رد الهزيمة والعودة إلى النصر ، أما إذا شارك الشاه فى المعركة وأصيب بمكروه ، فمعنى هذا القضاء التام على إيران أمام الخطر العثمانى الزاحف . أضف الى ذلك أن السلطان العثمانى لن يحارب المعركة بنفسه، فلماذا يشارك الشاه عباس بنفسه فى هذه المعركة؟. »[١]

وفى يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من جمادى الآخرة عام ١٠١٤ هـ[٢] تقدم الجيش الصفوى بقيادة اللهورديخان لملاقاة جيش جغال أوغلى. ودارت معركة طاحنة وصفها رضا قليخان هدايت بقوله « .. التقى الجيشان، ودارت حرب طاحنة وصلت إلى حد الالتحام بالسيف والخنجر وأصبح القتلى تلالا . وسارت الدماء جداولا . وكانت أصوات مدافع الجيش العثمانى تصل إلى الأفلاك ، كما كانت أصوات طبول الحرب الصادرة عن جيش القزلباش تدوى كالرعد وسط الجبال . وارتفع الغبار فى ساحة المعركة ، حتى لم يعد يرى غير السيف البراق والدم المراق »[٣]

وأخيرا استطاع الجيش الصفوى تحقيق نصر مؤزر على الجيش العثمانى وقد غنم الكثير من آلات الحرب والعتاد والجواهر ، وما يقرب من مائة قطعة من النسيج. وقد وزع الشاه عباس على جنده جميع الغنائم عدا

---

(١) سفر نامهٔ انتونيو دوگوه ٣،ص ٢٩٠ ، ٢٩١ ، وذلك نقلا عن زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٥ ، ص : ٤٥

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ص: ٣٧٤

(٣) المرجع السابق ، ص : ٣٧٥

قطع النسيج التى ضمها إلى حوزته الخاصة . (١)

وبالنسبة لجغال أوغلى فقد تراجع بعد هزيمته الثالثة صوب ديار بكر . وهناك أسلم الروح بعد انقضاء المعركة بيومين فقط . وقال معظم المؤرخين بأنه مات كمداً نتيجة هزائمه المتكررة أمام الجيش الصفوى . ولكن انتونيو دى جوفيا ذكر أنه مات منتحرا، حيث بلغة كذبا بأن السلطان أحمد قد أمر بإهدار دمه ؛ إذ أن الشاه عباس كان قد استولى على بعض الرسائل التى كانت ترسلها زوجة جغال أوغلى إلى زوجها وهو فى ساحة المعركة ، وأمر الشاه عباس بتقليد خط الزوجة وأسلوبها ، وإرسال رسالة على لسانها إلى زوجها جغال أوغلى تتحدث فيها عن إهدار السلطان لدمه ، وأن عقوبة الإعدام ستنفذ فيه بمجرد قدومه الى العاصمة العثمانية . وما أن تسلم جغال أوغلى الرسالة حتى ظنها من زوجته وسارع بالانتحار حتى ينهى حياته بيديه. مؤثراً الانتحار على تنفيذ عقوبة الإعدام . وهكذا حقق الخطاب المزور الذى أرساه الشاه عباس الغرض منه وتخلص الشاه عباس من خصم عنيد .

. . .

—٤—

مفاوضات الصلح :

بعد أن حقق الجيش الصفوى انتصارات باهرة على جيش جغال اوغلى العثمانى ، أصبحت الفرصة مهيأة للجيش الصفوى بالتقدم لاحتلال باقى القلاع التابعه للعثمانيين فى آذربايجان ، فتقدم هذا الجيش نحو گنجه منتهزا فرصة ثورة

---

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص٢٣٨

حا كمها العثمانى ضد الشاه عباس ، واستطاع القضاء عليه وتحطيم قلعة گنجه وذلك فى الثامن والعشرين من صفر عام ١٠١٥ هـ (١٦٠٦)(١) ، ثم واصل الجيش الصفوى تقدمه نحو قلعة تفليس لتسخيرها ، فأحسن المحتمون بها استقبال الجيش الصفوى وأعلنوا الدخول فى طاعة الشاه عباس دون حرب أو عراك(٢) .

وأمام هذه الانتصارات وتساقط قلاع آذربايجان الواحدة تلو الأخرى ، أدرك الصدر الأعظم الجديد درويش باشا أن مصلحة الدولة العثمانية تقضى بالكف عن منازلة الشاه عباس ، بل يجب الدخول فى صلح بين الدولتين ، فلعل الظروف فى المستقبل تسمح بأن تشن الدولة العثمانية هجوما واسعا تحقق فيه مالم تستطع تحقيقه جيوش جغال أوغلى ، فأرسل درويش باشا رسالة إلى الشاه عباس يقترح فيها أن يكتب الشاه للسلطان أحمد الأول للدخول فى صلح ، وأن الحكمة تقضى نبذ الخلافات بين الدولتين ، فاستجاب الشاه عباس لطلب الصدر الأعظم درويش باشا ، وأرسل رسولا من قبله إلى السلطان أحمد ، محملا بالعديد من الهدايا ومعه رسالة تتضمن اقتراح الشاه عباس بالدخول فى صلح مع السلطان العثمانى بنفس شروط معاهدة ٩٦٩ هـ والتى وقعت بين الشاه طهماسب الأول والسلطان سليمان القانونى(٣) .

ولم ينتظر الشاه عباس استجابة السلطان أحمد وموافقته على شروط الصلح التى عرضها فى رسالته ، بل أخذ يعمل جادا على تسخير الأجزاء الباقية من

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، ج ٥ . ص : ٥٠

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٨٠

(٣) تاريخ إيران أز مغول تا افشارية ، ص : ٣٢٨

آذر بايجان لسيطرته ، والقضاء على كل قلعة مازالت تابعة للدولة العثمانية فسارعت بعض هذه القلاع بإعلان تبعيتها للشاه عباس دون قتال أو عراك فقد ثار سكان بادكوبه ودر بند على حكامهم العثمانيين ، وتغلبوا عليهم ، تقدموا للشاه عباس معلنين دخولهم فى طاعته ، وهكذا تحقق للشاه عباس احتلال هاتين المدينتين بلا قتال ، وأهم القلاع التى دانت له فى منطقة دربند قلعة (باب الأبواب) الشهيرة بحصانتها ومنعتها[١] .

ولكن بعض قلاع آذر بايجان رفضت التسليم ، فأعد الشاه عباس عدته لاحتلالها بالقوة المسلحة ، وأهم هذه القلاع قلعة « شماخى » عاصمة إقليم شيروان ، وكانت قلعة تمتاز بصعوبة الوصول إليها ، مما جعل الخوف يسيطر على قواد الجيش الصفوى من مهاجمتها ، وحاولوا التمرد والامتناع عن القيام بهذه المهمة البالغة الصعوبة ، ولكن الشاه عباس أمر عددا من قواده بمهاجمة هذه القلعة دفعة واحدة ، حيث يهاجمها اللهورديخان من الجانب الشمالى، ويهاجمها اللهقليخان من الجانب الغربى ، ويتولى ذو الفقار خان مهاجمة بقية جوانبها ، كما يتولى سلاح المدفعية ضربها من بعيد والتمهيد للجيوش المتقدمة لتقوم بواجبها خير قيام[٢] ، وأخذ الحصار يضيق حول تلك القلعة الحصينة تدريجيا ، حتى استطاع بعض الجنود الصفويين اقتحام أحد أسوارها والدخول إليها. ودار القتال داخل القلعة وخارجها بشراسة وعنف ، حتى تمكن الجيش الصفوى من تحقيق النصر ، والاستيلاء على هذه القلعة الحصينة فى يوم الثلاثاء غرة ربيع الأول عام ١٠١٦هـ (١٦٠٧ م)[٣] .

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ص : ٣٨٦ - ٣٨٨

(٢) المرجع السابق ، ص : ٣٨٤

(٣) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٥ ، ص : ٥٣

وإلى جانب مهاجمة هذه القلاع الخاضعة للدولة العثمانية ، فإن الشاه عباس كان حريصا على تأديب جميع القبائل التى تعاونت مع العثمانيين ، لذا نراه يأمر جيشه بشن الهجوم من وقت إلى آخر على القبائل الكردية الثائرة ضده ، والمتعاطفة مع العثمانيين بسبب وحدة المذهب السنى فيما بينهما ، ثم انتهز الشاه عباس فرصة لجوء عدة آلاف من الجلاليين الثائرين ضد الدولة العثمانية ، وأسكنهم فى المناطق الكردية ، لكى يتولى هؤلاء الجلاليون مساعدة الشاه عباس فى القضاء على أى فتنة كردية ، ولكن أمير خان زعيم طائفة برادوست الكردية رفض إقامة هؤلاء الجلاليين فى أماكن تجمع طائفته ، وتحصن فى قلعة « دمدم » المنيعة ، فكلف الشاه عباس جيشه بمحاصرة تلك القلعة فى السادس والعشرين من شهر شعبان عام ١٠١٧ هـ (٥ ديسمبر ١٦٠٨ [١]) ولجأ الجيش الصفوى إلى وسيلته المعهودة فى محاصرة أى قلعة حيث قطع إمدادات المياه عنها ؛ مما أدى إلى تضييق الخناق على المحاصرين ، وأخيراً دخل الجيش الصفوى فى حرب طاحنة مع الأكراد المتحصنين بالقلعة ، واستطاع التغلب عليهم ، وقتل جميع من ظلوا أحياء بالقلعة بعد فتحها ، كما أخضع الشاه عباس لسيطرته قبادخان المكرى الكردى واستولى على قلعته « كاودولى » [٢] .

بهذه الانتصارات التى أحرزها الشاه عباس وجيشه ، أصبحت منطقة آذربايجان كلها خاضعة لسلطانه ، ولم يعد فى مقدور أى حاكم إقليمى الجهر بعاداته للبيت الصفوى وللشاه عباس ، لذا أدرك الصدر الأعظم مراد باشا الذى تولى ذلك المنصب بعد درويش باشا بأن المصلحة تقتضى منه السعى الجاد من أجل عقد معاهدة صلح بين الدولتين العثمانية والصفوية ، بعد أن تعثرت

---

(١) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ، ص : ٢٠٣

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص ٣٩٨ - ٤٠٠

محاولات الصدر الأعظم السابق لانعدام الثقة بين الطرفين . فأرسل مراد باشا رسولا إلى الشاه عباس وطلب منه تكرار مراسلة السلطان أحمد لعقد صلح فيما بينهما ، وقد جاء فى رسالة الصدر الأعظم للشاه عباس مايلى : « الآن وقد استعاد شاه إيران جميع الولايات التى كان العثمانيون قد احتلوها أيام آبائه ، فمن الخير أن يسعى للصلح وأن يراسل السلطان العثمانى فى أمر الصلح ونبذ الحرب التى تضعف الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين ، مما يرضى أعداء الإسلام من ملوك أوربا »(١) . فقبل الشاه عباس رجاء الصدر الأعظم العثمانى ، وأرسل عام ١٠١٨ هـ رسالة إلى السلطان أحمد يدعوه إلى نبذ الحرب وعقد صلح بين الطرفين بنفس شروط معاهدة عام ٩٦٩ هـ .

بعد أن توجه رسول الشاه عباس إلى العاصمة العثمانية ، تحرك مراد باشا على رأس جيش كبير العدد قاصدا إيران ، بحجة الدخول فى مفاوضات الصلح ، ولكن كثرة عدد الجنود المصاحبين له ، جعلت الشاه عباس يشك فى نواياه الحقيقة ، وهل جاء قاصدا الصلح أم متذرعا بالسلام ، ومضمرا نية الهجوم إذا واتته الفرصة ، وبخاصة إذا خدع الشاه عباس بطلب الصلح ، ولم يعد العدة للقتال ، ولكن لانعدام الثقة بين الجانبين أمر الشاه عباس باستنفار الجيوش الصفوية ، وحسن استعدادها لمجابهة أى خطر مرتقب .

وأمام الاستعداد الضخم الذى بذله الشاه عباس وجيشه . بدأ الخوف يتسرب إلى قلب الصدر الأعظم مراد باشا ، وتوقف عند الحدود العثمانية الإيرانية ، وأرسل رسالة إلى الشاه عباس يخبره بأنه متقدم لعقد صلح حقيقى وليس فى نيته الغدر ، وأنه منتظر من الشاه مايثبت رغبته فى الصلح حتى

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٥ ، ص : ٦٢

يواصل مسيرته صوب تبريز حيث يقيم الشاه عباس. فأرسل الشاه إلى مراد باشا هدية عبارة عن زجاجة من العطر مطعمة بالذهب، وكانت من المصنوعات الهندية النادرة التى أهداها الشاه محمد سليم بن محمد أكبر سلطان الهند إلى الشاه عباس (١).

وبعد تبادل عدة رسائل بين الصدر الأعظم وبين الشاه عباس تقدم مراد باشا إلى تبريز، وأعلن موافقة السلطان العثمانى على إبرام معاهدة بين الطرفين على غرار معاهدة ٩٦٩ هـ بين الشاه طهماسب الأول والسلطان سليمان القانونى، وقد تم توقيع هذه المعاهدة عام ١٠٢٠ هـ (١٦١٢ م)، ونصت هذه المعاهدة على ما يلى :

ا — الاعتراف بأن حدود إيران هى ما كانت عليه أيام حكم السلطان سليم الأول، وبذلك يكف العثمانيون عن جميع الادعاءات التى يربطونها بفتوحات كل من السلطانين مراد الثالث ومحمد الثالث (٢).

ب — أن يعلن الشاه عباس استعداده لتصدير مائتى حمل من الحرير سنويا إلى الدولة العثمانية. (ولكن الشاه لم يف بتصدير الحرير المتفق عليه) (٣).

ج — أن تقوم كل دولة بتحديد ممثلين عنها، لكى تجتمع اللجان المشتركة لتحديد الأراضى الخاصة بكل دولة منهما.

وحدث بعد توقيع المعاهدة أن تمرد بعض جنود مراد باشا، وخرجوا على طاعته واعتدوا على أهالى تبريز، فسارع الجيش الصفوى بالتصدى لهم،

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا، ج: ٨، ص: ٤٠٤

(٢) لغت نامة، شماره ٧٦، ص: ٤٢

(٣) المرجع السابق، ص: ٤٣

والفتك بهؤلاء المتمردين ، وقتل عددا كبيرا منهم ، ولم يؤثر هذا الحادث على المعاهدة التي جد الطرفان في توقيعها، وبعد ذلك عاد مراد باشا إلى الأراضي العثمانية ، ولكن ما أن وصل إلى ديار بكر حتى وافته منيته ، وذلك في التاسع والعشرين من جمادى الآخرة عام ١٠٢٠هـ ، وهكذا أسلم الروح بعد أن لاحت في الأفق بوادر فترة هدوء في العلاقات بين الدولتين المتصارعتين فإلى متى يستمر هذا الهدوء ؟

— ٥ —

الجولة الحربية الثالثة بين الجيشين الصفوى والعثماني :

نصت معاهدة ١٠٢٠ هـ على أن تجتمع لجان مشتركة لتقوم بتحديد الحدود الفاصلة بين أراضي الدولتين العثمانية والصفوية ، وقامت كل دولة باختيار مفاوضيها ، وأخيراً اجتمعت اللجان المشتركة في مدينة سلماس بآذربايجان ، ونجح المفاوضون في تحديد الحدود في كل من آذربايجان وأرمينيا ، كما اتفقوا على تقسيم بلاد الكرج بين الدولتين[١] ، ولكن هذا القرار الأخير لم يرق لبعض حكام الكرج السابقين ، ومنهم طهمورث خان حاكم ولاية كاخت التي نصت الاتفاقية على تبعيتها لإيران ، فأخذ يتحين الفرص للانقضاض على حكام المنطقة من قبل الشاه عباس ، وقد واتته الفرصة في عام ١٠٢٣ هـ وذلك بتدبير مشترك بين طهمورث خان وعدد من باشوات الدولة العثمانية لأنه لم يكن يجرؤ على هذا العمل إلا إذا كان مستندا على حماية الدولة العثمانية له[٢] .

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، ج : ٥ ، ص : ٦٩

(٢) تاريخ إيران أز مغول تا افشاريه ، ص : ٣٣١

وأمام هذا الخطر أمر الشاه عباس جيشه بالإسراع صوب بلاد الكرج لتأديب طهمورث خان، ومن أيدوه فى ثورته، فتقدم الجيش الصفوى فى عام ١٠٢٥ هـ (١٦١٦م)، وعبر نهر الأرس، ودخل فى حرب طاحنة مع جيوش طهمورث خان، وأشاعوا القتل العام فى مدينة كاخت، وكان مسلك جيش الشاه عباس يتسم بغاية العنف والقسوة، لدرجة أن الكرجيين مازالوا حتى اليوم يتحدثون عن الشاه عباس ويطلقون عليه اسم «الملعون»[١] ومن الأعمال التى فعلها جنود الشاه كذلك أنهم أحالوا جميع كنائسها إلى مساجد[٢] كما رحلو عددا منهم إلى منطقة فرح آباد ومنطقة شرف بمازندران، بعد ذلك واصل الجيش الصفوى تقدمه فى مناطق كرجستان (بلاد الكرج) لإخضاع جميع الثائرين من حكامها، وكانت حملات الصفويين مركزة على المناطق التابعة لدولتهم كما حددتها اتفاقية عام ١٠٢٠ هـ، ولكن هذا الجيش كان يضطر أحيانا لمطاردة بعض هؤلاء الأمراء فى المنطقة التابعة للدولة العثمانية، إذا فروا إليها.

الملاحظ أن هذه الاضطرابات ومطاردة الثائرين حدثت ومفاوضات تعيين الحدود مستمرة بين الطرفين. فكان لهذه الأحداث أثرها على تعثر المفاوضات، حيث اتهم الجانب العثمانى الجانب الصفوى بافتعال هذه الهجمات لتقويض المباحثات، فحاول الشاه عباس توضيح موقفه من الحرب الدائرة فى كرجستان، وأنه لم يأمر جيشه بنقض المعاهدة الموقعة بين الطرفين فى عام ١٠٢٠هـ، وإنما أمر جيشه بإخضاع الثائرين فى المناطق الخاضعة لسلطانه فقط، وليس

---

(١) انقراض سلسلهٔ صفويه. ص: ٧٥

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا، ج: ٨، ص: ٤١٦ - ٤٢٠، وتاريخ إيران أز مغول تا افشاريه، ص: ٣٣١

فى نيتهم الهجوم على الأراضى العثمانية ، وليؤكد الشاه صدق نيتــه أمر بالإفراج عن جميع الأسرى الأتراك الذين اعتقلوا أثناء حروبه ضد الجيش التركى فى آذربايجان (١) .

استطاع الشاه عباس إقناع الصدر الأعظم العثمانى نصوح باشا بوجهة نظرة فى محاربة طهمورث خان وغيره من أمراء منطقة الـكرج ، مما أثار عددا من باشوات الدولة العثمانية ضد نصوح باشا ، واتهموه بالتواطؤ مع الشاه عباس وأثاروا ضده الخليفة العثمانى ، فأمر بإعدام نصوح باشا وتعيين صدر أعظم جديد هو محمد باشا (٢) ، وأمام هذا الحادث المفاجىء زادت صيحات المطالبة بالثأر وإعلان الحرب ضد الشاه عباس ، ومحاولة وضع حد لتطاوله على حلفاء الدولة العثمانية فى بلاد الـكرج ، وتولى محمد باشا الصدر الأعظم إعداد العدة وتجهيز الجيش للهجوم على أذربايجان لتأديب الجيش الصفوى المحارب فى منطقة الـكرج وما جاورها ، وأخيرا تقدم الجيش العثمانى فى شهر شعبان عام ١٠٢٥ هـ (١٦١٦ م) ، وكان جيشا كثيف العدد والعتاد تولى الصدر الأعظم جمعه من الأمصار التابعة للخلافة العثمانية ، وواصل هذا الجيش تقدمه داخل آذربايجان الإيرانية حتى وصل إلى قلعة إيروان وحاصرها .

طال حصار الجيش العثمانى لقلعة ايروان ، دون أن يتمكن من فتحها ، وظل الحصار قائما حتى جاء الشتاء وتساقطت الثلوج واشتد البرد ، مما أضعف الروح القتالية لدى الجنود العثمانيين ، كما استطاع الجيش الصفوى قطع طريق الامدادات عن هذا الجيش العثمانى المتقدم ، وبالتالى بدأ الجنود العثمانيون يشعرون أنهم أصبحــوا محصورين لا محاصرين ، لذا شعروا [illegible]

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ : ٥ ص : ٧٢

(٢) أحمد بن زين دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات [illegible] جـ ٢ ص ١٢٧ . طبع القاهرة ١٣٢٣ هـ

يستطيعوا مواصلة الحصار بدون مؤن منتظمة، فآثروا التراجع مهزومين وعادوا أدراجهم صوب مدينة وان . (١)

وأمام هزيمة الصدر الأعظم محمد باشا ، اتهمه أعداؤه السياسيون بالخيانة والتكاسل عن تحقيق النصر على الشاه عباس ، وتم عزله وتولى مكانه خليل باشا ، كما تبادل كل من السلطان العثمانى والشاه عباس الرسائل من أجل عقد معاهدة صلح بين الطرفين ، ولعلها كانت محاولة لكسب الوقت من جانب العثمانيين الذين كانوا يبذلون استعدادات قصوى لجمع جيش جديد يتولى قيادته الصدر الأعظم خليل باشا ، ويتقدم به صوب آذربايجان ، متذرعا بالرغبة فى عقد معاهدة صلح بين الطرفين ، وفعـــلا تقدم خليل باشا بجيش عظيم نحو آذربايجان ، فبادر الشاه عباس بإحراق كل المحاصيل ووسائل المعيشة فى الطريق الواقع بين ديار بكر وتبريز بل أمر بإحراق تبريز ذاتها ، وإخلائها من جميع المؤن ، وترحيل جميع سكانها إلى داخـــل الأراضى الإيرانية ، كما أمر قائد حاميتها بالتخلى عنها، والإقامة مع عساكره على الطريق الموصلة بين تبريز وقزوين، ولعله قصد بذلك أن يقوم هذا الجيش باعتراض تقدم الجيش العثمانى نحو قزوين إذا فعل ذلك بغرض الاندفاع منها إلى قلب إيران واسقاط الدولة الصفوية ، أما الشاه عباس فقد عسكر بجيشه فى مدينة أردبيل ليكون على مقربة من ميدان المعارك فى آذربايجان عامة وتبريز على وجه الخصوص .

تقدم الجيش العثمانى قاصدا تبريز ، وقد انضم إليه عدد كبير من أمراء الكرجيين الذين آلمهم ما أصاب ديارهم على أيدى الجيش الصفوى ، وتمكنوا من دخول تبريز بلا مقاومة ، وكانت مفاجأة لهم أن وجدوا المدينة خربة ،

(١) ملحقات تاريخ روضه الصفا ، ج ٨، ص ٤٢٠ - ٤٢٣ ، وتاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٣٣

خاوية ، لاتصلح للسكنى ، ولا يوجد بها مايقتات به الجنود ، وعلى هذا ل
يستطيعوا البقاء بها إلا لمدة خمسة أيام فقط ، ثم تخلوا عنها وعسكروا إلى
جوارها [١] وبدءوا يخططون لمواصلة الهجوم بغية احتلال جميع
مدن إيران .

وأثناء هذه الاستعدادات ، أرسل خليل باشا رسولا من قبله صوب
الشاه عباس ، وحمله رسالة حدد فيها شروطه لعقد صلح بين الدولتين ، ونصح
الشاه بقبولها حتى يكف عن مواصلة التقدم وإسقاط الدولة الصفوية ، وهذه
الشروط هى [٢] .

١ ـ أن يرسل الشاه عباس مقدارا من الحرير يتراوح مابين مائتين إلى
ثلاثمائة حمل كخراج سنوى يدفع للسلطان العثمانى .

٢ ـ أن يعيد الشاه عباس إلى حوزة الدولة العثمانية جميع الأجزاء الغربية
من آذربايجان ، وأرمينيا وشكى وشروان وبـلاد الكرج وقراباغ ، وهى
الولايات التى استعادها الشاه عباس ، بعد أن كانت تحت تصرف العثمانيين
منذ عهد السلطان محمد خدابنده .

٣ ـ أن يرسل الشاه عباس أحد أبنائه كرهينة يقيم فى اسطانبول ، كما
فعل فى بداية حكمه ، حيث وافق على إرسال حيدر ميرزا بن أخيه حمزة ميرزا
بعد معاهدة عام ٩٩٨ هـ .

والملاحظ أن هذه الشروط نبعت من إدراك خليل باشا أن الجيش
الصفوى لن يقوى على مجابهته ، وأن الهزيمة واقعة بهم دون أدنى ريب

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٥ ، ص : ٨٣ ، ٩١ .
(٢) المرجع السابق . ص : ٨٥ ، ٨٦

فليس أمامهم إلا القبول والإذعان لشروطه ، وقد بدأ الصدر الأعظم بالتركيز على الحرير الإيرانى ذى الشهرة الكبيرة ، وبخاصة أن الشاه عباس كان قد تعهد فى معاهدة ١٠٢٠ ﻫ على أن يزود السلطان العثمانى بمائتى حمل من الحرير ولكنه لم يف بوعده ولم يرسل أى حمل منه مما جعل خليل باشا يطالبه بالتعهد بتوريد الكمية المتفق عليها سابقا ، بل وزيادتها إلى ثلاثمائة حمل مما يؤثر على هذه التجارة الإيرانية الرائجة مع العالم المسيحى الأوربى ، ويؤثر على العلاقات الودية بين الشاه عباس وملوك أوربا الحريصين على هذا الحرير الإيرانى ، كما أن الشرط الثانى الخاص بإعادة أراضى آذربايجان وأرمينيا وغيرها إلى حوزة الدولة العثمانية ، ليس من المعقول أن يوافق الشاه عباس عليه و إلا ، فلم كانت الحروب السابقة ؟ ولم أزهقت أرواح الكثيرين من جنود الدولة الصفوية فى سبيل استعادتها من الدولة العثمانية ؟ . وبالنسبة للشرط الثالث ، فقد سبق أن طالبت به الدولة العثمانية عام ١٠٠٧ ، ورفضه الشاه عباس على الرغم من أنها كانت تسيطر على آذربايجان والعراق العجمى [١] فهل يعقل أن يقبله الشاه عباس وقد أحرز العديد من الانتصارات عليهم ؟ .

وكان الرد المنطقى أن يرفض الشاه عباس هذه الشروط التى تعد وثيقة استسلام وخضوع إذا قبلها ، واكتفى بإبداء استعداده لإرسال مائة حمل من الحرير مرة واحدة كهدية منه إلى السلطان العثمانى ، وليس بمثابة خراج واجب الدفع فى كل عام .

وأمام هذا الرفض أصبحت المعركة حتمية بين الطرفين ، فبذل العثمانيون المزيد من الاستعداد لمجابهة الجيشين الصفويين المعسكرين فى كل من أردبيل

---

(١) أنظر ص: ٣٢٦ من هذا الكتاب

وطريق تبريز قزوين ، فى حين كان الشاه عباس يسارع بإجلاء سكان أردبيل خوفا من سقوطها فى أيدى العثمانيين ويعد العدة لإحراقها . وفجأة يبرز من بين الجيش الصفوى قائد يدعى عليبك ، ويقنع بقية القواد بضرورة الهجوم المباغت على الجيش العثمانى المعسكر بجوار تبريز ، حتى ولو لم يأذن الشاه عباس بذلك ،[1] وفعلا أسرع قواد عباس بالتحرك بجيوشهم من أردبيل إلى تبريز وانضم إليهم الجيش الآخر المعسكر فى طريق قزوين ، وعلى مقربة من تبريز نظموا صفوفهم ، وقسموا أنفسهم إلى أجنحة يتولى كل جناح مهاجمة جانب من جوانب معسكر القـــوات العثمانية ، وفجأة هجموا من جميع الجهات على القوات العثمانية بصورة مباغتة وقبل أن يستكملوا استعداداتهم للتقدم ، بل وقبل أن يكتشفوا تقدم الجيوش الصفوية للهجوم عليهم فكانت المفاجأة القاتلة للجنود الأتراك ، مما كبدهم خسائر جسيمة فى الأرواح ، وصلت إلى خمسة عشر ألف قتيل ،[2] وهكذا منى خليل باشا وجيشه بهزيمة لم يكن يتوقعها أحد على الإطلاق .

وهكذا منيت الجيوش العثمانية بقيادة خليل باشا بهزيمة نكراء ، كما هزمت جيوشها بقيادة كل من على باشا فى عام ١٠١٢ هـ ، وجغال أوغلى فى عام ١٠١٤ هـ ، ومحمد باشا فى عام ١٠٢٥ هـ ، مما جعل ميزان القوة فى منطقة آذربايجان يتحول إلى صالح الشاه عباس ، وتفقد الدولة العثمانية القدرة على مجابهة الجيش الصفوى فى آذربايجان طول بقية حكم الشاه عباس ، كما حرصت الدولة العثمانية بعد هذه الهزيمة على توقيع معاهدة جديدة ، ليسود السلام فى منطقة آذربايجان ولتتفرغ لحروبها فى أوربا ، لذا أرسل خليل باشا فى طلب

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٥ ، ص : ٩٢

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٣٢

الصلح ؛ فقبل عباس توقيع معاهدة جديدة وذلك فى التاسع من شوال عام ١٠٢٧ هـ (٢٧ من سبتمبر عام ١٦١٨ م) [١] ، وقد تضمنت هذه المعاهدة نفس شروط معاهدة ١٠٢٠ هـ ، مع تعهد الشاه بالوفاء بتصدير مائة حمل من الحرير سنويا [٢] .

وبهذه المعاهدة الجديدة انتهت الجولة الثالثة من الحروب بين الدولتين الصفوية والعثمانية فى آذربايجان ، وساد الهدوء هذه المنطقة حتى آخر حياة الشاه عباس ، ولكنه انتقل بعد ذلك إلى ساحة أخرى ، وهى منطقة العراق العربى .

* * *

— ٦ —

الجولة الرابعة واستيلاء الشاه عباس على بغداد :

وبعد أن هدأت الحروب الدائرة فى آذربايجان ، واطمأن الشاه عباس على تثبيت حكمه فى كل من آذربايجان وأرمينيا وبلاد الكرج ، بدأ يهتم بمعالجة بعض المشاكل الأخرى ، من هذه المشاكل استرداده جزيرة هرمز وغيرها من الموانى الهامة التى كان البرتغاليون يسيطرون عليها فى منطقة الخليج ، واسترداده كذلك قندهار التى كانت تحت حكم ملوك الهند [٣] ،

---

(١) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ، ص : ٢١١

(٢) لغت نامه : شمارة ٧٦ ، ص : ٤٣

(٣) سنتعرض للحديث عن هذه الأحداث بعد قليل .

وبعد أن فرغ من استرداد قندهار توجه صوب خراسان ، ليتفقد أحوالها ، بعد انشغال دام عدة سنوات بسبب حروبه فى آذربايجان وغيرها من المناطق من إيران ، وأقام بهراة فترة حتى وصلته أنباء حدوث فتن واضطرابات فى العاصمة العثمانية ، حيث تم اغتيال السلطان عثمان الثانى عام ١٠٣١ هـ (١٦٢٢م) وأعيد تنصيب السلطان مصطفى الأول مرة أخرى (١) . كما وقعت اضطرابات أخرى فى مدنية بغداد ، حيث ثار أحد القواد فيها ويدعى بكر الصوباشي على حاكمها العثمانى يوسف باشا ، وقتله ، وسيطر على بغداد معلنا تحديه للحكومة المركزية فى اسطانبول ، مما دفع السلطان العثمانى لإرسال جيش عثمانى بقيادة حافظ باشا حاكم ديار بكر لكى يتولى تأديبه والإطاحة به ، فسارع بكر الصوباشي بمخاطبة الشاه عباس ، وحثه على الإسراع نحو بغداد لكى يسلمها له ويكون تابعا لسلطانه (٢) .

شعر الشاه عباس بعد أن تسلم رسالة بكر الصوباشي ، بأنها فرصه ثمينة لا يجب أن يضيعها من يديه ، وذلك لكى يعيد بغداد إلى حكم الدولة الصفوية بعد أن سيطر عليها العثمانيون عام ٩٤٠ هـ فى زمان الشاه طهماسب الأول (٣) ولكى تصبح مزارات الشيعة فى كربلاء والنجف تحت تصرفه ، ويكون الطريق مفتوحا أمام شيعة إيران لزيارة هذه المزارات المقدسة لديهم .

أسرع الشاه عباس بالعودة إلى أصفهان حيث اجتهد فى جمع أكبر عدد من الجنود وتقدم بهم صوب بغداد متذرعا بالرغبة فى زيارة العتبات الشيعية المقدسة ، ومخفيا الغرض الحقيقى من تقدمه ، وعندما وصل إلى مشارف بغداد

---

(١) الفتوحات الإسلامية بعد الفتوحات النبوية ، ج : ٢ ص : ١٣١
(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة
(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٤٣٢

عسكر هناك؛ وأرسل إلى بكر الصوباشى عددا من رسله لكى يسلمهم مفاتيح مدينة بغداد وحملهم إليه هدية عبارة عن عمامة القزلباش، على اعتبار أنه أصبح من رجاله المقربين، ولكن حدث مالم يكن يتوقعه الشاه عباس، إذ أقدم بكر الصوباشى على قتل رسل الشاه عباس ووطىء عمامة القزلباش بقدميه، وذلك لأنه كان قد استعاد صلته بالدولة العثمانية قبل قدوم الشاه عباس، وثبتوه على حكم بغداد [1].

أمام هذا الغدر الذى تعرض له الرسل الإيرانيون، أمر الشاه عباس بشن الهجوم على بغداد، وتقدم جيشه وحاصرها، فأمر بكر الصوباشى بإطلاق مدافع قلعة بغداد عليهم، كما راسل حافظ باشا والى ديار بكر، ليطلب منه النجدة، فأرسل حافظ باشا بعض قواته لمساعدته، ولكن الجيش الصفوى استطاع قطع الطريق على هذه القوات، ومنعها من الوصول إلى بغداد، مما جعل الأمور تسوء بالنسبة لبكر الصوباشى ومن معه، ولكنهم واصلوا الدفاع ولم يستسلموا، مما دفع الشاه عباس إلى اللجوء للمكر والخديعة لاحتلال المدينة كما يقول بعض المؤرخين [2].

وتفصيل ذلك أن الشاه عباس استطاع أن يستميل إليه محمد بن بكر الصوباشى، واتفق معه على التعاون المشترك فيما بينهما فى الاستيلاء على بغداد مقابل أن يعينه الشاه عباس حاكما عليها بعد إقصاء أبيه عن حكمها، واتفقا على أن يفتح محمد بن بكر أبواب القلعة بالليل، ليندفع جنود القزلباش إلى داخل القلعة، ويستولون عليها، وقد تم تنفيذ هذه الخيانة فى ليلة الثالث

---

(١) الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية، ج ٢، ص: ١٣١

(٢) المرجع السابق، ص: ١٣٢، وخلاصة تاريخ الكرد وكردستان، ص: ٢١٢

والعشرين من شهر ربيع الأول عام ١٠٣٢ هـ (١٦٢٣ م) [١] ، حيث فوجيء جنود الحامية بالجيش الصفوى يقف بينهم ، وقد باغتهم وقتل عددا كبيرا منهم ، مما أفقدهم اتزانهم . وخارت قواهم المعنوية ، وفترت قوتهم القتالية ، فتحقق النصر لجيش الشاه عباس . وتمكنوا من أسر بكر الصوباشي واقتياده مكبلا بالقيود صوب الشاه عباس الذى أغلظ القول معه ، وعنفه على غدره به وقتلة رسله . ثم أمر بوضعه فى قارب ملىء بالزفت والكبريت وأن تضرم فيه النيران ؛ ليلتهب فى دجلة أمام الناس [١].

وكان محمد بن بكر الصوباشي يتوقع أن يعهد إليه الشاه عباس بحكم بغداد، ولكن الشاه عباس أمر بإرساله إلى خراسان ، وأمر بقتله هناك [٣] . وهكذا جنى ثمار غدره وخيانته لأبيه ، وهل يعقل أن يبقيه الشاه عباس فى بغداد ، لكى يثور ضده ويخونه كما خان أبيه من قبل ؟ وهل يعقل كذلك أن يحافظ الشاه عباس على عهده معه ويبقيه على قيد الحياة ، وهو الذى سفك دماء أبنائه وتخلص منهم حتى لا ينافسه أحد فى الانفراد بالعرش [٤] ؟

فى نفس الوقت الذى شغل فيه الشاه عباس بفتح بغداد ، وتثبيت حكمه فيها ، أمر بعض قواده بالتوجه صوب الأجزاء الشمالية من العراق ، فتوجه بعضهم لفتح الموصل وتوجه آخرون لفتح كركوك . واستطاعوا إنجاز المهام التى كلفوا بها ، وهكذا استطاع جيش الشاه عباس السيطرة على معظم مناطق

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٥ ، ص : ١١٦

(٣) الفتوحات الاسلامية بعد الفتوحات النبوية ٢ ص : ١٣٢

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة

(٤) أنظر ص : ٢٣١، وما بعدها من هذا الكتاب

العراق العربى ، مما أشعر الشاه عباس بالفخر والاعتزاز ، وقد ظل فترة فى النجف ثم عاد أدراجه صوب العاصمة أصفهان .

أما عن السلطان العثمانى مراد الرابع (١٠٣٢ — ١٠٤٩ هـ = ١٦٢٣ — ١٦٤٠ م)[١] فقد أصدر أوامره إلى حافظ باشا حاكم ديار بكر ، لكى يتوجه صوب بغداد على رأس جيش كبير لطرد الجيش الصفوى من بغداد وغيرها من مدن العراق[٢] فتقدم حافظ باشا ، واستولى على كل من كربلاء والحلة ، ثم تقدم صوب بغداد فى التاسع من شهر صفر عام ١٠٣٤ هـ (١٦٢٥ م)[٣] ، وأخذ يناوش القزلباش المعسكرين فى حاميتها ، فسارع الشاه عباس بإرسال الإمدادات العسكرية إلى جنوده فى بغداد مما أطال فترة المناوشات بين الجانبين ، حتى وصلت إلى سبعة أشهر دون أن يحقق أحد الجانبين نصراً على الجانب الآخر ودون أن يدخلوا فى معركة فاصلة[٤] .

ثم أرسل حافظ باشا إلى العاصمة العثمانية يطلب إمدادات عسكرية ومؤنا ، وفعلا أرسلت الحكومة المركزية إليه كل ما طلب ، ولكن جنود القزلباش استطاعوا قطع الطريق على جيش الإمداد العثمانى ، بل وأخذوا يهاجمون جيش حافظ باشا من الخلف ، مما جعل مهمة الجيش العثمانى صعبة حيث يواجه قوات صفوية أمامه ، ويحارب قوات صفوية أخرى تشن هجمات على مؤخرته ، لذا تقدم حافظ باشا بطلب للصلح على أساس الاعتراف

---

(١) سلسله هاى إسلامى ، هى : ٢٠٩

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٤٣٤

(٣) زندگانى شاه عباس أول ؛ ج : ٨ ، ص : ١١٧ - ١٢١

(٤) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٤٢٤

بسلطان الشاه عباس على بغداد والأماكن المقدسة فى العراق ، فوافق الشاه عباس على ذلك ، وهيأ للجنود العثمانيين طريق المودة دون الاعتداء عليهم.

وهكذا فشلت محاولات الدولة العثمانية فى استعادة بغداد ، حيث ظلت تابعة للبلاط الصفوى طوال الفترة الباقية من حكم الشاه عباس ، ولمدة عشر سنوات أخرى بعد وفاته ، حيث استطاع العثمانيون استردادها عام ١٠٤٨ هـ.

. . .

تعقيب على العلاقات الصفوية العثمانية فى عهد الشاه عباس :

لقد مرت العلاقات الإيرانية العثمانية خلال حكم الشاه عباس [٩٩٦ — ١٣٠٨ = ١٥٨٨ — ١٦٢٩ م] بثلاث مراحل متميزة ، بدأت المرحلة الأولى منذ تولى الشاه عباس الحكم وحتى عام ١٠١١ هـ ، وقد اتسمت هذه المرحلة بالخضوع والاستسلام ، حيث أعتلى الشاه عباس العرش والقوات العثمانية تسيطر على آذربايجان وكثيرا من أراضى منطقة العراق العجمى ، كما أن قواتهم تقدمت لاحتلال بقية أراضى الدولة الصفوية وإسقاط الشاه عباس وذلك عندما تقدم بجيوشه لصد الهجمات الأوزبكية على خراسان ، فحرص الشاه عباس على خطب ودهم ومما لأتهم والتنازل لهم عن حكم جميع المناطق التى يحتلونها فى غربى إيران ، وكانت معاهدة ٩٩٨ هـ فى الحقيقة وثيقة خنوع واستسلام من جانب الشاه عباس .

أما المرحلة الثانية ، فهى مرحلة من الصراع المرير من أجل التحرير ، وفيها انتقلت الدولة الصفوية من دور الخانع المستسلم إلى دور الندية والمجابهة العسكرية ، وقد استمرت هذه الفترة منذ عام ١٠١١ هـ حتى عام ١٠٣٢ هـ

حيث كانت المعارك تدور رحاها داخل أراض إيرانية يحرص الشاه عباس على تحريرها وتخليصها من الاحتلال العثمانى ، دون التفكير فى الاعتداء على أراض عثمانية وقد استطاع الشاه عباس تحرير الأراضى التى تنازل عنها فى معاهدة ٩٩٨ هـ ، وبدأ يتعامل بندية مع العثمانيين ، مما رد للإيرانيين — كما يقولون — عزتهم وكرامتهم .

والمرحلة الثالثة وهى مرحلة الهجوم وقد بدأت عام ١٠٣٢هـ واستمرت حتى وفاة الشاه عباس عام ١٠٣٨ هـ ، وفيها استطاع احتلال أجزاء كبيرة من الأراضى العراقية ، واقتطاعها من السيطرة العثمانية ، ومن هذه الأراضى العراقية بغداد وكربلاء والنجف حيث توجد المزارات الشيعية المقدسة وكذلك الموصل وكركوك فى شمال العراق ، وقد كان لهذا الهجوم واحتلال تلك المناطق أثرها العميق فى شعور الإيرانيين بالاعتزاز والرفعة لاستيلائهم على المزارات الشيعية ولأنهم أصبحوا قادرين على منازلة العثمانيين واقتطاع أجزاء من الأراضى التابعة لدولتهم ، مما أعطى الهيبة لإيران ، ولمذهبها الشيعى ، وبخاصة أن العداء — كما يقول براون — أساسه مذهبي ، وليس اختلاف اللغة ولا الأصل[١] .

ولعل تطور هذه العلاقات وانتقالها إلى مرحلة الهجوم الصفوى على الأراضى العثمانية ، كان من أهم الأسباب التى جعلت الإيرانيين يمجدون الشاه عباس ويفاخرون به حتى اليوم ، كما جعلت أوربا المسيحية تهتم دائما بشخصية الشاه عباس الذى قدم لهم - عن طريق حروبه مع الدولة العثمانية - خدمات جليلة ، حيث أتاح للأوربيين الفرصة لالتقاط الأنفاس ، وتجميع الصفوف لمحاربة الدولة العثمانية ، ولولا هذه الحروب العثمانية الإيرانية لأتمت

(١) تاريخ ادبيات إيران ج : ٤ , ص : ٢٥ ، ٢٦

الجيوش العثمانية اجتياح أراضى جميع الدول الأوربية ، ولتغير تاريخ أوربا كلها ، ولهذا كان الصراع الصفوى العثمانى المحور الأساسى للتقارب بين ملوك الدولة الصفوية - وبخاصة الشاه عباس - وبين عدد كبير من ملوك أوربا ، وسنرى أثر هـــذا الصراع على العلاقات الإيرانية الأوربية فى الفصل القادم .

ثالثا : حروب الشاه عباس مع الدولة المغولية في الهند

بدأت صلات الصفويين بمغول الهند منذ عهد الشاه اسماعيل الأول ، وساعد على تقويتها عداء الطرفين للأوزبك ، ومحاولتهما القضاء على هـذا العدو المشترك ، وظلت صلات الود قائمة بين الدولتين إلى أن استولى الشاه طهماسب الأول على قندهار عام ٩٤٣ هـ (١٥٣٥ م) فأسند أمرها إلى ابن أخيه حسين ميرزا بن بهرام ميرزا بن الشاه اسماعيل الصفوى[١] ونتيجة لهذا الاعتداء ساءت العلاقة بين الدولتين ، وظلت على هذا السوء طوال عصر الشاه طهماسب ، وخلال فترة حكم كل من الشاه اسماعيل الثانى ، والسلطان خدابنده[٢] ، وإن لم يتفجر الموقف فى صورة حرب سافرة بين الجانبين .

وخلال هذه الفترة الطويلة كان الشاه جلال الدين أكبر ملك الهند[٣] ،

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص ٣٦٣

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٤ ص : ٨٠

(٣) هو جلال الدين أكبر الأول حفيد بابر مؤسس دولة المغول فى الهند ، وهو من التركمان الجغتائيين ويصل نسبه من ناحية الأب إلى تيمور لنك ، وقد حكم أكبر شاه فترة طويلة امتدت ما بين عامى ٩٦٣-١٠١٤هـ (١٥٥٦-١٦٠٥م) ، وولد أكبر عن أب سنى وأم شيعية . ولكنه شغل نفسه كثيرا بعلوم أهل السنة حتى التقى بأحد حكماء زمانه . فبدأ يدرك الكثير من المسائل الفلسفية والأسرار الصوفية ، فحاول التقريب كثيرا بين المسلمين والهندوكيين فى دولته ، لدرجة أنه حاول إيجاد مذهب جديد أطلق عليه المذهب الإلهى ، حيث يتم التوحيد بين جميع الأديان دون تفرقة ، ودعوته هذه جعلته متسامحاً مع الجميع ، مهما اختلفت مذاهبهم ، ولكن دعوته هذه لم تنجح فى جعل الناس =

يتلمس الفرص لكى يسترد قندهار ، حتى أنه فى عام ٩٩٥ هـ (١٥٨٧م) أمر قواته بالاستيلاء على السند والملتان ومنازل البطهان ، لتطل منها على قندهار ، التى كان يمنى النفس منذ أمد بعيد باسترجاعها من الفرس [١] ، وأخيراً واتته الفرصة عام ٩٩٨ هـ (١٥٩٠م) ، حين تعرضت الدولة الصفوية فى بداية حكم الشاه عباس لهجوم أوزبكى من الشرق وهجوم عثمانى من الغرب ، مما أدى إلى انشغال الشاه عباس بصد هذين الهجومين ، وإهماله تدعيم صلاته بحكام قندهار ، مما دفع كلا من مظفر حسين ورستم ميراز ابنى حسين ميرزا حفيد الشاه اسماعيل ، للجوء إلى أكبر شاه ظنا منهما بأنه حليف الشاه عباس وسيمدهما بالعون والقوات لمساندتهما أمام أى هجمة أوزبكية ولكن خاب ظنهما ، حيث أمر أكبر باستبقائهما فى الهند ، وإسناد أمر قندهار إلى حاكم من أسرته يدعى شاهى بيك الجغتائى [٢] .

علم الشاه عباس بما أقدم عليه جلال الدين أكبر ، ولكنه لم يستطع أن يفعل أى شىء لانشغاله بمحاربة الأوزبك والعثمانيين ، لذا آثر أن يخطب ود أكبر ؛ لعله يساعده فى حروبه ضد الأوزبك أو لعله يرد إليه قندهار دون عراك أو نزال ، وإن لم يتحقق هذا أو ذاك ، فليترك مشكلة قندهار مؤقتا

= على تغيير معتقداتهم ، ونبذ الخلافات العقائدية فيما بينهم ، مما حكم على المذهب الإلهى بالموت انظر : سلسله‌هاى إسلامى ص ٣٠٥ وما بعدها ، ودكتور أحمد محمود الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهند وباكستانية وحضارتهم الطبعة الثانية عام ١٩٧٠ ص : ٣٢٦ .

(١) تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهند وباكستانية وحضارتهم ، ص : ٣٢٣

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ؛ ص . ٣٦٣

حتى يفرغ من باقى أعدائه فى الداخل والخارج . وبعد ذلك ينتهز أى فرصة مواتية ليطرد الحاكم الهندى من قندهار ، ويعيدها إلى حوزته من جديد .

وأثناء هذه الفترة من الترقب كان الشاه عباس يلجأ أحيانا إلى أسلوب جمع المعلومات عن قوة أكبر وحكومته ، لعله يجد مايشجعه على الهجوم فى أى وقت ، فقد أرسل الشاه عباس عدة رسل إلى بلاط أكبر ، ومنهم « ياد كار سلطان روملو » الذى حمله العديد من التحف والهدايا ، وكلفه بجمع المعلومات الكافية عن حكومة أكبر أثناء إقامته فى بلاطه (١) ، وليخفى غرضه الحقيقى حمله رسالة إلى أكبر شاه يطلب فيها إعادة العلاقات إلى سابق عهدها من الازدهار وتقديم العون له فى محاربته للأوزبك ، كما كان الحال خلال عصر الشاه اسماعيل الأول فى حروبهما المشتركة ضد الأوزبك (٢) .

أحسن أكبر استقبال مبعوث الشاه عباس ، واستبقاه فى الهند مدة خمس سنوات كاملة ، ولكنه امتنع عن تقديم أى عون عسكرى لمساندة الشاه عباس فى حروبه مع الأوزبك ، حيث كان قد عقد معاهدة صداقة بينه وبين الأوزبك ، ولهذا لم يكن من الحكمة أن يساند الشاه عباس وينقض معاهدته معهم ، وبخاصة أن مسلك عباس مع قواده وكبار رجال دولته مع أصحاب المذاهب المختلفة ، لم يعجب أكبر شاه ، لذا نجده يكتفى بإرسال رسالة ينصح فيها الشاه عباس بالحسنى مع الجميع ، وبضرورة التخلى عن أسلوب البطش برجال دولته ، وعدم سفك الدماء بلا جريرة ، كما يجب الابتعاد عن التعصب المذهبى ، وأن يكون عطوفا مع الخلق جميعا ، مهما اختلفت مذاهبهم (٣) .

---

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، : ص ٣٥١

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، ج ١ : ص ٢١٧

(٣) المرجع السابق ، ص . ٢٣٢

ظل الشاه عباس وأكبر شاه يتبادلان الرسائل والهدايا حتى جاء عام ١٠١٤هـ (١٦٠٥م) وتوفى أكبر شاه ، وتولى مكانه ابنه نور الدين جهانكير (١٠١٤ — ١٠٣٧هـ — ١٦٠٥ — ١٦٢٨م)(١) ، فأراد الشاه عباس اختبار الموقف فى قندهار ، نتيجة لانشغال حكومة المغول الهندية بوفاة ملك وتولى آخر ، فأمر بعض قواته بالتقدم صوب قندهار ، فتقدمت هذه القوات الصفوية واستطاعت الاستيلاء على (بست) من أعمال قندهار مما أغضب شاهى بيك حاكم قندهار الهندى ، فسير حملة لطردهم ، ونشبت معركة بين الطرفين انتهت بهزيمة الجيش الهندى ، فحاول شاهى جمع جيش جديد ، ومعاودة الحرب ، ولكنه منى بهزيمة ثانية ، مما ثبت دعائم حكم الشاه عباس فى بست(٢) .

بعد ذلك شغل الشاه عباس بحروبه فى آذربايجان وشروان ، كما شغل جهانكير ببعض الأحداث فى الهند ، مما أوجد نوعا من الفتور فى العلاقات إلى أن جاء عام ١٠١٨هـ (١٦٠٩م) فأرسل الشاه عباس رسولا من قبله إلى بلاط جهانكير وحمله العديد من الهدايا والنفائس . وأعطاه رسالة تضمنت العزاء فى وفاة أكبر ، والتهنئة بتولى جهانكير الحكم . فعادت الصلات الودية مرة أخرى ، وكثر عدد الرسل المترددين بين العاصمتين الهندية والصفوية ، كما كثرت الهدايا المتبادلة ، لدرجة أن إحدى بعثات الصداقة الهندية وفدت إلى أصفهان وقد أحضرت معها قدرا كبيرا من الهدايا التى حملها أكثر من سبعمائة مبعوث هندى ، وكان ذلك فى عام ١٠٢٦هـ(٣)

---

(١) سلسله هارى إسلامى ، ص : ٣٠٥

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٣٦٤

(٣) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٤ ، ص : ٦٣ ، ٩١

على الرغم من الصلات الودية والإكثار من تبادل السفراء ؛ لم يغب عن بال الشاه عباس ضرورة استعادة قندرها ، سلما كان ذلك أم حربا ! لذا كان حريصا على الإشارة إلى قندرها فى معظم الرسائل التى بعث بها إلى جانكير ، كما كان يفعل نفس الشىء فى رسائله لأبيه أكبر ، ولكنهما كانا يتجاهلان هذه الإشارات والتلميحات ، لذا أرسل فى عام ١٠٢٩هـ أحد سفرائه لكى يتفاوض مع وزراء جهانكير بشأن استعادة قندهار ، ولكن محاولاته هذه باءت بالفشل كذلك . حيث كانت المفاوضات عقيمة وبلا جدوى .

وأمام فشل المحاولات السلمية ، بدأ الشاه عباس يفكر فى اللجوء إلى القوة لاسترداد قندهار ، لذلك سافر إلى خراسان ، ثم خرج محاطا بالعديد من جنوده إلى أطرافها معلنا أنه خارج للصيد والتجول فتوجه نحو حدود قندهار ، ومن هناك أرسل رسالة إلى واليها الهندى يخبره فيها برغبته فى التجول بأنحاء قندهار ، ولكن الوالى الهندى رفض طلبه قائلا . . من الأفضل أن تعود إلى خراسان مرة أخرى ؛ لأننى وقوادى لانملك من تصرف غير منعكم ومقاومتكم . . » فانتهز الشاه عباس هذا الرفض وسارع بمهاجمة قندهار ، ومحاصرة قلعتها ، وكان ذلك فى يوم الأربعاء الثامن من رجب عام ١٠٣١هـ (١٦٢٢)[١] .

لاشك أن الشاه عباس قد أحسن اختيار الوقت الذى هاجم فيه قندهار ، وذلك لأنه أقدم على القيام بهذه الحملة وقد استطاع التخلص من هجمات الأوزبك والعثمانيين ، واسترد جميع المناطق التى كانوا قد استولوا عليها فى بداية سنى حكمه ، كما استطاع التغلب على القوات البحرية البرتغالية فى جزيرة هرمز من

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

وغيرها من جزر الخليج العربى[١] ، ولاشك أن هذه الانتصارات أعطته ثقة كبيرة فى نفسه وجنده ، وهذه الثقة كفيلة بأن تقوده من نصر إلى نصر ، وانتصاراته أيضا ستكون خير دعاية له لدى جنود قلعة قندهار ، مما يلقى الرعب فى قلوبهم ويسهل مهمة الجنود الصفويين فى الاستيلاء عليها ، كما أن الوقت كان مناسبا من حيث ظروف الدولة المغولية الهندية نفسها ، حيث ثارت خلافات حادة وعلنية بين جهانكير وابنه الأمير خوم المشهور باسم شاهجهان بسبب وشايات زوجة الأب المتكررة ، وحرصها على إبعاد شاهجهان عن ولاية العهد ، وإسنادها إلى الأمير شهريار أصغر أبناء جهانكير ، وزوج ابنتها من زوجها السابق الأمير شيرافكن[٢] .

واستثمر الشاه عباس هذا الخلاف لصالحه وسارع بالهجوم المباغت على قندهار واحتلها، وتأكدت توقعاته من حيث أن هذا الخلاف سيجعل العاصمة الهندية مشغولة عن قندهار ، فقد تخوف جهانكير من ترك العاصمة والتوجه صوب قندهار لطرد الصفويين ، حتى لا ينتهز ابنه شاهجهان الفرصة ويستولى على الحكم ، كما امتنع الابن عن تنفيذ أوامر أبيه للخروج على رأس حملة عسكرية لطرد الشاه وجيشه ، خوفا من أن تنجح زوجة أبيه فى تنفيذ مخططها الرامى إلى إقصائه عن ولاية العهد . وهكذا كان هذا الخلاف الأساس الذى وفر لخطة الشاه عباس بالاستيلاء على قندهار فرص النجاح .

بعد أن نجح الشاه عباس فى السيطرة على قندهار ، وثبت دعائم ملكه

---

(١) سنعرض لذلك أثناء الحديث عن العلاقات الصفوية البرتغالية فى الفصل التالى

(٢) تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهند وباكستانية . ص : ٣٥٩

فيها وخطب فيها باسم الأئمة الإثنى عشرية (١) ، بادر بمراسلة جهانگير ، ليلاطفه ويعيد جو الود فيما بينهما ، وليقطع عليه أى فرصة للمطالبة باستعادة قندهار مرة أخرى ، فما كان من جهانگير إلا أن أحسن استقبال رسول الشاه عباس ، ولعل السبب فى ذلك تأكد جهانگير من عدم قدرته على منازلة الشاه عباس وجيشه ، بعد أن رفض ابنه قيادة الحملة التى جهزها لمحاربة الصفويين وطردهم من قندهار ، فآثر اظهار الود والمداراة مادام لايملك وسائل العراك ومقوماته . ولهذا ظلت العلاقات بين الشاه عباس وجهانگير متسمة بالود والمجاملات إلى أن توفيا ، حيث كانت وفاة جهانگير عام ١٠٣٧ هـ ، ووفاة عباس عام ١٠٣٨ هـ .

• • •

وهكذا كانت العلاقات بين الشاه عباس وملوك الهند متسمة بالود فى أغلب فتراتها ، ولكنه الود الذى يخفى تحته الترقب والانتظار أملا فى الاستئثار بحكم منطقة قندهار المتنازع عليها فيما بين الدولتين ، ولعل التسامح الدينى الذى كان يتميز به حكام الهند قد خفف من حدة العداء ، فلو كان أكبر متعصباً لانتهز فرصة الهجومين الأوزبكى والعثمانى ، وواصل زحفه على الأراضى الإيرانية بعد استيلائه على قندهار ، ولكنه اكتفى باسترداد جزء من أراضيه كان الشاه طهماسب قد استولى عليه . أما الشاه عباس فكان يحاول استثمار العلاقات الطيبة بين الدولتين لصالحه ، حيث طلب من أكبر أن يساعده فى حروبه ضد الأوزبك كما كان الحال أيام الشاه اسماعيل .

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٤٢٩

الأول ، ولـكن أكبر رفض ذالك ، فظل الشاه عباس مظهراً الود ، مترقبا أى فرصة للاستيلاء على قندهار ، لـكى يسجل لنفسه مجداً ، بأنه أعاد إلى حكم الصفويين منطقة كان الشاه طهماسب قد استولى عليها ، وليسجل لنفسه مجدا آخر بأن يخطب للأئمة الإثنى عشرية على منابر قندهار بفضل استعادته لها !

الفصل الخامس

علاقات الشاه عباس بالدول الأوربية

تقديم :

من أهم ما يلفت النظر فى عصر الشاه عباس ، ذلك الانفتاح السياسى الواسع على العديد من الدول الأوربية ، بعكس ما كانت عليه إيران قبل عصره ، حيث كان حكام الدولة الصفوية قبله يتحرزون من إجراء أى اتصال بالعالم المسيحى الأوربى ، وحتى إذا وفد إلى العاصمة الصفوية أى سفير أوربى ، قابله الشاه الصفوى بفتور شديد ، أو امتنع عن مقابلته وعلى سبيل المثال فقد أرسلت الملكة اليزابيث ملكة انجلترا فى عام ٩٦٩ هـ (١٥٦٢ م) سفيرا لها يدعى « آنتونى جن كين سن » ليقابل الشاه طهماسب الأول ، ويقنعه بعقد أواصر الصداقة بين البلدين ، ولكن الشاه طهماسب قابله بفتور ، ولم يعطه الفرصة ليحقق أى هدف من زيارته ، مما جعله يعود أدراجه وقد فشل فى مهمته .

ولكن ما أن تولى الشاه عباس الحكم وأدرك أنه لن يستطيع مناهضة الدولة العثمانية إلا بالتعاون مع أعدائها الأوربيين ، وجدناه يحرص كل الحرص على الاتصال بجميع ملوك أوربا ويحاول عقد الكثير من المعاهدات بينه وبين هؤلاء الملوك ، وكانت هذه المعاهدات تعنى فى المرتبة الأولى بالتأكيد على رغبة الشاه عباس فى التعاون المشترك من أجل مناهضة العثمانيين ومحاربتهم .

ولكى تتوطد هذه الصلات الجديدة أرسل الشاه عباس العديد من

سفرائه إلى جميع العواصم الأوربية تقريباً ، كما أرسل ملوك أوربا رسلهم وتجارهم لزيارة إيران ، وعقد معاهدات سياسية وصفقات تجارية مع الشاه عباس ، وقد أدى هذا الاتجاه إلى زيادة عدد الأوربيين بالعاصمة أصفهان وغيرها من المدن الإيرانية ، حيث حرص الشاه عباس على توفير كل متطلبات الأمن والراحة لهؤلاء الأوربيين .

ولكى نحكم على هذا الانفتاح السياسى والتجارى الإيرانى على أوربا يجب أن نعرض لعلاقات الشاه عباس لكل دولة أوربية على حدة ، ثم نرى بعد ذلك ماذا تحقق لإيران من وراء هذه العلاقات .

أولا : علاقات الشاه عباس مع البرتغال واسبانيا

— ١ —

العلاقات قبل حكم الشاه عباس الأول :

ورد فى القسم الأول من هذا الكتاب أن القوات البرتغالية تمكنت من بسط نفوذها على جزيرة هرمز بمدخل الخليج العربى عام ٩١٢ هـ (١٥٠٦ م) ثم سيطرت بعد ذلك على العديد من الموانى المجاورة ؛ مما جعل هذه القوات صاحبة الكلمة العليا فى التجارة البحرية بين دول الخليج والعالم الخارجى ، بعد أن كانت حركة التجارة فى يد العرب قبل ذلك . كما حرص البرتغاليون على بناء عدة قلاع حصينة فى هرمز والبحرين وكمبرون ، حتى يحكموا قبضتهم على كل مناطق الخليج . وكانت رئاسة هذه القلاع معقودة للمندوب البرتغالى فى جزيرة هرمز ، وهو بدوره تابع لرئاستهم العامة فى منطقة المحيط الهندى ومركزها ميناء جوا بالهند .

ولا شك أن مقدم القوات البرتغالية إلى منطقة الخليج وسيطرتهم على حركة التجارة فيه ، وكذلك شل حركة التجارة فى البحر الأحمر ، أدى إلى صراع بين هذه القوات وبين الدولة العثمانية حيث حرصت هذه القوات البرتغالية على قطع الصلات التجارية بين الهند وبين البلاد التابعة للدولة العثمانية . فحاول العثمانيون التصدى لهذه القوات وإبعادهم عن مدخل البحر الأحمر وعن منطقة الخليج العربى ، ولكنهم لم يفلحوا فى ذلك ، ولعل هذا

لانشغالهم بالحروب والتوسع فى البلقان ، وعدم التفاتهم إلى المشرق الإسلامى بعد ظهور الدولة الصفوية فى إيران [١] .

أما فى الجانب الآخر وهو جانب الدولة الصفوية ، فنظرا لانشغال الشاه اسماعيل الأول بحروبه مع الأوزبك والعثمانيين فلم يدخل فى حرب مع هذه القوات البرتغالية ، على الرغم من أنها منعت حاكم هرمز من دفع الجزية التى كان يدفعها كل عام للحكومة الصفوية ، وأكثر من هـذا أقدم الشاه اسماعيل على عقد اتفاقية معهم ، تنص على أن تساعده القوات البرتغالية فى حروبه ضد الدولة العثمانية فى مقابل إغماض عينيه عن المطالبة بجزيرة هرمز وميناء كمبرون .

وطوال فترة حكم الشاه اسماعيل الأول وحتى نهاية حكم السلطان محمد خدابنده ، والأمور على ماهى عليه من تسلط كامل للقوات البرتغالية على حركة الملاحة والتجارة بمنطقة الخليج ، ولم يحدث سوى دخول هذه القوات تحت سلطان ملك أسبانيا ، الذى استطاع إخضاع البرتغال لسلطانه فى عام ٩٨٨ هـ (١٥٨٠ م) [٢] ونتيجة لهذا أصبح على إيران إذا أرادت أن تتعامل سياسياً مع هذه القوات ، أن تتعامل مع ملك أسبانيا وحكومتها على الرغم من أن جميع أفراد هـذه القوات المرابطة فى منطقة الخليج كانوا من أصل برتغالى .

هكذا كان الوضع قبل عصر عباس ، فعلام كانت العلاقات خلال فترة حكم الشاه عباس الأول ؟

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار (دكتور) : مصر والعراق . دراسة فى تاريخ العلاقات بينهما حتى نشوب الحرب العالمية الأولى . ص : ٥٥ وما بعدها ، القاهرة ١٩٦٨

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشارية ، ص : ٣٤٣

— ٢ —

تبادل السفراء بين الشاه عباس وملك أسبانيا :

كانت السنوات العشر الأولى من حكم الشاه عباس مزدحمة بالعمل الداخلى ، وبالتصدى لحملات الأوزبك فى الشرق ، لذا لم يرد فى أقوال المؤرخين ما يفيد حدوث صلات جادة بين الشاه عباس وملوك أوربا طوال هذه السنوات العشر .

ولكن بعد أن أحرز الشاه عباس انتصارات حاسمة على الأوزبك ، وبدأ يستعد لمحاربة العثمانيين ، سارع ملوك أوربا وبابا روما بإرسال سفرائهم إلى العاصمة الإيرانية ، وكانت المحاور الأساسية التى تدور عليها مباحثاتهم دائما ، التعاون الحربى والسياسى ضد الدولة العثمانية ، ومطالبة الشاه عباس بحسن معاملة المسيحيين فى إيران ، وعقد صفقات تجارية بين إيران والدول الأوربية ، وكان الشاه عباس يرحب بمقدم هؤلاء السفراء لأنه كان فى حاجة ماسة لمساعدة ملوك أوربا ضد الدولة العثمانية ، وكان مستعدا لبذل كل المساعى المطلوبة ليحظى بهذه المساعدة ، لذا أرسل عددا من سفرائه إلى أوربا لحث ملوكها على التعاون المشترك . ومن الذين اهتم الشاه عباس بمراسلته وتبادل السفراء معه ، ملك أسبانيا وهو المشرف فى نفس الوقت على القوات البرتغالية المرابطة فى منطقة الخليج العربى ، بسبب خضوع البرتغال لسيطرته منذ عام ٩٨٨ هـ (١٥٨٠ م) كما سبق أن ذكرت فمن هم أهم السفراء الذين تم تبادلهم بين الشاه عباس وفيليب الثالث ملك أسبانيا ؟

أولا : سفراء ملك أسبانيا إلى بلاط الشاه عباس :

يبدو أن أول بعثة أسبانية وصلت إلى إيران كانت عام ١٠٠٧ هـ (١٥٩٨ م).

ورأس هذه البعثة قسيسان برتغاليان هما : (آلفونسو كودرو) مبعوث كنيسة الفرنسيسكان، و (نيكولادى ملو) مبعوث كنيسة الدومينيكان وهو فى نفس الوقت قسيس القوات البرتغالية المرابطة فى جزيرة هرمز ،وقيل إن الشاه عباس أحسن وفادتهما والوفد المصاحب لهما،فقدما للشاه الهدايا،وبلغاه تهنئة ملك أسبانيا على انتصاراته فى خراسان ،ثم طلبا منه السماح لمسيحيى إيران ببناء الكنائس ومزاولة شعائرهم الدينية[1] ، فشكرهم الشاه على الهدايا والتهنئة،ووعدهم بحسن معاملة مسيحيي إيران. ولكن بقاء هذه البعثة فى إيران لم يطل كثيراً،حيث كان الشاه عباس يعد العدة لإرسال بعثة من قبله إلى أوربا برئاسة حسين على بيات وانتونى شرلى ، فعادت البعثة الأسبانية مع البعثة الإيرانية المسافرة إلى أوربا عن طريق روسيا وألمانيا .

ثم وفد إلى بلاط الشاه عباس مبعوث أسبانى آخر يدعى (آنتو نيودى جوفيا). وقد جاء هذا السفير إلى إيران ثلاث مرات مبعوثا من قبل فيليب الثالث، فكانت بعثته الأولى عام ١٠١١ هـ (١٦٠٢) ، حيث وفد معه عدد كبير من المبشرين المسيحيين ، وبعد استقبال الشاه عباس لهم فى مشهد ، أعلنوا أنهم جاءوا للتفاوض بشأن إعادة البحرين إلى سيادة أسبانيا — وكانت القوات الإيرانية قد استردتها عام ١٠١٠هـ (١٦٠١ م) — وكذلك لإنهاء الحصار المفروض حول ميناء كمبرون ، ثم السماح للمبشرين بالعمل فى إيران والتصريح لهم ببناء كنيسة يؤدى فيها المسيحيون شعائرهم[1] . فلم يقبل الشاه عباس

---

(١) تاريخ روابط إيران واوربادر دورهٔ صفويه ، قسمت أول ، ص : ١٩

(١) عباس إقبال : قسمتى از ما جراى خليج فارس ، مجلهٔ يادكار ، سال چهارم ، شماره سوم ، ص : ٢٩

التفاوض بشأن إعادة البحرين فى حين أصدر أوامره إلى قواده بفك حصار ميناء كمبرون ، ثم قال لمبعوث ملك أسبانيا ، وهو يعاتبه على مساعدتهم له فى موقفه من الدولة العثمانية : أما بخصوص السماح بإنشاء كنيسة بإيران ، فإننى شخصياً موافق على بنائها . ولكننى أخشى معارضة رجال الدين، ولكن إذا حدث وساعدتم إيران فى حزوبها ضد الدولة العثمانية ، ففى هذه الحالة يمكن السماح ببناء عدة كنائس لا كنيسة واحدة ، وذلك دون خشية من اعتراض رجال الدين![1] .

وبعثة انتونيودوجوفيا الثانية كانت عام ١٠١٧ ﻫ (١٦٠٨م) ، وقد كرر هذا المبعوث نفس المطالب التى طالب بها فى بعثته الأولى ، وهى إعادة البحرين وتسهيلات تمنح للمسيحيين ، وكذلك قصر تجارة إيران فى منطقة الخليج على تجار أسبانيا والبرتغال ، وذلك فى مقابل المزيد من الوعود الصادرة من فيليب الثالث بمساعدة إيران فى حروبها ضد الدولة العثمانية ، ولكن الشاه عباس الذى سمع الكثير من الوعود ، ولم ير أى مساعدة من ملك أسبانيا أو غيره من ملوك أوربا أراد أن يتحقق من هذه الوعود التى قدمها المبعوث الأسبانى وهل هذه الوعود صادرة عن السفير ، أم أنها صادرة عن ملك أسبانيا ، لذا أمر أن يصحب هذا السفير فى عودته أحد كبار رجاله على رأس وفد إيرانى يتوجه لمقابلة ملك أسبانيا للتأكد من صحة هذه العهود ، وكان هذا المبعوث الإيرانى هو (دنكيز بيك)[2] .

ظل انتونيودنكيز فى أسبانيا حتى عام ١٠٢١ﻫ (١٦١٢ م) وبعدها

---

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٠٩

(٢) المرجع السابق ، ص : ١١٣ ، وقسمتى از ما جرى خليج فارس ص ٣٤ ، وزندگانى شاه عباس أول ٤ ٧ ص ١٧٣ وما بعدها .

عادا إلى إيران ، فكانت هذه هى البعثة الثالثة لانتونيو دوجوفيا ، ونظرا لوجود الشاه عباس فى مازندران ، فإن المبعوث الأسبانى لم يلتق به إلا فى الثلاثين من المحرم عام ١٠٢٢هـ وذلك عندما عاد الشاه عباس إلى عاصمته أصفهان ، ولاحظ السفير الأسبانى أن الاستقبال كان غاية فى الفتور. ثم أهمله الشاه عباس ، وبدأ يوجه حديثه بعنف شديد إلى مبعوثه دنكيز بيك ، ولم يطل الوقت حتى أصدر الشاه عباس أوامره بقتل دنكيز بيك[١] ، مما جعل الخوف يدب فى فى قلب السفير الأسبانى ، لذا سارع بالهرب الى جزيرة هرمز حيث يوجد مركز قيادة القوات البرتغالية فى منطقة الخليج العربى ، وكانت هذه البعثة آخر بعثاته الى بلاط الشاه عباس .

---

(١) من الأسباب التى أصدر الشاه عباس بمقتضاها الأمر بإعدام دنكيز بيك ما يلى :

(ا) قام دنكيز بيك بفض رسالة الشاه عباس إلى فيليب الثالث ، وذلك بناء على رغبة ممثل أسبانيا فى ميناء جوا حيث يوجد مركز تجارة البرتغال فى الهند .

(ب) لم يراع القتيل نظام البروتوكول المتبع بالنسبة للسفراء ، وارتدى ملابس الحداد السوداء بدلا من الملابس الإيرانية الرسمية يوم وفاة ملكة أسبانيا .

(ح) باع القتيل رسالة الشاه عباس المرسلة إلى البابا لتاجر ، حتى يسافر التاجر إلى روما ويدعى أنه مبعـــوث الشاه ، ويحقق من وراء ذلك الادعاء مكاسب عديدة .

(د) أساء دنكيز بيك معاملة جميع مرافقيه فى الرحلة ، مما دفع بعضهم إلى اعتناق الدين المسيحى والبقاء فى أسبانيا ، وعدم العودة إلى إيران .

[انظر : ملحقات روضة الصفا ، ج ، ص : ٤١٢ ، تاريخ روابط إيران وأوربا در دورة صفويه ، ص ٤١ ، ٤٢] .

أما المبعوث الأخير الذى أرسله ملك أسبانيا إلى بلاط الشاه عباس قبل اندلاع الحرب بين القوات الإيرانية والبرتغالية عام ١٠٣١ هـ (١٦٢٢م) فكان (دون جارسيا دى سيلفا فيجورا) وكان موعد وصول البعثة إلى إيران فى الثالث والعشرين من جمادى الأولى عام ١٠٢٧ هـ (١٦١٨م) [١]، وقد وفد هذا الرسول ليتباحث مع الشاه عباس فى عدة أمور أهمها؛ استعادة البحرين وكمرون (استولت القوات الإيرانية على البحرين فى عام ١٠١٠هـ، وعلى كمبرون فى عام ١٠٢٣ هـ)، والسماح للمسيحيين بمزاولة عباداتهم بحرية ودون قيود، ثم النظر بعين العطف إلى مواطنى البرتغال وأسبانيا الذين يفدون إلى إيران، وكذلك عقد صفقات تجارية، تعطى للتجار البرتغاليين والأسبان فرصة الإشراف على تجارة إيران فى منطقة الخليج العربى، وأخيراً عدم السماح لقراصنة البحر الإنجليز وتجارهم بمنافسة القوات البرتغالية فى منطقة الخليج. وذلك كله فى مقابل مساعدة إيران فى حروبها مع الدولة العثمانية، حيث سترسل السفن الحربية البرتغالية والأسبانية لمهاجمة البحرية العثمانية فى البحر الأحمر وتغلقه فى وجه التجارة العثمانية [٢].

وجاء دون جارسيا إلى إيران، والشاه عباس يتفاوض مع العثمانيين بشأن توقيع معاهدة صلح جديدة، توقف الحرب الدائرة فى منطقة آذربايجان وقد تم توقيع هذه المعاهدة الجديدة فى عام ١٠٢٧هـ أثناء وجود هذا المبعوث الأسبانى فى إيران، وفى نفس الوقت كانت الصلات بين ايران وشركة الهند الشرقية الإنجليزية قد بدأت، وكان الشاه عباس حريصا على التعاون مع هذه الشركة لتكون خير عون له فى تصديه لظلم القوات البرتغالية فى منطقة الخليج

---

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه، ص: ٣٣٤

(٢) زندگانى شاه عباس أول، جـ ٤، ص ١٩٢ - ١٩٤، ١٩٦ - ٢٠٠

العربى ، ونتيجة لهذه الأسباب ؛ حكم على بعثة دون جارسيا بالفشل ، لذا كان استقبال الشاه له فاترا ، وردوده فى غاية الشدة والعنف ، فبالنسبة للبحرين لم يقبل الحديث عنها مطلقا ، وقال بخصوص كمبرون : لنتكلم بصراحة ، إن هذا الميناء جزء من الأراضى الإيرانية ... لذا لن أسمح لأحد قط بأن يسيطر عليه مرة أخرى[1] وبالنسبة للتجارة الإيرانية ، فذكر له أنه سيبيع الحرير الإيرانى لأى تاجر يدفع أعلى ثمن ، ولن يقصر بيعه على تجار أسبانيا والبرتغال ، كما لا يسمح له بمخاطبته بشأن أصدقائه الجدد ، وهم تجار شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، أما بخصوص إرسال سفنهم صوب البحر الأحمر لإغلاقه فى وجه تجارة الدولة العثمانية ، فلم تعد إيران فى حاجة إلى ذلك ، حيث وقعت إيران والدولة العثمانية معاهدة صلح ، وخمدت فترة الحروب بينهما .

وعندما أدرك دون جارسيا بأنه لن يحقق شيئا من وراء بعثته هذه ، سارع بالعودة إلى هرمز ، ويبدو أن ذلك كان دون استئذان من الشاه عباس مما جعله يعتبر توجهه المفاجىء إلى هرمز بمثابة قطع العلاقات الودية بين البلدين[2] .

• • •

ثانيا : سفراء الشاه عباس لدى البلاط الأسبانى .

سبق أن ذكرنا بأن الشاه عباس بعد انتصاره على الأوزبك ، بدأ يفكر فى مخاطبة الدول الأوربية لتسانده فى صراعه مع الدولة العثمانية ، وكان أول من فكر فى الاتصال به من ملوك أوربا ، ملك أسبانيا والمشرف على الحامية البرتغالية فى منطقة الخليج ، وذلك لتواجد قواته على مقربة من إيران من

---

(١) تاريخ روابط إيران وأوربا ... ص : ٦٣

(٢) قسمتى از ما جرى خليج فارس ، ص : ٣٧

جانب ، ولتطويقها لممتلكات الدولة العثمانية فى شبه الجزيرة العربية . ولإمكان قيام هذه القوات البرتغالية التابعة له بتهديد التجارة العثمانية فى البحر الأحمر ، ولهذا بدأ يعد العدة لإرسال بعثة دبلوماسية إلى أسبانيا ، وبعض الدول الأوربية المتصارعة مع الدولة العثمانية ، وتم اختيار أفرادالبعثة فعقدت رئاستها إلى حسينعلى بيك بيات ، ولكن التصرف الفعلى كان فى يد أنتونى شرلى[١] ، وقد حدد الشاه عباس أهداف البعثة فى هدفين أساسيين ، أولهما عقد معاهدات مع جميع ملوك الدول الأوربية التى سيزورونها للعمل المشترك ضد الدولة العثمانية ، وثانيهماتسويق الحرير الإيرانى .

خرجت البعثة من إيران فى الخامس عشر من ذى الحجة عام ١٠٠٧ هـ (٩ يونيو ١٥٩٩)[٢] وضمت إلى جانب حسينعلى بيك وأنتونى شيرلى عددا من المرافقين من بينهم أحد رجال الدين الشيعى للإشراف على مسلك أفراد البعثة من الوجهة الدينية ، كما انضم إلى البعثة القسيسان البرتغاليان اللذان وفدا من قبل ملك أسبانيا للتباحث مع الشاه عباس ، وسلكت البعثة طريق مازندران ثم روسيا ومنها إلى دول وسط أوربا ، وأخيراً توجهت البعثة إلى روما حيث حدث سوء تفاهم بين انتونى شرلى وحسينعلى بيك بيات ، مما جعل أنتونى شرلى ينفصل عن البعثة ويقطع صلته بإيران ، وأخيراً توجه حسينعلى ورفاقه الإيرانيون إلى أسبانيا فوصلوها فى أوائل عام ١٠١٠هـ ، وقضت البعثة هناك مدة شهرين استأذن بعدها حسينعلى فى العودة إلى إيران دون أن يكمل رحلته فى باقى دول أوربا ، حيث كان مكلفا بتوصيل رسائل الشاه عباس إلى كل من ملوك إنجلترا وفرنسا وغيرهما[٣] .

---

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٠١

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه . ص ٣٤٣

(٣) قسمتى از ما جراى خليج فارس ، ص : ٣٤

ولعل السبب الذى جعل حسينعلى بيك بيات يسرع بالعودة دون أن يحقق أى هدف من رحلته ، اعتناق ثلاثة من رفاقه الدين المسيحى وتعميدهم فى أسبانيا بحضور الملك والملكة[١] ، وكذلك قتل رجل الدين الشيعى المرافق للبعثة على يد أحد الأسبان المتعصبين[٢] .

هكذا عادت البعثة الدبلوماسية الأولى التى أرسلها الشاه عباس دون أن تحقق أى هدف سافرت من أجله ، لذا توقفت بعثات الشاه عباس إلى

---

(٣) الثلاثة الذين اعتنقوا الديانة المسيحية ، ورفضوا العودة مرة أخرى إلى إيران ، هم :

(ا) عليقلى بيك ابن أخى السفير حسين على بيك بيات ، وكان اعتناقه المسيحية مبعث ألم وغصة للسفير الايرانى ، وقد حضر فيليب الثالث بنفسه حفلة تعميده ، وقبل أن يكون بمثابة الأب الروحى له ، وغير اسمه بعد اعتناقه المسيحية إلى (دون فيليب)

(ب) أروج بيك ، وكان يمثل سكرتير أول البعثة الايرانية ، وقد قبلت ملكه أسبانيا أن تكون أما روحية له يوم تعميده ، وعرف بعد ذلك باسم (دون جوان إيران) وقد ألف كتابا هاما عن إيران بعد ذلك قسمة إلى ثلاثة أبواب تحدث فيها عن وصف مختصر لايران ، ثم شرح أحوال سلاطين إيران وحروبهم مع الخلافة العثمانية وأخيراً تحدث عن رحلة حسين على وانتونى شرلى منذ خروجها من إيران ، حتى دخولهم إلى اشبونه .

(ح) بنيادبيك ، وهو أحد أعضاء البعثة ، وأصبح اسمه بعد اعتناق المذهب الكاثوليكى (دون ديجو)

لمعرفة المزيد عن قصة هؤلاء ، يرجع إلى تاريخ روابط إيران وأوربا در دورهٔ صفويه ، قسمت أول ، ص ٣٠ — ٣٢ ، زندكانى شاه عباس أول ج ٤ ، ص : ١٦٤ — ١٦٥ ، وتاريخ ادبيات إيران ج ٤ (بروان) ص ١٩ - ٢٠

(٤) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٠٦

أسبانيا مدة ست سنوات ، ولم يعاود الكرة إلا عام ١٠١٦ هـ (١٦٠٧م) .

عندما اشتدت وطأة الحرب فى آذربايجان بين الشاه عباس والدولة العثمانية سارع بإرسال بعثة دبلوماسية ثانية إلى أوربا، وعقد رئاستها لروبرت شرلى ، فخرجت البعثة من أصفهان عام ١٠١٦ هـ ولكنها لم تصل إلى أسبانيا إلا بعد عامين ، وعندما مثل روبرت فى بلاط ملك أسبانيا ، سلمه رسالتين مطولتين من الشاه عباس ، وفيهما يدعوه إلى التعاون للقضاء على عدوهما المشترك المتمثل فى الدولة العثمانية ، وذلك فى مقابل تسهيلات تجارية يقدمها الشاه عباس لتجار البرتغال وأسبانيا ، فكان جواب ملك أسبانيا غاية فى الاقتضاب ، كما كان استقباله فاترا ، واكتفى بالقول بأنه سيعمل على حث البابا وملوك أوربا على محاربة العثمانيين وإرسال سفنهم الحربية لسد مدخل البحر الأحمر أمام التجارة العثمانية مع الهند[1] .

ولعل ملك أسبانيا سلك هذا المسلك مع روبوت شرلى ،لأن الشاه عباس كان قد رفض رجاء هذا الملك باستعادة سيطرة القوات البرتغالية على البحرين، وأمام هذا الفتور اضطر روبرت شرلى إلى ترك العاصمة الأسبانية ، والتجول فى أوربا ثم العودة إلى إيران عام ١٠٢٤ هـ (١٦٢٥ م) دون أن يحقق أهداف المهمة التى سافر من أجلها ، وهكذا أصاب الفشل مهمة روبرت شرلى الأولى، كما أصاب الفشل مهمة أخيه أنتونى شرلى من قبل !

ولكن على الرغم من هذا الفشل ،وكذلك فشل بعثات انتونيو دوجوفيا المبعوث الأسبانى إلى إيران ، فقد أقدم الشاه عباس على معاودة إرسال روبرت شرلى مرة أخرى إلى أسبانيا ، كما أرسل ملك أسبانيا دون جارسيا

(١) زندگانى شاه عباس اول ، جـ ٤ ، ص : ١٨٠ - ١٨٨

إلى إيران ، وهذا يفيد بأن اليأس لم يتطرق إلى أحدهما ، فلم ييأس عباس — المتلهف إلى أى عون أوربى ضد الدولة العثمانية — من مساعدة فيليب له ، كما لم ييأس فيليب فى استرداد البحرين من الشاه عباس[١] .

غادر روبرت شرلى إيران عام ١٠٢٤ هـ متوجها صوب أسبانيا فوصلها عام ١٠٢٦ هـ وقضى هناك خمس سنوات ، وخلال هذه الفترة كانت العلاقات بين الدولتين تسير من سيء إلى أسوأ ، وتستعد كل منهما للنزال والعراك فى منطقة الخليج العربى ، مما أضفى على بعثة روبرت الثانية المزيد من الصعاب ، فلم يستطع أن يحقق الهدف الذى سافر من أجله على الرغم من طول المدة التى قضاها فى العاصمة الأسبانية . فاضطر لترك أسبانيا والسفر إلى إنجلترا عام ١٠٣١ هـ (١٦٢٣م) ، ولم يعد إلى إيران إلا فى عام ١٠٣٦ هـ .

هذه هى أهم البعثات الدبلوماسية التى أرسلها الشاه عباس الأول إلى أسبانيا وقد وجدت إلى جانبها بعثات أخرى أقل أهمية ، من بينها سفر دنكيز بيك بصحبة انتونيو دى جوفيا عام ١٠٢٠ هـ ثم عودته معه إلى إيران لينفذ فيه حكم الإعدام بمجرد لقائه بالشاه عباس ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك .

وهكذا فشل جميع سفراء إيران ، وكذلك جميع سفراء أسبانيا فى تحقيق التعاون بين شاه عباس وفيليب الثالث ، ولاشك أن هذا الفشل كان ينتج أحيانا عن بعض المناوشات الحربية فى منطقة الخليج بين الجيشين الصفوى والبرتغالى ، إلى أن تفاقم الموقف فى النهاية وانتهى الأمر بالقطيعة والحرب .

• • •

---

(١) قسمتى از ما جراى خليج فارس ، ص : ٣٥

— ٣ —

المعارك الحربية قبل تحرير هرمز :

على الرغم من تبادل السفراء بين البلاطين الصفوى والأسبانى المشرف على القوات البرتغالية فى الخليج ، فإن الشاه عباس كان ينتهز أى فرصة سانحة ويمد نفوذه على أى منطقة خاضعة للوجود البرتغالى فى منطقة الخليج العربى ، وقد أثر هذا الموقف على مدى نجاح السفراء فى تحقيق الأهداف التى سافروا من أجلها سواء إلى البلاط الصفوى أو إلى البلاط الأسبانى ، وظل الموقف يتفاقم بالتدريج حتى انتهى العقد الثالث من القرن الحادى عشر الهجرى ، فالتقى الجيشان الصفوى والبرتغالى فى معركة فاصلة حول فرض السيادة على جزيرة هرمز ، وانتهت المعركه بطرد القوات البرتغالية من جميع الأراضى التابعة للشاه عباس الأول، ولكن ما المعارك التى دارت بين الجيش الصفوى والقوات البرتغالية قبل استرداد الإيرانيين لجزيرة هرمز ؟

أولا : فتح البحرين

كانت البحرين تابعة لحاكم جزيرة هرمز ، وهو الذى يعين من قبله من يصرف أمورها ، واستمر هذا الوضع بعد قدوم القوات البرتغالية إلى منطقة الخليج العربى فى أوائل القرن العاشر الهجرى ، واستيلائها على كل من هرمز والبحرين ، ونظرا لأهمية البحرين بالنسبة لمنطقة الخليج كلها ، فقد أنشأت القوات البرتغالية فيها مركزا رئيسيا لقواتهم المشرفة على حكم المناطق الساحلية العربية من الخليج ، وأقاموا فيها كذلك دارا للتجارة (١).

(١) قسمتى از ما جراى إقليم فارس ، ص : ٢٧ ، تاريخ ايران از مغول تا افشارية . ص : ٣٢٢

وفى عام ١٠١٠ توفى فرخ شاه حاكم جزيرة هرمز وتولى مكانه ابنه فيروز شاه الذى استوزر شرف الدين لطف الله ، فقام هذا الوزير بتعيين أخاه ركن الدين مسعود حاكما على البحرين . وبعد أن تسلم الحاكم الجديد زمام الأمور فى البحرين شعر بأن القوات البرتغالية المرابطة هناك وكذلك تجارهم يتحكمون فى كل شىء ، ففكر فى التخلص منهم ، وفى الاستقلال بحكم البحرين (١) ولكن كيف يتأتى له ذلك ، وليس لديه من القوة ما يستطيع أن يجابه به قوات حاكم هرمز والقوات البرتغالية المرابطة فى منطقة الخليج العربى ؟ لهذا فكر فى مخاطبة الإيرانيين لكى يساعدوه فى تحقيق ما يصبو إليه ، فتحدث مع أحد وجهاء فارس ويدعى « معين الدين فالى » فى الأمر ، فنقل معين الدين الخبر إلى حاكم فارس اللهورديخان الذى رحب بالفكرة ، لا ليساعد ركن الدين مسعود ، ولكن ليفرض سلطانه على البحرين ويجعلها تابعة للشاه عباس (٢) .

تقدمت الجيوش الإيرانية التى أعدها اللهورديخان نحو البحرين بقيادة معين الدين فالى ، وتمكنت من دخولها بعد مقاومة ضعيفة حيث اعتقد سكانها أنهم جاءوا لمساعدة حاكمهم ركن الدين مسعود ، وفجأة هجم الجنود الصفويون ذات ليلة على دار هذا الحاكم واغتالوه ، مما أدخلهم فى عراك مع قواته ، ولكن النصر كان حليف الجيش الإيرانى ، وهكذا تمت لهم السيطرة على البحرين فى منتصف شهر رمضان من عام ١٠١٠ هـ (٣)

وعندما وصلت أنباء الهجوم الصفوى على البحرين ، واغتيالهم لحاكمها

---

(١) ملحقات تاريخ روضه الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٣٣٣

(٢) تاريخ ايران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٢٢

(٣) زندگانى شاه عباس اول ، جـ ٤ ، س : ٣٢٢

إلى جزيرة هرمز ، سارع حاكمها ، وقائد القوات البرتغالية المرابطة فيها بتجهيز جيشين ؛ أحدهما برى وتولى قيادته الوزير شرف الدين لطف الله ، وهو فى نفس الوقت أخو حاكم البحرين الذى اغتيل ، وثانيهما بحرى يضم عددا من سفن البرتغال الموجودة فى منطقة الخليج (١) ، وتقدم الجيشان وحاصرا البحرين ، وأمام شدة الحصار فكر حاكم فارس اللهورديخان فى حيلة تخفف من وطأته ؛ ففتح جبهة جديدة أمام القوات البرتغالية بأن أمر جماعة من جنده بحصار ميناء كمبرون ، ونجحت الخطة حيث انسحبت بعض السفن الحربية البرتغالية من الحصار المضروب حول البحرين وتوجهت صوب ميناء كمبرون (٢) ، مما مكن القوات الإيرانية فى البحرين من وضع يدها على الجزيرة ، والتغلب على القوات المعادية الباقية ، كما ظفرت بعدد من المدافع الحربية ، تم إرسالها الى الشاه عباس فسر بها سرورا عظيما حيث كان يستعد لمنازلة العثمانيين (٣) .

وهكذا كانت البحرين أول جزء فى منطقة الخليج العربى يستطيع جيش الشاه عباس انتزاعه من القوات البرتغالية ، بعد استعمار برتغالى دام مايقرب من مائة عام ، وقد حاول فيليب الثالث التباحث مع الشاه عباس عن طريق جميع السفراء الذين أرسلهم إلى إيران ، لاسترداد البحرين ، ولكن الشاه عباس رفض تلبية هذا المطلب على الدوام .

ثانياً : استرداد ميناء كمبرون :

يقع ميناء كمبرون على مسافة فرسخين فقط من جزيرة هرمز ، وقد سارعت

---

(١) قسمتى از ما جرى خليج فارس ، ص : ٢٨

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) زندگانى شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص : ١٦٧


الخليج العربي
يزد
الأهواز
البصرة
الكويت
شيراز
إيران
بوشهر
جزيرة هرمز
بندر عباس
ميناب
بندر لنجة
مضيق هرمز
جاسك
البحرين
قطر
الدوحة
الشارقة
الفجيرة
خليج عمان
صحار
الخابورة
مسقط
أبوظبي
عمان

القوات البرتغالية بفرض سيطرتها عليه بمجرد قدومها إلى منطقة الخليج [1] ، وذلك لتستخدمه مرفأ لسفنها الحربية الكبيرة ، إذ أن شواطىء جزيرة هرمز لم تكن تصلح لاستقبال مثل هذه السفن [2] ، وفى بداية حكم الشاه عباس شيد البرتغاليون فيه قلعة كبيرة ، فأصبح الميناء منذ ذلك الوقت يمثل قاعدة بحرية برتغالية ترسو فيه ما بين خمس وعشرين وثلاثين سفينة حربية تتولى حماية القلعة ، وتحصل الرسوم الجمركية من أى سفينة غير برتغالية تدخل إلى الخليج [3] .

وفى أثناء الحديث عن فتح البحرين ذكرنا أن قوات اللهورديخان حاصرت هذا الميناء عام ١٠١٠ هـ لتخفف الحصار عن القوات الإيرانية المسيطرة على البحرين ، ثم انسحبت هذه القوات عندما انتهى حصار البرتغاليين للبحرين ولكن القوات الإيرانية عادت وحاصرت ميناء كمبرون للمرة الثانية فى عام ١٠١١ هـ ، واستمر الحصار حتى أصدر الشاه عباس أوامره بفك الحصار استجابة لمطلب انتونيودو جوفيا السفير الأسبانى ، ورغبة من الشاه فى حث ملك أسبانيا على تقديم العون له ضد الدولة العثمانية .

بعد ذلك احتدم النزاع الصفوى العثمانى ، وحدثت معارك عنيفة بينهما فى منطقة آذربايجان ، فحرص الشاه عباس على خطب ود البرتغاليين والأسبان حتى يساعدوه ضد العثمانيين ، ولكنه لم يظفر منهم إلا بالوعود دون التنفيذ ، فما أن انتهى من الجولة الحربية الثانية مع العثمانيين حتى أعد قائده اللهورديخان حملة كبيرة تولى قيادتها ابنه إمام قليخان ، وسيرها فى عام ١٠٢٢ هـ

---

(١) تاريخ روابط ايران وأوروبا در دورة صفويه ، ص : ٥٣

(٢) ايران در زمان صفويه ، ص : ١٢٢

(٣) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٤ ، ص : ١٩٥ - ١٩٦

(١٦١٣ م) للاستيلاء على ميناء كمبرون ولكن الحملة فشلت فى أداء مهمتها ثم توفى اللهورديخان فى نفس العام ، وتولى ابنه إمامقليخان حكم ولاية فارس من بعده ، فعاود الكرة بعد عام واحد من توليه وهاجم كمبرون واستطاع انتزاعها من البرتغاليين ، فهدم قلعتهم ، وبنى قلعة أخرى جديدة مكانها ، كما بنى على مقربة من ميناء كمبرون ، ميناء جديدا عرف باسم « بندر عباس » تيمنا بطرد البرتغالين من الميناء القديم وبناء الميناء الجديد فى فترة حكم الشاه عباس الأول [١] .

وهكذا كان ميناء كمبرون ثانى ميناء يستطيع جيش الشاه عباس طرد القوات البرتغالية منه ، فزاد هـــذا من سوء التفاهم بين إيران والقوات البرتغالية فى منطقة الخليج العربى ، وظل الموقف يزداد سوءا حتى التقت القوات الإيرانية بالقوات البرتغالية فى معركة تاريخية فى جزيرة هرمز .

* * *

— ٤ —

إخراج القوات البرتغالية من جزيرة هرمز :

أولا : القطيعة بين إيران وأسبانيا :

ارتبط وجود القوات البرتغالية فى منطقة الخليج بالتسلط والاحتكار التجارى ، ومحاولة الاستيلاء على مقدرات شعوب المنطقة ، مما جعل وجودهم يتسم بالغلظة والقسوة الشديدة مع جميع سكان المناطق التى نزلوا بها ، سواء أكانوا من الإيرانيين أو العرب ، وقد أدت هذه القسوة إلى نفور الجميع

---

(١) قسمتى ازما جراى خليج فارس ، ص : ٣٢

منهم (١) ، لذا أقدم بعضهم على قتل عدد من البرتغاليين ، كما امتنعوا فى مناسبات كثيرة عن تزويد سفنهم بما تحتاج إليه من مؤن وأغذية (٢) ، ولكن على الرغم من كل ذلك ، كان الشاه عباس يغمض عينيه عن كثير من فظائعهم على أمل أن يساعدوه فى قتاله ضد العثمانيين ، ولكنهم خيبوا رجاءه ، ولم يقدموا له أى عون ، مما زاده نفورا منهم ، ورغبة فى الخلاص من وجودهم متى سنحت الفرصة لذلك .

ومما زاد من نفور الشاه عباس منهم ؛ فرض سيطرتهم على حركة الملاحة والتجارة فى منطقة الخليج ، كما لم يكن فى مقدور أى سفينة أجنبية دخول الخليج العربى إلا إذا حصلت على ترخيص خاص من العمال البرتغاليين فى جزيرة هرمز ، وكان إعطاء هذا التصريح أمرا غاية فى الصعوبة (٣) ، والهدف من عدم إعطاء هذا التصريح احتكار التجارة فى أيدى البرتغاليين والأسبان فقط . فكان هذا الموقف يغضب الشاه عباس دائما ، إذ أنه حريص على أن يكون فى إيران انفتاح اقتصادى ، وأن يفد إليها التجار من كل بقاع الأرض ، ولذا قال لأحد سفراء أسبانيا محتجا على رغبة ملكها فى أن يحتكر البرتغاليون تجارة الحرير : « إننى سأبيع الحرير لأى تاجر يدفع أعلى ثمن ! »

وبعد ذلك أقدم الشاه عباس على تشجيع مندوبى شركة الهند الشرقية الإنجليزية على زيارة إيران ، ولعقد صفقات تجارية معها ، بل إنه أمر بعد ذلك بأن تحتكر هذه الشركة إنتاج جنوبى إيران كله من الحرير ، ولعله أراد بمثل هذه الصفقات التجارية أن يظهر عداءه للقوات البرتغالية ، وأن يضربهم

---

(١) نهضة الاعيان ... ص : ١٣

(٢) زندكانى شاه عباس اول ، ج ٤ . ص : ٢٠٣

(٣) تاريخ روابط ايران وأوربا در دوره صفويه ، ص ٦٥

بمنافسيهم الإنجليز الذين حرصت القوات البرتغالية دائما على عدم السماح لهم بالظهور فى منطقة الخليج، وعدم عقد أى صفقات تجارية بينهم وبين إيران.

ومن العوامل التى ساعدت الشاه عباس على اتخاذ هذا الإجراء ، تلك الهزائم التى لحقت بالقوات البرتغالية المرابطة فى الهند ، من جراء المعارك التى دارت بينها وبين القوات الإنجليزية فى ميناء سورات الهندى طوال الفترة من عام ١٠٢١ هـ إلى عام ١٠٢٤ هـ (١٦١٢ — ١٦١٥ م) [١] ، وكان لهذه الهزائم أثرها الكبير على بداية أفول هيبة البرتغاليين فى المحيط الهندى ، وبداية بزوغ نجم شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، مما شجع الشاه عباس بعد ذلك على طلب العون من مندوبى هذه الشركة لطرد القوات البرتغالية من منطقة الخليج العربى .

ومن العوامل التى ساعدت كذلك على أن يرفض الشاه عباس أى تعاون مع أسبانيا والبرتغال ، أنه وقع معاهدة صداقة وصلح مع العثمانيين عام ١٠٢٧ هـ ،وبمقتضى ذلك لم يعد فى حاجة لمساعدة القوات البرتغالية ، وبالتالى لم يعد مجبرا على التظاهر بالود معهم [٢] .

وهكذا كانت العلاقة بين الشاه عباس وإيران من جانب والقوات البرتغالية وفيليب الثالث من جانب آخر ، تسير من سىء إلى أسوأ ، وفجأة وصلت إلى القطيعة بعد أن تسلم الشاه عباس رسالة من فيليب الثالث أرسلها بعد فشل بعثة دون جارسيا ، وفيها تحدث عن ضرورة استرجاع البحرين وميناء كمبرون وعدم تعرض عباس لجزيرتى قشم وهرمز ، ثم قال : .... إذا كان

---

(١) ايران در زمان صفويه ، ص ٠ ١٣١

(٢) تاريخ روابط ايران وأوربا در دورة صفويه ٠ ٦٦

الشاه عباس لا يوافق البرتغاليين فى مطالبهم، فإن علاقات الصداقة بين البلدين ستقطع، وإذا أقدمت القوات البرتغالية فى تلك الحالة على ارتكاب أمر لا يتسم بالود والصداقة، فليست أسبانيا مسئولة! فتملك الشاه عباس الغيظ من هذا التحذير، ومزق الخطاب، وأقسم على استرداد هرمز نفسها وطرد القوات البرتغالية منها (١).

وهكذا تفجر العداء صراحة بين الطرفين، وأخذ كل طرف منهما يعد العدة للحرب، فأرسل ملك أسبانيا إلى مندوبه فى هرمز يأمره بالاستعداد للحرب قائلا: «إذا لم تتخل إيران عن الأماكن التى تحتلها، فيجب أن تبدأ الحرب»، وكان ذلك عام ١٠٢٩ هـ (١٦٢٠ م) (٢).

وعلى الجانب الآخر أصدر الشاه عباس أوامره إلى إمامقليخان حاكم إقليم فارس ببذل كل الاستعدادات لخوض المعارك الفاصلة بين إيران والقوات البرتغالية فى منطقة الخليج العربى.

ثانيا: الاستعداد للحرب.

بعد أن وصلت العلاقات الإيرانية الأسبانية إلى حد القيطعة، بدأ كل جانب يبذل المزيد من الاستعدادات لأى تطور مفاجىء للأحداث، ومن وسائل الاستعداد التى بذلتها القوات البرتغالية الحرب الدعائية، حيث أشاعت بأن قائد الأسطول البرتغالى الموجود فى ميناء جوا بالهند قد تحرك بسفنه صوب جزيرة هرمز استعدادا لتأديب كل من تسول له نفسه مهاجمة الجزيرة وأنه لن يكتفى بالفتك بالسفن الإنجليزية التى ستساعد الشاه عباس فحسب،

---

(١) قسمتى از ما جراى خليج فارس ، ص : ٣٨

(٢) ايران در زمان صفويه ، ص : ١٣٢

بل سيستولى على جميع السواحل الإيرانية المطلة على الخليج ، كما أشاعوا بأن السفن البريطانية التى وعدت شركة الهند الشرقية الإنجليزية بإرسالها ، لن تصل إلى ميناء جاسك المطل على بحر عمان مطلقا [(١)].

أما على الجانب الايرانى ، فقد بدأ الشاه عباس يعد جيشه لخوض معركة شرسة مع القوات البرتغالية فى جزيرة هرمز وغيرها بمنطقة الخليج العربى ، ولكن على الرغم من هذه الاستعدادات فقد شعر بأن القوات الإيرانية لن تستطيع التصدى للقوات البرتغالية حيث لايتوافر لإيران أسطول بحرى يستطيع مجابهة السفن الحربية البرتغالية ، ولذا عزم على أن يتفاوض مع شركة الهند الشرقية الإنجليزية المتطلعة لأن ترث دور البرتغاليين فى منطقة الخليج [(٢)] وكان هدف الشاه عباس من هذه المفاوضات الاعتماد على سفن الشركة الإنجليزية فى مهاجمة السفن البرتغالية ، حيث كان يخطط للهجوم ، بأن يكون من اتجاهين ، برى وتقوم به القوات الإيرانية ، وبحرى وتضطلع به سفن الشركة الإنجليزية .

وأمام هـــذه الرغبة ، كلف الشاه عباس حاكم فارس إمامقليخان بالتفاوض مع مندوبى الشركة الإنجليزية ، واستمرت المفاوضات مدة عام كامل ، حيث كان مندوبو الشركة الانجليزية مترددين فى قبول عروض الشاه عباس ، وذلك لأن انجلترا وأسبانيا كانتا على علاقات طيبة فى ذلك الوقت ، ولا يمكن للشركة أن تقدم على هذا العمل دون إذن مسبق من ملك انجلترا ، ومن المؤكد أنه لن يأذن لهم بذلك ، كما كانت الشركة الانجليزية تخشى الفشل فى مهاجمة القوات البرتغالية ، وهذا الفشل سيصيبها بانتكاسة

---

(١) زندگانى شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص : ١٠٨

(٢) قسمتى از ما جراى خليج فارس ، ص : ٣٨

كبيرة فى منطقة المحيط الهندى كله ، بعد أن رسخت دعائمها بعد انتصارهم على البرتغاليين فى معارك سورات .

وأمام هذا التردد هددهم إمامقليخان ، بأنهم إذا لم يوافقوا على المشاركة فى مهاجمة القوات البرتغالية ، فإن الشاه عباس سيلغى جميع الامتيازات التجارية التى أعطاها لهم ، وسيمنع عنهم الحرير الايرانى ، ولكن إذا شاركوا الجيش الإيرانى فى طرد البرتغاليين من جزيرة هرمز ، فسيقصر بيع الحرير الإيرانى على الشركة الانجليزية دون غيرها(١) . وأمام هذا التهديد اضطرت الشركة الانجليزية للموافقة على المشاركة فى محاربة القواب البرتغالية فى منطقة الخليج ، وأمام هذه الموافقة التقى إمامقليخان بمندوبى الشركة فى ميناب ، وكان ذلك فى الرابع والعشرين من شهر صفر عام ١٠٣١ هـ (٨ من يناير ١٦٢٢ م) واتفقوا على الشروط التالية (٢) :

١ — أن تكون تكاليف الحرب مناصفة بين الطرفين .

٢ — أن يتم تقسيم الغنائم مناصفة بين الطرفين كذلك .

٣ — خضوع جزيرة هرمز بعد إخراج البرتغاليين منها للاشراف المشترك .

٤ — تقسيم جمارك جزيرة هرمز مناصفة بين إيران والشركة الانجليزية مع إعفاء البضائع الانجليزية التى ترد باسم الشاه عباس أو حاكم فارس من الرسوم الجمركية .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٢) ايران در زمان صفويه ، ص : ١٣٦ ، زندگانى شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص : ٢١٦ ، وتاريخ ايران از مغول تا افشاريه ؛ ص : ٣٣٥

٥ — أن تتسلم إيران جميع الأسرى المسلمين، كما تتسلم الشركة الإنجليزية جميع الأسرى المسيحيين.

ولكن حدث بعد توقيع الاتفاق بين الشركة وإيران، أن اعترض بحارة الشركة الإنجليزية قائلين: «إن مهاجمة القوات البرتغالية ليس عملا تجاريا، كما أنهم لم يستأجروا لأى سخرة...» ولكن الشركة استطاعت أن تقنع بحارتها، وتقضى على اعتراضاتهم، وذلك بمزيج من الوعود والتهديدات [1].

وعندما علم البرتغاليون باتفاق الشركة الإنجليزية وإيران على مهاجمتهم حاولوا تهدئة الأمور، ومخاطبة الجميع الهدوء والتريث، فرفض إمامقليخان عروضهم، مما جعلهم يحاولون مع مندوبى الشركة الإنجليزية قائلين بأن وحدة الدين المسيحى بينهما ترفض العداء بين الجانبين، ولكن الشركة الانجليزية المتطلعة إلى أن ترث البرتغاليين فى منطقة الخليج رفضت عروض البرتغاليين فى الامتناع عن مهاجمتهم [2].

بعد ذلك أخذ الجانبان يستعدان أكثر وأكثر. فأمر قائد القوات البرتغالية فى هرمز قواته بالتأهب الجيد وإعداد مدافع القلعة لصد أى هجوم متوقع، فى حين أصدر الشاه عباس أوامره إلى قائده إمامقليخان بالتحرك صوب شاطىء الخليج بجيش قوامه خمسة عشر ألف جندى، ثم انتظار أوامر الشاه عباس لبدء الهجوم فى أى وقت [3].

وبعد أن تقدم إمامقليخان إلى المكان الذى حدده له الشاه عباس، نجح فى تحريك بعض العرب من سكان رأس الخيمة ضد القوات البرتغالية

---

(1) History of Persia vol. II p. 192

(٢) ايران در زمان صفويه، ص: ١٣٧

(٣) زندگانى شاه عبّاس، ج: ٤، ص: ٢٠٩

فيها، واستطاع هؤلاء العرب طردهم منها[1]، وكان الهدف من وراء ذلك قطع طريق الإمدادات عن القوات البرتغالية المتمركزة فى جزيرة هرمز فى حالة حصار القوات الإيرانية والإنجليزية لهذه الجزيرة.

ومن إستعدادات الشركة الانجليزية، إرسالها بعض سفنها إلى ميناء جاسك فى جنوبى إيران والمطل على بحر عمان، وذلك لكى تكون على مقربة من منطقة الصراع.

وهكذا أصبح جميع الأطراف مستعدين لبدء القتال، ولكنهم كانوا فى انتظار شارة البدء بإطلاق النار!

...

ثالثاً: اندلاع الحرب وإخراج البرتغاليين من هرمز:

بعد الانتهاء من الاستعداد الإيرانى الإنجليزى، اتفق الرأى على التمهيد للهجوم على جزيرة هرمز بإجراءين تمثل الأول فى الاتفاق مع عرب الشارقة وعمان على الثورة ضد الوجود البرتغالى والامتناع عن تزويد البرتغاليين الموجودين فى جزيرة هرمز بالمؤن الغذائية[2] مما يؤثر فى مقدرتهم على تحمل أى حصار قد يفرض عليهم من قبل القوات الإيرانية الإنجليزية. واستجاب عرب الشارقة وعمان لهذا المطلب، وثاروا ضد البرتغاليين؛ وهذا دليل على النفور المشترك بين الإيرانيين والعرب من وجود هذه القوات البرتغالية المتسلطة على كل شىء، وبخاصة أنها حرمت العرب فى الخليج من الإشراف

---

(١) قسمتى از ما جراى خليج فارس، ص. ٤٠ شمارهٔ سوم، سال چهارم مجلهٔ يادكار

(٢) المرجع السابق، ص: ٢٤، شمارهٔ چهارم.

الكامل على النشاط التجارى بين موانيه والعالم الخارجى كما كان عليه الأمر قبل قدوم هذه القوات البرتغالية إلى المنطقة[١] .

والإجراء الثانى تمثل فى التخطيط للاستيلاء على جزيرة قشم القريبة من جزيرة هرمز والتى تمدها بالمياه العذبة الصالحة للشرب وذلك لعدم توافرها فى جزيرة هرمز . وقد استطاعت القوات الإيرانية الإنجليزية محاصرة جزيرة قشم ، وضربها بالمدافع وقد حاول البرتغاليون المرابطون بالجزيرة صد القوات المحاصرة ، ولكنهم فشلوا فى ذلك ، ممـــا أجبرهم على طلب التسليم بالشروط التالية[٢] :

١ — تأمين حياة البرتغاليين المرابطين بالجزيرة .

٢ — تقوم السفن البريطانية بنقل هؤلاء البرتغاليين إلى جزيرة هرمز ، ومعهم أسلحتهم وأمتعتهم .

٣ — عدم الإضرار بالإيرانيين الذين كانوا يحاربون فى صفوف القوات البرتغالية بجزيرة قشم .

وافقت القوات الإيرانية الإنجليزية على هذه المطالب ، ولكنهم بعد أن تسلموا الجزيرة فى ربيع الأول عام ١٠٣١ هـ ، استولوا على جميع أسلحة القوات البرتغالية ومعداتهم ، كما أسرت القوات الإنجليزية قائد القلعة ونقلته أسيراً إلى مركزها الرئيسى فى ميناء سورات الهندى . وأقدمت القوات الإيرانية

---

(١) جمال زكريا قاسم [دكتور] . الادعاءات الايرانية فى الخليج العربى أصول المشكلة وتطورها التاريخى ، ص ١٦٢ وما بعدها . [بحث مستخرج من المجلة المصرية للدراسات التاريخية . المجلد العشرون] ، القاهرة ١٩٧٣

(٢) تاريخ روابط ايران وأوربا در دورة صفويه ، ص : ٧٧

على سفك دماء جميع الإيرانيين الذين كانوا يعملون فى خـــدمة القوات البرتغالية بالجزيرة .

وهـكذا نجح الإجراءان التمهيديان فى قطع إمدادات الغذاء والمياه عن جزيرة هرمز ، وقد حاولت القوات البرتغالية استعادة جزيرة قشم ،ونجحت فعلا فى استرداد جزء صغير منها ، وهو الجزء القابل لجزيرة هرمز ، ولـكن سرعان ما أخرجتهم القوات الإيرانية من هذا الجزء ، وبعد ذلك بدأت السفن الانجليزية تأخذ طريقها نحو سواحل جزيرة هرمز ثم انتظرت هناك بعض الوقت حتى وصلت قوات إمامقليخان البرية ، وعندما اكتمل توافد القوات الإيرانية والإنجليزية ؛ بدأوا فى فرض الحصار حول جزيرة هرمز ، وكان ذلك فى السابع والعشرين من شهر ربيع الأول من عام ١٠٣١هـ (٩ من فبراير ١٦٢٢ م)[١] ، وقد كانت هذه القوات تتوقع أن تواجه بمقاومة عنيفة من القوات البرتغالية بالجزيرة ولـكنهم فوجئوا بالتزامهم جانب الدفاع ، وعدم لجوئهم إلى الهجوم ،وقد شجع هذا الموقف القوات المشتركة على الإسراع بالهجوم ، وإحـكام الحصار حول الجزيرة .

وبعد أيام قليلة من فرض الحصار قامت السفن البريطانية بإنزال ثلاثة آلاف جندى إيرانى إلى أرض الجزيرة ، فقام هؤلاء الجنود بالإستيلاء على المدينة بدون مقاومة تذكر ، وذلك لأن القوات البرتغالية كانت قد تخلت عن المدينة واحتمت داخل القلعة التى احتدم القتال حولها ، حيث حرصت القوات الإيرانية على تحطيم أسوارها ، بينما ركزت البحرية الإنجليزية على إغراق السفن البرتغالية ، وقد نجحت فى إغراق عدد منها ، وكان من بين

---

(١) زندگانى شاه عباس اول ، حـ ٤ ، ص : ٢٢٢

السفن التى أغرقت سفينة أمير البحر البرتغالى فى منطقة الخليج والتى كانت تعرف باسم (سان پدرو)[١].

وأمام وطأة الحصار وشدته حاولت القوات البرتغالية اللجوء إلى الحيلة والدهاء، فطلبت من القوات الايرانية عقد صلح بين الطرفين فى مقابل جزية وغرامة تدفعهما تلك القوات إلى حاكم فارس إمامقليخان، ولكنه رفض هذا العرض، فلجأت القوات البرتغالية إلى محاولة استمالة القوات الانجليزية بحجة وحدة الدين المسيحى بينهما، ولكن مندوبى شركة الهند الشرقية الإنجليزية المتطلعين إلى إنهاء الوجود البرتغالى فى المنطقة، رفضوا التصالح معهم[٢]. وكان الهدف الأساسى الذى تهدف إليه القوات البرتغالية من دعوة الصلح هذه، كسب الوقت وعقد هدنة حتى تصلهم الإمدادات العسكرية من مركزهم الرئيسى فى ميناء جوا الهندى.

بعد ذلك أحكم الايرانيون والبحرية الإنجليزية حصارهم لقلعة هرمز وحطموا الكثير من أسوارها، واستولوا على بعض أبراجها، كما منعوا عنهم كل إمداد غذائى مما أشاع اليأس فى نفوس البرتغاليين، فطلبوا التسليم، وذلك فى التاسع من جمادى الآخرة عام ١٠٣١هـ (٢١ من ابريل عام ١٦٢٢م)، بعد أن خربت مدينة هرمز، تلك المدينة التى كانت تفوق فى ذلك الوقت لندن وامستردام معا، وأصبحت خرابا يبابا[٣]. وبعد اتمام السيطرة على الجزيرة، قامت البحرية الإنجليزية بنقل ثلاثة آلاف برتغالى كانوا بالجزيرة إلى مسقط وموانى ساحل عمان، وهكذا انتهى الوجود البرتغالى فى جزيرة هرمز بعد أن استمر أكثر من قرن من الزمان.

---

(١) تاريخ روابط ايران وأوربا در دورهٔ صفويه، ص: ٨٢

(٢) المرجع السابق، ص: ٨٣

(٣) نهضة الأعيان... ص: ١٣

أما عن الغنائم العسكرية التى غنمتها القوات المشتركة فتتمثل فى خمسين مدفعا ثقيلا ، وأربعة مدافع صغيرة ، وخمسة عشر مدفعا خفيفا ، ومائة وخمسين عربة مدفع وطبقا للاتفاقية المعقودة بين الطرفين ، تم تقسيم الغنائم مناصفة بينهما ، ولكن الشركة الإنجليزية قامت ببيع نصيبها من هـذه الغنائم العسكرية بأسعار رمزية إلى إيران (١) .

ولاشك أن سقوط جزيرة هرمز كان ضربة قاصمة أصابت الوجود البرتغالى فى منطقة الخليج فقد كانت هذه الجزيرة أكبر تجمع لهم بالمنطقة بعد فقدهم البحرين عام ١٠١٠ هـ وكمبرون عام ١٠٢٢ هـ ، وقشم فى ربيع الأول من عام ١٠٣١ هـ ، كما أن سقوط هذه الجزيرة أنهى حكم سلسلة ملوكها الذين حكموا الجزيرة عدة قرون وكانوا يتمتعون بنوع من الحكم الذاتى ، فقد تم إرسال آخر حكامها ويدعى محمود شاه أسيرا إلى إيران (٢) وأصبح الإشراف على الجزيرة شركة بين إيران والإنجليز .

ويمكن إجمال أسباب هزيمة القوات البرتغالية فيما أورده دون جارسيا فى سفره وهو يعلق على تلك الأحداث ، حيث قال : « إن تصميم البرتغاليين على محاربة إيران كان أمرا لا يتسم بالتعقل ، وذلك لأن إيران فى ذلك الوقت كانت غاية فى القوة ، ومن ناحية أخرى فإن الإنجليز سيساعدونهم ، أضف إلى ذلك أن البرتغاليين لم يكن لديهم قوات إضافية كبيرة فى هذه المنطقة ، كما لم يكن لهم إلا عدد محدود من الجنود فى الهند ، وعلى هذا فإن هزيمتهم كانت أمرا حتميا (٣) .

---

(١) قسمتى از ماجراى خليج فارس ، ص ٢٥ (شمارهٔ چهارم) .

(٢) المرجع السابق ، ونفس الصفحة

(٣) سفر نامه دون جارسيا ، نقلا عن إيران در زمان صفويه ، ص: ١٣٢

ومما لاشك فيه ، فإن مشاركة البحرية الإنجليزية فى إخراج البرتغاليين من جزيرة هرمز، كانت مبعث افتخار للبريطانيين ، فقد قال بيرسى سايكس الإنجليزى الجنسية :

« كان سقوط هرمز بمساعدة الإنجليز أمرا ذا أهمية قصوى للانجليز ، حيث أعتبره أهم حدث قام به الإنجليز منذ ظهورهم فى الشرق وقد أدى هذا بالتأكيد إلى تحسين وضعهم ومركزهم إلى أقصى حد ممكن ، وذلك عندما وصلت أنباء هذا الانتصار إلى الهند ، كما أنهم حظوا دون أدنى ريب بالثقة فى إيران ، إذ لا يجرؤ فرد فى الجيش الإيرانى على تجاهل الدور الذى قام به الإنجليز فى هذا الشأن ، ومما لاشك فيه أن الشاه عباس كان متأكدا تمام التأكد من عدم مقدرته على استرداد هرمز دون المساعدة الإنجليزية[1] .

وهكذا استطاعت إيران أن تخرج القوات البرتغالية من جزيرة هرمز ، ولكنها لم تقم وحدها بهذا الإجراء بل شاركتها فى ذلك قوات بريطانية تابعة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية .

وهكذا بدأ الوجود الإنجليزى يظهر فى منطقة الخليج العربى ، فى صورة شركة تجارية أولا ، ثم تحول بعد ذلك إلى وجود عسكرى يفرض سلطانه على كل دول الخليج، يستنزف خيراتها ويعذب شعوبها طوال حقبة طويلة من الزمن ، كما شجع مقدم الإنجليز إلى المنطقة ،على مقدم الهولنديين من بعدهم، مما جعل منطقة الخليج تعيش فترة الصراع بين الدول البحرية الثلاث وهى البرتغال وانجلترا وهولندا ، وقد ظهر أثر هذا الصراع فى الفترة الأخيرة من حكم الشاه عباس الأول ، وخلال فترات حكم من تبعوه من البيت الصفوى .

---

(١) History of persia vol II. p.194

— ٥ —

العلاقات بين إيران والبرتغاليين بعد الاستيلاء على هرمز :

بعد أن سيطرت القوات الإيرانية الإنجليزية على جزيرة هرمز، حرص الشاه عباس على إهمال تلك الجزيرة ونقل النشاط التجارى الذى كانت تتمتع به إلى ميناء بندر عباس الذى بنى على مقربة من ميناء كمبرون، ولعل الشاه عباس لجأ إلى ذلك لأنه توقع أن تحاول القوات البرتغالية استعادة الجزيرة، وأمام هذا الإهمال المتعمد من الشاه عباس، بدأت جزيرة هرمز تفقد أهميتها كمركز تجارى نشط، وكمكان يزخر بالثروة والشهرة راج عنه فى وقت من الأوقات ذلك المثل القائل : إذا كان العالم خاتما فهرمز فصه[1].

وبدأ بندر عباس يتخذ دوره كأكبر ميناء إيرانى مطل على الخليج العربى ومازال محتفظا بهذا الدور حتى اليوم.

أما عن البرتغاليين فقد حاولوا تدعيم مركزهم فى مسقط، فأقدموا على بناء مركز تجارى كبير هناك، كما شيدوا عـــددا من القلاع الحصينة، ولكنهم مع ذلك كانوا مهددين باستمرار الطعن من العرب العمانيين الذين كانوا ينظرون إليهم نظرة غيظ واشمئزاز[2]؛ لذا نجدهم يحاولون استعادة هرمز أكثر من مرة، ففى عام ١٠٣٢ هـ (١٦٢٣ م) أرسل نائب السلطنة البرتغالى فى جوا بالهند إمدادات عسكرية إلى القوات المرابطة فى مسقط على أمل استعادة جزيرة هرمز، ولكن الإيرانيين كانوا قد أعدوا عدتهم لصد

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه : هامش ص : ٣٤٢

(٢) نهضة الأعيان ... ص : ١٣ - ١٤

هذه الحملة ، كما شاركت القوات البحرية الإنجليزية وحلفاؤها من الهولنديين في التصدى لهذه القوات البرتغالية ، مما جعل هذه الحملة تفشل فى تحقيق أهدافها(١) .

وفى جمادى الأولى من عام ١٠٣٤ هـ (١٦٢٥ م) حاول البرتغاليون مرة أخرى محاصرة هرمز على استعداداتها ، فحدثت معركة حامية بين القوات البرتغالية من جهة ، والقوات الإنجليزية والهولندية من جهة أخرى ، ولم يستطع أحد من الطرفين إحراز نصر مؤكد ، مما اضطر القائد البرتغالى بفك الحصار وعودته بسفنه صوب مركزهم الرئيسى فى جوا بالهند(٢) .

وأمام فشل جميع المحاولات البرتغالية لاسترداد هرمز ، آثر البرتغاليون ممالأة الشاه عباس وخطب وده . وذلك للمشاركة فى حركة التجارة بمنطقة الخليج ، بعد أن زاد نشاط منافسيهم من الإنجليز وحلفائهم الهولنديين . فعرضوا على إيران الدخول فى معاهدة صلح يتعهدون بموجبها بعدم التعرض لما كان تحت أيديهم من الأراضى الإيرانية ، فى مقابل السماح لهم بإنشاء قلعة ومركز تجارى فى كنك فى شمال شرقى ميناء لنـكه على ساحل لرستان وأن يسمح لهم بصيد اللؤلؤ فى سواحل البحرين ، كما تعفى البضائع البرتغالية التى ترد إلى ميناء كنك من الضرائب ، وكذلك اقتسام جمـارك هذا الميناء(٣) .

فوافق الشاه عباس على مطالبهم ، ويقال إنه كان يعطيهم سنويا ، ما

(١) قسمتى از ما جراى خليج فارس (شماره چهارم) ص : ٢٨

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) تاريخ روابط إيران وأوربا در دورهٔ صفويه ، ص : ٨٨

يقابل خمسة وعشرين ألف جنيه من عائدات ميناء كنك سنويا [1].

ولعل موافقة الشاه عباس على هذه المطالب ترجع - كما يقول معظم المؤرخين - إلى عدم رغبته فى قطع صلاته بالبرتغاليين قطعا كاملا، وذلك على أمل الاستعانة بهم إذا حدث بينه وبين الإنجليز والهولنديين أى خلاف، فيلجأ إليهم كما لجأ إلى الانجليز من قبل وساعدوه فى إخراجهم من هرمز [2].

وبعد توقيع هذه المعاهدة سارت العلاقات فى مسارها الطبيعى، ولم تحدث حروب أو مناوشات بين الجانبين طوال الفترة الباقية من حكم الشاه عباس وحتى انتهت عام ١٣٠٨ هـ (١٦٢٩ م).

---

(١) ايران در زمان صفويه، ص : ١٤٠

(٢) قسمت از ما جراى خليج فارس، (شمارهٔ چهارم)، ص : ٢٨، وزندگانى شاه عباس اول، جـ : ٤، ص : ٢٣٠، وغيرهما

ثانيا : علاقات الشاه عباس مع بريطانيا

— ١ —

بعثات الأخوين شرلى :

أولا : مقدمهما إلى إيران :

بعد أن حقق الشاه عباس الاستقرار، فى داخل ايران، وأحرز انتصارات حاسمة على المعسكر السنى الأوزبكى فى خراسان وماوراء النهر، بدأت الوفود الأوربية تفد إلى إيران على أمل التعاون مع هذا الحاكم الجديد الذى أثبت كفاءة فى الإدارة والحرب.

ومن بين هذه الوفود والبعثات الأوربية بعثة بريطانية وفدت عام ١٠٠٧ هـ (١٥٩٩ م) وكانت مكونة من خمسة وعشرين بريطانيا برئاسة الأخوين أنتونى وروبرت شرلى [١]، وذكر البعض بأن هذه البعثة جاءت بتكليف من الكونت اسكس الشخصية البريطانية الشهيرة فى ذلك الوقت [٢]. وقيل إن التسامح الدينى الذى كان يبديه الشاه عباس تجاه المسيحيين كان من العوامل المشجعة على وصول هذه البعثة [٣] التى جاءت لتحقق هدفين أساسين هما [٤] :

---

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه، ص : ٣٢٠

(٢) تاريخ روابط إيران وأوربا در دوره صفويه : ص : ١١٨

(٣) إيران در زمان صفويه، ص : ١٩٤

(٤) زندگانى شاه عباس اول، جـ ٤، ص : ٢٣٩

١ — دعوة الشاه عباس للاتحاد مع ملوك أوربا ضد العدو المشترك وهو الدولة العثمانية .

٢ — محاولة الحصول على امتيازات وتسهيلات تجارية للتجار البريطانيين الراغبين فى التعامل التجارى مع إيران .

حدث أن وصلت البعثة البريطانية إلى قزوين والشاه عباس موجود فى خراسان . وعندما بلغه خبر مقدمهم أصدر أوامره إلى عماله بقزوين بأن يحسنوا وفادتهم ، ويبالغوا فى إكرامهم حتى يعود الشاه إلى قزوين . وبعد أن أنهى الشاه عباس مهمته فى خراسان عاد الى قزوين ، فوجد جميع أعضاء البعثة البريطانية يقفون على مشارف المدينة مع مستقبليه من كبار رجال الدولة الصفوية ، فصافحهم الشاه وصحبهم معه إلى داخل قزوين ، وأنعم عليهم بإنعامات كثيرة منها مائة وأربعون من الخيل ، ومائة بغل ، ومائة جمل ومبلغ عظيم من المال(١) ثم صحب أفراد البعثة البريطانية معه إلى العاصمة أصفهان ، حيث قضوا فى ضيافة الشاه ستة أشهر .

ونظراً لأن معظم أفراد البعثة كانوا من الجنود والخبراء العسكريين فقد أمر الشاه عباس بالإفادة من خبرتهم فى تدريب الجيش الإيرانى ، وإعادة تنظيمه حسب التنظيمات الأوربية الحديثة ، كما أشرف بعضهم على إقامة مصانع للأسلحة النارية فى أصفهان وهذه المصانع هى التى أمدت الجيش الإيرانى بالمدافع والبنادق التى مكنته من منازلة الجيش العثمانى فى آذربايجان بعد ذلك .

وفى أثناء مناقشات الشاه عباس مع أعضاء البعثة البريطانية حول طرق

---

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٢٠

التعاون بينه وبين ملوك أوربا ، اتفق الرأى على إرسال سفير من قبله يطوف أوربا ، ويلتقى بملوكها ، ويوقع معهم معاهدات صداقة وتعاون مشترك لمحاربة الدولة العثمانية ، كما اتفق على أن تضم البعثة الإيرانية إلى أوربا أنتونى شرلى وبعض رفاقه .

ثانياً : بعثة أنتونى شرلى الى أوربا[1] :

خرجت البعثة من أصفهان عام ١٠٠٧ هـ (أى فى نفس العام الذى وفد فيه أنتونى إلى إيران ورأس البعثة كل من حسينعلى بيك بيات وأنتونى شرلى وسلكت طريق روسيا ووسط أوربا حتى وصلت إلى روما ، وهناك حدث خلاف بين أنتونى وحسينعلى أدى إلى انشقاق أنتونى ورفاقه الإنجليز عن البعثة الإيرانية ، واختلفت الآراء حول سبب انشقاق أنتونى ورفاقه ، إذ ذكر البعض بأن أحد رفاقه سرق بعض رسائل الشاه عباس إلى ملوك أوربا ، وسلمها إلى الوزير الأعظم العثمانى ، وعندما شعر أنتونى بأنه فى خطر نتيجة هذه الخيانة ، خشى على نفسه من المعاقبة ، وهرب من روما إلى فينيسيا ثم التحق بعد فترة بخدمة ملك أسبانيا[2] . ولكن أروج بيك أحد رفاق الرحلة ، وأحد الأربعة الذين أعلنوا دخولهم فى الدين المسيحى بمجرد وصول البعثة إلى أسبانيا ، ذكر فى سفره بأن أنتونى باع لبعض التجار الإنجليز فى ميناء البلطيق جزءا من الهدايا التى كان الشاه عباس قد أرسلها مع البعثة لتقدمها هدية إلى ملوك أوربا فكان هذا التصرف من بين الأسباب التى أدت إلى الخلاف بينه وبين حسينعلى بيك بيات[3] .

---

(١) سبق الحديث عنها بتفصيل أكبر أثناء الحديث عن علاقات عباس مع أسبانيا والبرتغال .

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٠٥

(٣) المرجع السابق ، ص : ١٠٦

قصارى القول أن صلة أنتونى شرلى بإيران قد انقطعت بعد هذه الحادثة، كما أثر ذلك على موقف أخيه روبرت شرلى الذى بقى فى إيران مع خمسة من رفاق البعثة البريطانية ، فبدأ عباس يعامله بجفوة ، مما جعله يبذل قصارى جهده ليستعيد ثقة الشاه عباس به ، فشارك فى تدريب الجيش الصفوى ، وفى المعارك التى دارت بين إيران والعثمانيين عامى ١٠١٣ — ١٠١٤ هـ تولى روبرت رئاسة إحدى فرق الجيش الصفوى ، وقاتل بحماس شديد ، حتى أنه جرح فى هذه المعارك ثلاثة جروح (١) ، مما جعل الشاه عباس يثق فيه من جديد ويكلفه بمهمة جديدة فى أوربا .

ثالثاً : بعثة روبرت شرلى الأولى الى أوربا (٢) :

غادر روبرت إيران فى عام ١٠١٦ هـ وطاف ببعض بلاد أوربا ، ثم استقر فى أسبانيا حتى عام ١٠٢٠ هـ ، وبعد ذلك توجه إلى بريطانيا ، وقابل جيمس الأول ملك انجلترا ، وسلمه رسالة من الشاه عباس الأول ، جاء فيها :

إن روبرت شرلى إنجليزى الجنسية ، ولكنه محل اعتبارنا واهتمامنا ، ويعمل فى خدمتنا منذ فترة ، وقد أرسلته سفيرا من قبلنا إليكم ، كما أنه سيذهب لمقابلة سائر الملوك المسيحيين (٣) .

بعد ذلك تحدث مع ملك انجلترا فى رغبة الشاه عباس فى عقد معاهدة صداقة بينهما ، وتمثلت بنود هذه المعاهدة المقترحة فيما يلى (٤) :

(١) History of Persia, vol II, p. 181.

(٢) سبق ذكر بعض التفاصيل عن بعثتى روبرت إلى أوربا أثناء الحديث عن العلاقات مع أسبانيا والبرتغال

(٣) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٩٥ ، ١٩٦

(٤) زندگانى شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص : ٢٤٥ ، ٢٤٦

١ ـ تقديم تسهيلات تجارية للرعايا البريطانيين .

٢ ـ السماح بإنشاء مركزين تجاريين بريطانيين فى ميناءين من موانى إيران المطلة على الخليج .

٣ ـ الموافقة على إقامة مبعوثين سياسيين انجليزيين فى هذين الميناءين .

٤ ـ رغبة الشاه عباس فى شراء سفن إنجليزية ، بحيث تحمل مفككة إلى موانى إيران ، ويتم تركيبها هناك .

٥ ـ استعداد الشاه عباس لقصر بيع الحرير الإيرانى على التجار الإنجليز كما يقصر نقله على السفن الإنجليزية لنقله إلى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح دون نقله عبر الأراضى العثمانية .

٦ — الرغبة فى عقد معاهدة عسكرية مع ملك انجلترا .

بعد ذلك أمر ملك انجلترا بتكوين لجنة رباعية من كبار موظفى شركة الهند الشرقية لدراسة هذه المقترحات ، وتقديم تقرير عنها ، ولكن على الرغم من كل هذه التسهيلات والعروض السخية التى قدمها الشاه عباس فى رسالته ، فإن التجار البريطانيين رفضوا الموافقة عليها بحجة أن الطريق إلى إيران طويل ، والمنافع غير محققة ، كما أن التجار البريطانيين الذين يتعاملون مع الدولة العثمانية غير راضين عن توقيع مثل هذه المعاهدة التى يقترحها الشاه عباس خوفا من أن تؤثر على علاقاتهم التجارية بولايات الدولة العثمانية .

وأمام هذا الرفض اضطر روبرت شرلى إلى العودة صوب إيران دون أن يظفر بتحقيق الهدف الأساسى الذى سافر من أجله إلى إنجلترا ، وأخيراً وصل إلى أصفهان فى عام ١٠٢٤ هـ (١٦١٥ م) .

رابعا : بعثة شرلى الثانية إلى أوربا .

عاد روبرت شرلى إلى إيران عام ١٠٢٤هـ ولم يمكث بها كثيراً ، حيث كلفه الشاه عباس بالسفر مرة ثانية إلى أوربا . فغادر إيران فى نفس عام ١٠٢٤هـ ، ومكث فى أسبانيا حتى نهاية عام ١٠٣١ هـ ، ثم توجه إلى انجلترا فى أوائل عام ١٠٣٢هـ (١٦٢٣م) ، حيث تباحث فى عقد معاهدة مع جيمس الأول ، على أن تتضمن المعاهدة هذين البندين(١) .

١ — أن تتعهد انجلترا بأن تكون جميع سفنها العاملة فى منطقة الخليج فى مساعدة الإيرانيين ضد البرتغاليين المرابطين فى موانى الخليج ، بشرط أن تتحمل الخزانة الإيرانية تكاليف هذه السفن .

٢ — أن تتعهد إيران بتقديم خمسة وعشرين ألف جندى إيرانى للعمل على هذه السفن على أن يكونوا تحت إمرة الحكومة البريطانية .

وقبل أن توقع هذه المعاهدة ، توفى جيمس الأول ، وتولى مكانه تشارل الأول الذى ماطل فى توقيعها ، حتى وفد إلى بريطانيا نقد عليبيك السفير الإيرانى موفدا من قبل الشاه عباس ليساعد روبرت شرلى فى مهمته ، ويحاول إقناع التجار البريطانيين المعارضين للتعاون مع إيران على حساب التبادل التجارى مع العثمانيين ، ولكن نقد عليبيك بدلا من تسهيل مهمة شرلى ، فقد طعن فى صحة الرسائل التى حملها روبرت ، وادعى أنه ليس موفدا من قبل الشاه عباس ، وكان ذلك بتحريض من رجال شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، مما حدا بملك انجلترا أن يصدر أوامره بوقف المفاوضات ، وتكليف مبعوث بريطانى بأن يصحب كلا من روبرت شرلى ونقد عليبيك ويتوجهوا صوب بلاط الشاه

---

(١) تاريخ روابط إيران وأوربا در دورة صفويه ، ص : ١٣٧ - ١٤٠

عباس للتأكد من صحة الرسائل التي قدمها إليه روبرت شرلي ، والتحقق من صدق الادعاءات التي أثارها نقد عليبيك[١] .

وفي طريق العودة إلى إيران عن طريق رأس الرجاء الصالح ، أقدم نقد عليبيك على الانتحار بتناول السم في جنوب أفريقيا خوفا من أن يسفك الشاه عباس دمه لما فعله مع روبرت شرلي ، ثم واصلت السفينة رحلتها إلى إيران حاملة روبرت شرلي ومبعوث ملك انجلترا وهو سير دور مر كوتن . وقد وصلا إلى ايران في ربيع الثاني عام ١٠٣٦ هـ (٩ يناير ١٦٢٧م) .

وبعد فترة وجيزة من عودة روبوت إلى إيران اجتهد بعض رجال البلاط الإيراني في تشويه صورته لدى الشاه عباس ، الذي غضب عليه وأمر بإخراجه من إيران ، مما أشعر روبرت بالمرارة والألم ، فدهمه المرض في قزوين ، وتوفي في شهر شوال من عام ١٠٣٦ هـ ، ثم لحق به بعد شهر واحد سير دور مركوتن ، ودفن كلاهما بمدينة قزوين[٢] . وفي رأيي أن تغير الشاه عباس على روبوت شرلي يرجع إلى جانب الوشاية ، إلى أن الشاه عباس قد استنفد أغراضه من استخدام روبرت شرلي كمبعوث خاص له في أوربا ، إذ كان هدفه الأكبر من إيفاده إلى أوربا إثارة الملوك المسيحيين ضد الدولة العثمانية وحثهم على التعاون المشترك مع الشاه عباس لمحاربة ذلك العدو المشترك، والآن وقد تم عقد صلح بين الشاه عباس والعثمانيين وهدأت المعارك بين الجانبين ، فلم يعد الشاه في احتياج لمجهودت روبرت بعد ذلك ، ولعل تغيره عليه راجع كذلك إلى تحسن صلات الشاه عباس التجارية والسياسية بشركة الهند

---

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص . ٢٦١ وما بعدها

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٤٩

الشرقية الإنجليزية ، والتى كان رؤساؤها ومندوبوها لايستريحون لروبرت شرلى ، ولايحبون التعامل معه ، بل حاولوا فى كل مرة سافر فيها إلى إنجلترا إفساد مهمته لدى البلاط البريطانى ، فأراد الشاه عباس التخلص منه ارضاء لهم ، وتوثيقا لعلاقاته التجارية والسياسية معهم .

وهكذا انتهى دور روبرت شرلى فى الحياة ، دون أن يحقق التعاون الكامل الذى كان ينشده الشاه عباس مع ملوك أوربا المسيحيين ، فلم يحدث أن استجاب أى ملك أوربى تباحث معه روبرت شرلى ، وأرسل جيوشه تحارب مع الجيش الصفوى ضد الجيوش العثمانية ، وإذا كان روبرت شرلى قد فشل فى هذه المهمة ، كما فشل أخوه أنتونى من قبل فإنهما ورفاقهما قدموا خدمة جليلة للشاه عباس ، وهى تطوير النظم العسكرية فى الجيش الصفوى ، وتسليحه بالأسلحة النارية التى ساعدته على الصمود أمام الجيوش العثمانية ثم الانتصار عليها .

. . .

— ٢ —

العلاقات بين الشاه عباس وشركة الهند الشرقية الإنجليزية :

تم توقيع عقد تأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى ١٤ من جمادى الآخرة عام ١٠٠٩ هـ (٣١ من ديسمبر عام ١٦٠٠) [١] ، ومنذ تأسيسها وحتى عام ١٠٢٤ هـ ونشاطها قاصر على تدعيم الصلات التجارية البريطانية مع الهند دون غيرها من البلاد المطلة على الخليج الهندى ، ولكن حدث فى

---

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٤٦

عام ١٠٢٤ هـ تكدس فى البضائع الإنجليزية بميناء سورات ، وهنا بدأت الحاجة تدعو إلى البحث عن أسواق جديدة يتم فيها تصريف هذه البضائع المكدسة ، وبخاصة الأصواف التى لا تلائم جو الهند الحار .

أولا : بعثة ريتشارد استيل :

وبينما كانت الشركة الإنجليزية منهمكة فى البحث عن أسواق جديدة لتصريف بضائعها ، وفد إلى سورات شاب إنجليزى يدعى ريتشارد استيل ، قدم لتوه من إيران ، وأدرك مدى احتياج الإيرانيين للأصواف نظرا لشدة البرودة هناك ، فعرض على مجلس إدارة الشركة الإنجليزية فكرة بيع الصوف الإنجليزى المكدس إلى الإيرانيين ، فسر الجميع لهذا الرأى ، وعلى الفور أصدر رئيس الشركة أوامره بأن يتوجه ريتشارد استيل ومعه جون كروثر لتفقد سوق إيران ، ومعرفة مدى إحتياجه للبضائع الإنجليزية ، ومحاولة مقابلة الشاه عباس ، والحصول منه على تسهيلات تجارية للشركة الانجليزية(١) .

وهكذا كانت بعثة ريتشارد التى وصلت إلى ايران عام ١٠٢٤/١٠٢٥هـ (١٦١٦م) أول محاولة انجليزية جادة للتجارة مع إيران(٢) ، وقد أحسن الشاه عباس استقبال ريتشارد ورفاقه وبالغ فى إكرامهما ، وتفاوض معهما بشأن التبادل التجارى بين الشركة الإنجليزية وإيران ، وعلى الفور أصدر أوامره إلى جميع عماله ورعاياه بأن يحسنوا وفادة التجار الإنجليز ، كما سمح للسفن الإنجليزية بالقدوم إلى الموانى الإيرانية الجنوبية ، لشراء الحرير الإيرانى وبيع الصوف الإنجليزى ، وأعطى المندوبين الإنجليزيين الحق فى تفقد موانى إيران

---

(١) زندگانى شاه عباس اول ، جـ ٤ ، ص : ٢٥٦

(2) History of Persia, Vol II P. 189

المطلة على الخليج واختيار واحد منها لترسو فيه السفن الإنجليزية ، فوقع اختيارهما على ميناء جاسك الذى يبعد تسعين كيلو مترا عن جزيرة هرمز ، لتكون سفنهم بعيدة عن تطاول القوات البرتغالية(١) .

ومما يدعو إلى الدهشة أن روبرت شرلى البريطانى الجنسية ، عاد من رحلته الأولى فى أوربا والمندوبان البريطانيان موجودان فى أصفهان ، وإذا به لايحسن لقاءهما ، بل عاملهما بشكل تجاهل ، ولعل ذلك راجع الى موقف مندوبى الشركة من عروضه فى انجلترا عندما زارها فى عام ١٠٢٠ هـ ، ولكن على الرغم من مسلك روبرت معهما ، فقد أصر الشاه عباس على التعامل مع الشركة الإنجليزية ، ومنحها الكثير من التسهيلات(٢) .

ثانيا : بعثة ادوارد كنوك :

ماأن عاد ريتشارد استيل وجون كروثر إلى سورات حيث يوجد مركز الشركة الإنجليزية ، ونقلا إلى الجميع ترحيب الشاه عباس بالاتجار مع الإنجليز ، حتى سارعت الشركة بتجهيز البضائع التى ستصدرها إلى إيران ، وخرجت القافلة البحرية برئاسة ادوارد كنوك ، ورست السفن الإنجليزية فى ميناء جاسك فى أوائل عام ١٠٢٦هـ (١٦١٧م) ، وسافر أعضاء البعثة بعد ذلك إلى أصفهان ومنها إلى بلاد الكرج حيث رحب الشاه عباس بمقدمهم(٣) ، وسمح لهم بإقامة دور إنجليزية فى كل من أصفهان وشيراز ، كما اتفق ادوارد كنوك مع الشاه عباس على أن تشترى الشركة جزءاً من

---

(١) تاريخ روابط إيران وأوربا در دورة صفويه ، قسمت اول ، ص : ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص : ١٣٢

(٣) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٤٧

الحرير الإيرانى؛ بشرط أن تدفع ثلث الثمن نقدا ، والباقى تتم مقايضته ببضائع إنجليزية تصدرها الشركة إلى إيران ، كما سمح لهم الشاه عباس بالتجوال فى جميع أرجاء إيران ، والاتجار مع جميع مدنها لا مع الموانى الجنوبية فقط كما كان الأمر بالنسبة للاتفاق السابق مع ريتشارد استيل ، أضف إلى ذلك أنه سمح لأعضاء البعثة بالاحتفاظ بأسلحتهم حتى يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم إذا دعت الضرورة لذلك(١) .

وبعد أن كللت مساعى ادوارد كنوك بالنجاح فى أصفهان توجه صوب جزيرة هرمز على أمل الحصول على بعض التسهيلات للسفن البريطانية والسماح لها بدخول الخليج ، ولكنه توفى هناك(٢) ، لذا قال البعض بأن البرتغاليين دسوا له السم لكى يتخلصوا منه ، نتيجة لضيقهم الشديد من التقارب الإيرانى الإنجليزى .

ثالثا : بعثة توماس باركر :

بعد وفاة إدوارد كنوك تم تعيين توماس باركر مندوبا عن الشركة الإنجليزية فى إيران فحضر إلى إيران فى عام ١٠٢٧هـ ، والتقى بالشاه عباس ، وتباحث معه بشأن شراء المزيد من الحرير الإيرانى مقابل بيع الملابس الصوفية الإنجليزية فى إيران ، فوافق الشاه عباس بشرط أن تشترى الشركة الإنجليزية ستمائة حمل من الحرير الإيرانى ، بنفس الشروط التى سبق الاتفاق عليها مع ادوارد كنوك .

وفى أثناء سير المفاوضات وفد إلى ايران أحد مندوبى الشركة ويدعى

---

(١) زندگانى شاه عباس ، جـ ٤ ، ص : ٢٥٧

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص : ٢٠٢

جيلز هويس[١] ، وتشاور مع توماس باركر فى شروط الشاه عباس ، ووافقا فى النهاية على قبولها ، ثم طلبا من الشاه احتكار إنتاج ايران كلها من الحرير. وهنا ثارت ثائرة التجار الأرمن فى جلفا بأصفهان، لأن موافقة الشاه على بيع الحرير كله إلى الشركة الإنجليزية ، سيحرمهم من المشاركة فى هذه التجارة التى تدر عليهم أرباحا هائلة ، مما اضطر الشاه لعرض الحرير الإيرانى فى مزاد علنى ؛ فامتنع مندوب أسبانيا و كذلك مندوب الشركة الإنجليزية عن دخول المزاد، وفى نفس الوقت عرض الأرمن سعرا يفوق سعره فى العام الماضى فحظوا بالصفقة واشتروا الحرير الإيرانى كله فى عام ١٠٢٨هـ[٢] ، وإن ذكر البعض بأنه على الرغم من عرض الأرمن السخى ، فقد اضطر الشاه عباس إلى أن يبيعه بأقل من السعر المقدم من الأرمن ، للشركة الإنجليزية خطبا لودها ، وأملا فى مساعدتها لقواته فى طرد القوات البرتغالية من جزيرة هرمز[٣].

رابعا : المشاركة فى طرد القوات البرتغالية من جزيرة هرمز.

نتيجة للتقارب بين الشاه عباس والشركة الإنجليزية ، ومحاباتها فى عقد صفقات الحرير الإيرانى، بدأت العلاقات الإيرانية البرتغالية تتسم بالسوء والتوتر، مما أدى إلى التفاوض بين إيران والشركة الإنجليزية للتخلص من الوجود البرتغالى فى منطقة الخليج العربى ، وانتهى الأمر - كما سبق أن فصلنا ذلك - باشتعال المعارك حول جزيرتى قشم وهرمز ، ومما يلفت النظر أن الشركة الإنجليزية قد اتخذت قرار المشاركة فى الحرب دون إذن مسبق من ملك انجلترا وحكومتها مما جعل الحكومة البريطانية تعقد محاكمة لرئيس الشركة الذى

---

(١) زندگانى شاه عباس اول ، جـ ٤ ، ص : ٢٦٥

(٢) المرجع السابق ، ص : ٢٦٦

(٣) إيران در زمان صفويه ، ص : ٢٠٣ ، ٢٠٤

دافع عن نفسه بأنه اتخذ القرار أملا فى تنمية التجارة البريطانية وتفوقها على المنافسة البرتغالية الأسبانية ، كما أنه اضطر إلى ذلك أمام تهديد إمامقليخان حاكم فارس بحرمان البريطانيين من التعامل التجارى مع إيران ، وعلى الرغم من هذا التبرير فقد أصدرت المحكمة قرارها بإدانة الشركة وتغريمها مبلغ عشرين ألف جنيه استرلينى حتى لا تقدم على مثل هذا العمل مرة أخرى دون إذن مسبق من الملك والحكومة البريطانية (١).

ولعل الحكومة البريطانية لجأت إلى هذه المحاكمة الصورية والغرامة حتى تسترضى ملك أسبانيا الذى كان على وفاق فى ذلك الوقت مع ملك انجلترا ، وحتى تتظاهر بأنها غير راضية عن مسلك الشركة ولا تؤيده ، على الرغم من المكاسب العظيمة التى تحققت لبريطانيا على الأمد الطويل من طرد القوات البرتغالية من جزيرة هرمز ، ويمكن إجمال هذه المكاسب فى النقاط التالية (٢) :

١ — لم يكن الإنجليز يقدرون قبل ذلك على مواجهة البرتغاليين فى الخليج مطلقا .

٢ — كانت المصالح الانجليزية والمؤسسات البريطانية فى الخليج عرضة دائما لغزوات القوات البرتغالية ، كما لم يكن فى استطاعة شركة الهند الشرقية الإنجليزية منافسة المركز النشط للبرتغال وأسبانيا فى هرمز .

٣ — الحصول على امتيازات وتسهيلات تجارية كبيرة من الشاه عباس الأول .

———

(١) ايران در زمان صفويه ، ص: ٢٠٥

(٢) انقراض سلسلهٔ صفويه ... : ٤١٣

٤ — وجود بعض السفن الحربية التابعة للشركة الإنجليزية بصفة منتظمة فى مياه الخليج ، لـكى ترد بسرعة على أى حملة انتقامية تقوم بها القوات البرتغالية .

وهـكذا أصبح العلم البريطانى يرفرف فوق سطح مياه الخليج العربى ، وبدأت السفن الإنجليزية تبحر وسطه دون إذن مسبق من القوات البرتغالية التى سيطرت على مدخل الخليج وأهم موانيه أكثر من قرن من الزمان ، كما أصبحت الشركة الإنجليزية بعد ذلك لا تجد منافسة حقيقية فى منطقة الخليج إلا من حلفائهم الهولنديين الذين آثروا بعد فترة من المنافسة ، الاتحاد مع الإنجليز للوقوف جبهة واحدة أمام القوات البرتغالية ، والتى تمثل العدو المشترك والمنافس للوجودين البريطانى والهولندى فى منطقة المحيط الهندى . وقد حرصت الشركة الإنجليزية والحكومة البريطانية على التواجد الدائم بعد ذلك فى منطقة الخليج ، وكثيرا مادعمت هذا الوجود التجارى بقوات عسكرية مهدت لإنجلترا إحكام السيطرة على كثير من موانى الخليج، وإعلان تبعيتها للتاج البريطانى مما جعل شعوب منطقة الخليج تعانى كثيراً من ويلات الاستعمار البريطانى الذى وفد الى المنطقة أول الأمر فى صورة نشاط تجارى بتشجيع من الشاه عباس الأول .

* * *

علاقات الشاه عباس مع هولندا

بعد أن تمكن الشاه عباس من طرد البرتغاليين من جزيرة هرمز بمساعدة القوات التابعة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية فى عام ١٠٣١ هـ ، سارعت شركة الهند الشرقية الهولندية المتحالفة مع الشركة الإنجليزية بالظهور فى الخليج بحجة مساندة القوات البريطانية فى صراعهما المشترك مع الوجود البرتغالى بمنطقة المحيط الهندى والخليج العربى[١] ، ولكى تضمن البقاء بالمنطقه استأذنت الشاه عباس فى بناء دار للتجارة الهولندية فى بندر عباس ، فأذن لهم ، وتم تأسيس هذه الدار فى عام ١٠٣٢ هـ أى فى العام التالى لإخراج البرتغاليين من جزيرة هرمز[٢] .

وبعد أن استقرت أقدام الهولنديين فى إيران ، بدأوا يتطلعون للقيام بدور مستقل فى تجارة إيران . فوافقهم الشاه عباس على شراء كمية من الحرير الإيرانى كل عام حرصا منه على إيجاد منافسة بين أكبر عدد من مشتريى الحرير مما يحقق له ولإيران مكاسب كبيرة . لذا لم تمض إلا فترة وجيزة حتى تحولت الآمال العريضة التى كانت تتوقعها الشركة الإنجليزية من وراء الاتجار مع إيران إلى نوع من اليأس ، حيث أصبحت الشركة الهولندية أكبر منافس تجارى للانجليز فى الخليج[٣] .

ولكى تدعم هولندا علاقاتها التجارية مع إيران ، أرسلت إلى إيران وفداً هولنديا فى عام ١٠٣٣ هـ (١٦٢٤م) ونجح الوفد فى عقد اتفاقية مع الشاه عباس يتم

---

(١) زندگانى شاه عباس اول ، حـ ٥ ، ص : ١٧٠

(٢) انقراض سلسلهٔ صفويه ... [لكهارت] ، ص: ٤١٤

(٣) المرجع السابق . نفس الصفحة

بمقتضاها تقديم تسهيلات تجارية للرعايا الهولنديين ، كما نصت بعض بنودها على السماح للهولنديين بإقامة كنائس وأماكن عبادة خاصة بهم ، ومن حقهم مجازاة أى هولندى يعتنق الدين الإسلامى ، بأن يلقوا القبض عليه ويحاكموه ويصادروا أمواله[1] .

ولعل الشاه عباس وقع معهم هذه المعاهدة على أمل أن يساعدوه ضد القوات البرتغالية الموجودة فى مسقط والتى كانت تحاول استعادة جزيرة هرمز؛ لذا نجده يرسل وفداً إيرانياً إلى هولندا ليتفاوض مع ملكها بشأن مطلبين هامين بالنسبة لإيران وهما :[2]

١ ـ قطع الصلات التجارية والسياسية بين هولندا والدولة العثمانية .

٢ ـ مشاركة القوات البحرية التابعة لشركة الهند الشرقية الهولندية للقوات الإيرانية فى طرد القوات البرتغالية من مسقط وعمان .

استقبل ملك هولندا الوفد الإيرانى بترحاب ، ولكنه اعتذر عن تحقيق المطلبين ، وبين لرئيس الوفد تعذر تحقيق المهمة التى أوفد من أجلها ، وعلى الرغم من هذا الرفض ، نجد ملك هولندا يرسل رسالة إلى الشاه عباس يخبره بأنه يرحب بالتعاون المشترك للقضاء على البرتغاليين فى منطقة الخليج ، وأنه سيرسل رسولا من قبله صوب إيران ليتفاوض مع الشاه عباس فى الشروط التى سيتم بمقتضاها القيام بحملة مشتركة ضد البرتغاليين . ولعل ملك هولندا لجأ إلى هذا التمويه حفاظا منه على المصالح التجارية التى تحققت للهولنديين فى إيران ومنطقة الخليج العربى ، وقد أفاد هذا الوعد شركة الهند الشرقية الهولندية فى تدعيم موقفها

---

[١] زندگانى شاه عباس أول ، حـ ٥ ، ص ١٧١ - ١٧٢

[٢] المرجع السابق ، ص : ١٧٥ - ١٧٦

التجارى بإيران ، وزادت من عملياتها التجارية . ومن منافستها للشركة الإنجليزية ، حتى أصبحت هذه الشركة الهولندية على الرغم من قصر المدة التى وفدت فيها إلى إيران، تشرف على النصيب الأكبر من تجارة إيران الخارجية .

طال انتظار الشاه عباس للسفير الهولندى الذى وعد ملك هولندا بإرساله ، مما جعله يشعر بالضيق من الهولنديين ، فأرسل عباس رسولا من قبله إلى البلاط الهولندى ليستفسر عن الأسباب التى منعت السفير الهولندى من القدوم إلى إيران حتى ذلك الوقت . وقد تضمنت الرسالة عتاباً وتلويحا بقطع العلاقات بين البلدين ، مما جعل ملك هولندا يسارع بتكليف أحد مبعوثيه بالتوجه صوب إيران ومقابلة الشاه عباس وتطييب خاطره ، وإعلان استعداد هولندا للتعاون المشترك معه ضد البرتغاليين . وسافر المبعوث الهولندى إلى إيران ولكنه وصلها بعد وفاة الشاه عباس بشهرين ونصف تقريباً .

وعلى الرغم من أن المدة التى وفد فيها الهولنديون إلى إيران وحتى وفاة الشاه عباس عام ١٠٣٨ هـ كانت قصيرة ، إلا أنهم استطاعوا إثبات وجودهم وتدعيم موقفهم وبنوا لهم فى إيران ثلاث دور تجارية ، فى أصفهان وبندر عباس ولار ، فكانت دار تجارتهم فى أصفهان بمثابة المركز الرئيسى لشركة الهند الشرقية الهولندية بإيران ، وقد بنيت هذه الدار على مقربة من سوق القيصرية بالعاصمة . وكانت دارهم ببندر عباس تشرف على تفريغ السفن الهولندية القادمة ، وكذلك إعداد الحمولات من البضائع الإيرانية التى ستحملها هذه السفن فى طريق عودتها ، أما دارهم فى لار فكانت بمثابة مكان تستريح فيه القوافل التى تحمل البضائع الهولندية من بندر عباس إلى أصفهان (١) .

---

[١] انقراض سلسله صفويه ... ص ٤٢٥ وما بعدها

وأهم البضائع التى كانت تستوردها هولندا من إيران الحرير والسجاد، والمخمل والمسكوكات الذهبية ، أما وارداتها إلى إيران فكانت تشمل الأصواف والأوانى والعطور ، وجميع الأدوية ، ولعل هولندا كانت أكبر مورد للعطور والأدوية إلى إيران [١] .

وهكذا كانت العلاقات الإيرانية الهولندية تعتمد على النشاط التجارى دون غيره ، وقد حاول الشاه عباس استثمار هذا التعاون فى مجال السياسة ، ولكن هولندا رفضت الاستجابة لمطالب الشاه ، ومع ذلك فقد كان لوجود سفنهم بالخليج أثر عظيم فى زيادة المنافسة البحرية بين كل من الهولنديين والإنجليز والبرتغاليين فى منطقة الخليج ، مما عرض ثروات شعوب المنطقة للنهب والسلب .

---

(١) المرجع السابق ، ص : ٤٣٨ - ٤٤٠

رابعا : علاقات الشاه عباس مع روسيا

كانت هناك صلات ودية بين الشاه عباس وقياصرة روسيا ، وذلك منذ السنوات الأولى لتتويج عباس ، فقد ذكرت المصادر أن الشاه عباس أرسل فى عام ٩٩٧ هـ (١٥٨٩ م) — أى فى العام التالى لتتويجه — وفدا إيرانيا برئاسة هادى بيك وبوداق بيك إلى موسكو (١) ، وكلف هذا الوفد بطلب العون من روسيا لمساعدة إيران فى حروبها ضد العثمانيين ، وقد جاء فى رسالة الشاه عباس المرسلة إلى قيصر روسيا مايلى :

ترحب إيران بتقدم الجيش الروسى صوب باكو ودربند ، بل إنها تتمنى أن يتقدم هذا الجيش الروسى صوب آذربايجان وشروان وكرجستان ، حتى يبعد السيطرة العثمانية عن هذه المناطق . . . (٢)

ومنذ ذلك الوقت وتبادل الرسائل والرسل قائم بين السلاطين الصفوى والروسى ، وساعد على ذلك أن عدداً كبيراً من رسل الشاه عباس إلى أوربا ، كانوا يتوجهون أولا إلى موسكو ، ثم يواصلون مسيرتهم بعد ذلك صوب العواصم الأوربية المختلفة . ومـــن هؤلاء المبعوثين أنتونى شرلى وحسينعلى بيك بيات فى عام ١٠٠٧ هـ ، وروبرت شرلى فى عام ١٠١٦ هـ ، ومن المفارقات التى حدثت أثناء سفارة انتونى شرلى وحسينعلى بيك بيات ، معاملة أنتونى شرلى بازدراء بالغ فى موسكو ، بل ذكر البعض بأنهم زجوا به فى السجن فترة من الزمن ، ثم أفرج عنه بعد ذلك وسمح له بمقابلة القيصر (٣) ؛

---

[١] لغت نامه ، شماره ٧٦ ؛ ص : ٤٣

[٢] زندگانى شاه عباس اول ، جـ ٥ ، ص : ١٢٤

(٣) History of Persia, Vol. II p. 77

ويقول البعض بأن هذا التصرف كان تعبيراً عن ضيق البلاط الروسى بأن يكون المبعوث الإيرانى شخصا بريطانياً.

وإلى جانب تبادل السفراء ، كان هناك تبادل تجارى بين البلدين ، فقد كان الشاه عباس المولع بالتجارة يحاول تشجيع تجار روسيا على الوفود إلى إيران ، والمشاركة فى شراء الحرير الإيرانى . ومما ضاعف النشاط التجارى بين البلدين أن جزءاً كبيراً من البضائع الإيرانية المصدرة إلى أوربا كان يرسل عن طريق الأراضى الروسية ، والسبب فى ذلك إغلاق الدولة العثمانية للطرق الأخرى التى كانت القوافل التجارية تسلكها عبر العراق والشام قبل اندلاع الحروب الصفوية العثمانية(١).

وعندما استرد الشاه عباس آذربايجان وكرجستان وشيروان ، أصبحت أراضى الدولة الصفوية تجاور الأراضى الروسية ، فزادت الصلات الودية بين البلدين وارتفع حجم التبادل التجارى بينهما ، كما زادت العلاقات السياسية نموا وازدهارا ، وتم تبادل السفراء بين البلاطين(٢).

وهكذا كانت السمة الواضحة لهذه العلاقات الود والمجاملة ، ولكن حدث فى عام ١٠٢٧ هـ ما أتى على هذه العلاقات ظلا من الإهمال والتجاهل ، فقد حدثت فى هذا العام بعض الاضطرابات فى البلاط الروسى ، مما وضع البلاد فى ضائقة مالية ، فسارع القيصر ميخائيل رومانوف بمراسلة الشاه عباس ، وطلب منه العون المادى والمالى ، وكان يتوقع ألا يتأخر صديقه الشاه عباس فى تلبية الطلب ، ولكن رسله فوجئوا بتجاهل الشاه عباس لهذه المطالب

---

(١) سپهبد أمان الله جهانبانى : مرزهاى إيران وشوروى ، ص : ٣ طهران سنة ١٣٣٦

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٥٠ ، ٣٥١

ومماطلته فى الاستجابة لها ، مما أغضبهم ، فرجعوا خالي الوفاض إلى موسكو (١) .

ونتيجة لهذا المسلك توقفت الاتصالات الودية بين البلدين ، ولم يرد فى الأخبار بعد ذلك أن تبادلا للرسل أو الرسالات تم بين السلاطين منذ ذلك العام وحتى وفاة الشاه عباس الأول ، فى عام ١٠٣٨ هـ .

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٥ ، ص : ١٦٠ وما بعدها .

خامسا : علاقات الشاه عباس مع باقي الدول الأوربية

حرص الشاه عباس على أن يكون على علاقات طيبة مع جميع ملوك أوربا. على أمل أن يقدم له هؤلاء الملوك العون والمساعدة ضد الدولة العثمانية، وكذلك لزيادة التبادل التجارى بين إيران وجميع الدول الأوربية. فإلى جانب علاقاته بملوك كل من أسبانيا وانجلترا وهولندا وروسيا، فقد كانت هناك علاقات بين الشاه عباس وعدد آخر من ملوك أوربا، وبعض هذه العلاقات كانت تتوقف عند مستوى تبادل الرسل والرسائل التى تتحدث عن ضرورة التعاون المشترك ضد الدولة العثمانية، دون أن يبرز هذا التعاون إلى حيز الوجود، وكانت بعض العلاقات الأخرى تشمل إلى جانب ذلك تبادل البضائع بين إيران وبين بعض البلاد الأوربية.

ومن هؤلاء الملوك الذين راسلهم الشاه عباس الأول، امبراطور ألمانيا رودلف الثانى، الذى زاره من قبل الشاه عباس كل من أنتونى شرلى وحسينعلى بيك بيات ومهد يقلى بيك وروبرت شرلى، كما أرسل رودلف الثانى وفدا ألمانيا وصل إلى إيران فى عام ١٠١١ هـ (١٦٠٢م) وذلك للتأكد من رغبة الشاه عباس فى التحالف مع ملوك أوربا المسيحيين ضد الدولة العثمانية. وكان على رأس هذا الوفد الألمانى شخص يدعى كاكاش، واتفق أن وصل الوفد والشاه عباس مشغول بحروبه ضد العثمانيين فى أذربايجان، مما أخر لقاء الوفد بالشاه عباس، وفجأة تناول الوفد طعاما فاسدا أودى بحياة رئيس الوفد وثلاثة من رفاقه، وأخيراً جاء الشاه عباس من آذربايجان والتقى ببقية أعضاء الوفد الألمانى ورحب بهم، وأبدى أسفه لما ألم برفاقهم، ثم حملهم رسالة ودية إلى امبراطور ألمانيا[1].

(١) إيران در زمان صفويه، ص : ٢٤٨، ٢٤٩

ومن الملوك الذين اتصل بهم الشاه عباس كذلك ملك بولندا ، حيث تبادلا الرسائل والمنافع التجارية ، كما أرسل الشاه عباس إليه ذات مرة يستأذنه فى السماح للقوافل التى تحمل الحرير الإيرانى بعبور الأراضى البولندية فى طريقها إلى وسط أوربا ، وذلك بعد أن أغلق الطريق عبر الأراضى العثمانية (١) .

ومن الذين اتصل بهم الشاه عباس كذلك بابا روما ، وحاول عن طريقه حث ملوك أوربا المسيحيين على وحدة الكلمة والتعاون مع إيران فى القضاء على الدولة العثمانية ، كما اهتم البابا بتوطيد علاقاته بالشاه عباس تدعيما لموقف المسيحيين فى إيران ، وقد أرسل البابا عدة رسائل للشاه عباس يوصيه فيها بحسن معاملة مسيحيى إيران والسماح لهم ببناء الكنائس وإقامة الشرائع المسيحية . ومن الرسائل الهامة التى تصور لنا حرص بابا روما على تعميق هوة الخلاف بين الشاه عباس والعثمانيين تلك الرسالة التى أرسلها البابا بول الخامس مع وفد وصل إلى إيران ليهنىء الشاه عباس بانتصاره على الأوزبك ويحرضه على محاربة العثمانيين ، ومن بين ما جاء فى الرسالة ، النقاط التالية (٢) .

١ — كم يتمنى البابا إضعاف الدولة العثمانية ، وكم يأمل فى التعاون مع جميع القوى الراغبة فى تحقيق هذا الأمل ، وسيجتهد البابا فى استنفار جميع الملوك المسيحيين للاتحاد فيما بينهم ، كى يقوموا بهجمة مشتركة ضد الدولة العثمانية من الغرب ، فى حين يقوم الشاه عباس بهجمة أخرى من الشرق .

٢ — يعد البابا بإرسال المهندسين والخبراء العسكريين للعمل من أجل تقوية جيش إيران .

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٥ ص : ٢١٧ — ٢٢٥

(٢) ايران درزمان صفويه ، ص: ٢٢٠ — ٢٤١

٣ - يرغب البابا فى إنشاء سفارة فى كل أصفهان وروما للاشراف على توطيد العلاقات بين الطرفين .

٤ - يأمل البابا من شاه إيران أن يحسن معاملة مسيحيى إيران، وكذلك المسيحيين الأجانب ، وألا يعاقب من يعتنق الدين المسيحى ، وألا يجبرهم على التخلى على دينهم ، وفى مقابل ذلك يعد البابا بأن يحظى الإيرانيون وسائر المسلمين بنفس المعاملة فى البلاد المسيحية .

وحرص الشاه عباس كذلك على توطيد علاقاته الودية بحكام فينيسيا وبخاصة فى النواحى التجارية ، إذ كان تجار فينيسيا يقومون بدور كبير فى التبادل التجارى بين آسيا وأوربا ، فحرص الشاه عباس على الإفادة من خبرة هؤلاء التجار ، لذا كان يشجعهم على المجىء إلى إيران ، والمساهمة بنصيب فى رواج تجارة الحرير الإيرانى الذى كان حكرا خاصا للشاه عباس الأول[١] .

ولكن على الرغم من هذه الصلات العديدة بين الشاه عباس الأول وعدد كبير من ملوك أوربا ، فلم تكن هناك صلات من أى نوع بين الشاه عباس وملوك فرنسا[٢] .

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، ج ٥ ، ص ٢١٧ — ٣٢٥

(٢) إيران در زمان صفوية ، ص : ٩٨

تعقيب على العلاقات الايرانية الأوربية
فى عهد الشاه عباس الأول

لقد استعرضنا أهم العلاقات الإيرانية الأوربية مع التركيز على علاقات إيران بـكل من البرتغاليين والإنجليز ، وذلك للدور المباشر الذى لعبوه فى منطقة الخليج فى عصر الشاه عباس واستمر هذا الدور بعد عصره كذلك ، وأدركنا كم كان الشاه عباس حريصا كل الحرص على توثيق علاقاته بجميع ملوك أوربا على وجه التقريب ، ويمكن تلخيص الأهداف التى سعت إليها هذه العلاقات ؛ فيما يلى :

١ ـ العداء المشترك للعثمانيين .

٢ ـ زيادة التبادل التجارى بين إيران وأوروبا .

٣ ـ التبشير بالدين المسيحى فى إيران .

فإلى أى مدى تحققت هذه الأهداف ؟

من ناحية العداء المشترك للعثمانيين ، والرغبة فى عقد معاهدات دفاع مشترك بين إيران والدول الأوربية ، نجد أن الأمر اقتصر على مجرد الوعود من جانب ملوك أوربا ، دون مبادرة أحد منهم لتقديم أى عون عسكرى للشاه عباس وهو يحارب الدولة العثمانية زهاء عشرين عاما أو أكثر ، كما لوحظ أن عددا من هؤلاء الملوك كان يراسل الشاه عباس ويعده بالعون والمساعدة ، وفى نفس الوقت يعمل على تنقية الجو بينه وبين العثمانيين ، وعلى سبيل المثال نجد رودلف الثانى إمبراطور ألمانيا يرسل وفدا من قبله إلى بلاط الشاه عباس ليؤكد على ضرورة المشاركة فى محاربة الدولة العثمانية ، وبعد فترة تصل إلى إيران الأنباء بتوقيع معاهدة صلح بينه وبين السلطان العثمانى .

ولعل الشىء الوحيد الذى أفادته إيران من الأوربيين من الناحية الحربية

تلك المجهودات التى بذلها الأخوان شرلى ورفاقهما البريطانيون فى سبيل تنظيم الجيش الصفوى وإعادة تدريبه وتسليحه ، مما وفر له القدرة على مجابهة القوات العثمانية ، وإحراز العديد من الانتصار فى آذربايجان وبغداد ، ولكن هذا التعاون كان فرديا ، ولم يكن تعاونا بين حكومة إيران وأى حكومة أوربية وعدت الشاه عباس بتقديم العون العسكرى .

وأما من الناحية التجارية ، فيجب الاعتراف بأن إيران أفادت من التبادل التجارى ، حيث راجت سوق الحرير الإيرانى ، فقد أدت المنافسة بين البرتغاليين والإنجليز والهولنديين والأرمن وغيرهم إلى زيادة ثمنه ، كما نتج عن هذا الانفتاح التجارى إقامة العديد من المراكز التجارية فى إيران ، حيث أقامت كل من انجلترا وهولندا والبرتغال عدة مراكز تجارية لها فى أصفهان وشيراز وبندر عباس ، كما ساعد هذا التبادل التجارى على توفر البضائع الأجنبية بأسعار معقولة فى إيران ، وذلك نتيجة للمنافسة الشديدة بين الموردين الأوربيين .

ولكن هذا الانفتاح التجارى جعل منطقة الخليج إحدى مناطق الصراع الساخنة بين الدول الاحتكارية الأوربية التى كانت تتطلع إلى فرض سيطرتها على أسواق العالم ونهب ثرواته .

أما عن التبشير بالدين المسيحى ، فقد نجح الأوربيون فى حمل الشاه عباس على التعاطف الشديد مع مسيحيى إيران وكذلك مسيحيى أوربا الذين كانوا يفدون إلى إيران . كما جعلوه يوافق على بناء الكنائس فى أصفهان وغيرها من المدن الإيرانية ، كما أنه سمح للبعثات التبشيرية بالقدوم إلى إيران ومنحها حرية الحركة والتبشير ، وقد أدى هذا إلى إعتناق بعض الإيرانيين -ومنهم عدد من مستشارى الشاه عباس- الديانة المسيحية ، بل إنه أدى إلى اتهام

البعض للشاه عباس نفسه بالميل إلى الديانة المسيحية ، كما أدى تعاطفه مع البعثات التبشيرية ، إلى أن عرض عليه أحد القساوسة الدخول فى الدين المسيحى ، فرد عليه الشاه قائلا : لنترك هذا إلى وقت آخر !

وهناك نقطة تستلفت النظر فى علاقات الشاه عباس الخارجية ، حيث أسند مهمة تمثيله فى أوربا إلى الأخوين انتونى شرلى وروبرت شرلى ، وقد أغضب هذا عدداً كبيراً من الإيرانيين ، فدار صراع كبير بين هذين البريطانيين وبين رفاقهما من الايرانيين ، مما أدى إلى فشل مهمة انتونى شرلى وحسينعلى بيك بيات ، كما أدى أيضاً إلى فشل مهمة روبرت شرلى الثانية فى انجلترا ، عندما تشاجر معه نقد عليبيك وأدعى أن الوثائق التى يحملها مزورة ، وأنه لا يمثل إيران ولا الشاه عباس ، لذا كان الأجدى أن يسند هـــذه المهمة لإيرانيين يثق فيهم بدلا من إسنادها لأوربيين منعا لما حدث من مشاكل . وليكونوا أكثر حرصا على مصلحة إيران فى أى معاهدة يوقعونها مع أى حاكم أوربى .

وعلى هذا يمكن القول بأن الفوائد التى جنتها إيران من صلاتها بأوربا ، تمثلت فى الازدهار التجارى ، دون غيره ، أما المكاسب التى أحرزتها الدول الأوربية ؛ فقد تمثلت فى وجود الأوربيين فى منطقة الخليج كتجار أولا ، ثم مستعمرين بعد ذلك ، وتمثلت أيضاً فى صورة مبشرين ودعاة للديانة المسيحية ، ولا يخفى علينا أثر هؤلاء المبشرين فى تعميق هوة الخـــلاف بين الشيعة الإيرانيين ، وبين أهل السنة من جيران إيران فى الشرق والغرب ، وأثر ذلك على علاقات إيران بجيرانها .

وخير ما أختتم به التعقيب على علاقات الشاه عباس بملوك أوربا ، ذلك

التعليق الذى كتبه الباحث الإيرانى أحمد تاج بخش فى كتابه : « ايران درزمان صفويه » ، وقال فيه[1] :

كان أكثر سلاطين إيران وبخاصة الشاه عباس يحرصون على توثيق صلاتهم بملوك أوربا أملا فى عقد حلف يعمل ضد الامبراطورية العثمانية ، وفى كل مرة كان السفراء يسافرون إلى أوربا ، كانت إيران تقدم المزيد من التسهيلات والامتيازات للتجار الأوربيين .

وإيران فى ذلك الوقت كانت قوية ، لذا لم تكن مجبرة على إعطاء امتيازات متعددة للانجليز والهولنديين والأسبان ، أو أن تغلب المنافع الأجنبية على المنافع الوطنية ، فالمتصفح للمعاهدات التى عقدت أيام الشاه عباس يدرك كم أعطى من امتيازات للتجار الأوربيين وللأجانب عامة .

وعلى الرغم من تلك الامتيازات ، فإن ممالك أوربا لم تقدم أى مساعدة فعالة لمحاربة الدولة العثمانية ، بل كانت فى كل مرة تكتفى بالوعود دون تنفيذ لهذه الوعود ، حتى ولو كانت الدولة الأوربية هى التى اقترحت تقديم المساعدة .

وإذا دققنا النظر نجد أن المعاهدات كانت منحازة وتعمل على زيادة الرعاية للتجار المسيحيين ؛ حتى تبدو هذه المعاهدات وكأنها بين دولتين إحداهما قوية والأخرى ضعيفة !

---

(١) ايران در زمان صفويه ، ص : ٢٥٣

الفصل السادس

وفاة الشاه عباس ونظرة التاريخ إليه

— ١ —

وفاة الشاه عباس :

عاش الشاه عباس سنوات طوالا فى صراع وعراك مستمرين ، سواء كان هذا الصراع من أجل تثبيت دعائم حكمه بالداخل ، أو سواء كان العراك مع أعداء وطنه وبخاصة الأوزبك فى الشرق والعثمانيين فى الغرب، ولم يترك له هذا الصراع فرصة لكى يستريح ، فما أن ينتهى من جبهة ، حتى يندلع الصراع فى جبهة جديدة ، كل هذا أثر على صحته ، وبدأ الخور والضعف يدبان فى جسده ، فأصيب بمرض الصفراء (١) وأخذت صحته فى التدهور والذبول ، لذا فكر فى التوجه صوب منطقة أشرف بمازندران للاستشفاء والاستجمام لعله يبرأ من علته .

وقبل أن يتوجه إلى منطقة أشرف حرص على أن يختار وليا للعهد حتى لا يفاجئه الموت ولا وجود لوريث شرعى يخلفه ، مما قد يعرض الدولة للفتن والمؤامرات ، وأخيراً وقع اختياره على حفيده سام ميرزا بن صفى ميرز ا الذى اغتيل بأمر الشاه عباس نفسه ، واستطاع الشاه عباس أن يأخذ لحفيده البيعة من جميع أمراء البيت الصفوى (٢) .

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٤٣٦

(٢) تاريخ إيران ازمغول تا افشاريه ، ص ٣٣٧

بعد ذلك سافر إلى أشرف بما زندران وقضى هناك فترة من الزمن على أمل أن يبرأ من علته، ولكن المرض كان يشتد باستمرار، وظل على هذه الحال إلى أن قضى نحبه في صبيحة يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى عام ١٠٣٨ هـ[١] (والموافق التاسع من يناير عام ١٦٢٩ م)[٢].

بعد ذلك نقل جثمانه إلى منطقة كاشان ، حيث أودع خلف قبر الإمام زاده حبيب بن موسى[٣] فى منطقة پشت مشهد على مشارف كاشان ، وقيل إن ذلك كان بصفة مؤقتة ، حتى ينقل بعد ذلك إلى أحد الأماكن المقدسة ، ولكن لا يعرف على وجه اليقين ، هل نقل إلى أى مكان مقدس بعد ذلك أم ظل بمنطقة كاشان ، فقد قال البعض بأنه اتخذت الترتيبات لنقله إلى المنطقة المقدسة بمدينة قم ولكن لم يتم نقله ، وبقى فى منطقة بشت مشهد بكاشان ، ورواية أخرى تقول بأن الشاه عباس كان حريصا على أن يكون قبره غير معلوم ، لذا أعد كبار معاونيه ثلاثة توابيت ، أرسلوا أحدها إلى مشهد والثانى إلى أردبيل ، والثالث إلى النجف ، ولا يعلم إلى أى واحد فيها نقل جثمانه بعد ذلك .

ويعلق عباس إقبال على هذه الروايات بقوله : « الحقيقة أنه لا يوجد أحد مطلقا يعرف ماذا حدث لجثمان أكبر ملوك الدولة الصفوية ، وأين استقر به المطاف فى النهاية[٤] ! » .

---

(١) مجله يادگار ، سال سوم ، شماره دوم ، ص: ١٣ مقالة بعنوان : مباحث تاريخى : از ابتداى صفويه تا آخر قاجاريه : (پادشاهان ايران : هريك در كجا مدفونند)

(٢) H. F. Farmayan : The Policies and Reforms of shah Abbas I, Utah'1969, p.II.

(٣) لغت نامه ، شماره ٧٦ ، ص : ٤٣

(٤) مجله يادگار ، سال سوم ، شماره دوم ، ص : ١١

— ٢ —

الإشادة بالشاه عباس :

أشاد عدد كبير من المستشرقين والإيرانيين بالشاه عباس ، وامتدحوا العديد من أعماله ، ومن المستشرقين الذين أشادوا به سير بيرسى سايكس فقد قال :

« إن شهرة الشاه عباس لاتعتمد فقط على مقدرته العسكرية وحدها ، بل إنها قامت كذلك على عبقريته الفذة فى مجال الإدارة والحكومة .. »(١)

وقال إدوارد براون :

يتفق المؤرخون على أن مملكة إيران وصلت فى فترة حكم الشاه عباس ، إلى درجة من العظمة والعمران والشوكة لم تبلغها طوال عصورها الإسلامية.. كما أن قصة الدولة الصفوية تشبه قصة سيدنا سليمان الذى مات ، ولم تعرف الجن نبأ وفاته حتى نخرت السوس عصاه ، وسقط على الأرض ،فأدركت الجن نبأ وفاته وبدأت تتحرر من القيود التى فرضها عليها ، وهكذا أبقى اسم الشاه عباس على الدولة الصفوية بعد موته بما يقرب من مائة عام ، ذلك بفضل حسن سياسته وتعميره على الرغم من ضعف من تبعوه ، وسهولة القضاء عليهم(٢).

وقال هـ . ف فارمايان معلقا على فترة حكم الشاه عباس الأول :

عندما نستعرض تاريخ ايران إبان هذه الفترة،يعجب الإنسان أيما إعجاب

---

(١) History of Persia, Vol. II p 180

(٢) تاريخ أدبيات إيران از آغاز عهـد صفويه تا زمان حاضر ، ص ٩٩ — ١٠٦



الشاه عباس الكبير

بحكمة وجلد الشاه عباس الذى أعاد الحياة إلى دولته من الناحيتين العسكرية الإدارية ، وقد توفى هذا الإمبراطور وله من العمر ستون عاما منهيا بذلك حكما قويا راسخا استمر ثنتين وأربعين سنة ، استطاع خلالها انتشال إيران من هوة الانحطاط السياسى ، والارتفاع بها مرة أخرى حتى أصبحت أكبر قوة قادرة على أن تمثل خطورة حقيقية على الدولة العثمانية فى النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادى (الحادى عشر الهجرى) (١) .

أما إشادة أبناء وطنه وهم الإيرانيون بشخصيته وسياسته ، فتصل به إلى حد التقديس والتمجيد ، وسنكتفى بذكر آراء بعضهم وذلك على سبيل المثال لا الحصر ، فقد قال رضا قليخان هدايت :

أوصل الشاه عباس الدولة الصفوية إلى معارج الكمال ، وأعاد فتح البلاد التى انفصلت عن إيران قبل حكمه ، وفى الحقيقة كان ملكا عادلا عاقلا كريما ذا همة وسياسيا ذا كياسة ومدبرا ، وقد تمكن من إنجاز أعمال عظيمة ، وخلف اسما لامعا ، وكان عديم النظير فى نشر الشريعة (المذهب الشيعى) وفى الأخذ بيد الضعاف والمكدودين ، وكان فى العدل قرينا لكسرى الثانى (كسرى أنوشيروان). (٢)

وقال نصر الله فسلفى :

حقا لقد تجدد الاستقلال السياسى لإيران ، وعادت إليها وحدتها الوطنية بعد سقوط الدولة الساسانية بفضل هذا الملك العظيم (الشاه عباس) ، وقد سلكت إيران طريقا جديدا بفضل رجاحة عقله وحسن تدبيره فى السياستين

---

(١) The Policies and Reforms of Shah Abbes I p. 11

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٤٣٨

الداخلية والخارجية ، حيث حقق لها أساس القدرة والرفعة والشهرة فى ربوع العالم أجمع ولاشك أن هذا الوطن الواسع العامر المستقر وتلك الدولة القوية الذائعة الصيت التى أوجدها عباس لم تكن تتاح لولا استعداده الذاتى ونبوغه وحسن سياسته وتدبيره وسعة علمه ووضوح فكره ، وجسارته وشجاعته (١)

وقال رضا بازوكى :

ما أن تنازل السلطان محمد خدا بنده عن الحكم لابنه الشاه عباس الأول حتى دبت الحياة من جديد فى كيان الدولة الصفوية ، حتى يمكننا القول بأن الشاه عباس كان المؤسس الثانى الدولة الصفوية (٢) .

وفى رأيى أن الشاه عباس يستحق الإشادة به ، كما يستحق التفاف قلوب مواطنيه حوله وحول اسمه حتى اليوم ، وذلك للأسباب الآتية :

١ — بذل عباس المزيد من الجهد فى مجال السياسة الداخلية والإدارة ، فقد تسلم دفة الحكم وإيران تتهاوى أمام جبروت رؤساء طوائف القزلباش وحكام الأقاليم ، ومحاولة كل رئيس منهم الخروج على الحكومة المركزية ، فاستطاع الشاه عباس القضاء على هيبه هؤلاء الرؤساء وأعاد للحكومة المركزية هيبتها ، ولم يعد هناك قوة مسيطرة داخل إيران كلها إلا شخصية الشاه عباس وحدها ، وهكذا أعاد إلى إيران وحدتها السياسية التى مكنتها من التصدى للأخطار الخارجية وهى مرتكزة على جبهة داخلية قوية تغذى الجبهة الخارجية بكل إحتياجاتها ومقومات نجاحها .

٢ — ومن الناحية العسكرية استطاع الشاه عباس الانتصار فى العديد

(١) زندگانى شاه عباس أول ، ج ١ ، ص : يد
(٢) تاريخ ايران آز مغول تا افشاريه ، ص : ٣١١

من المعارك التى أحالت إيران من دولة مغلوبة على أمرها ، وأرضها نهبا مباحا لكل طامع فى الشرق والغرب، إلى دولة فتية تمكنت من رد الأوزبك والعثمانيين وطرد القوات البرتغالية من جزيرتى قشم وهرمز ، وهكذا أعاد للشخصية الإيرانية افتخارها وعزتها ، بعد أن عادت الراية الإيرانية ترفرف على جميع أراضى الدولة الصفوية من جديد .

ومن الناحية العسكرية أيضاً ، استطاع الشاه عباس تكوين جيش صفوى مدرب على أحدث النظم العسكرية المألوفة فى ذلك الوقت ، وزوده بأسلحة نارية حديثة ، وجعل هذا الجيش يرتبط بشخصه ويتلقى الأوامر منه مباشرة بعد أن كان الجيش الإيرانى قبل فترة حكمه ، يأتمر بأوامر رؤساء طوائف القزلباش ، ولا يستطيع الشاه الصفوى قبل عباس أن يصدر أوامره إلى الجيش إلا من خلال رؤساء الطوائف ، ولكن الشاه عباس سلب هذا الحق من جميع رؤساء الطوائف ، وجعل الجيش يتمتع برئاسة واحدة تتمثل فى شخص الشاه نفسه ، مما ساعده على تحريك الجيش فى أى اتجاه يرغبه ، وساعده هذا على تحقيق انتصارات حاسمة على أعدائه فى الداخل والخارج .

ومن الناحية العسكرية أيضاً ، اتسم الشاه عباس بالذكاء فى رسم الخطط العسكرية ، حيث امتنع عن دخول معركتين فى وقت واحد ، حتى لا يشتت قواته ومجهوداته ، فعندما هاجمته القوات العثمانية والأوزبكية فى وقت واحد بعد توليه الحكم مباشرة ، آثر عقد صلح مع العثمانيين حتى ينتهى من حروبه مع الأوزبك ، وبعد ذلك يتفرغ لمحاربة العثمانيين ، ونجح فى هذا المخطط ، واستطاع تحقيق انتصارات حاسمة على الجبهتين الأوزبكية والعثمانية كل على حدة .

ويبدو ذكاؤه الحربى كذلك فى استخدامه أسلوب الإخلاء والتهجير

إذا ماواجه عدوا تفوق قواته قوات الجيش الصفوى عددا وعدة ، إذ كان يترك الطبيعة القاسية تحارب العدو بدلا من الجيش الصفوى ، وبعد أن تكون الطبيعة قد أنهكت العدو ، فإن جيشه يستطيع بأقل مجهود أن يحقق الانتصار عليه ، وقد استخدم الشاه عباس هذه الطريقة بكفاءة فى أكثر من موقعة فى آذربايجان أثناء معاركه العديدة مع الجيوش العثمانية .

ومما يثبت ذكاءه الحربى كذلك ، تحريكه الجيوش من أصفهان حتى قزوين . وهى لاتعرف الوجهة الحقيقية التى تقصدها ، وقد أفادته هذه السرية والكتمان فى مفاجأة القوات العثمانية فى تبريز دون أن يكون لديها علم مسبق بوصوله ، مما ضمن له الانتصار عليها وتحرير تبريز .

ومن مظاهر ذكائه الحربى كذلك ، اتباعه طريقة الكماشة فى العديد من معارك آذربايجان مع العثمانيين ، وأشهرها تلك المعارك التى استطاع فيها جيشه التغلب على الجيش العثمانى وانتحار قائده جغال أوغلى بعد ذلك .

٣ — نجح الشاه عباس عن طريق إيجاد منافسة تجارية بين الدول الأوربية فى رفع أسعار الحرير الإيرانى الذى كانت جميع البلاد الأوربية تتكالب على شرائه ، وبذلك تخلص من احتكار البرتغاليين لهذا المحصول الإيرانى الهام ، وحقق من وراء ذلك أموالا وأرباحا طائلة أفادته فى تعمير إيران ، وبناء جيش قوى .

٤ — يحمد للشاه عباس اهتمامه بالعمران والتشييد ، فعلى الرغم من حروبه العديدة فى كل الجبهات إلا أنه اهتم بإقامة العديد من المبانى الفخمة التى تعتز بها إيران الحديثة ، وتحرص على أن يؤمها السائحون ، إذ أن معظم هذه المبانى مازال قائما فى عاصمته أصفهان ، حيث بذل الكثير من الجهد

والمال حتى أحالها إلى مدينة غاية فى الجمال والتنسيق ، استحقت أن يطلق عليها فى ذلك الوقت : « أصفهان نصف الدنيا » .

. . .

— ٣ —

مآخذ على سياسية الشاه عباس :

على الرغم من الأعمال الجيدة التى اقترنت باسم الشاه عباس الأول ، ورفعت اسمه ومكانة وطنه ، فقد ارتكب عدة أخطاء استحق من جرائها لوم المؤرخين ؛ فقد قال ادوارد براون الإنجليزى :

مع أن الشاه عباس زاد من مهابة السلطنة ، إلا أنه دفع الأمة فى النهاية إلى هاوية الضعف ، وأدى إلى انحطاط أخلاق الحكام ، فقد كان الملوك السابقون يطلبون العون من أقوامهم وأقاربهم ، ويحيطون أنفسهم برؤساء الطوائف القوية ، ولكن الشاه عباس اعتمد على نفسه دون غيره ، وبدلا من أن يعين أولاده فى المناصب الإدارية العليا ، ويشركهم معه فى حروبه ، فإننا نجده إما حرمهم من حلية الإبصار ، أوجعلهم حبيسى جدران أربعة ، وهكذا تركهم — كما يقول كرونسكى — يقاسون الشدة والمشقة والحرمان ، ولم يعطهم الفرصة لكى يتمتعوا بمباهج السلطنة ، فنشأوا ناقصى الإعداد والتربية ، وجعلهم تحت إمرة رجال البلاط حتى أصبح رجال البلاط هم أصحاب الكلمة الأولى فى الدولة بعد ذلك[1] .

وقال المستشرق الفرنسى شاردان الذى زار إيران بعد وفاة الشاه عباس

---

(١) تاريخ ادبيات إيران آز اغاز عهد صفوية تازمان حاضر ، ص : ١١٤

الأول بحوالى نصف قرن : مما لاشك فيه أن عباس الكبير عمل على توفير الرخاء والتعمير لإيران ، ولكن على الرغم من كل مافعله لسيادة وطنه وجلاله، فإنه بذر بذور المصائب فى أرض إيران كذلك(١) .

ويوضح لورانس لكهارت الهولندى هذا الرأى ؛ فيقول :

على الرغم من الخدمات الجليلة التى قدمها عباس الكبير لوطنه ، إلا أنه مسئول عن سبب هام من أسباب انحطاط وزوال أسرته ، فإن الشاه عباس بسبب الخوف من أبنائه وبسبب الحقد عليهم ، ابتدع سنة سيئة وضارة ، وهذه السنة تتلخص فى تحديد إقامة ولى العهد داخل الحريم . . . وأنى لولى العهد أن يستقل بتصريف الأمور عندما يتولى السلطنة وهو عديم التجربة ، ولو نظرنا بعين فاحصة إلى فترات حكم خلفاء الشاه عباس لوضح تماما أن تربية كهذه قد أثرت تأثيرا سيئا وشؤما على الأمراء ، وبخاصة من الناحية الأخلاقية(٢) .

ولخص سرجان ملكم مضار هذه التربية فى العبارة المقتضبة التالية :

« لايمكن أن يتوقع من سلطان لم يسمح له بالخروج من هذا السجن (الحريم) إلا وقت جلوسه على كرسى العرش ، أن يتصرف كالرجال ذوى الكفاية ، بل سيعمد إلى السلطنة المطلقة ، ويكون خضوعه لحكم الهوى نتيجة حتمية لحرمانه السابق وانعدام التجربة عنده(٣) » .

ومن المآخذ التى سجلها أحمد تاج بخش على الشاه عباس ، عقده معاهدات مجحفة لإيران مع ملوك أوربا ، وقال فى نهاية تعليقه على هذه المعاهدات :

---

(١) نقلا عن انقراض سلسلة صفويه ، ص : ١٩

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩ — ٣٠

(٣) سرجان ملكم : تاريخ إيران ، جـ ١ ص : ٢٥٥٦ ٥٥٧ ، وذلك نقلا عن المرجع السابق ص : ٣٠

إذا دققنا النظر نجد أن المعاهدات كانت منحازة وتعمل على زيادة الرعاية للتجار المسيحيين ، حتى تبدو هذه المعاهدات ، وكأنها بين دولتين إحداهما قوية والأخرى ضعيفة(١) .

وإلى جانب هذه المآخذ التي سجلت على الشاه ، يمكننا أن نضيف ما يلي :

١ — كان الشاه عباس في أحايين كثيرة ظالما مستبدا بلا سبب مقنع إلا الرغبة في سفك الدماء والبطش ، فكان يأمر أحيانا وهو في مجلس الشراب بأن يقتل فلان ، فينفذ فيه حكم الإعدام بلا مناقشة ، حتى أصبح ندماؤه يخشون الجلوس معه خوفا من أن يأمر بقتل أحدهم دون جريرة أو ذنب . كما كان يبادر بقتل أبناء من يقتلهم ، وكذلك من يعيشون في كنفهم حتى لا يبقى منهم أحد قد يثأر منه في المستقبل ، فعندما قتل مرشد قليخان ، أمر بقتل جميع أبنائه وأخوته وصادر أموالهم ، ونكل بهم جميعا دون ذنب اقترفوه أو جريمة ارتكبوها ، إلا قرابتهم لمرشد قليخان .

ومن مظاهر قسوته إصداره الأوامر للأبناء بقتل آبائهم ، أو للآباء بقتل أولادهم ، وما فعله مع الأكراد دليل واضح على قسوته وجبروته ، حيث نكل بهم في كردستان ، ثم أمر بنقل عدة آلاف منهم للعيش في خراسان ، على الرغم مما سيقاسونه من الإحساس بالغربة والتشرد .

إلى غير ذلك من مظاهر القسوة التي اتسمت بها أخلاق عباس ، مما جعل الملك الهندي أكبر ينفر من قسوته ، فأرسل ينصحه بالكف عن مثل هذه المآسي .

---

(١) ايران در زمان صفويه ، ص : ٢٥٣ ، وقد أوردت التعليق كاملا ص ٤٣١ من هذا الكتاب .

٢ — كان الشاه عباس لاينظر إلى المستقبل وهو يتعامل مع الأوربيين الذين وفدوا إلى منطقة الخليج ، فقد شجع كلا من الإنجليز والهولنديين على المجيء إلى منطقة الخليج والمشاركة فى النشاط التجارى فى هذه المنطقة، وليناقسوا البرتغاليين الذين فرضوا سلطانهم على المنطقة أكثر من قرن من الزمان، وبذلك أدخل الشاه عباس منطقة الخليج العربى فى دائرة الصراع الاحتكارى والاستعمارى بين الدول الأوربية المتنافسة على بسط سيطرتها على ربوع العالم ونهب ثرواته ، وقد تأثرت إيران نفسها بعد ذلك بخطر وجود هذه القوى الاحتكارية والاستعمارية التى جاءت إلى المنطقة بتشجيع من الشاه عباس .

٣ — على الرغم من اهتمام الشاه عباس بالنواحى العسكرية ، وتسليحه جيشه بأسلحة نارية حديثة مكنته من مجابهة القوات العثمانية والانتصار عليها ، إلا أنه أهمل تكوين قوة بحرية إيرانية تلعب دورا مهما فى بحر قزوين والخليج العربى ، وأمام هذا العجز لجأ الشاه عباس إلى البحريتين الانجليزية والهولندية لتخلصاه من القوات البرتغالية المتمركزة فى هرمز . ولو اهتم الشاه عباس بتكوين أسطول إيرانى مستقل ، لما أصبح فى حاجة لمساعدة من البحرية الإنجليزية ولمـــا عانت المنطقة من ويلات الاستعمار البريطانى بعد ذلك .

٤ — على الرغم من حرص الشاه عباس الشديد على الانفراد بالحكم إلا أنه كان يؤمن إيمانا جازما بأقوال منجمه جلال الدين محمد يزدى الذى التحق بخدمته منذ عام ٩٩٤ وحتى عام ١٠٢٩ هـ، فكان الشاه يستشيره فى كل صغيرة أو كبيرة ، ولا يقدم على أى شيء لا يتفق ورؤية هذا المنجم ، ولا يغيب عن بالنا قصة تنازل الشاه عن العرش لمدة ثلاثة أيام لأحد أتباع المذهب النقطوى، عندما رأى الشاه رؤية مؤداها أن عظيما إيرانيا سيموت بعد ثلاثة أيام ،

وظن أنه المقصود بهذا العظيم ، فأشار عليه المنجم بتخليه عن الحكم لهذا النقطوى ، ثم ينفذ فيه حكم الأعدام بعد ثلاثة أيام [١] .

٥ — عداؤه الشديد للدولة العثمانية جعله يقدم على أفعال كثيرة تتجافى والعقيدة الإسلامية ، وقد ارتكب هذه الأفعال الجافية إرضاء لمسيحيي أوربا الذين كان يلهث وراء التقرب منهم ، على أمل أن يساعدوه ضد العثمانيين ، ومن هذه الأعمال المستهجنة ، مشاركته إياهم الاحتفال بأحد أعيادهم ، وشربه الخمر فى نهار رمضان ، ثم أمره لجميع رجاله باحتساء الخمر وهم صائمون ، فيضطرون للإفطار على محرم خوفا من سطوته ، ثم أتبع كل ذلك بحديث وجهه لأحد قساوستهم ، قال فيه :

« عندما تذهب إلى روما ، وتمثل أمام البابا ، أخبره كيف شربت الخمر فى نهار رمضان ، وأن ذلك كان فى محضر القاضى والمفتى ، وكيف جعلت الجميع يشربون ، وقل له إنه على الرغم من أننى لست مسيحيا ، فإننى جدير بالتقدير والاحترام [٢] ! ! »

ونتيجة لتعاطفه الشديد مع المسيحيين ، طلبت منه الكنيسة الكاثوليكية السماح لقساوستها بإعادة المسيحيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامى إلى الدين المسيحى مرة أخرى ، فقبل الشاه عباس هذا الطلب ، وعلى سبيل المثال ماحدث مع أحد غلمانه ويدعى (الكساندر) ، فقد استطاعت الجماعات التبشيرية إعادته إلى الدين المسيحى بعد أن كان قد أعلن إسلامه من قبل [٣] .

فكيف يقبل الشاه عباس هذا الطلب ، ولم يطالب هو الآخر ملك أسبانيا

---

(١) راجع القصة هامش ص : ٢٤٧ ، من هذا الكتاب

(٢) زندگانى شاه عباس اول ج ٢ ، ص ٢٦٤

(٣) المرجع السابق ج ٣ ، ص ٨١ — ٨٤

بإعادة دون جوان ورفاقه الذين اعتنقوا الدين المسيحى إلى الدين الإسلامى مرة أخرى ، ولا يخفى علينا أن تعاطف الشاه عباس مع المبشرين كان العامل المؤثر فى اعتناق بعض رجال البلاط الإيرانى للدين المسيحى .

وقد كان عباس حريصا كل الحرص على التعاطف مع المبشرين ، ولكنهم كانوا يضمرون له السوء ، ففى أثناء استعداد القوات الإيرانية والإنجليزية لمهاجمة جزيرة هرمز ، أرسل قساوسة فرقة القديس أغوستين الموجودين بأصفهان إلى البرتغاليين فى هرمز، يؤازرونهم ويوصونهم بضرورة محاربة الشاه عباس والانتصار عليه[1] .

ومن الأقوال التى قال الشاه عباس، وتجافى الروح الإسلامية ،ولا يقبل أن يقولها أى مسلم مهما كان على خلاف مذهبى مع بعض أعدائه هذه العبارة التى قالها لأنتونيو دى جوفيا المبعوث الأسبانى ، وهو يحضه على محاربة العثمانيين : « كم أتمنى أن أرى فى أقصر وقت ممكن جميع مساجد الأتراك وقد تحولت إلى كنائس ، وكلى أمل أن أرى سقوط الخلافة العثمانية وخرابها[2] !

ولاشك أن هذا التعصب الدينى الشديد كان ذا آثار ضارة على المسلمين عامة سواء أكانوا من أهل السنة أو من الشيعة .

• • •

وهكذا كانت شخصية الشاه عباس مزيجا من القوة والقسوة ، كما كانت أعماله مزيجا من الانتصارات والتردى فى بعض الأخطاء ، ولكن على

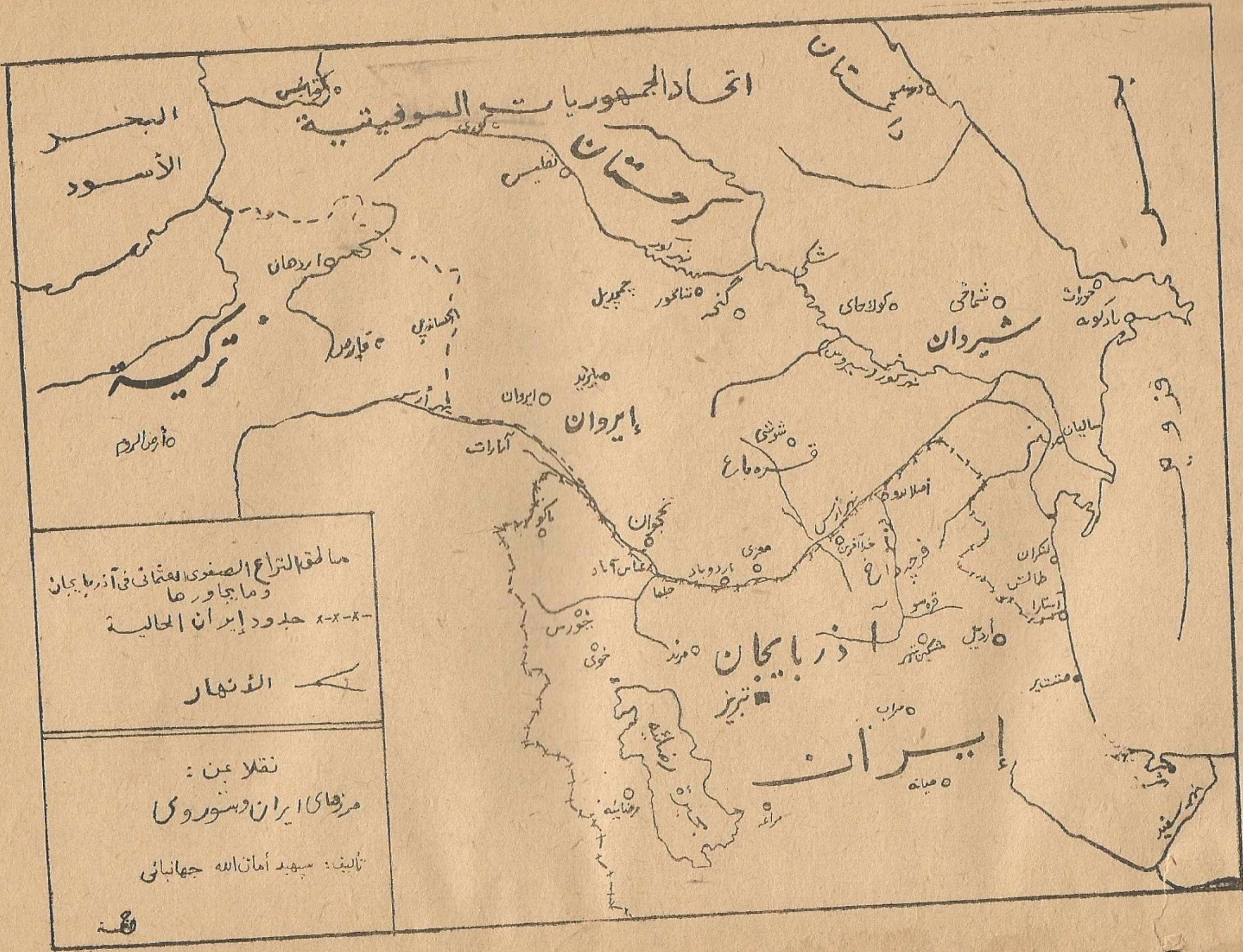
---

(١) زندگانى شاه عباس ج ٤ ، ص ٢١٢

(٢) المرجع السابق ص : ١٥

الرغم من هذه الأخطاء والمآخذ التى سجلت عليه ، فإن الإيرانيين – حتى اليوم – يكبرونه ، ويعتبرونه بطلا قوميا استطاع أن يرفع من شأن وطنه ، ويجسد آمال الإيرانيين ويحقق أهدافهم ، وبخاصة فى الانتصار على أعدى أعدائهم وأعداء المذهب الشيعى وهم العثمانيون .

. . .



اتحاد الجمهوريات السوفيتية
البحر الأسود
تركية
كرجستان
شيروان
إيروان
آذربايجان
إيران
قره باغ
تفليس
تبريز
ايروان
نخجوان
شماخي
كوك چاي
گنجه
اردبيل
خوي
مرند
سالیان
لنكران
أرضروم
ما لحق النزاع الصفوي العثماني في آذربايجان وما يجاورها
-x-x-x- حدود إيران الحالية
الأنهار
نقلا عن :
مرزهاى ايران وشوروى
تأليف : سپهبد أمان الله جهانبانى